مشروع الإمبراطورية الأمريكية

http://www.almaktabeh.com

جيمس كارول

الحرب الصليبية

تواريخ حرب ظالمة

ترجمة: د. قاسم عبده قاسم

الجزء الأول

مكتبة الشروق الدولية

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

الحرب الصليبية

تواريخ حرب ظالمة

(الجزء الأول)

الطبعـــة الأولى

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الحرب الصليبية

تواريخ حرب ظالمة

الجزء الأول

جيمس كارول

ترجمة: د. قاسم عبده قاسم

مكتبة الشروق الدولية

هذه ترجمة لكتاب:

CRUSADE

Chronicles of an Unjust War

James Carroll

Metropolitan Books
Henry Holt And Company / New York

Copyright @ 2004 by James Carroll
All rights reserved

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

مقدمة

ماذا تفعل أمريكا فى العراق؟

قبل بداية الغزو، قال الرئيس الأمريكى: إن صدام حسين خطر على المنطقة وعلى الدول المجاورة [(١)] - ولكن فى نظر الشعب الأمريكى لا يُعد هذا مبررًا كافيًا للغزو. فسرعانًا ما غيّر الرئيس ذلك إلى الزعم بأن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل [(٢)]، ثم ثبت كذب وزيف الأدلة التى قدمتها حكومة واشنطن لشعبها وللأمم المتحدة.

تغيّر سبب الغزو إلى علاقة صدام بالقاعدة، وأيضًا أثبتت لجنة تحقيق أمريكية كذب وزيف ذلك.

فلماذا غزت أمريكا العراق؟ ولماذا تبقى فيه؟ بل ولماذا لا تدفع - هى وبريطانيا - تعويضات لما ألحقته بالشعب العراقى خلال حصاره عشر سنوات، وأثناء العدوان عليه؟ - كما تدفع ألمانيا لإسرائيل تعويضات عما فعله النازى فى يهود ألمانيا فى أربعينيات القرن الماضى؟

سقط نظام صدام حسين - حليف أمريكا القديم - وأسرته القوات الأمريكية.

والآن ماذا تفعل أمريكا بعد كل ذلك فى العراق؟

جاء الزعم الأخير، والذى لا يصدقه تلميذ فى المدرسة الثانوية... أمريكا تريد بناء ديمقراطية فى العراق.

---

(١) لم نسمع فى العالم العربى اعتراضًا من حكوماته على ذلك، ولا بالطبع الرد الذى كان يمكن أن تقوله الحكومات، وهو أن إسرائيل هى الخطر الحقيقى - وهذا ما قالته شعوب أوروبا فى استطلاعات الرأى - وأنها هى التى تملك السلاح النووى، وأنها تحتل أراضى ثلاث دول عربية، وأنها انتهكت عشرات القرارات الصادرة من الأمم المتحدة.

(٢) ترددت أقاويل كثيرة فى أمريكا أن مخابرات الدول العربية المجاورة هى التى أكدت ذلك لواشنطن.

الكل فى الشرق الأوسط يعلم علم اليقين أن أمريكا تؤيد الحكومات المستبدة الفاسدة فى الشرق الأوسط، طالما قامت تلك الحكومات بخدمة الإدارة الأمريكية.

أوليست الديمقراطية حركة شعبية؟ أم هى إرادة خارجية؟

وأين تلك الديمقراطية، وعملية تزييف إرادة الشعب العراقى تحدث على مرأى ومسمع من كل دول العالم . . .

فها هى حكومة الولايات المتحدة متلبسة أمام العالم أجمع بتزوير إرادة الشعب العراقى فيما تسميه بلا خجل: انتخابات حرة [١].

يرأس الوزارة فى العراق أياد علاوى . . . وهو عميل سابق لصدام حسين والمخابرات العراقية، حتى ثمانينيات القرن الماضى. فانقلب على صدام بعد طول خدمة.

ترك علاوى العراق منذ حوالى ثلاثين سنة، وعاش فى انجلترا ثم أمريكا . . . تقلب فى تلك السنوات من المخابرات العراقية إلى المخابرات البريطانية، ثم الأمريكية . . . وعندما سُئل عن ذلك فى أحد المؤتمرات، ردّ قائلاً فى فخر وتباه: بل لى علاقة بأجهزة مخابرات ست عشرة دولة . . .

فى إحدى زياراته للولايات المتحدة فى آخر العام الماضى، ألقى كلمة فى الكونجرس يشكر فيها الولايات المتحدة على تضحياتها من أجل العراق . . . وقال بالحرف الواحد: لأول مرة فى تاريخ الشعب العراقى (أكثر من خمسة آلاف سنة) يصبح أمره فى يده! صفق له أعضاء الكونجرس عدة مرات، ووقفوا تحية له عدة مرات، وصافحوه بحرارة بعد كلمته، حتى إن چوزيف ليبرمان قبله ثلاث مرات، ربما على الطريقة العربية . . . وهكذا تكرم الحكومة الأمريكية كل من يخدمها.

ومنذ عدة أسابيع، ناشد الرئيس العراقى غازى الياور الأمم المتحدة لتأجيل الانتخابات، ولكن الإدارة الأمريكية رفضت وأصرت على أن تقام فى ميعادها. ألم يقل علاوى: إنه لأول مرة تصبح أمور الشعب العراقى فى يده؟

(١) راجع التحقيق الذى نشرته الأهرام لـ «مها النحاس» الصفحة السادسة، عدد ٢٣ يناير ٢٠٠٥م، والحوار الذى أجراه محمد الأنور مع حارث الضارى فى الصفحة السادسة عدد ٢٤ يناير ٢٠٠٥م.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ندد وزير الدفاع العراقى بالدول المجاورة بسبب تدخلها فى أمور العراق - يبدو أنه لا يرى القوات الأمريكية والبريطانية داخل العراق، أو لعله يظن أنهم عراقيون - بل ويهدد الوزير بأن العراق قد يضطر لأن يهاجم تلك الدول - ونسى أن القوات الأمريكية تقتل المقاومة العراقية؛ لأن الجيش والشرطة العراقية - الصناعة الأمريكية - أضعف من تلك المقاومة - فكأنه يهدد بأن يسلط الجيش الأمريكى على الدول المجاورة . . . . أو أنه قيل له قل ذلك، فقاله الرجل، بكل انضباط والتزام (١) .

الإدارة الأمريكية تكرر فى العراق لعبتها القديمة فى أمريكا اللاتينية على مدار قرن كامل . . . تأتى بحكومة واجهة، ألعوبة فى أيديها، تنفذ لها خططها . . . فى الدولة، والدول المجاورة .

الشعب الأمريكى منقسم على إدارته . . . نصف الشعب إن لم يكن أكثر، لا يريد ذلك العدوان والغزو واستمراره . . . حصل بوش على ٥١٪ من الأصوات؛ لأنه أفلح فى ترويع الشعب الأمريكى من الإرهاب، وأنه وحده يستطيع القضاء عليه وتأمين الشعب . . . ولأنه أكد على أهمية القيم الأمريكية فى مقابل كيرى الذي يؤيد زواج الشواذ والإجهاض، وما إلى ذلك من قضايا الليبرالية .

هناك بالطبع نسبة من تلك الأصوات لها أجندتها الخاصة التى تؤيد ذلك العدوان والاحتلال بصرف النظر عن الإرهاب - والذى ثبت أن العراق ليس له أى علاقة به - من الإمبرياليين واليمين المسيحى الصهيونى، واليهود الصهاينة، ولكنها لا تمثل إلا جزءاً من الـ ٥١٪ التى حصل عليها بوش .

وفى هذا الكتاب، يعارض جيمس كارول الحرب الصليبية على العراق، وهو يراها - بصفته كاثوليكيًا يعرف تاريخ الحروب الصليبية - حربًا صليبية، فعلاً وليست فقط قولاً أو زلة لسان، ويراها إرهابًا، إرهابًا خالصًا، وسجل ذلك فى يومياته فى جريدة بوسطن جلوب .

---

(١) حول وزير الدفاع خمسمائة مليون دولار إلى مصرفين فى لبنان، بدون علم محافظ البنك المركزى، ولا وزراء الحكومة المؤقتة .

هناك المئات من الكتّاب والمفكرين فى الولايات المتحدة، الذين يعارضون سياسة الإدارة الأمريكية فى الشرق الأوسط . . . ومن وراءهم ملايين القراء والمستمعين والمشاهدين، يحبون وطنهم، الولايات المتحدة، و يريدون أن يكون له دور إنسانى فى قيادة العالم . . . بالعدل والتسامح، وتبادل المصالح والأفكار والقيم . . .

يتزايد هؤلاء الكتاب والمفكرون . . . ويتزايد من يقرأ لهم ويشاهدهم ويستمع لهم . . . .

ولقد خرجت، وما تزال تخرج، فى الولايات المتحدة مظاهرات ضد تلك الحرب الإرهابية البربرية، أكثر مما خرج من كل شعوب البلاد العربية . . . التى همّشتها أنظمتها (الديمقراطية) وجمدتها وأحبطتها، فأصبحت لا تشارك فى بناء مستقبلها ولا حاضرها . . فهى إما أن تنافق وتنتهز . . . أو تُضار وتُستبعد . . فآثرت الصمت والسلامة . . . وعزلت نفسها عن كل الشئون والأمور العامة . . . وانعزل كل فرد فى خصوصياته وكأنه لامصلحة عامة، ولا كيان عام يجمعهم، ولا أمة . . وحتى هاجر من تلك الشعوب الكثير من العقول والعبقريات ـ التى كانت بلادها فى أشد الحاجة لها ـ لتبنى الولايات المتحدة وغيرها من بلاد المهجر .

ولـ« جيمس كارول» . . . ولكل هؤلاء المفكرين والكتاب الذين يدينون تلك الغزوة الإرهابية . . . ولكل من خرج فى مظاهرات ضدها . . . فى الولايات المتحدة . . وخارجها . . . . وخاصة أولئك الذين يريدون للولايات المتحدة والغرب وجهًا مسيحيًا حقيقيًا . . . يقوم على السلام والمحبة، لا الكراهية والاستكبار والعنصرية . . . وينبذ العنف والدم، ويزهد فى المادة، ولا يقتل فى سبيلها . . . لكل هؤلاء، خالص تقديرنا واحترامنا، بل وحبنا . .

عادل المعلم

يناير ٢٠٠٥م

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

تقديم

عندما غربت شمس الألفية ، كان العالم يتعرض لأمور مرعبة ، إذ إن غالبية القلق «العقلاني» كان مشدود الوثاق إلى خلل متوقع من الكمبيوتر ، هو مشكلة Y2K ، بل إن أشد الناس ميلاً للعلم بَدَوْا مؤقتا ، وكأنهم تحت رحمة قوى خرافية متسلطة ؛ إذ قفزت الغيلان الخيالية من الكمبيوتر لتظهر فى الكوابيس مباشرة . فقد ألغت الخطوط الجوية الرحلات التى كانت مجدولة لليوم الأول من السنة الجديدة ، لتكشف بذلك عن المخاوف من ألا تعمل أجهزة الكمبيوتر الخاصة بنظام التحكم فى حركة المرور . ولم يكن التقويم بحد ذاته مصدراً للهلع من قبل ، ولكن على حين غرة ، كان الزمن بحد ذاته يحمل خطراً جديداً . فعندما اقتربت سنة ٢٠٠٠م ، اشتريت زجاجات مياه وعدداً إضافيًا من علب التونة . بل إننى سحبت مبلغًا كبيراً من النقود من البنك . وقد سخر منى الأصدقاء ، ثم اعترفوا بأنهم فعلوا أشياء مشابهة . لم تكن هناك رقصات موت ، أو اندلاع لعبادات متطرفة ، ولكنها كانت حمى ألفية جديرة بخرافات العصور الوسطى ، أصابت بعدواها أكثر الثقافات علمانية . وبطبيعة الحال ، جاء التاريخ الغامض ومضى ، وأبلت أجهزة الكمبيوتر بلاء حسنًا وحلقت الطائرات فى الجو ، وعاد العالم إلى طبيعته .

ثم جاء الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م ، الكارثة الألفية - متأخراً قليلاً ، إذ سقطت الطائرات من السماء ومات الآلاف ، وأمسك نوع جديد تمامًا من الرعب بقبضته الخيال البشرى . وكذلك أدى الزمان دوره ، ولكن الزمان كما نسجه التليفزيون ، الذى خلق تزامنًا وقتيًا على اتساع الكون ، حول الجنس البشرى كله إلى

شاهد، عندما أعيد عرض الأحداث الفظيعة مرات ومرات، كما لو أن تلك الأجساد التى قفزت من البرجين التوءمين لن ترتطم بالأرض على الإطلاق. ولم يكن انهيار مركز نيويورك للتجارة العالمية قاصراً على الشوارع المحيطة فقط، ولكن الانهيار حدث فى قلب كل من شاهد الـ CNN. واتصل مئات الملايين من الناس بشكل غريزى بأولئك الذين أحبوهم وهم يشعرون بالامتنان لأنهم على قيد الحياة. لقد تجلى الموت بطريقة جديدة. ولكن إذا كانت جموع غفيرة قد عانت تجربة الأحداث المرعبة للحادى عشر من سبتمبر كما يعانيها رجل واحد، فإن رئيس الولايات المتحدة تحمل مسئولية فريدة لإيجاد طريقة يرد بها على ما حدث.

لقد غاص چورج دبليو بوش فى أعمق أعماقه بحثًا عن تعبير بسيط لما تحتم فعله هجمات الحادى عشر من سبتمبر. لقد كان دوره أن يقود الأمة، والعالم نفسه. ويحدد الرئيس فى لحظة أزمة الاستجابة الجماعية. فبعد أيام قليلة من الهجوم، قام چورج دبليو بوش بهذا. فقد تكلم بعفوية، دون مساعدة من مستشاريه أو كاتبى خطبه؛ ليضع كلمة على الهدف الأمريكى الجديد، وهى كلمة شكلت هذا الهدف كما أعطته معناها فى آن؛ إذ قال: هذه «الحملة الصليبية» «هذه الحرب ضد الإرهاب».

الحملة الصليبية. أتذكر أنه انتابنى للحظة شعور بالدوار عند استخدام الرئيس تلك الكلمة، الحماقة الغاضبة التى تحملها، وزال الدوار، وكان ما شعرت به آنذاك هو الخوف، لأننى لم أحس بالحماقة وإنما الدقة. لقد ذهبت أفكارى إلى المراوغ أسامة بن لادن، ترى ما مدى ما غمره من السرور، لأن بوش يقرأ من كتابه بالفعل (أى يردد نفس كلامه). إننى من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ولدى إحساس بالتاريخ، وبالتالى شعور قوى بالأسف، تجاه ما وقع من أخطاء فى تراثى الخاص عندما تم شن الحملات الصليبية فى القرون الوسطى. فعلى العكس من خيالات صبية المدارس، وفانتازيات هوليوود، والحنين إلى الفروسية والنبل، فإن الحملات الصليبية كانت مجموعة من الجرائم فى تاريخ العالم. وأنا أسمع الكلمة بأذن ثالثة، منتبهة إلى مخاطرها. فقد استحوذ استخدام بوش كلمة «الحملة الصليبية»، على كامل انتباهى، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً وجدت نفسى شاهداً غير سعيد للغرق البطىء للقيم الأمريكية، والذى جرى على مدى السنوات الثلاث الماضية. فقد كنت على مدى فترة

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

طويلة كاتبًا لمقالات عن شريحة من الحياة، وكان موضوعى هو المشهد الذى يمر أمامى، ولكن ما أن أطلق چورچ بوش حملته الصليبية، حتى صار هذا هو موضوعى الوحيد. ومر أسبوع يتلوه آخر، ولم أكتب شيئًا آخر على الرغم منى فى عمودى بجريدة Boston Globe. وهذا هو سجل ما شهدته، وأنا أقدمه هنا لكى أضع علامة على التحول الخارق للعادة فى المعنى الأمريكى والهدف الأمريكى الذى أعنيه.

وتخفت الذاكرة وتخبو، ويلتف الماضى إلى الأبد فى مناقشات الحاضر. ولكن القراءة الدقيقة لما حدث حقًا عندما استغل بوش ودائرته أزمة ما بعد الألفية فى محاولة لتحويل السياسات والثقافة، يمكن أن توضح لماذا لا يجب أن يستكمل هذا التحويل. كيف استغل بوش جريمة لكى يبرر شن الحرب؟ كيف انحرف بفشل - فى القبض على بن لادن - إلى فشل آخر - هو جلب «النظام» إلى أفغانستان. كيف أعلن النصر فى العراق، على حين كانت هزيمة بطيئة طاحنة تبدأ لتوها؟ كيف أن الطموحات الهوائية لزمرة المحافظين الجدد قد تأججت بمزيج من الحماسة البدائية، والتشرذم القبلى، والعناد الساذج للكائنات البشرية التى ترفض أن يقول لها أحد ما ينبغى أن تفكر فيه أو تحس به؟ وكيف أن التوقعات بأن الأمم الأخرى - بما فى ذلك الأمم التى كانت ذات مرة من أوثق الحلفاء - لن يكون أمامها خيار سوى إطاعة واشنطن الإمبراطورية، قد برهنت على أنها كانت محض أوهام؟ وكيف مضت حروب الشرق الأوسط من سيئ إلى أسوأ؟ وكيف برهن چورچ دبليو بوش على أنه قمة الدمار الشامل. كيف كذب علينا؟ كيف خان الشباب من الرجال والنساء الذين أرسلهم برعونة فى طريق الأذى.

كان والد چورچ دبليو بوش قد أعلن فى ١١ سبتمبر ١٩٩٠م عن «نظام عالمى جديد» وبعد إحدى عشرة سنة من ذلك اليوم، انطلق الابن فى حملته الصليبية لكى يجعل هذا النظام نظامه هو. وجاء الخراب فى أعقاب الخراب، وهذه هى تاريخيته.

* * *

بالنسبة لچورچ دبليو بوش كانت الحملة الصليبية مرجعية فظة مرتجلة. ولكن أقوى ما فى هذا، أنها كانت اختبارًا بالمصادفة لمعنى غير مقصود على الرغم من أنه حقيقى. وكون أن الرئيس استخدم الكلمة بدون انتباه يشى بكيفية تعبيرها عن حقيقته الدقيقة،

وكشف القناع عن الغرض الذى كان يحس به فى أعماقه. لقد قال الحملة الصليبية. وفيما بعد اقترح مساعدوه المرتبكون أن قصده كان استخدام الكلمة مرادفًا لكلمة الصراع، ولكن تركيب كلام بوش نفسه يكذب هذا. فقد «حدد الحملة الصليبية بأنها حرب»، لقد قال بالضبط ما كان يعنيه.

لقد كان مفهومًا بالفعل أن أسامة بن لادن كان يحاول أن يشعل شرارة «صدام بين الحضارات» ليضع الغرب ضد دار الإسلام بأكملها. وبعد ١١ـ٩ أصرت الأصوات القلقة على كلا الجانبين على أن مثل هذا الصدام ليس حتميًا. بيد أن الحملة الصليبية قرينة للجهاد، ومثل هذه الكلمات لا تهدد بما هو أقل من صراع رؤيوى[1] ينهى الوجود البشرى بين الثقافات التى لا يمكن المصالحة بينها. والحقيقة أن إشارة الرئيس إلى الحملة الصليبية برقت مثل الشهاب فى وسائل الإعلام العربية. وقد مضت أصداؤها إلى العمق، بل إلى مدى أبعد مما توقعه المساعدون المرتبكون، وليس بين المسلمين فقط. وعلى كل حال فإن الكلمة تشير إلى سلاسل طويلة من الحملات العسكرية التى كانت فى مجموعها الحدث الذى شكل ما نسميه الحضارة الغربية. وهناك مجموعة متماسكة من التقاليد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل حتى الأسطورية فى القارة الأوروآسيوية، من الجزر البريطانية حتى الجانب البعيد من شبه الجزيرة العربية، قد نمت وترعرعت من عملية التحول التى تسببت فيها الحروب الصليبية. وما يزال الأمر بعيدًا عن المصادفة بأن تلك الحملات كانت موجهة من المسيحيين ضد المسلمين، وأنها أيضًا كانت مرتبطة بلاعقلانية الحمى الألفية.

وإذا كان الرئيس الأمريكى هو الشخص الذى يحمل العبء الرئيسى فى الاستجابة لكارثة ١١ سبتمبر، فإن سلفه فى مثل هذا الدور الخطير، قبل حوالى ألف سنة، كان هو البابا الكاثوليكى، والذى كان يسعى للتغلب على الاضطرابات التى سادت العالم المسيحى على مدى قرن من الزمان، عبأ قادة العالم المسيحى وعامته أيضًا بدعوة متصاعدة إلى الحرب المقدسة. وكان المسلمون بالنسبة له هم الشعب الكافر الذى استولى على الأراضى المقدسة منذ مئات السنين. وحينذاك تم تحديد هذا الاحتلال على

(١) نسبة إلى سفر الرؤيا الذى يتحدث عن معركة هرمجدون بين قوى الخير وقوى الشر ـ المعادية للمسيح ـ تسيل فيها الدماء إلى ألجمة الخيل، ولمسافة ٣٠٠ كيلومتر. سفر الرؤيا ١٤ : ٢٠، ١٦ : ١٦ ـ المترجم.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أنه تجديف فى حق الرب لا يمكن احتماله، ويجب تحرير الأرض المقدسة. وفى غضون شهور من دعوة البابا كان مائة ألف من الناس «قد أخذوا شارة الصليب» لإعلان الحرب المقدسة من أجل المسيح. وبالنسبة لسكان أوروبا، فإن حركة مشابهة اليوم سوف تضم أكثر من مليون شخص، ويتخلون عن كل شىء فى سبيل الذهاب إلى الحرب.

وباسم المسيح، وبتأكيد أن الرب يبارك، شن الصليبيون ما يمكن أن نسميه هجوم «الصدمة والترويع» ـ فقد فرضوا الحصار، أولاً، على مدينة نيقية فى آسيا الصغرى حيث استخدموا المجانيق لكى تطيح الرءوس المقطوعة للمدافعين المسلمين فوق الأسوار الحصينة. وفى بيت المقدس ذبحوا بوحشية المسلمين واليهود سويا ـ بل إنهم عمليّا ذبحوا المدينة بأسرها. وسرعان ما استدار المسيحيون اللاتين على المسيحين الشرقيين، ثم ضد الهراطقة المسيحيين، عندما تفوق التعطش للدم على النبضة «المقدسة» الأولية. وحفرت آثار العنف ندوبا فى ذاكرة الأرض والبشر حتى يومنا هذا ـ لاسيما فى الأماكن التى أنزل بها الصليبيون خرابهم. كما أن الخريطة الذهنية للصليبيين، والقدس فيها هى مركز الأرض، ما تزال تحدد السياسات العالمية. بيد أن النقطة الرئيسية، فيما يتعلق باستجابة بوش الغريزية للحادى عشر من سبتمبر، هى أن هذه الغزوات الدينية والحروب التى انقضت منذ زمن طويل، قد أرست أسس هوية غربية متماسكة معارضة تمامًا للإسلام، وهى معارضة بقيت حية حتى اليوم.

فمع الحروب الصليبية، جاء اللاهوت العنيف عن الرب القاتل. فلكى يتم إنقاذ العالم، حسب هذا الفهم، اقتضت إدارة الرب الموت العنيف لابنه الوحيد المحبوب. وهنا يتم الكشف عن الخريطة الذهنية، لأن الصليبيين كانوا ذاهبين إلى الحرب لإنقاذ الموقع الذى شهد الموت الخلاصى ليسوع، وأظهر إخلاصهم للصليب الذى مات عليه المسيح بأن جعلوه رداءً على صدورهم. وعندما تمت ترجمة ملاحظة بوش إلى العربية لكى تذاع فى شتى أرجاء الشرق الأوسط فهمت كلمة «الحملة الصليبية» على أنها "حرب فى سبيل الصليب».

وقبل الحروب الصليبية، أولى اللاهوت المسيحى تأكيدًا مركزيًا على بعث المسيح، وعلى فكرة التجسد نفسها، ولكن مع حرب الصليب، بدأ حادث الصلب الدموى

يسيطر على الخيال المسيحى اللاتينى. عزز لاهوت ركز - بضيق أفق - على الموت القاسى للمسيح المفهوم البدائى عن أن العنف يمكن أن يكون عنفًا مقدسًا. ذلك أن طقس الاستشهاد، حتى درجة الحماسة الانتحارية، تم تأسسه فى الحروب الصليبية، وليست مصادفة أن حوادث الحادى عشر من سبتمبر كانت علامة على ثقافة التدمير المقدس للنفس التى تشدد قبضتها أيضًا على بعض المسلمين. إذ إن القتله الانتحاريين فى مركز التجارة العالمى شأنهم شأن الانتحاريين بالقنابل فى الضفة الغربية وغزة يستغلون حلقة وصل منحرفة بين الاستعداد للموت فى سبيل قضية والاستعداد للقتل من أجلها. وكان الصليبيون أيضًا وهم يفكرون فى السماء، يمجدون تلك الرابطة.

وهنا يمكن المغزى الأعمق لإشارة بوش الغافلة عن الحروب الصليبية: فبدلاً من أن يكون الملاذ الأخير أو شرًا لابد منه، تم تأسيس العنف آنذاك على أنه الشيء المناسب تمامًا، بل إنه من شيم الفروسية، وهو الاستجابة الأولى لما هو خطأ فى العالم. وجورج دبليو بوش مسيحى يجد هذا اللاهوت حيًا أمامه. فبينما أعلن أن المسيح هو «فيلسوفه السياسى المفضل»، عندما خاض سباق الرئاسة سنة ٢٠٠٠م، ومسيح مسيح هذا الرئيس الإيفانجليكى ليس هو المسيح الذى يأمر «بإدارة الخد الآخر». مخلِّص بوش هو يسوع الذى يُستخدم صليبه كما يستخدم السيف. وجورج دبليوبو ش الذى قبل بانشراح تحمل مسئولية إعدام ١٥٢ فى طابور الموت من سجناء تكساس، كان قد أظهر نفسه بالفعل مرتاحًا تمامًا مع العنف الذى يكتسى خاصية مقدسة. ولا غرابة فى أن هذا العنف هو الذى حدد أعمق حوافزه بعد ١١-٩.

بيد أن العنف المقدس، الذى أطلق سراحه ذات مرة سنة ١٠٩٦م، كما حدث فى سنة ٢٠٠١م، كانت له قوة الدفع الخاصة به. إذا إن الحاجة الملحة للحرب ضد «العدو فى الخارج» - وهو ما يسميه البعض اليوم «صدام الحضارات» - أدى بسرعة إلى اكتشاف «عدو بالداخل». فقد انقض الصليبيون، فى طريقهم من شمال غرب أوروبا، «على العدو الذى فى متناول فى أيدينا» كما قالوا. أى اليهود. فلأول مرة فى أوروبا، تم اغتيال أعداد كبيرة من اليهود لأنهم يهود. ذلك أن لاهوتًا تستحوذ عليه حادثة الصلب، رأى أن الرب رحب بموت يسوع، ولكن فى الخيال الإيفانجليكى المتشعب، كان يمكن إلقاء اللوم على اليهود بشأن حادثة الصلب، وكانت الهجمات التى قام بها الصليبيون مميتة.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ونفس الحركية - أى حرب ضد عدو بالخارج تؤدى إلى حرب ضد عدو داخلى - يمكن أن نراها تعمل اليوم. وهى حركية أكثر تعقيداً الآن، مع وجود المهاجرين المسلمين وأناس من أصول عربية، يتعرضون لضغط ثقيل فى الغرب. ففى أوروبا، يتم تشبيه المسلمين بالشياطين على نحو روتينى. أما فى أمريكا، فإنهم «يُنبذون» لدرجة حرمانهم من الحقوق الأساسية. ولكن فى الوقت نفسه يتم استهداف اليهود مرة أخرى. إذ إن عودة ظهور اللاسامية على نطاق عريض، والاتجاه إلى عَدِّ إسرائيل كبش الفداء بوصفها المصدر الأول للفوضى الجديدة، يعكس عملية المد والجزر القديمة. وهذه حقيقة بغض النظر عن الحقيقة الصارخة بأن حكومة آرييل شارون قد اتخذت عقيدة «حيّا أو ميتًا» التى تبناها بوش بحماسة واستغلت «الحرب ضد الإرهاب» لشحن رد الفعل المفرط - والذى يحمل هزيمته فى ثناياه - ضد الاستفزازات الفلسطينية. ولكن بعض منتقدى إسرائيل يسقطون فى النموذج القديم بقياس اليهود بمقاييس لايقيسون بها أحداً غيرهم، ولا حتى رئيسنا. وكون أن الحرب على الإرهاب هى السياق الذى تكثفت فيه أعمال العنف فى إسرائيل وبيت المقدس ينبغى ألاّ يكون مفاجأة بعد الآن. إذًا ليست «إسرائيل»، ولكن الصراع حول القدس هو الذى أدى دور الوميض منذ ألف سنة.

لقد برهنت الحروب الصليبية على أمتلاكها ديناميات تخريبية أخرى. إذ إن الحرب ضد الإسلام فى العصور الوسطى، قد استهدفت يهود أوروبا أيضًا، وبسرعة شديدة صارت حربًا ضد جميع أشكال الاختلاف الثقافى والدينى، أى صارت حربًا ضد الهرطقة.

لقد تم تحديد العقيدة على نحو جامد - كأنه لم تكن هناك عقيدة على مدى مئات السنين - فى الغرب اللاتينى آنذاك، وتمت مهاجمة جميع أولئك الذين لم يؤكدوا التفسيرات السائدة - من الكاثاريين، والألبيجنسيين، والأرثوذكس الشرقيين. كما أن التوحيد المذهبى كان يمكن فرضه بالقوة المقدسة. وعندما يُعرِّف المدعى العام (وزير العدل) فى الولايات المتحدة انتقاد الإدارة زمن الحرب بأنه خيانة، أو عندما يمرر الكونجرس تشريعًا يبرر انتهاك الحريات المدنية بدعاوى الوطنية، فإنهم يسيرون على هدى تعليمات الصليبيين.

وكل هذا متضمن فى الكلمة التى استخدمها الرئيس بوش أول مرة، والتى جاءت إليه بشكل طبيعى كما لو كانت إشارة فى البيسبول، لتحدد معنى الحرب على الإرهاب. والسكوت شبه الكامل الآن عن مثل هذا التاريخ الدينى المظلم المضطرب بالغليان للعنف المقدس، لا يعنى نزع فتيله بوصفه قوة انفجارية فى اللاوعى الإنسانى. وفى عالم الإسلام، بطبيعة الحال، لا يمكن أن يكون معناها أكثر وضوحًا، أو اقترابًا من الوعى. ذلك أن المعنى الكامل تاريخيًا وثقافيًا للحرب الصليبية واضح من أول وهلة، وهو السبب فى أن ضجة الاحتجاج التى ارتفعت من الشرق الأوسط ساقت «بوش» إلى التراجع اللفظى السريع. ومع هذا فإن غفلته فى استخدام كلمة «الحرب الصليبية» هى ذاتها الكاشفة للحقيقة، فالأمريكيون لا يعرفون ماهية النار التى يلعبون بها. وعلى أى حال، فإن أسامة بن لادن يعرف كل هذا جيدًا، وفى تصريحاته بين آونة وأخرى، يستخدم كلمة «الحروب الصليبية» حتى هذا اليوم كمن يلقى باللهب.

والحرب الدينية هى الخطر هنا، وهى حرب أخطر مما يظن الأمريكيون وأشد هولاً. فعلى الرغم من فصلنا الفج بين الكنيسة والدولة، فإن أمريكا كان لها دائمًا فهم شبه دينى لذاتها، انعكس فى النزعة المسيحانية للمؤسس البيوريتانى (چون وينثروب)، وفى التفاؤل الربانى لتوماس چيفرسون، وتبنى معاناة الخلاص التى ميزت أبراهام لنكولن، وفى اقتناع وزير خارجية أيزنهاور، چون فوستر دالاس، بأنه يجب مواجهة الشيوعية على نطاق كونى حتى لو كان ذلك بسبب إلحادها فقط. ولكن لم يحدث أبدًا من قبل أن تم جر أمريكا إلى حفرة ملغمة بالديناميت بشكل أعمق مما حدث فى حرب رئيسنا على الإرهاب. وعلى الرغم من انخفاض نغمة الخطب البلاغية الصادرة عن واشنطن بعد حرب العراق، والتخلى عن المزيد من الاشارات الصليبية - على الرغم من أن وزير الخارجية كولن پاول استخدام الكلمة فى مارس سنة ٢٠٠٤م - فإن حرب بوش تبقى بصراحة معركة كونية بين قوى الشر وقوى الخير الفائقة ولا شىء أقل من ذلك. ومثل هذه المعركة بالضرورة غير محددة، ونهايتها مفتوحة لكل الاحتمالات، وبذلك تبرر الأفعال الراديكالية - مثل التخلى عن المفاهيم الراسخة عن العدالة المدنية فى الوطن والتحالفات التقليدية فى الخارج.

http://www.al-maktabeh.com

وتسوِّغ المعركة الأخلاقية ـ الدينية الكونية، بالقدر نفسه، المخاطرات بكارثة عالمية نسبية، طالما أن الناتج النهائى لمثل هذا الصراع ينبغى أن يقاس لا بالعواقب الحقيقية على هذه الأرض وإنما بإرادة الرب التى تسمو عن الأرض. إن حربنا على الإرهاب قبل أن تكون أى شىء آخر، إنما هى بذلك صراع تخيلى، مكانها أساسًا فى مملكة أسطورية تقع خارج نطاق التاريخ.

وفى شن مثل هذه «الحرب» ينبغى الاشتباك مع العدو فى كل مكان، وفى لا مكان، ليس فقط لأن العدميين الحقيقيين الذين يهددون النظام الاجتماعى مجهولون وبلا جذور، ولكن لأن كل انتحارى متعصب مجرد مثال على عدو مبهم ـ وكذلك الوجه الآخر لنا. والواقع أن كل إرهابى هو قربان للحقيقة الكبرى، وهى «الإرهاب». وبدلاً من إدراك المراكز غير المرتبطة للعنف اللا إنسانى ـ سادة الحرب القبليون، وزعماء المافيا، والمحاربون الوطنيون، والمصابون بالعداء للأجانب ـ فإن الرئيس بوش يتصور استراتيجيات بالغة الضخامة والتشابك للتآمر، والعقيدة والتنظيم. وبإسباغ الصفة القانونية الكنسية على الحرب ضد الإرهاب، يتم رفع العدميين الصغار إلى مكان المحاربين الأبطال العالميين، وهو بالضبط المصير الذى يرغبون فيه. وهذا هو السبب فى أن الصراع يريق الدماء من موقع لآخر ـ أفغانستان الآن، ثم العراق، وبعدها إيران أو أرض أخرى للشر ـ وهذا هو السبب أيضًا، بالنسبة لهذه المسألة، فى أن الأعداء المستهدفين يمكن استبدال أحدهم بآخر ـ فهنا أسامة بن لادن، وهناك صدام حسين، وهنا زعيم إيران، وهناك زعيم كوريا الشمالية. إذ إنهم جميعًا فى الأساس عدو واحد ـ «محور» واحد ـ على الرغم من الاختلافات فيما بينهم، أو حتى كراهيتهم بعضهم لبعض.

لقد هاجم جورج دبليو بوش، كما يعلن بفخر، الشر نفسه. (ففى سنة ٢٠٠٤م نشر الاثنان اللذان شكلا «مذهب بوش»، وهما «داڤيد فروم» و«ريتشارد بيرل» كتابًا بعنوان (An End To Evil). ويفعل بوش هذا دونما إدراك للرابطة بين مشروعه والقوى الأسطورية الكبرى، بيد أن مؤرخى المستقبل سوف ينظرون إلى حملة أمريكا الكونية المذعورة فى سياق الحمى الألفية. لقد حدث ذلك منذ ألف سنة مضت، وهو يحدث الآن. وتبدو فكرة الألفية وكأنها تستفز تصوراً لنهاية العالم، وشعوراً بأن زمن النهاية

http://www.al-maktabeh.com

قد بدأ، حقبة سوف تشهد معركة نهائية بين الخير والشر محتومة ومقدرة. (وإحدى علامات زمن النهاية فى الخيال الإيڤانجليكى هو استئصال الكفار عن طريق التنصير أو العنف المقدس، وهو توقع يؤدى دوره فى اللاوعى فى تأجيج كراهية المسلمين، والعداوة المتجددة ضد اليهود، بل وفى دعم اليمين المسيحى الداعم لإسرائيل، بوصفه مقدمة لتنصير اليهود). ولا يحتاج المرء إلى أن ينسب التطرف فى هذا الحدس إلى بوش؛ لكى يتعرف فى خطابه على علامات تدل على اهتمام كونى يتجاوز الجغرافيا السياسية والأمن القومى.

كذلك كانت الحملات الصليبية تجليًا للنزعة الألفية المرتبطة بنهاية العالم. فعندما قام الصليبيون بذبح الكفار، وفرضوا التنصير على اليهود، كانوا يظنون أنهم يرشدون البشر إلى العصر الجديد. ويوضح «روبرت چاى ليفتون» كيف أن هذه الظاهرة تتجلى الآن، بالرؤى الإسلامية والأمريكية لنهاية العالم المتنافسة بقسوة، وكل منهما يهدف إلى «التطهير والتجديد». ففى كتابه "Superpower Syndrome" يلاحظ «ليفتون» أننا «نحن نمرّ بما يمكن أن نسميه مواجهة بين القوى الإسلامية، التى تتبنى موقفًا حالمًا مكشوفًا فى استعدادها للقتل والموت فى سبيل دينها، والقوى الأمريكية التى تزعم أنها مُقيدة ومعتدلة ولكنهاليست أقل فى موقفها الحالم فى تصورها لشن حرب تطهيرية والقوة العسكرية الحرب».

والرجال والنساء المتأججون حماسة الذين قد لا يشاركون بوش روحانيته الحامية يمكنهم بالرغم من هذا أن يدعموا غرضه، لأن هناك، بسبب الأيديولوچية الجديدة التى تفرض نفسها، أزمة عالمية تتطلب استجابة سريعة.

ذلك أن التكنولوچيات الحديثة تجعل من الممكن الآن للمجموعات الصغيرة من العدميين، أو حتى الأفراد، أن يشفوا غليلهم على نطاق غير مسبوق فى التاريخ. وهذا هو "الخطر الصامت" النهائى. إن هجمات الحادى عشر من سبتمبر، والتى تضخمت بالصدى القاتل لرسائل غاز الأنثراكس البريدية، والمريض السيكوباتى الذى لم يكشف إلى الآن الذى أرسل خطابات مميتة إلى الصحفيين وموظفى الحكومة فى الأسابيع التى تلت ٩ـ١١، هى التى كشفت عن الحال الجديد أمام ناظرى العالم. ذلك أن

http://www.al-maktabeh.com

http://www.almaktabeh.com

الابتكارات فى الفيزياء، والبيولوچى والكمياء وتكنولوچيا التشكيل. وقريبًا فى تكنولوچيا النانو والهندسة الوراثية. كان لها أثرها الذى لم يكن متوقعًا فى التهديد بوضع القوة التدميرية، التى لم يكن ممكنًا ممارستها فى الماضى إلا بالجيوش الجرارة، فى أيدى فئة قليلة من الناس. لقد كان أدولف هتلر ذو النزعة الألفية معتوها نكرة حتى جمع الشعب الألمانى وراءه، ووراء الوعود بإقامة الرايخ الذى يستمر ألف سنة. وهتلر اليوم لا يحتاج إلى أمة، أو حزب، أو جيش. لأن رطلا من الأنثراكس سوف يكفى، أو حمل حقيبة نووية، أو حتى ڤيروس كمبيوتر. ذلك أن مثل هذه القوة بيد أى شخص واحد تؤدى إلى مجال جديد من الوجود على الأرض، إلى نوع جديد من «الميتاڤيزيقا» حسبما يقول الصحفى «لانس مورو» فى كتابه الذى يحمل عنوان «الشر ـ Evil» وهى ميتاڤيزيقا «تغير كلاً من الآليات السياسية والشخصية للشر».

هذه هى «الحال» الحقيقية التى تستجيب لها إدارة بوش. والمشكلة واقعية، على الرغم من أنها ليست موجود تمامًا حتى الآن. والخطر مبهم. فعلى أى حال، خلق المهاجمون فى ٩ـ١١ باستخدامهم وسائل أكثر تواضعًا، نسخة تليفزيونية لصورة مصغرة من نهاية العالم. ولكن إدراة بوش تقوم باتخاذ خطوات بدلاً من أن تؤدى إلى مواجهة الخطر، تزيد من تفاقمه بصورة شديدة. إن النبضة التى ساقت السياسات الكونية لهذه الإدارة تتحدد فى أبسط أشكالها، بالتصميم على أنه لن يُسمح لأى قوة معادية بامتلاك ما يسمى أسلحة الدمار الشامل. إذ إن زعماء «الأنظمة المارقة»، حسب قراءة بوش، هى التى تلهث وراء مثل هذه الأسلحة، وهكذا، صار «تغيير النظام» الغرض المهيمن للقوة الأمريكية، سواء عن طريق «الحرب الوقائية»، مثلما حدث فى أفغانستان والعراق، أو عن طريق وسائل أخرى للإجبار. وحتى عندما أدت الصعوبات فى العراق إلى الانتقاص من التأكيدات الأمريكية ـ الارتجالية ـ عن المدى الإمبريالى، يبقى محتملاً أن واشنطن لن تسمح لإيران أو كوريا الشمالية، التى يبدو واضحا أنها بدأت العملية، ولا لأى عدد آخر من الدول غير الصديقة بتطوير ترسانة نووية نشطة ويمكن استخدامها. ومهما يكن الأمر، فإن الاسلحة النووية هى التى تطرد النوم من البيت الأبيض، مع الحلم المتكرر بما جرى فى ٩ـ١١ بحسبانه أخف إيماءة لما يمكن أن يحدث لو أن هذا الحادث كان نوويًا.

ومن ثم فلكى يتم وضع أفضل وجه على أچندة بوش (مع غض النظر عن مسائل البترول، والسيطرة على الأسواق العالمية، والهيمنة الاقتصادية أو العسكرية) فإن مشروعًا إنسانيًا ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل يمكن أن يرى فى القلب من هذه الأچندة، بيد أن الأمة التى كانت تحاول منع انتشار أسلحة الدمار الشامل، ولاسيما الأسلحة النووية، لابد وأن تتصرف بالضبط على النحو الذى تصرفت به إدارة بوش على مدى السنوات الثلاث الماضية. ذلك أن مفهوم البنتاجون المتنفخ الأوداج عن «السيطرة الكاملة» بحد ذاته يحفز الأمم الأخرى إلى السعى بحثًا عن مصادر القوة المعادلة، وعندما تذهب الولايات المتحدة إلى الحرب بالفعل لفرض مفهومها الذى يثير جدلاً واسعًا عن النظام على بعض الدول، وليس على البعض الآخر، فإن الدول - الصديقة منها وغير الصديقة على السواء - تجد نفسها ولديها سبب ملح للغاية للحصول على بعض الوسائل لمقاومة مثل هذا التدخل.

وفى ١٩ من ديسمبر سنة ٢٠٠٣م، زعمت إدارة بوش أنها انتصرت فى حربها الفعلية «ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل» بإعلان أن ليبيا وافقت على التخلص مما بحوزتها، ولكن قرار زعيم ليبيا معمر القذافى هو الذى وضع فعلاً الكذبة فى متناول بوش. ففى أعقاب الكشف عن تورط ليبيا فى التفجير الإرهابى لرحلة طيران پان أميركان رقم ١٠٣ سنة ١٩٨٨م، ظلت ليبيا على مدى سنوات خاضعة لديبلوماسية قسرية، وعقوبات، وعزلة. وهذه الضغوط التى ارتكزت على الأمم المتحدة التى تقدمت بصرامة على يد إدارة كلينتون، آتت أكلها فى نهاية الأمر. ولم تكن الحرب الوقائية أو تغيير النظام ضروريًا لوقف عدوانية القذافى. ولم تكن مصادفة، مع التعاون الجديد من جانب ليبيا، أن يتم التأكيد على أن الداعم الثابت لمشروعها النووى كان باكستان، التى تَعُدّها إدارة بوش دولة حليفة، مما يثبت أن من ينشر أسلحة الدمار الشامل، لم يقع ضمن «فئات الخير فى مواجهة الشر» التى تفضلها واشنطن. وفى تعارض مع إعلان ديسمبر عن انصياع ليبيا، تم الإعلان فى نفس اليوم عن أن اليابان سوف تنفق بلايين الدولارات على درع الصواريخ الباليستية الذى تشرف عليه الولايات المتحدة. وهو «نصر» آخر لإدارة بوش. ولكن هذا التصدير الذى يحدث لأول مرة «لحرب النجوم» إلى الخارج وصل مستويات غير مسبوقة سواء على مستوى

http://www.al-maktabeh.com

الإنفاق العسكرى اليابانى أو سباق التسلح فى آسيا. ولابد أن تؤدى إلى إجراءات مضادة من جانب كوريا الشمالية والصين وروسيا. وأولئك، بدورهم، سوف يستحثون المزيد من عسكرة اليابان، لأن الدفاع يؤدى إلى الهجوم، وهى دائرة حلزونية متصاعدة من المحتمل أن تزيد من أخطار الحرب النووية. وهنا على الأرض وفى السموات يمكن أن نجد معنى حقيقيًا لمقاربة بوش لمشكلة انتشار أسلحة الدمار الشامل.

والشيء الغريب والمأساوى هو أن العالم قبل بوش كان قد اقترب من الاتفاق على كيفية معالجة مشكلة انتشار أسلحة الدمار الشامل، وكان قد بدأ يضع بناءات واعدة مصممة لمنع مثل هذا الانتشار. وقد تجسد بشكل مركزى فى معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية عام ١٩٦٨م التى نجحت بشكل مدهش فى الحفاظ على عدد القوى النووية، سواء الفعلية أو المعترف بها، بحيث ظل العدد منخفضًا نسبيًا، وقد أعطى هذا الاتفاق أولوية للالتزامات التى تفرضها المعاهدة والتعاون الدولى، والالتزام الجاد من جانب القوى النووية الموجودة للتحرك صوب التخلص نهائيا من الأسلحة النووية. وقد تحول ذلك كله إلى نفاية بفعل بوش. قال بوش متهكمًا: «القانون الدولى؟» تكلف الابتسام فى ديسمبر سنة ٢٠٠٣م قائلاً: «من الأفضل أن أستدعى محاميًّ».

والآن هناك دلائل على أن الأمم على اتساع الدنيا ـ اليابان، والسعودية، والأرجنتين والبرازيل وأستراليا ـ تعيد تقييم رفضها للأسلحة النووية، بل إن بعضها يندفع بشكل إيجابى للحصول على هذه الأسلحة. وربما كانت إيران وكوريا الشمالية مجرد قمة جبل الجليد. وتمثل باكستان والهند المسلحتان نوويًا نبوءه عابسة بالمستقبل فى كل قارة. وإدراة بوش ـ بإعلانها عن بقاء ترسانتها النووية، والتهديد بتوجيه الضربة النووية الأولى لكل الأمم، و«بتخزين» الرءوس النووية التى استبعدتها المعاهدة بدلاً من تدميرها، وتطوير خط جديد من الأسلحة النووية «القابلة للاستخدام»، وبالتحرك صوب تسليح «الحدود العليا» فى الفضاء الخارجى، وتبنى فكرة «الحرب الوقائية» ـ بهذا كله تساعد على بروز هذا التهديد بدلاً من إحباطه. كيف يمكن أن يكون هذا؟

إن للمشكلة جذورها العميقة التى تكمن فى خاصية النسيان الأمريكية، والتى ترجع إلى الضباب الحمضى الذى أنهت به الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية. إذ

لم يكن هناك على الاطلاق حساب أخلاقى كامل للزخم العنيف الذى اتسمت به نهاية ذلك الصراع - كيف تبنى الزعماء الأمريكيون إستراتيجية تقوم على القصف الإرهابى بالقنابل، وذبح سكان مدن كاملة، وكيف أنهم فى النهاية دخلوا العصر النووى بالهجوم على هيروشيما ونجازاكى؟ لقد تجادل الباحثون فى هذه المسائل، ولكن السياسيين تجنبوها، كما أن معظم المواطنين تظاهروا بأنها ليست مسائل حقيقية على الإطلاق. ذلك أن افتراض أمريكا الثابت بتفوقها الأخلاقى، وإيثارها الغير، واستثنائيتها، لم يتم خدشها بالتأمل فى إمكانية أننا أيضًا نرتكب أخطاء فادحة، وجرائم مرعبة. مثل هذا الوعى، المستمد من حساب أشمل لأيام مضت - ٦، ٩ أغسطس سنة ١٩٤٥م على أى حال - سوف يؤدى إلى منع زعم أمريكا الحالى بالعظمة الأخلاقية، والذى هو فى الوقت نفسه زعم بالعظمة الاقتصادية والسياسية طبعًا. يجب على الأمة التى لا يمكن الاستغناء عنها(*) أن تستغنى عمّا حدث من قبل.

قال وليم فولكنر «الماضى لا يموت أبدًا». «بل إنه ليس ماضيًا». والكيفية التى يتذكر الأمريكيون بها استخدام بلادهم القصف المرعب هى التى تؤثر على كيفية تفكيرهم فى الإرهاب، والكيفية التى يتذكرون بها أول مرة استخدموا فيها السلاح النووى، لها علاقة شاملة بالكيفية التى تتصرف بها الولايات المتحدة تجاه ما يتعلق بالأسلحة النووية اليوم. وإذا كان تبنى أمريكا طويلاً مبدأ "التدمير المتبادل المؤكد" لم يتم فحصه، وإذا كان رفض البنتاجون المنتهك لمعاهدة مثالية التخلص النهائى من الأسلحة النووية ليس محل تساؤل - إذن فإن تبنى إدارة بوش للأسلحة النووية بوصفها أسلحة عادية يمكن استخدامها لن يبدو أمرًا عدوانيا.

والذاكرة فعل سياسى. والنسيان خادم الطغيان. وإدارة بوش ملتزمة تمامًا بالحفاظ على ما يسمية المؤرخ «مارك تراشتنبرج» «فجوة ذاكرتنا النووية» حتى وإن كانت الإدارة تسعى إلى فرض بناء أحادى للسيطرة على العالم. وبينما تشن حملة تهدد العالم لإخلائه من أسلحة الدمار الشامل لدى الشعوب الأخرى، ترفض إدارة بوش مواجهة المعنى الأخلاقى لأسلحة الدمار الشامل الأمريكية، ناهيك عن طبيعتها الفيروسية التى

(*) هذا ما يحب القادة والرؤساء الأمريكيون قوله، وما يحب الشعب الأمريكى ساعه، عن أمريكا - المترجم.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

تجعل الأمم الأخرى تسعى لامتلاك نسخ أصغر من الترسانة الأمريكية، ولو لمجرد إعاقة حرب بوش «الوقائية» التالية. وبعبارة أخرى فإن ترسانة الولايات المتحدة تبقى هى السبب الجوهرى فى وباء انتشار أسلحة الدمار الشامل على مستوى العالم.

وقد كتب الروائى «بول أو ستر» يقول: «إن الذاكرة هى الفضاء الذى يحدث فيه الشىء للمرة الثانية». هذه المجموعة من الكتابات ضد حرب بوش، والتى تشكل تأريخًا معاصرًا لهذه الحرب، تقصد أن تكون كتابًا فى الذاكرة. ولا أحد يرغب فى أن تتكرر حوادث ١١/ ٩/ ٢٠٠١م مرة ثانية إلا فى مجال الذاكرة، وبالشكل الذى يؤدى إلى الفهم والالتزام. كل الطرق التى استغل بها چورچ بوش تلك الأحداث على نحو يخون ذكرى أولئك الذين ماتوا فيها، ينبغى فحصها مرة أخرى، وبحيث يمكن الإحساس على نحو تام بمدى فظاعة غرضه السياسى. وبالضبط كيف تكشفت الحرب على الإرهاب؛ وكيف أراقت الدماء فى أفغانستان، ثم العراق؛ وكيف أن المخاوف الأمريكية تفاقمت بالتحذيرات التى أطلقتها الإدارة، وكيف تم تقويض الحقوق المدنية، وانتهاك الاتفاقيات، والتخلى عن التحالفات، وتبنى الخشونة - فلا ينبغى نسيان أمر من هذه الأمور.

وإذا ما أخذنا فى الحسبان كيف لم يتم الوفاء بهذا على نحو درامى، فلا ينبغى أن ننسى نبضات واشنطن الأولية تجاه نوع جديد من السيطرة الإمبراطورية. وكون أن الهدف الأول من الحرب - أسامة بن لادن «حيًا أو ميتًا» - قد تغير حينما برهنت القاعدة على أنها مراوغة لا يجب أن يُنسى. ولا ننسى تغير التسويغ المبكر للحرب ضد العراق - أسلحة الدمار الشامل التى يمتلكها صدام حسين - عندما ثبت عدم وجودها. وكون أن حكومة الولايات المتحدة فى الأوقات السابقة كما لو كانت الحقائق مهمة، وكما لو أن الدليل مرشد للسياسة، أمر لا ينبغى نسيانه. وكون أن أفغانستان والعراق يعانيان من المجازر والخرائب وآلاف القتلى، ومئات الآلاف يواجهون خطر المرض، والفوضى، واليأس، أمر لا يجب أن ينسى. وكون أن العالم الذى نزدريه الآن أعطى حبه الخالص لأمريكا فى الحادى عشر من سبتمبر، أمر لا يجب نسيانه.

إننا نتذكر الماضى، وحتى الماضى القريب الذى تجسده هذه المدونة التاريخية لكى تحث المقاومة فى الحاضر. إننا نتذكر الماضى - خاصة كما فى هذه المدونة التاريخية عن «حملة بوش الصليبية» حتى يمكن أن يكون المستقبل مختلفًا.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

THE AMERICAN EMPIRE PROJECT

http://www.al-maktabeh.com

الجزء الأول

إلى الأمام أيها المسيحى

CHRONICLES OF AN UNJUST WAR

١ - الحرب المقدسة

٢ - أفغانستان

٣ - الحرب فى الوطن

JAMES CARROLL

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(١)

الحرب المقدسة

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

«نحن فى حالة حرب»، هذا ما قاله الرئيس جورج دبليو بوش فى سراسوتا ـ فلوريدا صباح الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م. وقال الكلمات بصوت عال، ولكنه، فى الواقع، كان يتحدث إلى نفسه، حينما شاهد التليفزيون للمرة الأولى وهو يعيد بث مشهد برجى مركز التجارة العالمى والطائرات تصطدم بهما.

إنها استجابة أولية، لحظية، وتشكيلية. وبعد مشاهدة إعادة البث بدأ الرئيس يتحرك. وأخبره ناصحوه أنه نفسه كان هدفًا أوليا لتلك الحرب، ولذا سمح بوش لنفسه بأن يتم تحريكه فى رحلات طائرة من فلوريدا إلى قاعدة جوية فى لويزيانا، ثم إلى هيئة الاركان فائقة الأمان فى القيادة الجوية الإستراتيجية فى نبراسكا. وسرعان ما تحولت عاطفة الرئيس الأساسية فى ذلك اليوم إلى الإحساس بالخجل، عندما أدرك كيف أن هذا الاندفاع إلى حفرة آمنة كان متناقضًا مع بطولة الآلاف فى نيويورك وواشنطن، وفى السماوات فوق پنسلڤانيا. وحينما ظهر بوش فى النهاية لكى يخاطب جماهير الأمريكيين، محولاً خزيه إلى غضب، حدد بشكل رسمى الهجمات على مركز التجارة العالمى وعلى البنتاجون بأنها «عمل من أعمال الحرب». وقال للأمم الأخرى: «إما أنكم معنا، وإما أنكم مع الإرهابيين». وفى البنتاجون الجريح، أخبر الرئيس تجمعًا صغيرًا من الموظفين العسكريين أنه يريد أسامة بن لادن «حيًا أو ميتًا».

وفى يوم ١٤ سبتمبر، بدأ الرئيس يومه بالصلاة فى الكاتدرائية الوطنية بواشنطن. وتم تحديد الطقوس بأنها «مسكونية ـ Ecumenical»، وبحضور مسلمين، ولكن الأيقونات والرسوم الأيقونية الكثيرة فى الكاتدرائية ـ التى ركزت كاميرات التليفزيون عليها، خصوصًا على تمثيل المسيح على الصليب ـ نقلت انطباعًا مختلفًا تمامًا. كانت الصلاة تعبيرًا عن الحزن الوطنى، ولكنها تبدو أيضًا تعميدًا للإرادة

الحربية. وبمثل هذه البساطة، تم الربط بين صور الديانة المسيحية وهدف أمريكا الجديد بقوة.

ومن الكاتدرائية، ذهب بوش مباشرة إلى موقع مركز التجارة العالمى فى نيويورك. وإذ وقف على قمة الأنقاض، أمام مجموعة من الأعلام الأمريكية، أعلن الرئيس: «إن الذين هدموا هذه المبانى سوف يسمعون منا قريبًا». وفى هذا اليوم نفسه صوت مجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة بنسبة ٨٠ ـ ٠، كما صوت مجلس النواب بنسبة ٤٢٠ ـ ١ (وكانت باربارا لى نائبة كاليفورنيا المعترض الوحيد) على منح الرئيس بوش سلطة مطلقة لاستخدام القوة ضد أعداء أمريكا على النحو الذى يراه مناسبًا. وقد أظهرت صناديق الاقتراع نسبة الأمريكيين المحبذين «لحملة عسكرية كبرى» ٩٠ بالمائة. ولم يقل أحد: ضد من ينبغى القيام بالحملة؟! وفى ثلاثة أيام كانت حرب بوش قد بدأت تباركها الديانة، ويؤكدها الحكماء، ويمنحها الكونجرس الشرعية، على الرغم من أن الحرب كانت ما تزال بحاجة إلى تحديد وتعريف.

القانون لا الحرب

١٥ سبتمبر ٢٠٠١م

كيف نحب بلادنا؟ على مدى أيام الآن، شعرنا نحن الأمريكيين، بينما نرتعد فى حداد، بالثقل المتراكم لإخلاصنا الوطنى. فقد تواصلنا فى التعرف الصادم على نوع الكنز النادر والثمين الذى هو الولايات المتحدة الأمريكية. إذ إن تعرض وطننا المفاجئ للخطر يجعلنا نتخلى، فجأة أيضا، عن عادة أخذ نبل وطننا أمرًا مسلمًا به. فنحن نراه فى المكان الخالى الذى يغصّ حلوقنا فى أفق سماوات نيويورك، وفى الجرح المتسع بالمبنى المجاور لمقابر آرلينجتون. ونحن نراه فى الوجوه العابسة لعمال الإنقاذ ذوى العزم، وفى المغزى الذى دفع المسافرين على الطائرات للقتال ضد الخاطفين. ونحن نراه فى التنوع الكبير فى ملامحنا، ولهجاتنا، ومعتقداتنا، بل حتى فى استجاباتنا. ولم يحدث أبدًا أن كان الشعار الوطنى أكثر منه الآن صدقًا: الكل فى واحد.

ولكن بالقدر نفسه كان تعبيرنا الرئيسى عن هذه الروح الوطنية الكثيفة، متوترًا بشكل رئيسى مع معناه الداخلى، لأن الشىء الذى نقدره فوق كل شىء عن أمريكا فى

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

هذه اللحظة هو الطريقة التى تقيس بها أملها بمبادئ الديمقراطية، والتسامح، والقانون، واحترام الآخر، وحتى التعاطف الاجتماعى. لقد كان موقفنا الوطنى الأسمى فى هذه الأزمة يكاد أن يكون دعوة عالمية للحرب، والواقع أن الميل المتنامى تجاه الحرب، والذى أججته بلاغة أكبر زعمائنا، ربما يتجسد حالاً فى الإعلان الرسمى من جانب الكونجرس للحرب. وقبل أن نمضى شوطًا أبعد، يجب أن نفكر جيدًا فى سبب توجهنا فى هذا المسار، وإلى أين قد يؤدى بنا، فهل بلاغة الحرب والأفعال التى حركتها فعلاً تخدم حقًا الغرض الملح لوقف الإرهاب؟ وهل شن الحرب هو حقًا الأسلوب الوحيد لإظهار حبنا لأمريكا؟

وقبل أن نمضى قدمًا، دعونى أقرر ما هو واضح. إذ إن الاتفاق السائد ـ على اتساع العالم تقريبًا ـ بأن الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن يجب مقابلتها بالقوة، أمر صحيح تمامًا. ويجب استئصال شبكة الانتحاريين الذين يقتلون بالجملة، مهما كانت كبيرة وأينما كانت تختبئ. بيد أن القوة يمكن ممارستها بشكل حاسم ومهيمن فى سياق مختلف عن سياق «الحرب». إذ إن إحدى مراحل التقدم فى الحضارة حدثت عندما وجد بنو الإنسان طريقة لتوجيه العنف الضرورى بعيدًا عن «الحرب»، وفى اتجاه سياق جديد موازن تجسد فى فكرة «القانون». وقد يبدو التمييز غاية فى الدقة بحيث لا يتناسب مع نتائج هذه الكارثة، ولكن التمييز يكتسى أهمية فائقة بعد الكارثة. ذلك أن الفرق بين «الحرب» و«القانون» ليس هو استخدام القوة. ويجب وضع الولايات المتحدة الأمريكية، مع كل حلفائها العالميين، لا على طريق الحرب، وإنما لشن حملة غير مسبوقة، وسريعة، وأكيدة، وضخمة لفرض القانون. وكما يتضمن مصطلح «فرض القانون»، فإن الاستخدام الصحيح للقوة يجب أن يكون جوهر هذه الحملة.

لماذا يهم مثل هذا التمييز؟ هناك أربعة أسباب:

* الحرب، تحديدًا، نشاط يتم القيام به ضد كيان سياسى أو اجتماعى، بينما الشبكة الإرهابية المسئولة عن هذه الكارثة، بحسب كل التقارير، هى تحالف بين أفراد، وربما يكون تحالفًا كبيرًا. أما فرض القانون، تحديدًا، فهو نشاط موجه ضد مثل هؤلاء الأفراد أو الشبكات. وبتغطية استجابتنا للأعمال الإرهابية ببلاغة الحرب، فإننا نتسبب فى أن يصبح من المرجح تعرُّضُ أعضاء الجماعات المرتبطة ـ بصفة عامة ـ مع المجرمين

(العرب، المسلمين، الأفغان، الفلسطينيين. . إلخ) إلى عواقب مرعبة، بداية من قصفهم فى كابول إلى ممارسة التفرقة العنصرية ضدهم فى بوسطون. وعلاوة على ذلك، فإن بلاغة الحرب، عندما تقع على مسامع مثل هؤلاء الناس (بليون مسلم)، تجعل من المحتمل تمامًا أن يروا أمريكا بوصفها عدوًا لهم.

* الحرب، تحديدًا، غير منضبطة نسبيًا. إذ يمكن اتخاذ خطوات لتحديد «الدمار المصاحب» ولكن أسلوب الحرب، فى الحقيقة، يتمثل فى ممارسة الضغط على بنية القوة المعادية بإلحاق المعاناة على المجتمع الذى هى جزء منه. ويكشف التاريخ عن أنه ما أن تبدأ الحروب حتى يصير العنف عامًا. وكما هدد الرئيس بوش، لا تمييز فى الأمر. أما فى فرض القانون، وعلى العكس، فإن التفرقة تبقى أمرًا جوهريًا. إذ إن فرض القانون يخضع لنظم يتم طرحها بعيدًا فى الحرب.

فهل نملك حقًا الحق فى طرح هذه النظم الآن؟

* والحرب، بالمثل، أقل اهتمامًا بالإجراءات من اهتمامها بالنتائج، أو بوضوح أكثر، فى الحروب تبرر الغايات الوسائل. أما فى فرض القانون، فتبقى الغاية مجسدة فى الوسيلة، وهذا هو السبب فى الحرص الشديد على الإجراءات فى نشاط العدالة الجنائية. والاستجابة لأى انتهاك خطير من جانب إرهابى للنظام الاجتماعى بمزيد من الانتهاكات لذلك النظام، تعنى أن الإرهابى هو الرابح.

* وتولد الحرب حتما حركتها الدافعة الخاصة، وهى قوة لها طريقتها فى الهيمنة على الأغراض الإنسانية التى بدأت الحرب من أجلها فى البداية. ففى أرض الموت التى يجرى عليها اشتباك العنف، يمكن النظر إلى النقد الذاتى على أنه شك فى النفس مهلك، ولهذا قوة الدفع الوحشية للحرب نادرًا ما يتم التعرف على حقيقتها قبل فوات الأوان. وقاعدة العواقب غير المقصودة تنطبق على الحروب بشكل عالمى. أما فرض القانون، من ناحية أخرى، بنظامه الذى يقوم على التحكم والموازنات بين الشرطة والقضاء، فهو نظام يقوم بالضرورة على النقد الذاتى. إذ إن الرابطة الأخلاقية بين الفعل والنتيجة سوف تكون محمية على الأرجح.

ما معنى «كسب» حرب ضد الإرهاب؟ كيف صارت كراهية أمريكا مصدرًا للمعنى لأعداد غفيرة، تفاقم فقرها لحالة حرب؟ هل يجب لحملة ضخمة من العنف المنفلت أن

http://www.al-maktabeh.com

تصبح مصدرًا جديدًا للمعنى لأمريكا أيضًا؟ لقد كان مركز التجارة العالمى رمزًا للأمل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى يدخره الأمريكيون، وهو أمل تجسد فى القانون قبل كل شىء. وأن نكسب النضال ضد الإرهاب يعنى إلهام نفس الأمل فى قلوب كل هؤلاء الذين لا يملكون الأمل. وكيفية استجابتنا لهذه الكارثة هى التى ستحدد وطنيتنا، وتشكل القرن، وتخلد ذكرى أحبائنا الموتى.

http://www.al-maktabeh.com

حداد البنتاجون

١٨ سبتمبر ٢٠٠١م

يوم ٢٢ يناير ١٩٤١م، وهو اليوم الذى وُلدت فيه، تم الافتتاح الرسمى للمبنى الجديد لأركان الحرب فى آرلينجتون. وكونى أنا والبنتاجون يشارك أحدنا الآخر فى هذه المناسبة السنوية يبدو وكأنه رمز تعريفى لحياتى، حينما صرت، وأنا ابن ضابط فى السلاح الجوى أنفق معظم حياته العملية فيما يسميه العاملون «المبنى»، مرتبطًا برباط وثيق بالبنتاجون، وإذ تم بناء البنتاجون على موقع كان يسمى من قبل باسم قاع الجحيم، فإنه حل محل مطار واشنطن الأصلى، مطار هوفر، الذى تم نقله إلى مكان أسفل النهر، وأعيد تسميته المطار الوطنى، لكى يفسح مكانًا للبناء الضخم الجديد. وتبدو تفاصيل هذا التاريخ المفقود أشبه بالأشباح الآن، بعد أسبوع من اقتفاء إحدى الطائرات المخطوفة مسار الهبوط القديم لتحط بشكل مميت، لكى تقتل الكثيرين وتغرس بقيتنا فى الحزن على الموتى، والحزن حتى على المبنى.

وليس كثيرًا جدًا أن أقول، إننى عندما كنت طفلاً، كنت أذهب هناك بعد المدرسة للقاء أبى، وقعت فى حب المكان الأثرى الذى يعمل به. والحقيقة أنها صارت نوعًا من اللحظة الحية بالنسبة لحبى له. فقد كانت ممراته ملعبًا، وتلتئم أجزاؤه فى أول مجمع للتسوق. وكان رجاله ونساؤه فى زيهم الموحد هم أول النجوم بالنسبة لى. وفى تلك الأيام البريئة لم يكن الحراس الأمنيون يحولون بينى وبين استكشافاتى، على الرغم من أنه فى مرة أو مرتين تم استدعائى بسبب تزحلقى على السلالم العريضة. وكطفل خفى لديه الحرية فى أن يتجول خلال سياج من أعلام المعارك وصور الأبطال المعلقة على

الحوائط، عرفت أننى يمكن أن أتوه، ولكن هذا لم يحدث أبدًا. وعلى أى حال، كان أبى يجدنى دائمًا.

ثم، بوصفى شابًا يعارض حرب ڤيتنام، ليس من المبالغة أن أقول إننى كرهت البنتاجون لفترة من الزمن، لأن ما أعرفه كان قليلاً إلى حد بعيد. إذ إن المظاهرات المعارضة للحرب والتى جرت هناك كانت، بالنسبة لى ولكثيرين غيرى، طقوسًا للدخول إلى نوع مختلف من الوطنية. بيد أننى وعلى خلاف الكثير من رفاقى المحتجين، لم أكن قادرًا أبدًا على رؤية البنتاجون بوصفه شرًا خالصًا «بيت الموتى»، كما أسماه البعض. وفيما بعد كان لى أن أفهم أن المعارضة ضد التصعيد فى ڤيتنام كانت تجرى بنفس القدر داخل المبنى وخارجه - بما فى ذلك اعتراضات أبى التى لم أعرف شيئًا عنها فى ذلك الوقت. وجاءت الحرب لتشكل فيما بينى وبين أبى شرخًا لم نعبره أبدًا. ولذلك فليس غريبًا أننى على مدى سنوات كثيرة بعد ذلك، اتخذت موقف اللامبالاة الحذرة تجاه المكان.

ثم حدث منذ سنوات قليلة مضت، وأنا أكتب مقالة لصحيفة New Yorker، أن أمضيت عدة أيام فى إعادة اكتشاف المبنى وتركيبته: وكان عنوان المقالة «الحرب داخل البنتاجون». وإذ أجريت مقابلة مع أحد كبار الموظفين، شعرت بقشعريرة وأدركت أننى كنت فى مكتب أبى القديم، أى نفس الحجرة بعد أربعين سنة. وفى الممر - بعد المقابلة - هاجمنى الشعور بأول حلم لى عن أمريكا. العزة التى يقف بها المبنى حارسًا على واشنطن من موقعه بين النهر والمقابر، جعلته يبدو المثوى الفعلى لفضيلة أمتنا. وفى ذهنى الشاب غير المجرب كان المكان يبدو مقدسًا.

وعلى الرغم من عدم اعترافى على مدى عقود طويلة بالإله الذى يعبده، فما اكتشفته يوم الثلاثاء الماضى، مع كثير جدًا غيرى، هو أن البنتاجون دائمًا يحتل مكانة حميمة فى قلبى. وفى حالتى، فإن الأمر فى الواقع يبدو كما لو كان المبنى وأنا توءمين، وكل منا يحمل علامات متشابهة عن التعقيد الأخلاقى الكامن فى الحياة الإنسانية. فقد كان البنتاجون وطنًا للأبطال الذين خاضوا الصراع ضد النازية والستالينية، ووطنا للذين انتقدوا حرب ڤيتنام من الداخل. بيد أن البنتاجون خيمت عليه ظلال التاريخ الأسود لعصرنا. إذ تبقى ڤيتنام، على أى حال، علامة جرح غائر. وربما ليس هناك

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

شىء يحدد الظلال أفضل من حقيقة أن الرجل الذى أشرف على تشييد المبنى، وهو البريجادير چنرال ليسلى جروڤز، انتقل لكى يشرف على مشروع ضخم آخر - مشروع مانهاتن - وهو ما أدى إلى تحريك عواقب ما تزال تتسبب فى الكوابيس للعالم. إذ إن مشروع مانهاتن باسمه ذاته يستدعى إلى الذاكرة هذا الأسبوع الهجمات على مانهاتن بطرق لم تخطر لنا على بال أبدًا.

فقد حدد الرئيس بوش نضال الأمة بأنه نضال بين الخير والشر، وهو مر مفهوم. وحوادث القتل التى جرت الأسبوع الماضى ليست سوى أعمال شيطانية. إلا أن هناك حكمة ندعيها فى عمر البنتاجون، لأنه فى هذه العقود تم انتزاع الافتراضات القائلة بالفضيلة الأمريكية المطلقة، بنفس الطريقة التى تنزع بها الحياة الشباب من كل شخص. فعند نقطة بعينها، نتوقف عن البحث عن آبائنا. إننا نعرف أنه حين يخلى التعقيد الأخلاقى مكانه للمانوية(*) التى تقسم العالم بين الملائكة والشياطين، فإن البشر هم الذين يتم اصطيادهم فى المنتصف. وكما نحزن على الناس الذين ماتوا فى البنتاجون، دعنا نشرفهم أيضًا بأن نمضى بنضالنا قدمًا، لا بالشجاعة فقط التى يقف المبنى من أجلها، ولكن أيضًا بالتواضع الذى يتطلبه تاريخه منا.

هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب

٢٤ سبتمبر ٢٠٠١م

عندما استخدم الرئيس بوش مصطلح «الحملة الصليبية» فى الأسبوع الماضى أنكر المتحدثون باسمه هذا المصطلح، ولأسباب قوية. ولكن بعيدًا عن كونها تاريخًا مضى منذ زمن بعيد يمكن أن نتنصل منه علنًا، فإن الحملات الصليبية خلقت حالة من الوعى ما تزال تشكل عقل الغرب، وإذا لم يكن الأمريكيون يعرفون هذا فإن المسلمين يعرفون. إننا يجب أن نأخذ ملاحظة الرئيس العفوية مناسبة للتفكير فى هذا.

يحصى الباحثون سبع أو ثمانى حملات صليبية حدثت فى فترة مائتى سنة بين سنة ١٠٩٦ وسنة ١٢٩١م. لقد كانت حروبًا تم شنها ضد الإسلام للسيطرة على ما أسماه

(*) عقيدة ذات أصل فارسى تقوم على فكرة الصراع بين الخير والشر. (المترجم).

المسيحيون الأرض المقدسة، ولكنها أيضًا تضمنت صراعًا وحشيًا بين اللاتين والأرثوذكس، ثم داخل المسيحية اللاتينية نفسها في نهاية المطاف. وليس فقط تبقى وحشية هذه الحروب في الذاكرة في مناطق شاسعة من العالم اليوم، وإنما أيضًا لأن الخطوط التي رسمتها تبقى حدودًا خلافية حتى الآن ـ على نحو ما تكشف الحروب التي جرت في البلقان في تسعينيات القرن العشرين. وهناك على الأقل أربعة أعمدة أو ركائز رئيسية للعقل الغربي، وضعتها الحروب الصليبية.

* كانت الحروب الصليبية هي المرة الأولى التي يتم فيها تعريف العنف من جانب الكنيسة على أنه فعل مقدس. «إنها إرادة الرب» كانت صيحة المعركة التي شن بها البابا أوربان الثاني الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥م. فكل من «يأخذ شارة الصليب» لمحاربة الكفار كان ينال الغفران، فإذا ما قتل، يضمن مكانًا في السماء. وجاءت الحماسة والطاقة من أجل الحرب من الاقتناع بأن، كما صاغها الرئيس بوش في خطابه إلى الكونجرس، «الرب ليس محايدًا». إذ يذهب الصليبيون إلى الحرب وهم واثقون بأن الرب يباركهم.

* يقسم العقل الصليبي العالم إلى «نحن» و«هم». والواقع أن الحملات الصليبية كانت جهدًا متعمدًا لجعل أمراء أوروبا يتوقفون عن محاربة بعضهم بعضا ويحاربون العدو في الخارج بدلاً من ذلك، ونجح الجهد. وقد أسست الحملات الصليبية اتفاقًا أيديولوجيا جامعًا بين المسيحيين، أدى في نهاية الأمر إلى توحيد البنى السياسية والثقافية. والواقع أن أوروبا لم تصبح «أوروبا» حتى عرَّفت نفسها في مواجهة الإسلام، وذلك الإنكار يبقى كامنا في ثنايا فهم الغرب لذاته اليوم.

* ولكن التعبئة ضد العدو الخارجي تؤدي حتمًا إلى خوف البارانويا من الأعداء في الداخل. فأي شخص لا يشارك في الاتفاق الجديد كان يُعَدّ خطرًا حالاً. وصارت الحرب ضد الإسلام في الخارج حربًا ضد المخالفة في الداخل. وهذا هو السبب في أن «المنشقين»، أو المسيحيين الأرثوذكس، والهراطقة الألبيجنسيين، سرعان ما أصبحوا هدفًا للحملات الصليبية أيضًا.

* ولكن العدو النهائي في الداخل كان اليهود بطبيعة الحال. ذلك أن الحركة من نزعة معاداة اليهود الدينية من جانب الكنيسة الباكرة، إلى معاداة السامية في العصر

http://www.al-maktabeh.com

الحديث، استمدت أكثر منعطفاتها حسمًا من الحملة الصليبية الأولى، التى كانت هى المناسبة، فى أراضى الراين ربيع سنة ١٠٩٥م، لوقوع أول مذبحة منظمة واسعة النطاق فى التاريخ الأوروبى. وقد عارض زعماء الكنيسة العنف ضد اليهود فى الحملات الصليبية التالية، ولكن دون إدانة أبدًا للافتراضات اللاهوتية الكامنة التى جعلت هذا العنف حتميًا. وزعماء اليوم يشجبون الكراهية العامة ضد المسلمين، ولكن هوية حربهم ضد الإرهاب قد تجعل من هذه الكراهية أمرًا محتومًا.

وما هى الأسئلة التى يطرحها هذا التاريخ علينا:

* هل يمكن أن نستجيب لهذه الأزمة دون أن نقسم العالم مرة ثانية إلى «نحن» و«هم»؟ أمن الحكمة، مثلاً، بالنسبة لأمريكا أن تصر على اختيار عالمى للفرقاء، وهو ما يمكن للإسلام، أن يسمعه على أنه نفس صيحة الحرب القديمة؟ هل يمكننا أن نعول على تأييد أولئك الذين وقعوا فى فخاخ المتصف، مثل برويز مشرف فى باكستان أو الزعماء العرب الآخرين، دونما أن نستثير جماهير بلادهم ضدهم؟

* هل يجب أن نعرف هذا الصراع باللغة الكونية ـ والتى تبرر نفسها ـ عن الخير ضد الشر؟ ومثلما يصدق هذا على كل صراع إنسانى، فإن هذا الصراع غامض ومبهم أخلاقيًا. ولم يكن ثمة غموض حول الشر فى هجمات الحادى عشر من سبتمبر، ولكن تلك الهجمات برزت من طيات مجموعة معقدة من الأحوال السابقة، وبعضها يتضمن استحقاقنا للوم الأخلاقى. ينبغى على أمريكا أن تتصرف فى هذه الأزمة بمعرفة كاملة لقدرتها الخاصة على إتيان الأخطاء القاتلة وارتكاب الأفعال الشريرة. ولا يجب على أمريكا أن تعرّف الاختلاف على أنه عدم ولاء.

* هل الحرب هى استجابتنا الوحيدة الممكنة لهذه الأزمة؟ فبالإضافة إلى تسليم الإرهابيين إلى العدالة، ألا يكون تصرفنا صحيحًا تمامًا الآن إذا ما بدأنا جهدًا ضخمًا متزامنًا لمخاطبة المصدر النهائى للإرهاب ـ أى الإفقار الجذرى لملايين الناس، لاسيما فى العالم العربى، ولاسيما فى الضفة الغربية وغزة؟ هل يمكن أن يأتى من أمريكا ما هو أكثر من صواريخ كروز، و MTV؟

إن الطريقة الوحيدة «هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب على الإرهاب» فى عبارة الرئيس، لن تكون إعادة عرض الجرائم والمآسى الماضية، إذا أدنّا عقلية الصليبى وليس

http://www.al-maktabeh.com

مجرد كلمة «حملة صليبية». ويمكن أن نبدأ بالاعتراف، أولا، بأنه عندما يذهب البشر إلى الحرب، فإن الرب لا يريدها بأى حال من الأحوال.

يوم ميلاد غاندى

٢ أكتوبر ٢٠٠١م

عندما أكد رئيس الوزراء الإيطالى سيلفيو برلسكونى، الذى عين نفسه متحدثا باسم الغرب، فى الأسبوع الماضى «تفوق حضارتنا»، فإن المرء يعجب ما الذى كان مهاتما غاندى سيفيد منها. ويثور السؤال لأن اليوم هو عيد ميلاد غاندى. ما الذى يمكن تعلمه من عبرة الأزمة الحاضرة فى ضوء حياة الزعيم الهندى وتعاليمه؟

ولد موهانداس كرمشاند غاندى فى الهند لعائلة من طبقة التجار سنة ١٨٦٩م. وفى شبابه درس القانون فى لندن وانطلق للممارسة فى دوربان بجنوب إفريقيا. وتشكلت السنوات العشرون التى أمضاها فى جنوب إفريقيا بالنضال ضد البنى العنصرية فى البلاد. وفى مذكراته يحدد غاندى تاريخ تحوله إلى المقاومة السياسية غير العنيفة فى اجتماع احتجاجى فى چوهانسبرج، وكانت السنة هى ١٩٠٦م، وكان اليوم هو الحادى عشر من سبتمبر.

وعندما عاد غاندى إلى الهند صار جزءاً من حركة حكم الوطن، والتى تطورت على مر عشرات السنين إلى حركة استقلال كاملة وصار زعيمها الأساسى. وإذ اتبع إستراتيچيات عدم التعاون والعصيان المدنى، نمت الحركة واتسعت. وكانت إحدى ذراها، سنة ١٩٣٠م، هى «الزحف إلى البحر»، حيث تجمع الآلاف لعمل ملحهم الخاص بهم احتجاجًا على ضريبة حكومية على الملح. كان الوقت الذى أمضاه فى السجون البريطانية، وفترات الصيام العام القاسية، والزهد المتطرف، وما اكتشفه فى تراث ديانته الهندوسية، من المصادر الروحية التى ثبتت النضال السياسى الكبير - كل هذه كانت علامات بارزة فى حياة غاندى. إذ إنه لم يعارض فقط الاستعمار البريطانى ولكنه عارض أيضا النظام الطائفى الهندى، لم يعارض الراچ فقط ولكن الاضطهاد الذى كان الهنود يعانونه على أيدى طغاتهم. وقد أسبغ عليه أتباعه اللقب التشريفى «مهاتما»، أو «الروح الكبيرة». وفى سنة ١٩٤٧م تم تحقيق استقلال الهند. بيد أن

http://www.al-maktabeh.com

الصراع لم ينته. إذ إن الطوائف المسلمة والهندوسية وقفت بعضها قبالة بعض، وهو انفصام أدى إلى تأسيس بلدين مستقلين، پاكستان والهند. وعارض غاندى الانفصال. وفى سنة ١٩٤٨م قام بصيام عام لصالح الصداقة الإسلامية ـ الهندوسية. وفى غضون أيام تم اغتياله على يد متطرف من أبناء طائفته الهندوسية.

وتحظى نزعة غاندى السلمية بالإعجاب فى صيغتها المجردة اليوم، ولكن فى الممارسة يتم رفضها على نطاق واسع بوصفها نزعة مفرطة فى المثالية، بل وبوصفها غير مسئولة أخلاقيًا. وأسوء فهم نزعة غاندى السلمية بوصفها رفضًا لمقاومة الشر أو معارضة العنف، على حين أنها فى الحقيقة شكلت بعض أقوى أعمال المقاومة فى القرن العشرين. ولقد برهن رفض غاندى العنف على أنه قوة لا يمكن إيقافها أدت إلى تحولات سياسية حول العالم، من الولايات المتحدة (مارتن لوثر كنج چونيور) إلى أيرلندا (چون هيوم)، إلى الفيليپين (كورازون أكينو) إلى الاتحاد السوفييتى (ليخ ڤاليسا). والحركة التى تعرفت على غاندى بوصفه بطلا مؤسسًا، كانت أعظم حدث أخلاقى فى القرن، كما أنها كانت أيضًا أكثر فعالية من الناحية السياسية.

وأن نلاحظ عيد ميلاد غاندى اليوم، فى ضوء المخاطر المتصاعدة من الإرهاب، ومنظور الصراع بين الغرب والإسلام، والكابوس الخاص الذى تمثله الأسلحة النووية فى شبه القارة الهندية، إنما هو يعنى أن نتذكر أن الكثير لم يكن قد تم إنجازه عندما مات غاندى. فعلى أى حال، اغتال إرهابى غاندى، وفشل أمل غاندى فى تحقيق السلام الهندوسى مع الإسلام، وانطلق خلفاؤه يعكفون على برنامج الهند الخاص بالأسلحة النووية. ولكن شيئًا من هذا لم يمح النظرة الثاقبة العظيمة التى جلبها غاندى إلى العالم (وهذا ما أتذكره بمساعدة من الكتّاب چون سى. ديون، ومارتين جرين، وسيسلا بوك، وتايلور برانش، وچوناثان شل). وقد بدأ غاندى بالتبنى العاطفى «للحب»، كما وجده فى قراءة تولستوى للمسيح، ثم تحرك صوب تقدير العصيان المدنى عند ثورو، وابتكر مفهومًا جديدًا للاعنف الذى هو مقاومة مانعة. وفكرته التى حملها وهو يعبر ذهابًا وإيابًا بين ثقافة وأخرى، تحترم تمامًا الاختلافات الدينية والثقافية ـ على عكس بيرلسكونى مثلاً. إذ إن غاندى اعتمد ببساطة شديدة على ما أسماه «ساتياجراها»، أو قوة الحقيقة. إن الحقيقة سوف تحررك. لقد كانت إستراتيجية غاندى طوال حياته أن يجلب لحظات التعميد (الغطاس) عندما تصل الجماهير العريضة لمعرفة

حاسمة سياسية وأخلاقية . وكانت تعاليم غاندى تقول إن أعمال المقاومة التى تعرى الشخصية الحقيقية للشر سوف تؤدى إلى رفض واسع المدى لذلك الشر . ويشى تاريخ الحركات المذكورة فيما سبق بأن هذا ليس سوى الضعف التافه الذى يهزأ منه أولئك الذين يفضلون الحرب .

كانت أحداث الحادى عشر من سبتمبر هى النقيض تمامًا «للساتياجراها» ، ولكنها كانت لحظة الحقيقة فى تاريخ العالم ، كانت تعرية كاملة للشر المتمثل فى الإرهاب العالمى . والأكثر من ذلك ، تصاعد الهجوم الوحشى على آلاف من المدنيين الأبرياء ليكون نوعًا من الظهور كان يمكن أن نرى فيه المعنى الحقيقى للعنف المعادى للحضارة بوضوح نادر . وأخيرًا ، فإن الحرب ضد المدنيين ، وهى الصيغة الرئيسية للحرب على مدى ما يزيد على نصف قرن من الزمان ، ظهرت على حقيقتها . ويجب للاستجابة الأمريكية أن تحتفظ بهذين الظهورين - بمقاومة الإرهاب ولكن دونما شن حرب بلا تمييز . ولم يكن إيمان المهاتما غاندى بقوة الحقيقة ، واستعداد بنى البشر للتغير حينما يواجهون الحقيقة ، فى مثل هذه الصورة الحية للأمل أبدًا قبل .

الدين: مشكلة أم حل؟

٩ أكتوبر ٢٠٠١م

يمضى السياسيون والمعلقون شوطًا كبيرًا للتأكيد على دين المسلمين ، رافضين زعم الإرهابيين بأن جريمة ١١ سبتمبر الشنعاء كانت عملاً من أعمال التقوى الإسلامية . وهذا ما ينبغى أن يكون . فالإسلام دين نبيل يؤكد على «التسليم لله» والحب الحميم للجار . إنه مصدر يحمل المعنى للملايين ، حسبما يؤكد المعلقون ، وكل هذه الملايين - باستثناء شرذمة صغيرة - يرفضون العنف والوحشية التى يتسم بها الإرهابيون . وكان الزعماء الدينيون المسلمون صرحاء واضحين فى إدانة الهجمات الغادرة ضد أمريكا . بيد أن هناك شيئًا مفقودًا فى التأكيد بحسن نية على أن الإسلام دين نقى تمامًا ولا صلة له بالأفعال الشريرة التى تم ارتكابها باسمه . فمع كل هذا العنف الذى تم ارتكابه باسم الله من جانب متدينين من مختلف الأنواع حول العالم ، ثمة سؤال قديم يطرح نفسه ،

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وهو ليس عن الإسلام وحده: هل الدين هو الحل، أم هو المشكلة؟ أم أنه كلاهما معا؟

قال رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير فى الأسبوع الماضى إن الهجمات الإرهابية لم تكن انعكاسًا للإسلام الحقيقى، أكثر مما كانت الحملات الصليبية انعكاسًا للأناجيل. وهو رأى عادل تمامًا. بيد أن المقارنة تحمل الإرشاد فى طياتها. إذ إن المسيحيين اللاتينيين يحبون أن يكونوا قادرين على القول بأن المتعصبين المهيجين الذين هاجموا القدس سنة ١٠٩٩م كانوا يتصرفون بطرق لا علاقة لها بالعقيدة المسيحية أو الممارسة المسيحية، وهذا مثال واحد فقط، ولكن الحقيقة ـ وهذا ما يجعل الحملات الصليبية تسبب الرجفة على هذا النحو ـ أن الحرب المقدسة كانت مرتبطة ارتباطًا داخليًا باللاهوت (عنف الرب) والطقوس المسيحية (شارة الصليب) وبالسلطة (البابوات الصليبيون). واليوم، نحب أن نفكر فى الدين بوصفه أحدتلك الجوانب الإيجابية فى الحياة. ونسرع فى رفض التصرفات السلبية أو المواقف السلبية التى يفرخها الدين بحسبان أنها ليست «دينية» حقًا. ويفعل الڤاتيكان هذا بالتأكيد على الكنيسة الكاثوليكية بلا خطيئة تمامًا، وهو ما يعنى أن جرائم الكنيسة (الحملات الصليبية، ومحاكم التفتيش. . إلخ) قد ارتكبها أعضاء خُطاة، ولم ترتكبها الكنيسة أبدًا. فالدين جيد. وإذا كان الدين يحبذ السلوك السيء، فهو ليس دينًا حقيقيًا.

بيد أن هذه الطريقة فى التفكير تُعفى الدين من المسئولية. وهو ما يعنى أننا يمكن أن نأسى «لخطايا» الأعضاء الخاطئين دون طرح أسئلة صعبة عن من أين أتت تلك الخطايا. ولكى نبقى مع المثال المسيحى، هل كانت الأعمال التى لا نَهاية لها لمعاداة السامية المسيحية انحرافات، أم أنها كانت على نحو ما مرتبطة بالنصوص المعادية لليهود فى العهد الجديد، أو بالطريقة الأصولية التى عرفت بها المسيحية نفسها ضد اليهودية، وهكذا؟ وإذا ما كانت اللاسامية انحرافًا، فإن الاعتذار عن أفعال «الأعضاء الخطاة» يكفى. أما إذا كانت معاداة السامية قد نمت من طيات عقائد وممارسات جوهرية، فإن الاعتذار لا يكفى؛ فلابد من تغيير المعتقدات والممارسات. وإذا كانت الجرائم التى ارتكبت باسم الدين يمكن فصلها بسهولة عن الدين «كما هو»، فإن الفهم الكامل لهذه الجرائم، ووجود طريقة لمقاومتها، قد يصعب علينا إدراكه.

ومن الواضح أننى أتكلم هنا عن جميع الأديان. ومن التضليل وعدم الفائدة أن نفكر فى الدين بوصفه أمرًا خطيرًا خالصًا. فالدين مثل كل شىء فى الشئون الإنسانية، مبهم - جيد جزئيًا وسىء جزئيًا: جزء حل وجزء مشكلة. فقد ساعد الدين على التحسينات الكبرى فى الحياة الإنسانية، وما يزال يدعم بعض أعظم أعمال العالم من أجل الخير. ولكن الدين أيضا يخلط بسهولة ما بين هدف عبادته - أى الرب - وما بين الدين نفسه، وغالبًا ما يدفع الكائنات البشرية إلى زعم مزاعم مطلقة تؤدى حتما إلى كارثة مطلقة. إذ يمكن لمشاعر التفوق الدينى أن تؤدى إلى، وهى تؤدى بالفعل إلى التصنيف على أساس العرق، والقومية، والجنس، والطبقة. ويمكن للدين أن يصنع تحالفات غير مقدسة مع التجارة ومع الغزو، على نحو ما حدث طوال عصر الإمبريالية الأوروبية. ذلك أن المزاعم الأحادية للموحدين يمكن أن تؤدى إلى احتقار البشر الذين لا يشاركونهم، والنهاية المفتوحة للشرك يمكن أن تقوض التمايزات الجوهرية للفكر. كما أن اليقين الذى غالبًا ما يصاحب ظاهرة «الإيمان الحقيقى» يبدو دائمًا أنه يؤدى إلى استئصال قاس لما قد يهدده، أو مَن قد يهدده. والدافع الدينى للموت فى سبيل العقيدة ينزلق بسرعة شديدة إلى الدافع للقتل من أجلها.

ليست هناك جريمة يتصرف فيها المسلمون على نحو ما اتهم به المسلمون، لم يتهم التاريخ المسيحيين - لنكتفى بذكر دين واحد آخر - بها. فلكى تكون متدينا يعنى أولاً أن تكون تائبًا نادمًا. وسيكون خطر «صدام الحضارات» أو حتى حرب مقدسة جديدة بين بقايا الغرب المسيحى و«العالم الإسلامى»، سيكون أقل كثيرًا إذا ما فهمنا جميعًا أننا كلنا متشابهون بوصفنا بشرًا. وأنبل دوافعنا تأتى حتما مجدولة متشابكة مع الميول المعاكسة التى تخونها. نحن البشر المتدينين يجب أن نخضع باستمرار لحكم التاريخ، ونمارس النقد الذاتى، ونسعى دومًا إلى الإصلاح الذى سيقربنا إلى أحسن مثلنا العليا. ومن المؤكد أن الإسلام مشتبك فى حساب من هذا النوع اليوم. بيد أن هذا العمل يتعلق بكل الناس المتدينين - الطريق الوحيد لتبجيل الرب، ولأن نحب جارنا كما نحب أنفسنا.

***

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(٢)

أفغانستان

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

بعد ١١ سبتمبر بوقت قصير، قال نائب وزير الدفاع پول د. ولفويتز إن الهدف الأمريكى كان هو «القضاء على» الدول التى ترعى الإرهاب. وفى حالة القاعدة، تبدو مسألة «الرعاية» مسألة معقدة، لأن المجموعة بدأت فى ثمانينيات القرن العشرين قوة تدعمها الولايات المتحدة لمقاومة الاحتلال السوفييتى لأفغانستان.

ولأن القاعدة شديدة فى إسلاميتها فإنها تحالفت مع الفاشية الدينية ممثلة فى طالبان فى حربها ضد الفصائل المنافسة داخل أفغانستان. وعندما طلب الرئيس بوش من زعماء طالبان «تسليم» بن لادن بعد ١١ ـ ٩، كان أبعد ما يكون عن الوضوح أنهم يمتلكون القوة التى تؤهلهم لعمل ذلك. وتم إغفال طلبات طالبان بتقديم الدليل على ارتباط القاعدة بالهجمات الإرهابية.

وفى ٧ أكتوبر ٢٠٠١م، بدأت الولايات المتحدة قصف أفغانستان. وإذ بدأت بألمانيا واليابان فى الحرب العالمية الثانية، واستمرت فى جنوب شرق آسيا، وفى حرب الخليج الأولى، وفى تسعينيات القرن العشرين فى البلقان، كانت عقيدة الپنتاجون فى الألم الذى يتم إنزاله من الجو، تبرهن على كونها عقيدة مطلقة. والآن يظهر القصف الإستراتيجى مرة أخرى بوصفه المنهج الأمريكى الأولى فى تحقيق أهداف السياسة الخارجية. فالضربات الجوية، بما فى ذلك قصف ڤيتنام بأسلوب «مسح السجادة» عن طريق طائرات B 52، لم تكن تركز على أهداف القاعدة بطريقة انتقائية. وربما كان السبب فقط هو أن طالبان يمكن استهدافها، فى أن طالبان حلت محل القاعدة بحسبانها العدو الرئيسى لأمريكا. وبعد ذلك بشهرين، كانت عملية «الحرية الباقية» قد أجهزت بنجاح تام على نظام طالبان. وخسرت الولايات المتحدة خسائر قليلة. وأوضح الپنتاجون موقفه من عدم إحصاء خسائر «العدو»، ولكن المصادر الموثوق بها

تقترح أن حوالى أربعة آلاف من مقاتلى طالبان تم قتلهم، وما يقرب من هذا العدد من المدنيين الأفغان ماتوا نتيجة للحملة التى قامت بها الولايات المتحدة. وتقريبا لم يعرف أن أحدًا من قادة القاعدة أسر أو قتل فى ذلك الوقت. ولم تفعل الحرب شيئًا لضرب خلايا القاعدة خارج أفغانستان، على الرغم من أن هجمات الحادى عشر من سبتمبر يبدو أنها قد نظمت فى هامبورج بألمانيا، وفى فلوريدا، وفى أفغانستان كذلك. وعلى العكس، فإن الحرب عززت صورة القاعدة فى الجهاد، والولايات المتحدة تتصرف تمامًا مثلما كان أسامة بن لادن قد توقع ـ وعلى النحو الذى أراده.

وهرب بن لادن. ومن بين سبعة آلاف أو نحو ذلك من محاربى ومقاتلى القاعدة ذوى المستوى الأدنى تم أسرهم، تم نقل أكثر من ستمائة إلى معتقلات الولايات المتحدة. وأكدت إدارة بوش أن معاهدة جنيف لمعاملة أسرى الحرب لا تنطبق عليهم، على الرغم من أن الأمريكيين عندما تم أسرهم على أيدى محاربى طالبان، طلبت واشنطن ـ وحصلت على ما طلبته ـ مراعاة شروط اتفاقية جنيف. وبعد ذلك بأكثر من عامين، كان ما يزال هناك أكثر من ستمائة محتجز من أربعين بلدًا فى معسكر دلتا فى خليج جوانتانامو، بكوبا، فى انتهاك للقانون الدولى والتقاليد الأمريكية. وبنهاية الحرب تم تأسيس شبكة سرية من السجون الحربية للولايات المتحدة عبر العالم.

كان الإنجاز الإيجابى الوحيد لعملية «الحرية الباقية» هو «القضاء على» نظام طالبان الرجعى، كما لو كان الغرض من حرب بوش هو تحرير النساء الأفغانيات ـ بل إن ذلك كان محل تساؤل فى غضون سنة. ولكن الحقيقة، كما أظهرتها الأحداث منذ ذلك الحين، أن أحدًا لم يتحرر حقًا بحرب أفغانستان. فبهروب بن لادن، لم يشف الأمريكيون غليلهم فى الانتقام. فلم تكن هذه الحرب كافية.

ولكن ما الذى تغير؟

١٦ أكتوبر ٢٠٠١م

تغيرت أمريكا إلى الأبد بكارثة الحادى عشر من سبتمبر ـ هكذا يقولون. ولكن أى نوع من التغيير؟ فعلى نحو ما تكشفت استجابة الولايات المتحدة فى الوطن وفى الخارج، فإن الاهتمام انصب على تحريك القوات. ويمكن أن يكون التغيير إلى الأسوأ

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

بدرجة كبيرة. فالعنف المتصاعد، والحقوق المدنية المتآكلة، والاقتصاد المستقطع، والصدام المميت بين الديانات والحضارات، والأسلحة النووية فى پاكستان، وحرب فى أفغانستان ـ لقد صرنا خبراء متحكمين فى الأخطار التى قد تكون كامنة أمامنا. ولكن ألا ندين بهذا لجاذبية هذه اللحظة؟ ناهيك عن أولئك الذين ماتوا، لكى نتخيل بوضوح تام ماذا يعنى «التغيير نحو الأفضل»؟ ماذا لو أن كارثة ١١ سپتمبر أنتجت، على المدى الطويل، المعرفة والمبادرات التى تجعل أمريكا ـ والعالم ـ مكانًا أفضل كثيرًا؟ غرضى هنا ببساطة أن أدعو إلى حركة بعيدة عن السياق الحالى الذى يظل بالضرورة رهن غيوم التهديدات والأسئلة.

بدلا من ذلك اذهب بعقلك إلى الأمام خمسين سنة أو نحوها. حينما ينظر البشر إلى أحداث ١١ سبتمبر بوصفها ماضيًا، من مكان فى منتصف القرن، فهناك ما آمل أنهم سوف يرونه:

* منعطفًا تتخلى فيه الإقليمية من كل نوع عن أولوليتها لرؤية مشتركة واسعة النطاق لعالم واحد. والحث المفهوم للناس فى «العالم الأول» على السعى وراء مصالحهم الذاتية بغض النظر عن سكان الأرض الآخرين قد عُدّ وهمًا يؤدى إلى هزيمة الذات. كما أن بنى الحكم السياسية التى يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر أخلت مكانها لنظم حكم تعكس ما فعلته تكنولوچيا القرن الحادى والعشرين للوعى العالمى. وهذا التحول لم يجعل من الأرض مجتمعًا واحدًا أحاديًا ومن ثم شموليًا، بل جعلها مجتمعًا يتكون من عدة مجتمعات، مع الاحترام الكامل للاختلافات الإقليمية والدينية وتبقى عبارة «فليبارك الرب أمريكا» شعارًا ولكن داخل شعار «فليبارك الرب العالم».

* نقطة تحول، يتحول عندها الأسلوب الأساسى فى حل مشكلات العالم من ثقافة الحرب صوب ثقافة القانون. وحدث التغير الحاسم عندما تم القبض على أسامة بن لادن ومساعديه بقوة تعمل وهى محكومة بالقانون. ولم يتم إعدامه بسرعة وهو ما يزال متعبًا، وإنما مثل للمحاكمة أمام محكمة جنائية دولية جديدة نظرت فى القضية المرفوعة ضده وضد شبكته. وتم منحه فرصة للدفاع، وفعل ذلك. كما أن توسلاته الزائفة للمسلمين ذهبت سدى. وقد أدين هو ومساعدوه وتم سجنهم على مدى الحياة. هذه الممارسة الطفرة للقانون الدولى بحد ذاته غيرت الطريقة التى استجاب بها البشر حتى إزاء الاستفزاز المتوحش.

* نقطة انعطاف تم الإدراك عندها أن الفقر الجذرى للملايين بوصفه مسألة أخلاقية ملحة ومصيبة سياسية يجب معالجتها سياسيًا على مستوى العالم. فالجوع بحسبانه مربيًا حتميًا للعنف تم تحديده أخيرًا بوصفه شكلاً من أشكال العنف فى حد ذاته. وتم عمل المواءمات بالطريقة التى تفهم الرأسمالية الديمقراطية نفسها بها، مع أسواق لم تعد تعمل بحسبانها الوسطاء الوحيدين لتدفق الأموال والموارد. وقد جعلت تكنولوچيا المعلومات من الممكن القيام بثورة تعليمية أدت بدورها إلى نشر الديمقراطية، والتسامح، وبخاصة حقوق المساواة للمرأة. لقد وجدت الرأسمالية وجهها الإنسانى.

* نقطة تحول تمت عندها رؤية القوة القائمة على أساس التهديد الشامل الموجه إلى المدنيين على حقيقتها - ليس فقط بين الإرهابيين ولكن بين الأمم التى ما تزال تحتفظ بترسانات من الأسلحة النووية بعد أن انقضت تبريرات الحرب الباردة بزمن طويل. وتم فهم الإرهاب على أنه السلاح النووى للفقراء. وبالإضافة إلى محاربة الإرهاب، تحولت الدول النووية ضد نظرياتها الخاصة عن الردع، لأنها أيضًا كانت قائمة على الاستعداد لارتكاب جرائم قتل جماعية. وبدأت واشنطن بإدانة أول استخدام للأسلحة النووية، وقامت من جانب واحد بتدمير الرؤوس الحربية، وأعادت التزامها بمعاهدات الحد من الأسلحة، كما أعادت تأكيد هدف التخلص نهائيًا من الأسلحة النووية. وفى هدوء سقط برنامج الصواريخ الدفاعية من الأچندة الأمريكية. وتمت هزيمة الإرهاب عندما تم التخلص من «ميزان الرعب».

واليوم تبدو مثل هذه التغيرات أحلامًا مستحيلة، ولكن هل هى كذلك؟ أليست الأزمة الحالية كشفا عن أرضية العدم التى تنتظر البشر فى نهاية الأمر إذا ما استمرنا فى تحديد إحساسنا بالممكن بمصطلحات ضيقة، ذلك أن «الواقعية»، لم تعد واقعية؟

ليس هناك علاج للكرب الذى حل فى الحادى عشر من سبتمبر، كما لو أن مثل هذه الخسارة يمكن تحويلها إلى مكسب. بيد أن هناك طريقًا لجعل ما حدث فى ذلك اليوم أشد سوءًا - إذا ما كنا فى استجاباتنا له، لا نغير جذريًا الطريقة التى نعيش بها على سطح هذا الكوكب، بداية بالكيفية التى نستجيب بها لأولئك الذين يكرهوننا. وفى الشهر الماضى برقت قصيدة دبليو. هـ. أودين التى تحمل عنوان «١ سبتمبر ١٩٣٩م». عبر الإنترنت، وأعتقد أننى أعرف السبب فى هذا بسبب خطها الأبسط والأصدق والأشد صعوبة، وهو خط طور الصراع داخل أودين نفسه على نحو ما كشفت

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الأحداث بعد أن كتب القصيدة. ولكن خطه بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، لم يعد يبدو أكثر بساطة، ولم يبْد أكثر صدقًا، وأبدًا ليس أشد صعوبة «يجب أن نحب بعضنا بعضًا، وإلا فالموت لنا.

إعادة تأمل القصف بالقنابل

٦ نوفمبر ٢٠٠١م

عندما وقع نظرى للمرة الأولى على الطائرة B 52 فى منتصف خمسينيات القرن العشرين، صدمنى شعار القيادة الجوية الإستراتيجية المنقوش على جسم الطائرة: «السلام حرفتنا». مثل هذه الكلمات على طائرة حربية مخيفة كانت نوعًا من العزاء وأردت أن أصدقها. وحتى وأنا صبى، مع هذا، كنت بالغريزة متناغمًا مع التعقيد الأخلاقى للقصف بالقنابل، ولم أكن فى دهشة عندما تم الكشف فى أثناء حرب ڤييتنام، عن أن هذا الشعار كذبة كبيرة. فقد كانت حرفة تلك الطائرات هى أن تشفى غليل الانتقام، فترة من الزمان. وفى الأسبوع الماضى تم إرسال طائرات B 52 للعمل فوق أفغانستان، وهى الممارسة الأولى فى القصف بطريقة «مسح السجادة». وإطلاق سراح هذه الطائرة ـ الشبح القاسية، التى تسقط حمولات غير دقيقة من القنابل على ارتفاع أربعين ألف قدم، نذير مرعب. وأيًا كانت التبريرات الواسعة للحرب التى تقودها الولايات المتحدة ضد الإرهاب، فإن الطريقة التى تُصعِّد بها هذه الحرب القصف الوحشى المتزايد تصرخ مطالبة بإعادة النظر.

فما أغراض القصف؟ وما آثاره؟ هذا السؤال المباشر لم يحْظ بالإجابة الحقيقية أبدًا من جانب حكومتنا. ذلك أنه يتم توجيه الحرب الجوية فى أفغانستان خلف ستار من السرية ـ ولكن حجابًا من السرية يحجب الأمريكيين وليس الأفغان الذين تنفجر هذه القنابل فوقهم. وتصرُّ حكومتنا على أن المدنيين ليسوا مستهدفين، وأن طالبان تزعم وقوع أعداد كبيرة من الضحايا المدنيين كنوع من الدعاية. ولكن أيًا كان مقدار توقنا إلى أن نجد عزاءنا فى التمييز بين الأهداف المدنية والأهداف العسكرية، فإن القصف بالقنابل على طريقة «مسح السجادة» لا علاقة له بهذا، ويشى تاريخ القصف بالقنابل بأن هذا التمييز فى حد

ذاته كذب فى كذب. و«تاريخ القصف بالقنابل ـ A History of Bombing» هو عنوان كتاب ألفه كاتب سويدى هو سفين ليند كفيست، واكتشافاته، تعلمنا الكثير.

وأحد البلاد الأولى التى تم قصفها كانت، من سخرية القدر، هى أفغانستان، فى أثناء فترة المغامرة الإمبريالية البريطانية سنة ١٩١٩م. وبعد الحرب العالمية الأولى، أعلنت هيئة القوات الجوية البريطانية أنها سوف تفرض قيوداً لحماية المدنيين من أعمال القصف، ولكن مذكرة داخلية حددت هذا الإعلان بأنه صدر «للحفاظ على المظاهر» لأن «الحقيقة هى أن أعمال الحرب الجوية قد جعلت مثل هذه القيود عديمة الفائدة ومستحيلة». وهكذا طرحت المعضلة نفسها عند بداية انطلاق عصر القصف الجوى ذاته. وفى سنة ١٩٤٠م، امتد التعريف البريطانى «للهدف العسكرى» لكى يشمل المراكز الصناعية ومنازل العمال ـ وهو ما كان يعنى أن مراكز المدن سوف يتم ضربها. وقد قاوم الاستراتيجيون الأمريكيون مثل هذا الاستهداف المتوازن للمدنيين فترة من الوقت، ولكن بنهاية الحرب العالمية الثانية، اشتبكت الولايات المتحدة بسعادة فى قصف جوى ضخم لكل المدن اليابانية، وبخاصة طوكيو.

وحتى فى ذلك الوقت، كانت ثمة تفرقة بالشفاه بين المدنى والعسكرى على سبيل التعزية، كما لو كانت هناك مراعاة لذلك حقا. ومن المذهل أن تتذكر مع ليند كفيست أنه عندما أعلن هارى ترومان للعالم أن أمريكا قد استخدمت القنبلة النووية، كان قد حدد هدفها بأنه «قاعدة مهمة للجيش اليابانى». وقال إن القنبلة النووية قد أسقطت على «القاعدة» لأننا «نحن كنا نرغب فى الهجوم الأول أن نتجنب بقدر الإمكان قتل المدنيين». وكان ٩٥ بالمائة من المائة ألف الذين قتلوا فى الحال بتلك «القاعدة» التى تسمى أيضا هيروشيما، كانوا من المدنيين كما كان ترومان يعرف بالتأكيد. ولكنه كان يعرف أيضًا أهمية «الحفاظ على المظاهر».

وأكاذيب الولايات المتحدة بشأن القصف الجوى فى ڤيتنام، حيث كان القتلى من المدنيين يضافون بشكل روتينى إلى عدد القتلى العسكريين، أمر معروف تمامًا. وبعد الكشف عن لاأخلاقية الحرب، كان من حق الأمريكيين أن يفترضوا أن القصف الجوى على طريقة «مسح السجادة» بواسطة القاذفات B 52 كان شيئًا من الماضى. وخلال حرب الخليج سنة ١٩٩١م ومع ظهور القنابل «الذكية» والصواريخ الموجهة بالليزر، بدا وكأن القصف الجوى «الأخلاقى» الذى يستبعد المدنيين قد وصل، بيد أن هذه المزاعم

http://www.al-maktabeh.com

أيضا، كانت زائفة. وقد عملت قاذفات B 52 هناك أيضا. كما أن الحرب الجوية التى خاضها حزب الناتو ضد صربيا سنة ١٩٩٩م، وعلى الرغم من كل المزاعم العظيمة عن الغرض «الإنسانى»، قد تميزت بإستراتيجية جعلت القاذفات تطير على ارتفاعات عالية لحماية الطيارين، ولكنها كانت عالية جدا بحيث لا يمكنها حماية المدنيين فى كوسوفا على الأرض من عدم دقة القصف أو من الهجمات التى كان القتلة الصرب يشنونها. ويوحى التاريخ بأن مديرى الحرب لم يذكروا الحقيقة أبدًا عن الأغراض الحقيقية والتأثيرات الحقيقية لحملات القصف الجوى التى قاموا بها.

والآن؟ فى الأسبوع الماضى انكشف الإفلاس الأخلاقى للقصف الجوى عندما رفض وزير الدفاع دونالد رامسفيلد أن يستبعد استخدام الأمريكيين للأسلحة النووية فى هذه الحرب. وينبغى أن نكون واضحين بشأن ما يعنيه هذا: وهو أن الولايات المتحدة، مستعدة تحت ظروف معينة، أن تتخطى العتبة النووية لتدخل إلى منطقة القتل الجماعى للمدنيين ـ وذلك، لحماية حياة المدنيين؟ وكيف لشعار «السلام حرفتنا»، أن يترجم إلى اللغة العربية؟ إن هذه التناقضات تشى بأن نوعًا من العمى الأخلاقى قد صاحب ظاهرة القصف الجوى منذ البداية. والواقع، أن العمى الأخلاقى ضرورى لها، لأنه يحجب أبصارنا عن، مثلا، الطريقة التى تقوم بها الولايات المتحدة بالقصف، على أقل تقدير، فى خلق ظروف كارثة إنسانية هذا الشتاء. وأنا أعتقد أن أسامة بن لادن يعول على مثل هذا العمى، وأننا بالقصف الجوى الذى نقوم به، لم نخيب أمله.

لماذا أحب هذه البلاد؟

١٤ نوفمبر ٢٠٠١م

قال «حسنا» بينما كنت أجلس. كان رجلاً ضخما فى حوالى الثلاثين من عمره، وفيه ثقة بالنفس للاعب كرة قدم سابق، مثلاً. وكان يجلس على الكرسى بجوار النافذة، وكنت أنا بجوار الممشى. وكنا بالقرب من مقدمة الكابينة. وكان هذا بعد حوالى شهر من كارثة مركز التجارة العالمى. وكانت رحلة خطوطنا الجوية الأمريكية تأخذنا من شارلوت بكارولينا الشمالية، إلى سان فرانسيسكو.

http://www.al-maktabeh.com

سألته: «حسنا؟».

أجاب «نعم، جيد»، وقام بفحصى، ومن الواضح أنه وافق على قامتى التى تبلغ ستة أقدام. وحول رأسه تجاه بقية الكابينة «لا أحد يقدر علينا».

وعلى هذا النحو بالضبط بدأت التعرف على الوعى الأمريكى الجديد. ولم يكن هناك أدنى شك فى أن هذا الرجل كان مستعداً للدفاع عن نفسه وعن المسافرين معه، كما أن توقعه بأننى سوف أنضم إليه ببسالة كان كاملاً. وقلت بقدر ضرورى من التواضع: «لا أحد يقدر عليك أنت». وضحكنا سويّا. ولكننى كنت طبعًا أجلس بجوار الممشى.

وإذ بدأت بمحاضرة فى مدينة نيويورك فى ٢٥ سبتمبر، كنت أسافر عبر أرجاء أمريكا كافة، متحدثًا فى الجامعات، ومشاركًا فى محادثات دينية مشتركة فى الكنائس والمعابد اليهودية، ومنضماً إلى مناقشات حول الطوارئ الوطنية. وقد خبرت عن قرب الطرق التى يستجيب بها الأمريكيون لهذه الأزمة، من الطلاب إلى المتقاعدين، ومن الناشطين ضد الحرب فى كواكر كوليج إلى سماسرة وول ستريت الذين فقدوا زملاء لهم ومكاتب فى الهجوم؛ إلى العاملين فى مجال السفر الذين تجلى نبلهم فى انتظامهم فى العمل. وقد هزنى ما رأيته بعمق.

وكانت إحدى الرحلات الجوية الباكرة عائدة بى إلى بوسطون من تورنتو. وفى أثناء الطيران كان طاقم الطائرة من المضيفين يوزعون القهوة «الفطائر ـ Muffins». ونظر الرجل الذى فى الصف أمامى إلى الفطيرة وقال: «أين الفطور الساخن؟»، وأجابت المضيفة: «إننا نقدم فطائر النخالة هذا الصباح يا سيدى».

«ولكنكم تقدمون دائمًا فطوراً ساخنًا على هذه الرحلة».

«فى الوضع الجديد يا سيدى نقدم فطائر».

سأل الرجل: «كم من المال يمكن أن يوفر هذا للشركة؟».

وأجابت المضيفة الجوية «ليس كثيراً». ثم ثبتت الرجل بنظرة باردة: «التوفير فى مرتب مضيفة جوية نحتاجها لخدمتك. وبالنسبة لك هى فطيرة من النخالة يا سيدى. أما بالنسبة لصديقتى فهو خسارة وظيفة». قال الرجل «آه» بلهجة مرتبكة. ولم تكن عدم رحمته شيئا إلى جانب كرامة المضيفة الجوية.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وفى مرة أخرى، تصادف أن كنت أعبر مطار شيكاجو أوهار الدولى عندما مر رجل يحمل حقيبة ملأى بالسكاكين من خلال الأمن، وقد تسبب فى وقت لاحق فى إطلاق الإنذار الذى أدى إلى إغلاق المطار. وفى يوم وصولى إلى تاكوما بواشنطن، بعيداً جداً عن الساحل الشرقى المجروح، كان هناك جسر معلق قريب عُدَّ هدفًا محتملاً للإرهابيين. وكانت أفراد شرطة الولاية منتشرين. وفى محطة أتوبيس ببلدة صغيرة فى ڤيرمونت، أحسست أننى أبعد ما أكون عن التهديد، ولكن ذلك الإحساس تبدد عندما قرأت فى اليوم التالى فقط أنه تم القبض على إثنين مشتبه فيهما عند الحدود الكندية كانا قد استقلا حافلتهما من المحطة نفسها. القلق عالى. وأنت تلاحظه على وجوه المسافرين المنتظرين فى محطات الوصول، وعندما يحملقون فى شاشات المطار وهى تبث الأخبار من شبكة CNN، التى لا تفعل شيئا سوى التحذير والتهديد. وأنت تحسه فى السهولة التى يتحدث بها الغرباء أحدهم إلى الآخر. وأنت تراه فى الخطوة السريعة التى يمشى بها الناس للوصول إلى منازلهم. وأنت نفسك تشعر بذلك.

وتشى صناديق استطلاع الرأى بأن الجماهير الأمريكية، وهم فى قلقهم، متوحدة بشكل تلقائى خلف رئيسها فى الحرب، وكان يمكن أن توضح الأعلام التى ترفرف فى كل مكان إعادة ظهور نزعة وطنية عاطفية. ولكن ما رأيته فى دستة من المواقع المختلفة هو شعب يغوص فى مشاعره، فى تأمل أخلاقى مركب على العكس تمامًا من الذين يطلقون الشعارات. وقد أهلنى عملى لأن أطرح الأسئلة عن مصادر الكراهية الدينية، شهدت الخزى الذى نشعر به ـ نحن غير المسلمين ـ بسبب جهلنا الشامل بمثل هذه الظاهرة العالمية المهمة. وبعبارة أخرى، يرفض الأمريكيون النصيحة بأن يروا هذه الأزمة ببساطة، على أن جذورها قد نبتت فى مكان آخر. وليس هناك تناقض بين الشعور الجياش بالوطنية ومعرفة أن الافتراضات الأمريكية قد تصدعت بشكل كارثى. إن الناس يرفعون العلم ويطرحون أسئلة قاسية عن أنفسهم فى الوقت نفسه.

نحن نتحدث عن «الجيل الأعظم»، أولئك الذين هزموا النازية حينما خاضوا الحرب. وكان للجيل التالى حربه أيضا. وعظمة ذلك الجيل تكونت فى الاختيار المأساوى لقبول الهزيمة لأن الحرب كانت خاطئة. وتتعرض أمريكا للاختبار ثانية. وفى الوقت الراهن تغلبت نزعة الإلحاح الغريزية للانتقام على الحكمة المتأنية التى تتمثل

فى الدفاع الحقيقى عن النفس، ولكننى أؤمن بأن الشعب الأمريكى - «جيد!» - لن يترك الحكومة تواصل هذه الحرب الوحشية الطائشة لوقت طويل.

هذه الحرب غير عادلة

٢١ نوفمبر ٢٠٠١م

فى الأيام الأخيرة، انضم المحررون العقلاء، والزعماء الدينيون، والسياسيون، والمعلمون الليبراليون، وأصحاب الأعمدة الحائزون على إعجاب القراء إلى جوقة رامسفيلد - رايس التى تمدح الحرب الأمريكية فى أفغانستان بحسبانها حربًا «عادلة». وتوصف طالبان بأنها مدحورة مهزومة. و«الخناق» حول أسامة بن لادن يضيق أكثر فأكثر حسبما يقولون. ويتم تصوير الأفغان على أنهم مبتهجون فى الشوارع، وأن النساء بينهم قد تحررن. وكل هذا لأن الولايات المتحدة قد أطلقت كل قوتها ونيران أسلحتها ضد العدو الشرير. وأى واحد يرفض التوقيع لهذه الحملة بالموافقة يُعَدّ غير وطنى.

ليس بهذه السرعة. إذ إن الاتفاق الأمريكى الواسع على أن حرب بوش حرب «عادلة» يمثل تقييما ضحلاً لهذه الحرب، وهى ضحالة نتجت عن أشياء ثلاثة:

* أولاً: الجهل. إذ إن الولايات المتحدة كشفت عن قدر ضئيل مما حدث فى منطقة الحرب، والصحفيون منعتهم القيود المفروضة عن الوصول للمعلومات، والوطنية العمياء جعلت حجم المعلومات التى أزيح عنها النقاب أقل. ترى كم من أولئك الذين وصفوا - بحماقة - هذه الحرب بأنها «عادلة» من خارج المؤسسة العسكرية يعرفون بالفعل ما تنطوى عليه هذه الحرب؟ من الواضح أن قصفًا جويًا شاملاً قد حدث فى كل أنحاء أفغانستان، ولكن ما تأثيره؟ وضد من؟ هل التركيز على طالبان التى كانت مستهدفة فعلاً، فى الحقيقة، قد أتاح للقاعدة الأكثر قدرة على المراوغة بالهرب بعيدًا؟ إن الحكم الحاسم حول «نسبية» حرب ما، وهو مركز أى استنتاج يتم الوصول إليه عن كونها «عادلة»، لا يمكن ببساطة أن يقوم على أساس المعلومات المتاحة حاليًا. وكيف تكون هذه الحرب «عادلة». إذا ما كانت الحرب غير المبررة ضد العراق والتى تتهيأ للانتقال إليها غير عادلة؟

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

* ثانيًا: السياق الضيق: إن النتائج المحتفى بها التى تبعت الحرب الأمريكية حتى الآن - انهيار طالبان، وتحرير المرأة - هى محل ترحيب حقا، بيد أنها حصاد هامشى نسبيًا، ولا علاقة لها بهدف الحرب الأمريكية الذى تم إقراره وهو هزيمة الإرهاب. وهذه النتائج باهتة فى مغزاها إذا ما تم النظر إلى الصراع فى سياق المسألة الأكبر: هل يكسر هذا التدخل؛ أو يعرقل على الأقل، دائرة العنف الذى يمثل الإرهاب آخر انعطافاتها فقط؟ أو بتأكيد حتمية العنف، هل تجهز هذه الحرب الأرض للحرب التالية؟ بإطلاق مثل هذه القوة النيرانية الضخمة، هل نصنع أعداء محتملين قد يحاولوا مجاراتها بنفس أسلحة الدمار الشامل التى نرتعد منها إلى هذا الحد؟ وأسفاه، إن الإجابة واضحة. إن هذه الممارسة «المهيمنة» للقوة الأمريكية كان تعزيزًا فجًا لأسوإ الدوافع فى التاريخ الإنسانى؛ ولكن هذا هو العصر النووى، وينبغى التحكم فى هذا الدافع ببساطة. إن هذه الحرب الأمريكية على النمط القديم حرب غير حكيمة فى النهاية، وإذا بدأت أمم أخرى - باكستان، والهند، وإسرائيل، وروسيا - تلعب وفق قواعد «حيًا أو ميتا»، فهل سيظل هذا النموذج الأمريكى يبدو «عادلاً»؟

* ثالثًا: التعريف الخطأ لاستخدام القوة. هذه الحرب ليس «عادلة» لأنها لم تكن ضرورية. ربما تكون هى النوع الوحيد من القوة التى يعرف البنتاجون ممارستها، بيد أن ذلك أيضا لا يجعل منها حربا «عادلة». إذ كان يمكن تعريف الهجمات الإرهابية فى ١١ سبتمبر بأنها جرائم، لا عمل من أعمال الحرب. كانت هذه هى الغلطة الأولى، وقد لوح أحد الناقدين من أمثالى بهذا بينما كانت الهجمات تحدث. وبحسبانها واحدة من أكثر الجرائم وحشية فى التاريخ، كان ينبغى الرد على الأعمال الإرهابية باستجابة سريعة قوية ذات أهداف أبعد كثيرًا من الحرب الدائرة الآن. عمل من أعمال الشرطة، وليس الحرب. فالمجرمون، وليست الأمة التى أضناها الفقر، هم الذين كان يجب أن ينالهم العقاب. وبدلاً من ذلك، تم شن الحرب الشاملة ضد عدو بديل وتركت الشبكة الإجرامية المتنامية سليمة - ربما فى أفغانستان، ومن المؤكد فى مدن رئيسية فى أماكن أخرى. وفى الوقت نفسه، وبسبب الحرب، يتم تقويض حكم القانون فى الوطن. وبسبب الضغط الذى تولده الحرب «للاتحاد»، فإن عدم كفاءة أجهزة الأمن الداخلية الصادمة فى الولايات المتحدة لا تجد من يتحداها.

وفى فترة باكرة من الحرب، شجع كبار الموظفين الرسميين بالولايات المتحدة، بمن فيهم الرئيس ونائب الرئيس، فكرة أن هجمات الأنثراكس كانت تنبع أصلاً من شبكة أسامة بن لادن. وكان الخوف المفهوم الذى كبل بالتالى خيال العامة ـ عدو يمكنه أن يغلق الكونجرس ـ جانبًا حاسمًا فيما قاد كلاًّ من الصحافة والسياسيين لقبول فكرة أن حربًا شاملة ضد عدو شرير ستكون ضرورية وأخلاقية فى الوقت نفسه. والآن، فإن الافتراض الجارى هو أن حالات الأنثراكس، لا علاقة لها بأسامة بن لادن، وإنما هى جرائم محلية، وليست عملاً من أعمال الحرب. ولكن للحظة حاسمة، أدت بفعالية دورًا فى هذه الحرب يشبه الدور الذى قام به «الهجوم» على خليج تونكين فى حرب فيتنام، أى بوصفه مصدر هستيريا الحرب التى «وحدت» الأمة حول السبب الخطأ. وفى مثل هذا السياق، فإن من يبدى شكوكًا أكثر يوصم بعدم الولاء أكثر. وكلما زاد وصف هذه الحرب بأنها «عادلة»، بدا أكثر أنها خطأ.

الطريقة التى تنتهى الحرب بها

١٨ ديسمبر ٢٠٠١م

كتب توماس سى. شيلنج فى مؤلفه الكلاسيكى الذى يحمل عنوان «السلاح والنفوذ ـ Arms and Influence» «الطريقة التى انتهت بها الحرب كان يمكن أن تكون أكثر أهمية من الطريقة التى بدأت بها. وربما تكون الكلمة الأخيرة أهم من الضربة الأولى». ومن المؤكد أن حقيقة هذه الملاحظة كانت واضحة فى الطريقة التى انتهت بها الحرب العالمية الأولى بمعاهدة تعاقب العدو وتزرع بذور حرب فى المستقبل. وانتهت الحرب العالمية الثانية والحلفاء يتخطون حافتهم الأخلاقية بإطلاق غارات جوية وحشية ضد المدن، وبخاصة هيروشيما وناجازاكى. وكانت نهاية تلك الحرب بداية الرعب النووى.

أما نهاية حرب الخليج سنة ١٩٩١م فكانت قصة مختلفة، فعلى الرغم من أنها الآن عرضة للاستهزاء على نطاق واسع بحسبانها انهيارًا عصبيًا، فإن قرار چورچ بوش الأب والچنرال كولن پاول بوقف مذبحة جيش العراق المهزوم كان عملاً إنسانيًا. وإذ

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

تم ترك صدام حسين الملعون فى السلطة تفضيلاً على سيادة الفوضى كان ذلك عملاً من أعمال الواقعية المتزنة. وعلى أى حال، كانت «الكلمة الأخيرة» فى تلك الحرب هى العقوبات التى، على مدى عشر سنوات، عوقبت بها الجماهير المدنية فى العراق بوحشية، دون أن تنال من صدام أو سلطته. وإذا كان هناك نذير فى حرب بوش الأب، فإنه لم يكن فى النهاية وإنما كان فى البداية. إذ إن التاريخ الذى ألقى فيه خطبته التى تحدد «النظام العالمى الجديد» أمام الكونجرس - «حكم القانون يحل محل حكم الغاب» - كان يوم ١١ سبتمبر ١٩٩٠م.

وبعد ذلك بإحدى عشرة سنة فإن السؤال هو: كيف ستنتهى الحرب الأمريكية ضد طالبان، وأسامة بن لادن، والقاعدة؟ أيّا كان حكم المرء على هذه الحرب سواء بالموافقة أو بالرفض، فإنه يبدو واضحًا أن أحد تأثيراتها كان تأسيس مناخ عريض «للقوة المهيمنة» فى مواجهة الهجمات الإرهابية - وهو ما كان يسمى فى عصر مضى «بالإفراط فى القتل». ونتيجة لهذا، تغير الجو السياسى بشكل جذرى فى الشرق الأوسط، وربما فى حرب روسيا فى الشيشان، ومع الهجوم الإرهابى فى الهند خلال الأسبوع الماضى، فى النزاع حول كشمير. وتتجمع السحب فى أماكن أخرى. وروح «حيًّا أو ميتًا»، مع الرخصة الأمريكية الجديدة، تهدد بتصعيد العنف إلى مستويات لم تكن متوقعة من قبل فى كل موقف من مواقف الصراع. فقد انكسرت الآن روابط التبادلية، التى كانت فيما سبق تلزم الخصوم بالمفاوضات والديبلوماسية، والتعددية - وقرار الولايات المتحدة بخرق معاهدة الحد من الأسلحة النووية فى الأسبوع الماضى فقط يبرز هذه الظاهرة المرتبطة بزمن الحرب. وفى إنهاء الحرب بأفغانستان، ما الذى يمكن لأمريكا أن تفعله لكى تعيد على وجه السرعة بناء مبادئ التقييد وروابط التضامن العالمى التى قطعتها إستراتيجيتنا، حتى وإن كانت مبررة بالهجوم الوحشى الذى حدث داخل الوطن يوم ١١ سبتمبر؟

وفى إنهاء هذه الحرب هناك أربعة مسائل تؤخذ فى الاعتبار:

* تشجيع استسلام مقاتلى القاعدة، بما فى ذلك أسامة بن لادن نفسه، بالتأكيد على أنهم سوف يعاملون حسب مبادئ القانون الدولى. تجنب طرق الحروب القبلية

الأفغانية وتهديدات التحالف الشمالى بقتل ليس المحاربين فقط ولكن كذلك القرويين الذين يساعدونهم، طالما أن القهر مستشر فى لعبة النهاية اليائسة.

* التخلى عن بلاغة «حيًا أو ميتا» التى لا معنى لها بذاتها، وإعلان تفضيل حاسم لـ «حيًا» ـ بالضبط لتقديم بن لادن وحاشيته للمحاكمة. وحكم قضائى عام يدين جرائم ١١ سبتمبر سوف يقدم المجرمين للعدالة، ولكن الأهم من ذلك، أن المحاكمات الصحيحة سوف تقضى على الجاذبية العدمية لمثل هذه الأفعال الشنيعة فى أذهان الإرهابيين المحتملين.

* التحرك قدما إلى الأمم المتحدة بوصفها السلطة المنظمة ليس فقط للإنقاذ السريع للاجئين وإصلاح أفغانستان، ولكن لحل المسائل المتعلقة بالحرب مثل وضع السجناء ومدى استحقاق زعماء طالبان للوم. فالأمم المتحدة، وليست الولايات المتحدة المتباهية المختالة، هى التى يجب أن تكون مركز المعارضة العالمية للإرهاب. إن القاعدة الجديدة الكامنة فى هذه الحرب، ومؤداها أن الدول يمكن أن تعمل فى عزلة مطلقة ضد الإرهابيين، ينبغى أن تقوض قبل أن تصبح فاعلة فى كل من إسرائيل، والهند، وروسيا.

* التأكيد على أن الحرب فى أفغانستان لن تمتد إلى العراق، أو كوريا الشمالية، أو أى مكان آخر. ينبغى إصلاح نسيج التقييد، وأن يتم معه إصلاح فكرة أنه فى مواقف الصراع يجب أن تكون القوة العسكرية الملجأ الأخير، وليست أول رد فعل. ويجب نزع أسطورة الإيمان بالعنف حلاً للمشكلات مرة أخرى. ولتكن الحملة ضد الإرهاب الآن بوصفها فرضًا للقانون، وليست حربًا. ويجب أن يتم التأكيد على مطاردة الإرهابيين المحتملين والتركيز على حماية السكان المدنيين.

والجدل الدائر بشأن «الحرب العادلة» حول الوسائل المستخدمة فى «القضية العادلة» لوقف الإرهاب، حسب التمييز الذى يضعه المؤرخ هوارد زين، سوف يستمر على نحو سليم، بيد أن لا حاجة هناك لجدل حول الكيفية التى نبدأ بها الآن. وفى إنهاء هذه الحرب، يجب على أمريكا أن تضع فى ذهنها اختلاف الإدراك الأخلاقى القديم: إذا لم تكن الغاية تبرر الوسيلة، فلا يمكن لشىء آخر أن يبررها.

* * *

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(٣)

الحرب فى الوطن

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فى ١٩ أكتوبر، سنة ٢٠٠١م، بينما كان القصف الجوى الأمريكى لأفغانستان دائرًا، كانت هناك خطابات تحتوى كميات يحتمل أن تكون قاتلة من الأنثراكس قد وصلت إلى وكالة CBS للأخبار فى نيويورك، وفى مكاتب الكونجرس بواشنطن. وأصيب رجل بريد فى نيوچيرسى. واضطربت الخدمات البريدية اضطرابًا شاملا. وتم إغلاق مكاتب الكونجرس.

وبعد أكثر قليلاً من أسبوعين كان الأنثراكس المرسل بالبريد قد قتل أربعة أشخاص وأصيب ثلاثة عشر شخصا آخرين على الأقل. وعلى الرغم من أن الضحايا كانوا محدودين، فقد كان هذا أول استخدام «لسلاح من أسلحة الدمار الشامل» المحددة بشكل رسمى - بغض النظر عن الاختبارات الذرية - فى أمريكا الشمالية. وكانت الخطابات المصاحبة، مع تهديدات فجة ضد إسرائيل، مقصودًا بها أن تؤخذ على أنها ذات صلة بهجمات ١١/ ٩ الإرهابية، وقال المسئولون فى FBI إنها ربما كانت كذلك.

وفى غضون سبعة أيام بعد التقارير عن الأنثراكس، كان الكونجرس قد مرَّر مرسوم الدفاع عن الوطن، وفى ٢٦ أكتوبر، وقع الرئيس قانونًا به. وهذا المرسوم الذى لم يُقرأ تقريبًا، ولم تحدث مناقشة حوله فى الكونجرس، قد مدَّ سلطات الحكومة لتشمل التنصت على الهاتف والاحتجاز، ومعاقبة المشتبه فيهم، ووسعت سلطة الحكومة لترحيل غير المواطنين دونما إجراءات قانونية. وقد سأل ممثل الولايات المتحدة، بارنى فرانك قائلاً: «من الذى قرر أننا لكى ندافع عن الديمقراطية كان علينا أن نحط من قدرها؟».

وقد أعلن المدعى العام چون أشكروفت عن إعادة تنظيم كبرى لوزارة العدل وهيئة المباحث الفيدرالية FBI للتركيز على مقاومة الإرهاب. واعترف بأنه تم احتجاز أكثر من

ألف شخص داخل الولايات المتحدة، وفى نوفمبر، بقى منهم أكثر من ستمائة رهن الاعتقال. وأصر أشكروفت على أن تهديد الإرهاب كان يتطلب من الحكومة أن تحتفظ بشكوكها حول المحتجزين سراً. وعندما سئل عن تكتيكاته هو وغيره فى وزارة العدل ضد الإرهاب من جانب أعضاء اللجنة التشريعية فى الكونجرس فى ٦ ديسمبر ٢٠٠١م، عرّف المدعى العام النقد الموجه لوزارته بأنه خيانة. وقال لأعضاء مجلس الشيوخ: «إن تكتيكاتكم تساعد الإرهابيين، لأنها تفتت وحدتنا الوطنية وتقضى على عزيمتنا. تعطى الحصانة لأعداء أمريكا، وتتردد أمام أصدقاء أمريكا».

وفى الوقت نفسه كانت المباحث الفيدرالية ووزارة العدل عاجزتين عن تطوير خيوط مهمة فى قضية الأنثراكس. وفى النهاية اعترف الموظفون بأنه لايوجد دليل يربط بين القاتل الذى يستخدم الأنثراكس وبين هجمات ١١ - ٩ أو القاعدة، ولكن فى ذلك الحين كان الهلع من الأنثراكس قد ترك أثره بالفعل فى الغيظ المكبوت حول الاستجابات الأمريكية تجاه الإرهاب فى الوطن وفى الخارج. فقد أشارت كل الأدلة، عندما تم فحصها، إلى أن مجرم الأنثراكس كان أمريكيّا، وربما كان موظفًا سابقًا ساخطًا يعمل ضمن مجهودات وزارة الدفاع البحثية فى مجال الإرهاب البيولوجى. هذا القاتل الذى ما يزال مجهولاً يشترك مع أسامة بن لادن فى شىء واحد، على أى حال: هو أنه مطلق السراح.

روبرت كنيدى وجون أشكروفت

٢٠ نوفمبر ٢٠٠١م

اليوم فى واشنطن سوف يكرم الرئيس بوش روبرت كنيدى بأن يسمى مبنى وزارة العدل باسمه. وبأى مقياس، فإن هذا حدث عام غير عادى، بيد أنه يحمل معنىً شخصيّا مؤثرًا بالنسبة لى. كان ذلك فى صيف سنة ١٩٦١م، وكنت طالبًا بالجامعة وأعمل متدربًا لفترة الصيف فى FBI بالداخل. وفى تلك الأيام، تم إعطاء النصف الشمالى الشرقى من مبنى وزارة العدل إلى مكتب التحقيقات، وكان مكتب ج. إدجار هوفر فى الركن المواجه لمكتب كنيدى. وكان أولئك الموجودون منا على ناحية المكتب يعرفون أن هوفر يكره المدعى العام الشاب، وهو ما كان يبدو معقولاً بدرجة قليلة لأن

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

كلاً من الرجلين كان يبدو مكرسًا لنفس القضايا: الحملات ضد الشيوعية والجريمة المنظمة. وذات يوم، كنا نحن المتدربين بالداخل قد استدعينا إلى قاعة الاستماع التابعة للوزارة فى ناحية وزارة العدل من المبنى. وكان المدعى العام فى سبيله لمخاطبة موظفى الوزارة من طلاب الجامعة، وليدعونا إلى التوقيع على «الحدود الجديدة» بعد التخرج.

وأنا أحتفظ بذكرى حية عن كنيدى على تلك المنصة ـ شعره المنكوش، وأكمام قميصه، وراحة يده تضرب الخشب للتأكيد ـ ولكن ما يبقى معى بوصفه التعميد الذى يتأقلم على مدى الحياة هو محتوى خطبته. فبدلاً من الهجوم المتوقع ضد الشيوعية أو الجريمة تحدث المدعى العام حديثا يفيض بالأحاسيس عن الحقوق المدنية. فقد جعل نهاية الفصل العنصرى أهم التحديات التى تواجه أمريكا ـ ووزارة العدل. وكان ذلك صادمًا بالنسبة لنا، ولاسيما بالنسبة لأولئك الذين من ناحية FBI، لأن مكتب التحقيقات كان كله من البيض تقريبًا ـ وعرفنا أنه كان قصد هوفر أن يبقى عليه بهذه الطريقة. وفى سنة ١٩٦١م، كانت حركة الحقوق المدنية ما تزال تُعَدّ بشكل عام من جانب البيض حركة تهديد، وربما هدَّامة مخربة. وبالنسبة لكنيدى حين يقف مع الحركة، ويجلب أجندتها إلى قلب الحكومة، كان هذا يمثل تحولاً فى العمل ـ على المستوى الشخصى وكذلك على المستوى السياسى. وعدت إلى الناحية الأخرى من مبنى وزارة العدل فى ذلك اليوم وقد تغيرت. إذ إن كلمة «العدالة» لن تطرق سمعى بنفس الطريقة مرة أخرى.

وروبرت كنيدى له مكانة غالية فى الذاكرة الأمريكية لأنه كان يجسّد إمكانية التحول الشخصى والسياسى. وكان المنحنى فى حياته الخاصة هو قصة مثل هذا التغير، بيد أن أثره فى الحكومة كان كذلك. كان صيف سنة ١٩٦١ ـ قمة فى ڤيينا، وأزمة برلين ـ ذروة المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤييتى. كان الرجال العسكريون يتحكمون فى الاستجابات الأمريكية، وبعضهم يحبذ «الحرب الوقائية». وقد أدى روبرت كنيدى دورًا حاسمًا فى مساعدة أخيه على تحويل المواجهة الصعبة إلى روح من التفاوض، خصوصًا فى أثناء أزمة الصواريخ الكوبية. وكان لإفلات آل كنيدى من الحرب فى تلك اللحظة الحاسمة أثره فى أن يحدد شكل المستقبل. وقيض لموت الرئيس منذ ثمانية وثلاثين عامًا فى يوم الخميس، أن يعزز التحول الشخصى لدى روبرت

كـنيدى وأن يجهـز الأمـة لأن تتعرف على حاجتـها الخاصة لأساليب جـديدة لفهم ذاتها .

ومع الوقت الذى بدأ فيـه روبرت كنيدى حملته الانتخابية لمنصب الرئيس سنة ١٩٦٨م، كان تحوله قد صار تامًا . وقد عرف المحرومون من حقوقهم هذا الرجل ابن الطبقة الممتازة بوصفه المدافع عن الشعب . فالعمال أصحاب الياقات الزرقاء، الذين كان الكثيرون من محرريهم يحتقرونهم، يرون فيه مدافعًا عنهم . وأولئك الذين ابتعدوا داخليًا عن الحرب فى ڤيتنام وجدوا فى تبنيه للسلام سببا يدعوهم للعودة إلى السياسة مرة أخرى . وبدا أن التمييزات التقليدية بين اليمين واليسار غير منطبقة على أولئك الذين استجابوا له، وكانت تلك الظاهرة هى أكثر جانب واعد فى التغير الذى كان يمثله . ومصادفة اغتيال روبرت كينيدى فى أعقاب اغتيال مارتن لوثركنج كان يمكن رؤيتها على أنها ليست مصادفة فى ذلك الوقت . فقد ختم موتهما معًا إلى الأبد معنى الأمل السياسى الأمريكى ـ وبالنسبة لكثير من الأمريكيين استمر الاسم روبى والاسم مارتن يرنان علامة على حملة لم تكتمل .

هذا هو السبب فى أن تسمية مبنى وزارة العدل على اسم روبرت كنيدى أمر جيد . ولكن هناك أيضا تناقضا فى العمل الذى يجرى اليوم . ذلك أن چون أشكروفت بوصفه المدعى العام، هو الذى محا تمامًا ما كان روبرت كنيدى قد جاء من أجله، كما أن مقاربة إدارة بوش لفرض القانون فى وقت الطوارئ الوطنية يستحضر ذكرى چ إدجار هوفر بشكل أكبر كثيراً من استدعاء ذكرى خصمه الشاب . إذ إن الهجوم على الحريات المدنية باسم «أمن الوطن»، ولاسيما الاحتقار الواضح لغير المواطنين وأوامر الرئيس بإنشاء محاكم عسكرية، لا تمثل فقط تهديداً للعدالة وإنما هى علامات على الاستسلام للإرهابيين الذين يهدفون إلى تقويض الديمقراطية . كما أن الحرب المنفلتة فى أفغانستان، مهما كانت «ناجحة»، تعاكس نفس التقدم الذى تجسد فى رحلة روبرت كنيدى من المقاتل الشرس فى الحرب الباردة إلى مدافع عن التفاوض والسلام .

عند هذه النقاط الكثيرة يلوح فى خيال المرء أن روبرت كنيدى يقاطع انتخابات اليوم بكلمة ـ يلقيها وراحة يده تضرب المنصة ـ ليقول إنه غير موافق .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

احتفالات ما قبل عيد الميلاد فى زمن الإرهاب

٨ ديسمبر ٢٠٠١م

كنت قد رجعت لتوى من حضور صلاة القداس مساء السبت للاحتفال بالطقس المسيحى فى أيام الآحاد الأربعة التى تسبق عيد الميلاد، عندما بثت أخبار التليفزيون أول أنباء الهجمات الإرهابية فى القدس. ومثل كثيرين غيرى، اتصلت بأصدقائى بسرعة لكى أطمئن على سلامة أقاربهم. فمنذ شهر مضى فقط كنت أتمشى فى منطقة تسوق المشاة التى تحولت توًا إلى آخر مشاهد المجزرة. قال أحد أصدقائى الإسرائيليين: «لقد قتلوا القدس». وقد اندفع الحزن والغضب فى جوانح كل الذين يحبون القدس.

وفى عقلى تردد صدى المقطع المتكرر من ترنيمة احتفالات هذه الأيام ـ «تعال، تعال يا عمانويل لتنقذ إسرائيل الأسيرة..» ـ على مدى الساعات التالية واليوم التالى عندما تكشفت القصة المرعبة، وتوجتها أنباء الهجوم المميت أكثر فى حيفا. وقد تحولت إسرائيل التى تتحدث عنها الترنيمة إلى إسرائيل الموجودة فى الواقع فجأة، شعب محتجز، إن لم يكن أسيرًا، يتعرض لخطر جسيم من الانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم ـ أولئك الشباب الذين يثيرون الأسى والحزن المقتنعين بقضيتهم على نحو جذرى مطلق بحيث يضعون وجودهم ذاته فى خدمة القتل. إنهم محزنون وخطرون بشكل شامل(*).

ظللت فى حيرة بشأن ما يمكن أن أفعله حيال هذا التصاعد المرعب للعنف. وكما هو معتاد، بطبيعة الحال، فإن الإجابة هى، لا شىء أكثر من هذا. بيد أن العنف الذى يضرب العالم لا يحدث فى فراغ. فالواقع، أن المستويات المتصاعدة للأذى تتطلب منا جميعًا أن نستبعد فى مواقفنا ما قد يورطنا فى مناخ الكراهية، على الرغم من إحساسنا الأولى عن أنفسنا بأننا أبرياء. ما علاقتنا، مثلا، بالسؤال الكامن حول النزعة المطلقة الدينية، التى تغذى بالوقود حركة الدائرة الإرهابية الحلزونية؟ إننى أطرح السؤال

(*) لا نوافق المؤلف على رأيه ـ مع احترامنا الشديد له ولرأيه ـ ونرى أن الظلم الصهيونى والأمريكى المساند لإسرائيل، واليأس من تحقيق أى تقدم بالوسائل السلمية، فضلاً عن وحشية الجيش الإسرائيلى وهمجية شارون ـ كل هذا جعل أولئك الشباب من الاستشهاديين يضحون بأرواحهم فى سبيل قضيتهم. (المترجم).

بوصفى مسيحيّا وأدرك فى الحال أن موسم احتفالات ما قبل عيد الميلاد تقدم مفتاح الحل.

فموسم الاحتفالات التى تسبق عيد الميلاد فترة شوق وتوقع، عندما يلتهب الخيال المسيحى بكل ما يفتقر إليه فى الأحوال الإنسانية، «بعبارة «ليس بعد» المهيمنة الواقعية فى التاريخ ذاته» على حد تعبير اللاهوتى الكاثوليكى داڤيد تراسى، المسيح المنتظر، سوف يحقق وعد الحياة، ويكشف الأسرار المتعلقة بالوجود ـ «ويؤسس حكم الرب». ومعظم المسيحيين الذين يبشرون اليوم يتوقعون مجىء المسيح فى الكريسماس، والواقع، تؤخذ احتفالات ما قبل عيد الميلاد فى أيام الآحاد الأربعة، على أنها توطئة لعيد التجسد السنوى. ولكن التأكيد على يوم ٢٥ ديسمبر بحسبانه التحقيق الوحيد للأمل المسيحى خطأ، لأنه يتضمن مغزى للسؤال المأساوى الذى يطرحه العنف القائم على أساس الدين.

ويمكن فهم احتفالات ما قبل عيد الميلاد على نحو أفضل بوصفه تعبيراً عن الشوق المسيحى، لا لقدوم المسيح أول مرة، أى ميلاد ليسوع، وإنما هو شوق إلى مجىء المسيح الثانى فى آخر الزمان. وتبدو هذه مثل نقطة ملغزة خفية، ولكنها حاسمة. إذ تؤكد العقيدة المسيحية القديمة على أن حياة المسيح وموته، وإعادة تجسده كانت تحقيقًا جزئيّا لخطة الرب، ولكن الخلاص والعتق ـ الرحمة ـ لم تتحقق تمامًا إلا مع مجىء المسيح الثانى. ويعنى هذا أن المسيحيين الذين يزعمون أنهم بالفعل يمتلكون الحقيقة تمامًا، أو الذين يفهمون التجلى المرتبط بالمسيح التاريخى الذى ظهر فى الناصرة بحسبانه الكشف والتجلى الكامل والنهائى للرب ـ مثل هؤلاء المسيحيين تخلوا عن عنصر أساسى فى الإيمان التقليدى، وهو عنصر ربما يحفظ المسيحية من أن تكون ديانة النزعة المطلقة الراديكالية. وهذه هى الكيفية التى يضع بها اللاهوتى الكاثوليكى جريجورى بوم: «بما أن التحرير الإلهى لم يكتمل فى المسيح، إلا عن طريق التوقع، فإن الكنيسة ليست هى الأداة الوحيدة للنعمة: إذ يبقى مكان فى تاريخ العالم لطرق أخرى للنعمة، ولديانات كثيرة، وبشكل خاص لعقيدة أخرى تؤمن بالكتاب المقدس، أى اليهودية».

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ونادراً ما يكون القدوم الثاني للمسيح موضوع المواعظ المسيحية، وربما لأنه بحسبانه المستقبل المطلق، فإنه حتما يؤدى إلى نسبية المزاعم المسيحية الحالية عن الحقيقة. لقد كبرنا نحن المسيحيين مغرمين بعالميتنا الحصرية ـ كنيسة حقيقية واحدة، وطريق واحد إلى الرب. ولكن الحوادث التى جرت هذا العام ـ هذا الأسبوع ـ قد أوضحت لنا أيضا كم هى خطرة مثل هذه النزعة المطلقة الدينية. وكل من الإسلام واليهودية يأخذ ثقل هذه المشكلة بطريقته الخاصة. أما بالنسبة لنا، نحن المسيحيين، فإن الدواء للنزعة المطلقة الدينية هو الاعتقاد فى القدوم الثانى للمسيح، الذى يحدد صراحة الحقيقة هنا والآن بحسبانها مرئية فقط «من خلال زجاج معتم» بعبارة القديس بولس. أيها المسيحيون، والمسلمون، واليهود، وأتباع الديانات الأخرى، والناس الذين لا دين لهم ـ إن السلام فيما بيننا يفترض أن يكون هناك تكريم متبادل لمختلف العدسات المعتمة التى نرى من خلالها جوانبنا المختلفة من الحقيقة. وبالنسبة لأولئك المسيحيين منا، فإن هذا الاحترام للآخرين إنما هو نداء خاص فى هذا الفصل، عندما نشتاق لا إلى احتفال محدد بشكل ضيق بانتصارنا، ولكن لإنجاز التاريخ نفسه، بالنسبة لجميع الناس، أى القدوم الحقيقى للسلام على الأرض.

وزارة الظلم

١١ ديسمبر ٢٠٠١م

بينما تحول الحرب الأمريكية فى أفغانستان بؤرتها من الحملة التى أوشكت على الختام ضد طالبان إلى المطاردة الأصح والأضيق نطاقًا لأسامة بن لادن، تتحول الاهتمامات فى أمريكا أيضا. إذ إن كثيرا من الذين كانوا قد أيدوا بحماس إدارة بوش فى استجابتها لكارثة سبتمبر يعلنون شكوكهم الخطيرة حول توجهات الحكومة ومقاصدها، لاسيما داخل الوطن. ومعظم الاعتراضات تهتم بسياسات وزارة العدل، مع طرح تساؤلات عن وضع مئات من الناس الذين كان قد تم احتجازهم؛ وعن مخاطر التدخل الحكومى بين المحامين وعملائهم؛ وعن المناخ الذى يقلل المبادئ الدستورية حول «الدقة واللطف» ويضحى بها فى زمن الطوارئ.

ويبرز سؤال أكبر حينما يحدث فجأة أن تتحول أولوية التأكيد الحكومى ضد الإرهاب إلى المكان الثانى بعد هدف الجمهوريين القديم فى حماية حقوق حملة

البنادق. ففى سياق كل ما تم التخلى عنه باسم القبض على الأشرار، فى الماضى وفى المستقبل، يبدو الأمر شاذًا عندما تمنع وزارة العدل مكتب التحقيقات الفيدرالى FBI التابع لها من أن يحدد ما إذا كان أى من المشتبه فيهم بالإرهاب قد اشترى بندقية. وقد شرح الشخص المتحدث باسم وزارة العدل فى الأسبوع الماضى أنه تم اتخاذ هذا القرار بعد أن قررت الوزارة أن القانون الذى يفوض بجمع مثل هذه المعلومات لا يسمح باستخدامها فى تحديد هوية أشخاص بعينهم، حتى فى التحقيقات الخاصة بالإرهاب. ومثل هذا الاهتمام الحكومى الراقى بحقوق الأفراد يمكن أن يكون مهذبًا لو لم يكن على هذا القدر من الاستثنائية، ويبدو الأمر أكثر من مجر مصادفة أن المستفيدين الرئيسيين من حالة التردد القانونى الوحيدة هذه، بالإضافة إلى الإرهابيين الذين يحتمل وجودهم، كانوا هم الذين يشكلون القلب السياسى للإدارة.

ولم يبذل المدعى العام جون أشكروفت سوى القليل لكى يبدد مثل هذا القلق، وفعل كثيرًا لكى يزيد من وطأته. ففى الأسبوع الماضى مثلاً، زاغ من المد المتصاعد من الأسئلة والانتقادات بوصمها بأنها تكتيكات «تقدم المساعدة للإرهابيين». إنها دائمًا تكون لحظة فارقة عندما يقوم أولئك الذين عهد إليهم بحماية دستور الولايات بتعريف النشاط الذى خلق الدستور، والذى جاء الدستور لكى يكفله ـ حرية تبادل الأفكار ـ بأنه خيانة. وقد حدث هذا من قبل. إذ إن أحد الأسباب فى أن حرب ڤييتنام استمرت هذه الفترة الطويلة كان هو أن ليندون چونسون، ثم ريتشارد نيكسون، نجحا فى مثل التلاعب: النقد يساعد العدو؛ ومن ثم يتم إخراس النقد وتهميشه. وكان تأثير هذه الاستراتيچية فى أثناء حرب ڤييتنام هو أن حربًا كان ينبغى أن تنتهى سنة ١٩٦٨م، عندما صوت الناس ضدها، انتهت سنة ١٩٧٥م. وفى استغلال أشكروفت لهذه الحيلة المثيرة للسخرية، لم يكن حتى يتحدث عن المجهود الحربى فى أفغانستان، الذى كان النقد بشأنه قليلاً للغاية. وإنما كان يتكلم عن الأسئلة الموجهة عن السياسات التى تؤثر على حياة الأمريكيين بشكل مباشر.

ولهذه الأسباب، ربما يبدو أن أشكروفت متجاوز فى إثارة مثل هذه الفكرة مجددًا، ولكن بالنسبة لمقاصد الإدارة التى ينتمى إليها مكان محقًا فى محاولة إسكات أصوات الرفض قبل أن تتجمع. وكان يمكن للقلق المتصاعد حول معالجة مسائل الجبهة

http://www.al-maktabeh.com

الداخلية أن يحدث شرخًا في الاتفاق الوطني على مساندة السياسات الخارجية - وبخاصة الحرب التي تهدد بانتشارها إلى العراق. والواقع أنه مع هزيمة طالبان، صار واضحًا بالفعل أن نظرة الرئيس بوش، التي تبالغ في تبسيط الأمور والتي قسمت أفغانستان وغيرها من الأماكن فيما بين «نحن وهم»، لم تطبق أبدًا. ذلك أن حلفاءنا الشماليين وحلفاءنا الپاكستانيين يرفضون تبسيط الأمور من جانبنا بشأن طالبان، وبعضهم يساند هروب المحاربين والبعض الآخر يستعد بوضوح للسماح لزعيم طالبان الهارب بأن «يعيش بكرامة». وأسامة بن لادن هو الهدف المحورى لرد الفعل الأمريكى القاسى، ولكن عندما ينقشع الغبار عن هذه المرحلة الأولى من الحرب، يبقى الأمر غير واضح حول كيفية وصول الآخرين إلى هناك. وعندما يتم جمع حساب الدمار الذى سببته الحرب، سيكون هذا السؤال مطروحًا بقوة.

لقد أشعل تأسيس الرئيس بوش المحاكم العسكرية أشد النيران حرارة، ولكن هنا أيضا من المستحيل أن نحصر المسألة في نطاق الاهتمام المحلى، دون أى مضامين لحكم أوسع عن الحرب ذاتها. وتحظى المحاكم العسكرية باستهزاء الناقدين على أساس دستورى، ولكن هذه المحاكم العسكرية تشير إلى المشكلة الكبرى المتعلقة بهذا الموضوع برمته. وبوصفها ممارسة غير منظمة للسلطة، وتتطلب القليل لتقديم الدليل المقنع، ولفرض الشهادة، والاهتمام بالإجراءات، وإمكانية الاستئناف، أو احترام التعقيد في الموضوع، فإن هذه المحاكم العسكرية سوف تؤسس أخلاقيات الإدارة في التسويغ لنفسها. إذ إن المحاكم العسكرية سوف تضفى الشرعية على تفضيل بوش التأكيد والإصرار على أنه محق بدلاً من المناقشة، وسوف تضفى الشرعية على تفضيله الإملاء بدلاً من التعبير عن وجهة النظر. وعند بداية هذه الأزمة، طلب زعماء أفغانستان أن يروا الدليل الذى تملكه أمريكا ويربط أسامة بن لادن بجرائم ١١ سپتمبر، وهو طلب استبعده بوش على أنه دعوة مستعصية للمفاوضات. وأزاح ذلك جانبًا بحيث جعل عداوة طالبان حتمية.

وعلينا أن ننتظر لنرى ما إذا كان يمكن لإدارة بوش أن تستمر في معاملة المطالب السليمة بتوخى المسئولية سببًا للحرب في الخارج، أو عَدّها خيانة في الداخل. ولكن السؤال الملح يطرح نفسه بالفعل: هل تستغل حكومتنا هذه الحالة الطارئة لتحقيق أغراضها الخاصة الضيقة؟

http://www.al-maktabeh.com

الكريسماس الأحمر

٢٥ ديسمبر ٢٠٠١م

اليوم عيد ميلاد يسوع فى الناصرة، واليوم أيضا الذكرى السنوية العاشرة لميلاد الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها القوة العظمى الوحيدة فى العالم. ففى ٢٥ ديسمبر ١٩٩١م، تم إنزال علم الاتحاد السوفييتى للجمهوريات الاشتراكية من فوق الكرملين للمرة الأخيرة. فقد انتهى وجود الاتحاد السوفييتى رسميًا. وبعد ذلك بشهر أعلن الرئيس چورچ بوش الأب فى خطاب حالة الاتحاد أن أمريكا انتصرت فى الحرب الباردة.

وكون أن الحدث السياسى المعاصر الفريد وقع فى يوم العطلة الدينى الدورى ربما بدا وكأنه مصادفة لا أهمية لها، إلا أن التوازى الزمنى يمكن أن يقضى على المعنى بالنسبة لتفوق أمريكا الجديد والتحدى المركب الذى تطرحه القصة البسيطة لميلاد المسيح.

ومن الواضح، أن الذكرى السنوية لميلاد يسوع - عيد التجسد - يتم الاحتفال بها وتبجيلها من المسيحيين حول العالم، ولكن الشكل المخصوص للاحتفال الذى حدث فى الولايات المتحدة كان محملاً بمضامين سياسية، وثقافية، واقتصادية. فكل ما نعنيه بالكريسماس - التسوق المسعور، وإعطاء الهدايا، وبابا نويل، والزينات، والنباتات دائمة الخضرة، والموسيقى المرتبطة بهذا الموسم، والتحيات بين الأصدقا، وتجمع العائلات، بل حتى الأمل فى نوع معين من الطقس - كلها أمور صارت داخلة فى نسيج جوهر الهوية الأمريكية. هذا هو موضوع كتاب Christmas Unwrapped: Consumerism, Christ, And Culture, (Edited By Richard Horsley And James Tracy) وهو كتاب جديد يلهمنى تأملاتى.

واحتفال العطلة فى الولايات المتحدة لا شبيه له فى أى بلاد أخرى - إلا عندما يتم تقليد الأسلوب الأمريكى عن وعى. وتبنى خصوصيات هذا الاحتفال يمثل إحدى الوسائل التى يتوسل بها المهاجرون لاتخاذ الهوية الأمريكية. وبطبيعة الحال، فإن أمريكا ليست مجرد بلد «مسيحى»، ولكن المركزية الثقافية للكريسماس اتضحت فى الطريقة التى رفعت بها احتفال الحانوكة، الذى كان احتفالاً صغيرًا بين اليهود من قبل،

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وفى ابتكار احتفال الكوانزا، الذى تبناه السود الذين أخفقوا فى التعرف على ذواتهم فى الكريسماس «الأبيض».

والحقيقية، أن الأغنية التى تحمل ذلك الاسم، والتى تُعَدّ أبرز أنشودة أمريكية فى الكريسماس، هى التى تقدم حلَّ اللغز. وتلاحظ الباحثة كاثلين. إم. ساندز، أنه عندما يتوق بنج كروسبى إلى كريسماس أبيض «تمامًا مثل الذين اعتادوا أن يعرفوا» فإنه فى الواقع يستدعى للذاكرة ماضيًا عاطفيًا لم يكن موجودًا قط. ويصبح الحنين إلى الوطن «النسيان الذى يقدم نفسه فى شكل الذاكرة» على حد التعبير الذكى لساند. وقد قدَّم كروسبى أغنية إيرفنج برلين أول مرة فى فيلم «هوليداى إن»، وهو فيلم أنتج فى بداية الحرب العالمية الثانية، ثم أعيدت مرة أخرى فى فيلم «الكريسماس الأبيض» سنة ١٩٥٤م. وفى كل من الحالين، «يقدم الكريسماس ليس فقط بوصفه ذكرى معزية للجنود فى الحرب، ولكن أيضًا بوصفه شعارًا يرمز إلى الذاتية الأمريكية نفسها، الوطن الذى كانوا يحاربون من أجله». وحسبما أشار الفيلم الثانى عند ظهوره عندما كانت الحرب الباردة تجرى بشكل مخيف، كان الكريسماس آنذاك، حسبما يكتب ساند «قد اكتسب أهمية أكبر؛ لأنه حينئذ أعلن عن وجود اقتصاد جديد من «النعمة»، والوفرة، والحب بين الأشخاص، والحرية الفردية ـ وهو اقتصاد فهم على أنه يتناقض بشكل درامى مع الاقتصاد الشيوعى الذى يقوم على «العمل»، والمعيشة، والمواطنة الاشتراكية، وسيطرة الدولة». وإذا ما رأينا الكريسماس الأمريكى بهذه الطريقة فإنه يكون احتفالاً بكل ما ساعدنا على «كسب» الحرب الباردة. وإنزال العلم الأحمر فى موسكو تأكيد على التفوق الأخلاقى والثقافى والاقتصادى للطريقة الأمريكية. وهكذا يكون الكريسماس، فى هذه الذكرى السنوية العاشرة، أكثر أمريكية عن ذى قبل.

وفى الذاكرة المسيحية السائدة، تضع حكايات ميلاد المسيح يسوع ضد اليهود. فاليهود هم الذين لا يفسحون مكانًا، والملك الذى يحاول قتل الطفل ملك يهودى، على حين يجىء الأغيار من أماكن نائية لكى يعبدوه. والقراءة المعادية لليهود فى الإنجيل تثبت الافتراض التقليدى بأن «الأخبار الطيبة» موجهة إلى المسيحيين، وبالتالى، إلى أمريكا المسيحية. ولكن ماذا لو أن المعارضة التى تضعها هذه القصة ليست بين يسوع واليهودية، ولكنها بين يسوع وروما، التى كانت قوة إمبراطورية

قاهرة؟ ويكتب هورسلي: «إن مسيح إسرائيل المولود حديثًا، كان هو النقيض تمامًا لرمز القوة التى تتحكم فى مصائر الناس. فقد كان يمثل الآمال والإبهام لدى شعب خاضع لكى يكون حرًا من النظام الإمبراطورى المستغل الذى كان يتحكم فى حياتهم». إن المعنى الأساسى لقصة ميلاد المسيح، إنما هو معنى سياسى أكثر منه دينى. فبدلاً من تثبيت بناء سلطة قائمة، بافتراضاتها الاقتصادية والثقافية، فإن مجىء هذا الطفل يتحدى أى سوء استخدام للسيادة المطلقة.

وأمريكا ليست هى الاتحاد السوفييتى، كما أنها ليست روما القديمة. إذ إن ديمقراطيتنا الليبرالية توفر الأمل للعالم. بيد أن وضعنا الجديد بحسباننا «القوة العظمى» الوحيدة الناجية، يحمل إغواء بنزعة الانتصار التى تزداد خطورتها بمرور الوقت. ويجب أن تجعلنا قصة الطفل اليهودى الذى واجه أول إمبراطورية نتساءل عما إذا كان هذا الاحتفال بمولده يكشف بحد ذاته عن الإمبراطورية التى نتحول نحن إليها.

حلول العام الجديد

١ يناير ٢٠٠٢م

سوف تفقد خمسة أرطال. سوف تصلح النافذة المكسورة. سوف تنظف السرداب. سوف تقوم بتمرينك خمسة أيام فى الأسبوع بدلاً من يومين. سوف تزور المقابر حيث دفن الأب والأم. سوف تتصل بأخوتك وأخواتك. سوف تشجع أطفالك. سوف تكون زوجًا أفضل.

سوف تقرأ بروست حتى النهاية. سوف تتأمل كل يوم. سوف تقضى وقتًا أقل على مكتبك. سوف تصل إلى السيمفونية قبل رحيل سيچى أوذوا. سوف تتعلم تقدير الموسيقى التى يستمع الشباب إليها، أو تتعلم على الأقل أن تستمع إليها بحسبانها موسيقى. وسوف تستأنف دروس البيانو. سوف تغنى تحت الدش. سوف تحصل على اشتراك المسرح. سوف تذهب لمشاهدة الأفلام الفرنسية. وسوف تعمل على تحسين لغتك الفرنسية.

http://www.al-maktabeh.com

لن تستخدم أبدًا تليفونا يعمل بالخلية فى مكان عام. سوف تبقى بعيدًا عن حارة المرور إلا لكى تمر بها. سوف تبطئ، وتفسح الطرق على المحاور. سوف تقوم بصيانة السيارة حسب الجدول. سوف تستقل المواصلات العامة. سوف تمشى أكثر. سوف تقوم بالربط بين البترول والسياسة، وبين السياسة والاقتصاد. سوف تكون واعيًا بأحوال العمال ذوى الأجور المنخفضة الذين يصنعون ملابسك.

http://www.al-maktabeh.com

سوف ترد على بريدك بقدر أكبر من التفكير. وسوف تقبل الدعوات، وتتعلم أن تقول، حاضر. سوف تعمل فى الكتاب الذى تم تكليفك بكتابته. وسوف تعتقد أنه يمكن أن تتفوق على نفسك، على حين تتخلى عن الطموح العبثى. سوف تتذكر ما الذى جعلك ذات مرة تفترض أنك شاعر. سوف تعيد قراءة ريلك Rilke. وسوف تقرأ بروست إلى نهايته.

سوف تتذكر موتى سبتمبر، على حين تحمل الأبطال فى قلبك. سوف تنظر إلى المضيفين الجويين، والطيارين ورجال الأمن فى المطارات باحترام مطلق. سوف تتعلق بوطنيتك المتجددة، حتى وأنت تستمتع إلى الأصوات الصادرة عن أولئك الذين يرون أن الميزة الأمريكية حلم مستحيل. وسوف تسأل عن دورك فى هذه الميزة. وسوف تفهم التساؤل بوصفه أعظم امتياز. وسوف يساورك الشك فى الإجابات إذا جاءت مصحوبة بحراسة مسلحة، لأنها مريبة حتى أكثر من العنف. سوف تزيد من حدة مناقشتك ضد الحرب، حتى الآن. ولن تدع المدافعين عن الحرب يصنفونك بأنك غير عملى لا من أصحاب المقاصد الحسنة. سوف تجعل القضية لصالح الديبلوماسية وضد الحرب، لا على أساس النزعة الأخلاقية المسالمة ولكن على أساس التصورات الأسمى للنجاح الحقيقى والدائم. وسوف تظهر كيف أن القصف بالقنابل لا يميز بالضرورة بين الضحايا، وكيف أن نظام الدفاع الصاروخى يؤدى إلى هزيمة الذات، وكيف أن استخدام القوة لا يحمى. ولن تنتابك الدهشة عندما يصبح الذين لا يوافقون يتحولون إلى شخصيين، وتترك ذلك على أنه مشكلتهم. وسوف تصر على أن زمن الحرب قد ولى. وسوف تصر مرة أخرى.

سوف يعلو صوتك. وسوف تعبر عن نفسك حتى عندما لا تكون واثقًا. وسوف تجرؤ على أن تخطئ، ثم تجرؤ على الاعتراف بهذا. سوف تتصل بصديقك الذى طال

ابتعاده وتدعوه إلى شرب القهوة. وبعد القهوة سوف تلتقط الفاتورة لدفع الحساب. وسوف تترك صديقك يدفع إذا ما عرض ذلك. وسوف تضحك من نفسك. وسوف تقول، إذا وافق صديقك: إن الحياة أقصر من أن نبددها فى المشاعر السيئة. أو حتى إذا لم يوافق صديقك.

ومن حين لآخر، سوف تتذكر موتك. وسوف تقوم باختياراتك على ضوئه. سوف تختار أن تؤمن بالحياة الآخرة دونما حاجة لتعريفها. وسوف تصلى دون أن تتوقع إجابة. سوف تستقيل من موقعك الذى عينت نفسك فيه مديراً لشئون الكون. سوف تسامح نفسك على فكرة أنه لكى تكون إنسانًا ينبغى أن تتسامح وتغفر. وسوف تسمح للمقدس أن يكون بعيداً عن أى تخيل، حتى بينما تشعر بحضور المقدس فى حلاوة الحياة، وفى رقة الغرباء، وإخلاص أولئك الذين يحبونك. سوف تعترف بحقيقة الشر، وإمكانية أن يمسك بك فى قبضته، دون أن تتخلى عن الأمل، والعاطفة، والتوقعات الحسنة. وسوف تتعامل مع كل يوم بحسبانه البداية. وسوف تظهر. وستكون حيا بالمعنى التام على المدى القصير، تاركا المدى الطويل يعتنى بنفسه. وسوف تعطى ما تقدر عليه. وسوف تتلقى.

سوف تولى اهتمامك لما يستحق الاهتمام أكثر من غيره. سوف تخسر خمسة أرطال من وزنك. وسوف تصلح النافذة. وسوف تنظف السرداب. وستكون رحيمًا بنفسك، وهى أول الرحمة للآخرين. وبالنسبة للمبتدئين، لن يدهشك ألا تستطيع الحفاظ على هذه الحلول، لاسيما ذلك الحل المتعلق بپروست. وفيماعدا هذا: ستكون طيبًا مع عائلتك. وسوف تشجع أطفالك. سوف تحب زوجتك.

* * *

http://www.al-maktabeh.com

THE AMERICAN EMPIRE PROJECT

http://www.al-maktabeh.com

الجزء الثانى

الجنود يزحفون

CHRONICLES OF AN UNJUST WAR

٤- حيًّا أو ميتًا
٥- القدس
٦- خائف
٧- قرع الطبول
٨- الرهينة
٩- الذاكرة الأخلاقية

JAMES CARROLL

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(٤)

حيًّا أو ميتًا

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فى ١٣ ديسمبر ٢٠٠١م نتج عن هجوم انتحارى بالقنابل على البرلمان الهندى أربعة عشر قتيلا وأزمة كبرى بين الهند وباكستان. وقد أرسى المثال الأمريكى القائم «حيا أو ميتًا»، السوابق التى يقتدى بها زعماء كل من البلدين، وسرعان ما تصاعدت التهديدات.

وأمر رئيس الوزراء الهندى بإخلاء القرى بالقرب من المناطق المتنازع عليها. وبدأ القصف. وتمت تعبئة الصواريخ والقوات على كلا الجانبين وتحركت إلى الحدود بينهما. وبدا ممكنا تبادل القصف النووى.

وفى اليوم نفسه، فى واشنطن، أعلن الرئيس بوش أن الولايات المتحدة لن تَعُدّ نفسها بعد ذلك مرتبطة بمعاهدة الحظر من الصواريخ الباليستية مع روسيا، والتى كانت قائمة منذ سنة ١٩٧٢م. وقال فى حديقة الأزهار بالبيت الأبيض «على نحو ما أوضحت حوادث ١١ سبتمبر تمامًا، فإن أعظم التهديدات التى تواجه بلدينا معًا لا تأتى من أحدهما ضد الآخر، أو من قوة كبرى أخرى فى العالم، وإنما من الإرهابيين الذين يضربون دونما إنذار أو من الدول المارقة التى تسعى إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل». إلا أن روسيا، وكذلك الصين، عارضتا هذه الحركة. وقد نظر إليها على نطاق واسع بحسبانها ضربة أخرى ضد نظام المعاهدات - تركيبة الاتفاقات الدولية - الذى كان قد جلب بعض الاستقرار فى العصر النووى.

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع، أى فى ٨ يناير ٢٠٠٢م، أنتج البنتاجون تقريره عن مراجعة الوضع النووى، الذى حل محل تخزين الأسلحة النووية لتخفيضها، ليضع الخطوط العريضة لخطة الولايات المتحدة فى استئناف الاختبارات النووية، وينتهك محظورًا ظل قائما لفترة طويلة، بوضع برنامج لبناء الأسلحة النووية التى «يمكن استخدامها» - جيل جديد من الأسلحة «النووية الصغيرة» لتدمير المخابئ تحت الأرض. وقد توقع التقرير أيضا صراحة إمكانية الاستخدام الأمريكى للأسلحة النووية

فى المستقبل فى الصراعات بين العرب والإسرائيليين، والصين وتايوان، وكوريا الشمالية وكوريا الجنوبية - أو بين العراق وأحد جيرانه.

وكان فى هذا السياق أن تصاعد التوتر طوال شهر يناير ٢٠٠٢م بين الهند وباكستان. كما أن تجدد اعتناق أمريكا للإرهاب النووى مصدراً للقوة هو أيضًا السياق الذى يجب أن نرى فيه «محور الشر» الشهير الآن والتحذير الذى صدر بشأنه من الرئيس بوش فى خطابه عن حالة الاتحاد يوم ٢٩ يناير ٢٠٠٢م. فعلى الرغم من أن غرض الرئيس الذى تم توضيحه هو الحيلولة دون «تكاثر الأسلحة النووية»، فإن سياساته كانت هى أكثر المحبذين له حماسة. فإذا شعرت الهند وباكستان بمزيد من الحرية فى استخدام ترسانتيهما النوويتين مصدراً للتهديد والإرهاب، وإذا سعت العراق وإيران وكوريا الشمالية وغيرها من الدول إلى تطوير مثل هذه الترسانات أو هددت بتطويرها (أو غيرها من أسلحة الدمار الشامل) سواء من أجل قوة الإرهاب أو لمواجهة التهديدات، فقد كان هذا راجعًا جزئيًا إلى أن تكتيكات من نوع «حيًا أو ميتًا» قد تم إضفاء الشرعية عليها حديثًا على يد الولايات المتحدة.

تحركات الولايات المتحدة تؤجج الولع بالحرب فى كل مكان

١٤ يناير ٢٠٠٢م

قال القائد الأعلى للقوات المسلحة الهندية فى الأسبوع الماضى: «إذا تعين علينا أن نخوض الحرب، فإنه أمر جيد مبهج». ثم أضاف، كما لو كان بلغة حداد حزين: «أما إذا لم نضطر إلى ذلك، فإننا سنظل نتدبر الأمر».

ذات مرة، كان بوسع الأمريكيين أن يسمعوا مثل هذا الكلام المولع بالحرب، ويرون أمتين مثل الهند وباكستان على الحافة الدموية لحرب كبرى، مع وجود قسم متفوق وإن كان مستنفراً. ولكن لا أكثر من ذلك. وسوف يقوم وزير الخارجية كولين باول بالسفر إلى المنطقة هذا الأسبوع لكى يضغط على قادة نيودلهى وإسلام آباد المتشددين لكى يركنوا إلى الدبلوماسية والتنازل المتبادل وسيلة لحل خلافاتهم، حتى حول كشمير. وتريد أمريكا من باكستان أن تكبح جماح العناصر المتطرفة التى شنت هجمات إرهابية ضد الهند، وأمريكا تريد من الهند أن تعطى باكستان مزيداً من الوقت لكى تفعل هذا.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وقد أظهر زعيم باكستان، الجنرال برويز مشرف، علامات على التعاون فى نهاية الأسبوع الماضى، ولكن الهند ردت بأنها تريد أفعالاً لا كلامًا. وهكذا يواجه باول عقبة رئيسية وهو يحاول أن ينهى أخطر مواجهة منذ نهاية الحرب الباردة. هل هى مشكلة باول؟ إن القواعد الجديدة الخشنة الطائشة التى تلعب الهند بمقتضاها، قد كتبت، للأسف، فى واشنطن.

والحقيقة أن الخطاب المكتوب المثقل بالتهديدات، والذى قرأه رئيس الوزراء الهندى آتال بيهارى ڤاچ بايى، ، إنما هو رجع الصدى للخطاب المكتوب الذى ظل چورچ دبليو بوش يقرؤه على مدى شهور. وڤاچ بايى يخبر مشرف أنه يرى العمليات الإرهابية المنفلتة والموجهة من باكستان ضد الهند مبررًا لأن تقوم الهند بشن هجوم كامل ـ على باكستان. إن مشرف قد تسلم صيغة من إنذار بوش «نحن أو هم»، ولكن مشرف الآن، وقد أعلن عن نيته فى أن يحمل على المتطرفين المعادين للهند فى باكستان، يقول إن هناك حدودًا للمدى الذى يمكن أن يذهب إليه لتلبية هذه المطالب. فعلى سبيل المثال، يبدو أنه رفض من حيث المبدأ الطلب الهندى بتسليم المسئولين عن الهجوم الانتحارى فى ١٣ ديسمبر على برلمان الهند، بحيث يؤكد بالفعل سيادة باكستان وحقها فى تطبيق العدالة فى مصطلحاتها الخاصة. والآن ينتظر العالم ليرى، فى الواقع، ما إذا كانت خطوة نيودلهى التالية سوف تكون تكرارًا لما فعلته واشنطن.

فى هذا العمود، دعوت القراء مرات ومرات إلى أن يتأملوا شكل العالم الذى تصير فيه استجابة أمريكا المفرطة فى عسكريتها ضد الإرهاب هى النموذج الجديد فى ممارسة القوة. إن الأمر لم يعد مجرد منظور افتراضى. وحتى قبل أن ننجز هدف الحرب الوحيد فائق الأهمية ـ «تفكيك القاعدة» ـ كانت حربنا قد حولت معنى الصراع إلى مكان آخر وأجبرت أممًا أخرى، تقلدنا، إلى اللجوء لمستويات لم تكن متخيلة من قبل للولع بالحرب. وليس فقط فى شبه القارة الهندية. ذلك أن صيغة «حيًا أو ميتًا» الأمريكية، التى تبناها آرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل منذ أكتوبر بغلظة، قد أدت بالفعل إلى انهيار كارثى فى الشرق الأوسط، ولا تعد بشىء سوى المزيد من المصائب. إذ إن الإرهابيين الفلسطينيين(*) يشعرون أن لديهم رخصة فى تصعيد العنف ضد

(*) لا نوافق على تسمية المقاومة الفلسطينية بالإرهاب، وسجل إسرائيل فى الإرهاب طويل وثقيل ومتنوع ـ المترجم.

المدنيين، وهو ما سوف يفعلونه بالتأكيد. وعندما تضغط واشنطن على الإسرائيليين لكبح العنف، فلماذا لا يضحك الإسرائيليون بمرارة؟

وبما أن حربًا أحادية شكلت جوهر استجابة أمريكا لأحداث ١١ ـ ٩، فإن أعظم تحول أخلاقى كان له أن يحدث بين الأمم فى القرن العشرين ـ الفكرة الهشة، ولكن الثمينة، لتأسيس الاعتماد العالمى المتبادل ـ قد تمت إعاقته. إذ إن الأمم يدين بعضها لبعض بالقدر الأدنى من التعاون والاحترام، بل وحتى المراعاة. ومن المعترف به أن هذه الفكرة قد سُحقت بالفعل، لاسيما بفعل احتقار أمريكا بعد الحرب الباردة للأمم المتحدة. ولكن مع الإعلان الأمريكى بأنها سوف تطارد الإرهابيين بالطريقة التى تحلو لها، دون حساب لأحد، ولا تهم العواقب التى تقع على الآخرين، فإن حلم العالم بوصفه جماعة من الشعوب، كل منها جدير بالاحترام، قد مات وانتهى. والآن العالم هو المسرح الذى تقف فوقه أمة واحدة تسعى لفرض قوتها، تاركة للآخرين أن يقرروا فقط ما إذا كانوا سينحنون أمام تلك القوة أم يخاطرون بالتعرض للقصف الجوى.

وهنا تكون النكتة: أن هذه الإستراتيجية الفجة للتباهى بالقوة لا تنجح. فهى لا تؤدى إلى تحقيق الحد الأدنى من الأهداف الأمريكية. هذه الحقيقة غير المواتية تتحول لأن تصبح واضحة بشكل محرج بينما تخفت الحرب فى أفغانستان. وثمة مجموعة من الأشخاص المحرومين اليائسين تم إحضارهم إلى مركز الاعتقال التابع لأمريكا فى كوبا، بيد أنه لا يوجد سبب يدعونا لأن نصدق أن نخبة القاعدة موجودون بينهم. وإذا كان أسامة بن لادن قد هرب حقًا، على الرغم من القصف الجوى، وما قد يكون نتج عنه من موت آلاف القتلى من المدنيين الأفغان، فهل سنظل راضين بأن هذه كانت هى الطريقة الصحيحة للاستجابة على أحداث الحادى عشر من سبتمبر؟.

وإذا ما خاضت الهند وباكستان الحرب الآن فهل ستجد أمريكا حتى فى ذلك الحين أنه يمكن أن تعيد النظر فى القوة الدامغة التى أطلقناها؟ أم أن مثل عمليات إعادة النظر هذه غير جديرة بتكساس الغرب المتوحش الذى تحولت أمتنا إليه؟ فرعاة البقر السكارى ـ يمكن أن تسكرهم القوة ـ لا يأبهون للعواقب، أو حسبما قالها القائد العسكرى الأعلى فى الهند، فى يوم آخر: «عندما يقرر ثوران وحشيان أن يتقاتلا فى الغابة، فإنهما يهجمان دونما أى اعتبار».

http://www.al-maktabeh.com

محور الخوف

٥ فبراير ٢٠٠٢م

http://www.al-maktabeh.com

كانت هزيمة هتلر، التى جاءت بعد أسابيع فقط من موت فرانكلين. د. روزفلت، علامة على نهاية عصر وبداية عصر آخر، عندما ذهب الاتحاد السوفييتى فى الحال من كونه شريك أمريكا الذى لا غنى عنه لكى يصير خصم أمريكا. وكان ميل روزفلت للتعاون مع موسكو قد أخلى مكانه لتطلع ترومان الواضح نحو المواجهة. وفى ٢٣ إبريل ١٩٤٥م، تقابل الرئيس الجديد فى واشنطن مع وزير الخارجية السوفييتى ف. م. مولوتوف. وكان الروسى قد طلب المقابلة على أمل تجنب «اختلافات الترجمة والتعقيدات المحتملة» التى لم تكن لتظهر «لو عاش روزفلت».

ولكن مولوتوف قوبل بما يسميه المؤرخ دانييل يرچين «محاضرة صارمة» من ترومان. واحتج مولوتوف بقوله: «لم يحدث أبدًا أن كلمنى أحد على هذا النحو فى حياتى». وقد أجاب ترومان على قوله: «نفذوا اتفاقياتكم ولن يكلمك أحد بهذه الطريقة». هذا فى اللحظة التى كان الجيش الأحمر الذى بذل دماء كثيرة، ينفذ اتفاقه النهائى، ويطبق على برلين. ويعلق يرچين فى كتابه الكلاسيكى «Shattered Peace»، بقوله: «كانت المحاضرة الصارمة التى ألقاها رئيس الولايات المتحدة على مسامع وزير الخارجية السوفييتى بالكاد هى سبب الحرب الباردة. إلا أن هذا التبادل قد رمز بالفعل إلى التباعد الذى حدث بعد الحرب وأدى إلى المواجهة».

وبعد ذلك بأسابيع قليلة، وفى الاجتماع التنظيمى للأمم المتحدة فى سان فرانسيسكو، صعَّد الوفد الأمريكى المواجهة مع السوفييت، مما دفع الصحفى والتر ليبمان لأن يصيح محذرًا. فقد كتب: إن المواجهة الأمريكية ـ السوفييتية «ليست داخلة فى طبيعة الأشياء وإنما هى راجعة إلى عدم الخبرة وعدم الاستقرار العاطفى فى وفدنا.. ما كان يجب أبدًا أن يحدث هذا.. إننى أشعر إننى واثق بأن هذا لم يكن ليحدث أبدًا لو أن الرئيس روزفلت كان ما يزال حيًا، وسوف يؤدى إلى متاعب كبيرة».

هذه الحوادث غالبًا ما يتم تذكرها فى سياق التساؤل عما إذا كانت الحرب الباردة ضرورية. ولكن اهتمامى أشد بساطة. فقد كان من ينفذون سياسة ترومان مقتنعين بأن

السوڤييت سوف يستسلمون أمام مثل هذا الضغط. وعلى أى حال، فإن الولايات المتحدة الأمريكية وقفت وحدها قوة عظمى لا يمكن تحديها، وكانت هى الأمة الوحيدة التى خرجت من الحرب العالمية الثانية سليمة، وأقوى كثيراً مما كانت عليه. ولم يكن أمام الاتحاد السوڤييتى المنهك من جراء الحرب أى خيار، على حد تعبير يرچين، سوى «أن يقبل دوراً مساعداً فى عالم ما بعد الحرب».

هل يبدو الأمر مألوفاً؟ إن الوضع الأمريكى الجديد فى التفوق المطلق كان أوضح ما يكون فى خطاب الرئيس بوش عن حالة الاتحاد الأسبوع الماضى. إذ إن واشنطن تملى إرادتها بصراحة على كل شىء من المعاهدات الدولية إن قررت انتهاكها أو تجاهلها، إلى السياسة النقدية، إلى أرض المعركة التالية فى الحرب ضد الإرهاب. وعندما أعلن الرئيس بوش عن استعداده لمهاجمة «محور الشر» كان الأمر الأقل أهمية هو أنه لا يوجد مثل هذا المحور بين الدول الثلاث التى سمّاها، أما الآن، فلدى الدول الثلاث كل الأسباب لخلق هذا المحور لمواجهة تهديد بوش. والنزعة المانوية لدى الرئيس الإيڤانجليكى تتطلب «شريراً» يمكن أن تكون أمريكا فى مواجهته هى «الخيِّر». أوه، وعلى فكرة، فإن مثل هذا الصراع الكونى، الذى إذا تم إعلانه، يبرر أكبر بناء عسكرى منذ إدارة ريجان الأولى.

ضد أى عدو؟ ليس الإرهابيين. ويتجلى عجز الإخفاق الأمريكى أشد ما يكون فى الحقيقة المحرجة ـ والتى نادراً ما يلاحظها أحد ـ القائلة بأن الحرب الظافرة ضد طالبان لم تؤد إلى اعتقال أسامة بن لادن ولا من أرسل الأنثراكس. إن الحرب ضد الإرهاب تتطلب استجابات أكثر حذقاً بكثير من مطرقة البنتاجون. وإضافة الثقل إلى رأس المطرقة، بتكلفة تصل إلى الملايين، لن تجعلنا أكثر أمنا من مجانين الأنثراكس أو المتعصبين الانتحاريين. ولكنها ربما تؤدى إلى ما هو أسوأ.

عندما حذر والتر ليبمان من المتاعب فى سنة ١٩٤٥م، لم يكن بوسعه أن يتخيل مدى الكفاءة التى سوف يستجيب بها الاتحاد السوڤييتى للإنذار المتغطرس الذى تلقاه من واشنطن. فقد رفضت موسكو أى مفهوم عن الدور المساعد. إذ إن تطويرها السريع ـ والذى لم تتنبأ به أمريكا على الإطلاق ـ لترسانتها النووية كشفت عن تباهى ترومان

http://www.al-maktabeh.com

http://www.almaktabeh.com

الأولى على حقيقته: حماقة صبيانية مغفلة. واليوم؟ لا يبدو مقنعًا أنه لن تبرز قوة دولة لكي تتحدى السيطرة الأمريكية، ولكننا نحتاج بالمثل إلى أن نكون مغفلين لأن نفترض أن سيطرتنا ستكون دائمة.

نعم، نحن أقوى أمة فى تاريخ كوكب الأرض. ومع ذلك فإننا مرعوبون. فبعيدًا عن المخاوف المتولدة عن نوع واحد من التهديد، قائم على أساس قدرة الأفراد الفوضويين على التسبب فى المعاناة الشاملة، فإننا نخلق استجابة مهيمنة لنوع مختلف تماما من التهديد، وهو تهديد لا يوجد سوى فى خيال مخططى البنتاجون - وفى خيال المقاولين الذى يسعدون بعقود الدفاع. إذ إن البناء العسكرى القادم، الذى لا علاقة له بالإرهاب، ربما يؤدى بدلاً من ذلك إلى خلق وحش يمكن حقًا أن يعارضنا. فقد حدث هذا من قبل. «فعدم الخبرة وعدم الاستقرار العاطفي»، بالإضافة إلى غرور القوة الصبيانى، وأخلاقيات الهياج، والغطرسة الفائقة - تخلق محورًا للخوف.

بوش الراديكالى

١٩ فبراير ٢٠٠٢م

يُعَدّ چورچ دبليو بوش، على نطاق واسع، تجسيدًا لإعادة النزعة المحافظة، ولكنه على النقيض من ذلك. وهذه الرئاسة علامة على الإطاحة الجذرية بالقيم الأمريكية التقليدية والسياسات الأمريكية التقليدية. ومن الواضح أن الحريات المدنية على المحك فى النظام الجديد للأمن الداخلى، بيد أن أكثر التحولات حدة يتضمن المواقف الأمريكية تجاه الحرب.

على مدى جيل، كانت ترسانة الولايات المتحدة الضخمة تدار بغرض «ألا تستخدم». وباستثناء حرب الخليج الأولى، والحرب الجوية التى شنها حلف الأطلنطى ضد صربيا، تم تحقيق هذا الغرض. فقد ترسخ فى وعى ما بعد ڤيتنام أن الحرب هى الملاذ الأخير، ويجب تجنبها كلما كان ذلك ممكنًا. وتأكد ذلك عندما انتهى الصراع المرعب مع الاتحاد السوڤييتى بلا عنف، وهو انتصار لسياسات المنع والاحتواء التى ساعدت فى النهاية شعوب الاتحاد السوڤييتى أنفسهم لأن يستعيدوا حكمهم لأنفسهم. ذلك أن شيئًا يسمى «العملية السلمية» تحرك من الهوامش المثالية إلى قلب ممارسة القوة الأمريكية.

والآن، ثمة افتراض مختلف جذريًا يطوق القصد الأمريكي، وهو القضاء على تجربة السنوات الخمسين الماضية. فمع الزعم بوجود ميادين قتال حول الكرة الأرضية، تم تعريف الحرب فجأة بأنها أساس هويتنا، ولا شيء يوضح هذا أكثر من ميزانية البنتاجون الجديدة.

فبالنسبة للسنة المالية الجديدة، تقترح إدارة بوش إنفاق حوالى ٤٠٠ بليون دولار على الدفاع. وفى الأسبوع الماضى، وفى شهادة أدلى بها لورنس ج كورب، وهو من مجلس العلاقات الخارجية وعضو قادة الأعمال للأولويات المحسوسة، أمام لجنة الميزانية، وضع هذا الرقم فى منظور ما. وهو يمثل زيادة قدرها ٣٠ بالمائة عن السنة الماضية، ومستوى ١٥ بالمائة فوق ما كانت تتطلبه الحرب الباردة، وهى أكبر قفزة للميزانية منذ ڤييتنام، وإذا ما تمت الموافقة على هذه الميزانية، فإن إنفاق أمريكا العسكرى سوف يتجاوز كل نفقات الدفاع «للخمسة عشر بلدا التالية فى العالم مجتمعة».

وقد لاحظ كورب أن طلب الميزانية يتجاوز أى ميزانية أرسلها دونالد رامسفيلد إلى الكونجرس عندما كان يخدم وزيرًا للدفاع فى ذروة الحرب الباردة. ولكن ألا تتطلب حرب رامسفيلد ضد الإرهاب مثل هذه الزيادات الطارئة؟ لا. وحسبما يلاحظ كورب، فإن الحرب فى أفغانستان قد تكلفت حوالى ٦ بلايين، وتخصص ميزانية العام التالى ١٠ بلايين دولار للصراع الدائر ضد الإرهاب ـ وكل من الرقمين بعيد تماما عن الزيادات الجديدة التى سوف تدفع إجمالى الميزانية إلى ٥٨٠ بليون دولار بحلول سنة ٢٠٠٧م، حسبما يجادل كورب.

والاقتراح يوفر الميزانية للبرامج والتجهيزات التى لن تؤدى أى دور فى أى حرب ضد الإرهابيين الذين لا دولة لهم: فهى طائرات ذات تكنولوجيا فائقة، وغواصات، ودبابات ونظام الصواريخ الدفاعية. وتحقيق مثل هذه الالتزامات سوف يتكلف أكثر من مائة بليون دولار. وكلها، من وجهة نظر كورب عبارة عن «إلقاء.. المال إلى البنتاجون، ورفض أى خيارات أخرى». ولكن كورب صوت وحيد منعزل فى هذا الجدل، وهو بالمصادفة ليس صوتا يرتفع من اليسار. فقد خدم مساعداً لوزير الدفاع فى عهد رونالد ريجان.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وهنا بعض الأسئلة التى يفرضها اقتراح إدارة بوش بالميزانية العسكرية :

* ما الفوائد التى تعود من ذلك؟ للأسف ، أن الإجابة القديمة ، فى عصر إنرون ، تطرح نفسها فى ثوب جديد . هذه النفقات التى لم يسبق لها مثيل ، بقيمتها الأمنية الملتبسة سوف تثرى مقاولى الدفاع الذين تنعشهم هذه النفقات ، كما أنها ستعيد انتخاب السياسيين الذين تنفق عليهم . وإذا ما قورن إنرون بهذه الرابطة من الفساد السياسى المشترك ، فإنه يظهر لطيفًا .

* وإذا كنا ندرك أن الاستعداد للحرب له قوته الدافعة الخاصة ، فهل نحن نطلق قوى لا يمكننا أن نتحكم فيها؟ وهل حالة «أطلق النار أولا ، ثم اسأل بعد ذلك» فى الحرب على الإرهاب قد أدت إلى استهتار جديد فيما يتعلق بالحرب المتوقعة ضد بعض الدول هى التى تبرر وحدها مثل هذه الميزانية؟

* إذا ما تمت الموافقة على هذه الميزانية ، فهل سيعنى هذا أننا نحن الأمريكيين قد استجبنا لموسمنا الملىء بالجراح والخطر بوضع عسكرى جذرى جديد لأنه يبدو بلسمًا شافيًا للجراح؟ إن العنف العالمى أكثر احتمالاً ، والصحة الاقتصادية طويلة المدى لبلادنا قد تقوضت ـ وفى سبيل ماذا؟ هل لكى نشعر بأننا أفضل؟

هذه الأسئلة تغلى لتطرح تساؤلات عن رئيسنا . ففى اقتراح مثل هذه الميزانية غير المتناسبة للدفاع ، هل چورچ دبليو بوش مخدوع ، أم أنه شكاك متشائم؟ وهل هو يستغل عن وعى لحظة الوطنية غير الناقدة التى تمر بها الأمة ، أم أنه هو نفسه غير قادر على النقد من الناحية المعرفية؟ وما هو الأسوأ فى ذلك؟

وإذا مالفّ نفسه فى العلم ، على حين يضع مصالح مقاولى الدفاع قبل مصالح الوطن ، فهل يخون الرئيس بوش المعنى الذى يدل عليه العلم؟ وبينما يتم القيام بهذا التغيير الجذرى فى واشنطن ، لماذا لا يطرح المحافظون مثل هذه الأسئلة؟

أمريكا تقوم بدور اسبرطة

١٢ مارس ٢٠٠٢م

متى صارت أثينا هى إسبرطة؟ متى قامت أمريكا بتعريف نفسها على هذا النحو

الشامل حول الحرب؟ لقد أدت الحوادث التي جرت هذا الشتاء إلى بلورة هذا السؤال، ولكن منذ يومين نشرت نيويورك تايمز الأنباء الصادمة عن تقرير البنتاجون عن الوضع النووي. ذلك أن حكومتنا عاكست اتجاها طويل المدى للبعد عن الاعتماد على الأسلحة النووية، وهي تعد صراحة لمشروع إستراتيجية عسكرية أمريكية على أساس الأسلحة النووية التي يمكن استخدامها، مع احتمال غير مسبوق للاستخدام الأول ضد دول غير نووية، ولتطوير أسلحة نووية جديدة، بل وحتى استئناف الاختبارات النووية. وهذه حركة تحول عن الدمار المتبادل الأكيد، حسبما تصوغها التايمز، إلى الدمار الأكيد لجانب واحد - أي دمار عدونا. إن واشنطن تفكر فيما لا يجوز التفكير فيه.

كيف حدث هذا؟ في أقل من نصف سنة أعدنا اختراع أنفسنا بحسباننا أكثر شعوب الأرض ولعًا بالحرب. لماذا؟ إن الإجابات التقليدية هي أن الهجمات الإرهابية التي وقعت في سبتمبر تطلبت هذه الاستجابة، وأن ذلك محور للشر يسلط علينا تهديدًا مميتًا. بيد أن إجابة أكثر عمقًا، ربما، هي أن ضربة سبتمبر إلى النفسية الأمريكية تسببت في رد فعل من الأسى والغضب والخوف الذي لم يحدث من قبل أن كان الإحساس به على هذه الدرجة من القوة. إن الحرب ضد الإرهاب يمكن أن تبدو تطهيرًا لمثل هذه العواطف. ويمكن للوجه المتوحش الذي يجسده الوضع النووي الجديد أن يظهر وكأنه تعبير كامل عن الجرح الذي عانيناه، سواء كان يجعل المعاناة مستقبلاً أقل احتمالاً أم لا.

بيد أن السهولة التي جعلنا بها جيلاً آخر من الشباب يشفي غليله في دفاعنا، كما نتخيله، والروح الحمقاء التي نرمي بها الآن زهر القوة النووية، تصرخ مطالبة بتفسيرات أخرى. ما هي الملاحظات في الشخصية الأمريكية التي يمكن أن نعول عليها في هذا التحول المذهل؟ هناك أربع ملاحظات خطرت لي:

* الزمن الأمريكي. نحن وحدنا دون بقية الأمم الذين نعرف أنفسنا بالمستقبل لا الماضي. وهذا هو منبع تفاؤلنا، ومفتاح عظمتنا. ولكنه يعني أيضا أننا نبذل جهدًا قليلاً في نقد الذات، وتعلم دروس التاريخ، ومن ثم فإننا دائمًا أبرياء ومسرعون في النظر إلى أولئك الذين يعارضوننا على أنهم أشرار. وإذا ما تصرفنا بنوايا حسنة، فإن في هذا الكفاية. وننسى أن نوايانا الحسنة غالبًا ما انحرفت في الماضي.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

* المال الأمريكي. بتقييم النشاط في مجالات المقاولات، نجد أننا نثق في شركاتنا، وأن ذلك مفتاح آخر لعظمتنا. ولكن الشركات منحازة بشكل لم يتم فحصه تجاه الحرب. فقد صارت صناعة السلاح آلة اقتصادية على مدى نصف قرن من الزمان، ومصدراً من مصادر الرخاء. ثم ما أن توجد الأسلحة، سرعان ما يصير الضغط من أجل استخدامها صعبًا على المقاومة، مما يطلق دورة جديدة من التطور والتصنيع. والكابح لهذه الدورة هو السياسة، ولكن الساسة الآن خاضعون تمامًا للشركات التي تدفع لهم «بالإسهامات». واقتصاد الحرب الذي انتكس بعد انفراج العلاقات مع موسكو، استعاد حيويته حالاً.

* الهوية الأمريكية. ونحن نكون على طبيعتنا أكثر ما نكون، عندما نمضي وحدنا، من «الفرد ذي العزم» إلى حراس تكساس. وعلى الرغم من الطبيعة الجماعية لأحسن أعمالنا (العلوم، التكنولوجيا) فإن شكوكنا الفطرية تجاه الجماعية العالمية (مثل الأمم المتحدة) تحول دون تطبيق القانون عبر الحدود (مثل المحكمة الجنائية الدولية) التي يمكنها وحدها ضرب الإرهاب بفعالية. والحرب الأحادية تبدو عادية بالنسبة لنا لأننا نوجهها بشروطنا الخاصة، ولا نهتم بأحد ـ مثل الأمريكيين الحقيقيين.

* الاستثناء الأمريكي. لأن هجمات سبتمبر كانت أول عنف شامل تعانيه الولايات المتحدة في الداخل منذ الحرب الأهلية، فإنها تركتنا في شك وخوف. ولكن في أي مكان آخر فإن الخراب الذي سببته الحروب عادي للغاية. أما بالنسبة لنا فإن دمار الحرب يبقى أموراً مجردة. وذكريات سبتمبر، في الحقيقة، تبرز كيف أن أهوال الحرب الحديثة لم تمس أبدًا مدن أمريكا. هذا هو السبب الوحيد في أننا نستطيع إعادة اختراع تسليط القوة الأمريكية حول ضربات بالروبوت، والقصف الجوي الإستراتيجي، بل وحتى الأسلحة النووية التي يمكن استخدامها. ويمثل هذا كله إخفاقًا في الخيال الأمريكي لاستيعاب الأثر الحقيقي على الناس الحقيقيين في مثل هذه الهجمات. فماذا لو أن النيويورك تايمز نشرت نعيًا مفردًا لكل شخص قتلته قوات الولايات المتحدة؟

في كل من هذه الأمثلة، يبرهن مصدر عظمة الشخصية الأمريكية على أن له جانبًا مظلمًا، وأن قواها تنطلق من خلال الحزن والغضب والخوف المسيطر. إنه الظلام حقًا. ولكن نفاذ البصيرة العظيم في الأدب المأساوي ـ الذي أعطته أثينا للعالم ـ هو أن الحزن

والغضب والخوف يمكن أن تؤدى إلى الحكمة لا الانتقام، فى سر الحرية الإنسانية. فما الحكمة فى ظروفنا الراهنة سوى أنها طريقة أخرى للتفكير فى الحرب؟ انتبه للحرب ضد الإرهاب، وانتبه لتقرير الوضع النووى. انتبه لاستغلال إدارة بوش لحزننا، وغضبنا وخوفنا. إننا ينبغى بشكل ملح أن نعيد النظر فى الطريق الذى سلكناه هذا العام قبل أن يؤدى بنا إلى نهاية مميتة من صنع أيدينا.

وعندها سوف يسأل الناجون: متى صارت أمريكا إسبرطة؟ وستكون الإجابة: لقد حدث هذا الآن.

الپاكستان فى مواجهة الهند

٢٨ مايو ٢٠٠٢م

إن صدمة العناوين الرئيسية تتركنا غير قادرين على التمييز بين التهديد الرهيب المجرد والتهديد الذى يهدد العالم تاريخيا. إن أزمة السلوك الجنسى المنحرف بين قساوسة الكنيسة الكاثوليكية بل والحرب ضد الإرهاب ستكون مجرد هوامش على العصر الحالى إذا ما تحول الصراع بين الهند وپاكستان من مناوشات الحدود إلى حرب عامة. وبما أن مشهد مثل هذا التصعيد يبدو أكثر احتمالاً يومًا بعد يوم، فهنا بعض النقاط التى تحتاج إلى أن نؤكد عليها مجددًا:

* لم يحدث أبدًا من قبل، حرب تبادل القذائف بين قوتين نوويتين. والحرب، تحديداً، تحمل قوتها الدافعة غير العقلانية. واحتمال وقوع عدة حوادث جديدة مثل هيروشيما فى شبه القارة الهندية، احتمال حقيقى، وربما كان احتمالاً وشيكًا.

* من داخل النزاع بين الهند وپاكستان، تبدو مسائل السيادة الوطنية والهوية الدينية جديرة بالمخاطرة حتى بحرب نووية، ولكن من الخارج، ليس هناك أى تبرير مقنع لتلك المخاطرة. وهذا هو وضع الولايات المتحدة والأمم الأخرى.

* بيد أن ذلك التناقض ينطبق فى كل موقف حرب. فمن داخل النزاع، أى عمل خطير مبرر على الدوام. ومن الخارج، الحل الوسط، والمفاوضات، وضبط النفس تبدو كلها أمورًا مفضلة على العنف. وبعبارة أخرى فإن الحرب بين الهند و پاكستان،

http://www.al-maktabeh.com

تكشف عن عبثية الحرب فى حد ذاتها. ومن ثم فإنه لا يكفى للولايات المتحدة وغيرها من الأمم أن تلح على نيودلهى وإسلام آباد لضبط النفس.

http://www.almaktabeh.com

* ولم يحدث التصعيد فى هذا الصراع فى فراغ. إذ إن شيئين جعلاه ممكنا: مناخ عالمى واسع المدى من الاستحسان الأخلاقى للحرب، ولامبالاة واسعة الانتشار تجاه التهديد الذى تشكله الأسلحة النووية. وينبغى للتوقع الماثل والحقيقى للحرب النووية أن تولد تغيرات على كل من هاتين الجبهتين.

كان هناك وقت تنطلق فيه جماهير الأمم لتسبق حكوماتها فى المسألة الملحة للحرب النووية. ومن حركة «حرموا القنبلة» «ban the bomb» فى خمسينيات القرن العشرين، إلى حركة «التجمد النووى» «nuclear freeze» فى الثمانينيات؛ ومن الطلاب الناشطين إلي دعاة السلام الكبار؛ ومن علماء پوجواش إلى الأمهات فى جمعية «العمل النسائى من أجل نزع السلاح النووى» Women's Action for Nuclear Disarmament؛ ومن المنظمات العاملة ضد الأسلحة النووية من علماء الطبيعة والمحامين إلى الجمعيات التى كونها رجال المال والأساقفة - ارتفعت أصوات المواطنين العاديين فى الماضى لتحدث تأثيراً هائلاً فى هذه المسألة. والواقع، ربما يكون الأمر هو أن سباق التسلح فى حد ذاته قد انقلب على عقبيه بتأثير هذه الأصوات، عندما اضطرت الحكومات إلى الاستماع إليها.

أين مثل هذه الأصوات اليوم؟ أو لنطرح السؤال بطريقة أخرى: ما الذى حدث لتقاليد «المقاومة»؟ ففى أثناء ذورة الحرب الباردة اكتشفت جموع كثيرة من البشر فى جميع أنحاء العالم أن الطريقة الوحيدة للحياة بطريقة إنسانية فى العصر النووى تتمثل فى المعارضة النشطة للمشهد القادم للكابوس النووى. وبعد سنة ١٩٩٠م، بدا أن الخطر قد تراجع، وتبخرت المقاومة. ونفس الجماهير العريضة التى كانت ذات مرة ترى أن مخاطرة الحرب النووية مشكلة عامة ملحة، تقبلت الأسطورة القائلة بأن الحرب النووية لن تقع أبداً. وفى أمريكا، أدى هذا إلى اللامبالاة حتى عندما تخلى المسئولون الحكوميون عن معاهدات الحد من الأسلحة النووية، واقترحوا برامج لإنتاج أسلحة نووية جديدة (القنابل النووية لتدمير المخابئ، وتسليح الفضاء) وأعادوا الترويج للعقيدة القائلة بأن قوة أمريكا ترتكز على ترسانتها النووية الباقية. ولم يلاحظ أحد أن

هذه الاتجاهات فى الولايات المتحدة أعادت فرض تصميم الأمم الأخرى على امتلاك مثل هذه القوة. ولم يلحظ أحد بطريقة أشد قوة، أن القدرة الأخلاقية للولايات المتحدة على اعتراض الاختبارات النووية التى تجريها الهند وپاكستان قد انتقص منها رفض مجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة لاتفاقية المنع الشامل للاختبارات النووية قبل ذلك مباشرة.

وهكذا فإن السياق الذى تحركت فيه الهند وپاكستان إلى حافة الحرب النووية هذه قد تم تحديده لا بانعدام المسئولية لدى الحكومات الأخرى، ولكن بتجريد المواطنين فى كل مكان والذين لم يعودوا يرون فى منع مثل هذه الحرب أمرًا يخصهم. والآن، هل سنشهد حقًا حل الأزمة على طول حدود الهند وپاكستان، كما لو كانوا هم الأساقفة الكاثوليك فى نضال مع الصحافة؟ وكما لو كانت الـ FBI فى منافسة لتبادل اللوم مع CIA؟

إنه ينبغى علينا تجاه «مصير الأرض»، على حد تعبير جوناثان شل الرائع، أن نفعل ما هو أكثر من ذلك. يجب علينا، أولا، أن نفكر فيما لا يرد على البال مرة أخرى، ونتصور ما سيكون عليه شكل العالم حتى بعد حرب نووية محدودة. ويجب أن نواجه السؤال الذى يطرحه هذا المستقبل الممكن على كل منا: ماذا أنت فاعل لكى تحاول أن تمنع مثل هذه الكارثة؟

إن الطريقة الوحيدة لكى نعيش بطريقة إنسانية ـ ما تزال ـ تتمثل فى مقاومة الحرب. ويجب أن يكون منع الحرب، فى العصر النووى، هدفًا مركزيًا فى حياة كل فرد. أيها العلماء والأطباء، والمحامون، والأساقفة، والأمهات، والآباء، والطلاب، ورجال الأعمال والكتاب ـ أين أنتم؟ يجب أن نتذكر ما تعلمناه بالفعل ولكننا نسيناه، إن ما يظهره لنا زعماء الهند وپاكستان مرة أخرى؛ إذا ما تركنا نحن البشر هذه المشكلة لحكوماتنا فإننا هالكون.

***

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(٥)

القــدس

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فى غضون أسابيع بعد هجمات ١١/ ٩ فى نيويورك وواشنطن، أدى هجوم فلسطينى على مطعم بالقدس إلى مقتل وزير السياحة الإسرائيلى رهافام زئيفى. وعُدّ اغتيال مسئول حكومى تصعيدًا رئيسيًا فى حملة الإرهاب.

وربما تم استهداف زئيفى لأنه صوت مؤيد لفكرة «ترحيل» الفلسطينيين من الأراضى المتنازع عليها(*). وعندما تم تعقب آثار المشتبه فى قيامهم بعملية الاغتيال إلى مقر الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات فى رام الله - وجدوهم هناك مما يرمز إلى ازدواجية عرفات - أحاطت الدبابات والجنود الإسرائيليون بالمجمع. وقام رئيس الوزراء الإسرائيلى، آرييل شارون، باستغلال الاستفزاز الفلسطينى الجديد مع نزعة واشنطن الجديدة «حيًا أو ميتًا»، بوصفها مناسبة لتعريف حملة إسرائيل بحسبانها خط المواجهة فى الحرب ضد الإرهاب. وكان لابد من استخدام معيار «القوة المهيمنة» الذى وضعته واشنطن لتبرير التكتيكات الإسرائيلية الأشد فظاظة، بما فى ذلك هدم المنازل، والعقاب الجماعى، والاغتيالات غير القانونية وإغلاق الضفة الغربية غزة مما أدى إلى خنق الاقتصاد الفلسطينى، وانتشار البطالة بين الشباب الفلسطينى - وهم المورد الأول

(*) نرى أن هذه صياغة تظهر الانحياز لإسرائيل، فالفلسطينيون يعيشون على تلك الأرض منذ آلاف السنين، وقرار الأمم المتحدة الذى قامت على إثره إسرائيل عام ١٩٤٧، يقضى بتقسيم فلسطين إلى «دولة عربية» و«دولة يهودية، قامت الدولة اليهودية، ولم تقم الدولة العربية (الفلسطينية)، ثم احتلت إسرائيل عام ١٩٦٧م أجزاء من الدولة العربية (الفلسطينية)، وأصبح - بمنطق الواقع والقوة، أو شريعة الغاب - لليهود من شتى أنحاء العالم أن يدخلوا فلسطين، أو إسرائيل، ولا يتمكن الفلسطينيون الذين خرجوا من فلسطين عام ١٩٤٨م، إثر مذابح الإرهابيين اليهود، من العودة لبلادهم ومنازلهم التى لا يزالون يحملون مفاتيحها - (المترجم).

لتجنيد الإرهابيين - والوصول إلى مستويات محزنة من سوء تغذية الأطفال الفلسطينيين.

وسرعان ما أدى هذا الإغلاق إلى «حاجز أمني»، وهو حائط وسور كبير محصن أدى فى الواقع إلى اقتطاع أجزاء من الأرض المتنازع عليها. وفى إشارة إلى اتفاق السلام الذى عقد بين إسرائيل والفلسطينيين سنة ١٩٩٣م، قال شارون فى أوائل ديسمبر ٢٠٠١، «لقد انتهت أوسلو منذ زمن طويل». واستمرت غالبية الإسرائيليين فى الاعتقاد فى مبادئ أوسلو - دولتان والاتفاق حول القدس، وانسحاب معظم المستوطنين اليهود من الأراضى المتنازع عليها(*)، والتزام فلسطينى ثابت بأمن إسرائيل. بيد أن هذه الأغلبية، وهى تشعر أنها تحت الحصار(**)، تقبلوا أيضًا استجابة شارون القاسية للهجمات الفلسطينية.

وفى رام الله صار عرفات سجينًا بالفعل. ولم تعد إسرائيل تعامله بوصفه شريكًا مفاوضًا. وجددت حماس والجهاد الإسلامى حملاتهما لتدمير دولة إسرائيل(***). وتم قبول الأسلوب العدمى للاغتيال الانتحارى بحسبانه عملاً مشروعًا من جانب كثير من الفلسطينيين ومؤيديهم. وفى جميع أنحاء العالم العربى، انتشر الاعتقاد بأن الهجمات على مركز التجارة العالمى والبنتاجون كان من عمل اليهود، وصار الخطاب البلاغى المعادى للسامية صراحة ملمحًا من معظم الخطب الإسلامية(****). أما فى

(*) راجع هامش صفحة ٩٥ - المترجم.

(**) إذا شعر الإسرائيليون أنهم تحت الحصار، فبماذا يشعر الفلسطينيون؟ - المترجم.

(***) حماس والجهاد يقومان بمقاومة الاحتلال الإسرائيلي، والجيش الإسرائيلي من أقوى جيوش العالم، وتحت يده ترسانة نووية، وموارده بدون حدود، سواء كانت من يهود العالم، أو من حكومة الولايات المتحدة، وترفض إسرائيل قيام دولة فلسطينية، وتتحجج فى ذلك بشتى أنواع الحجج. أما حماس والجهاد فمحظور عليهما من العالم كله بما في ذلك البلاد العربية - إمدادات السلاح والمال، وتوافق حماس والجهاد علي قيام دولتين علي أسس حدود الأمم المتحدة وما قبل ١٩٦٧م. فمن يدمرون؟

(****) هذا التعبير السخيف الذى نجحت الصهيونية فى زرعه فى العقلية الغربية لا معنى له على الإطلاق عندما يستخدم ضدنا - نحن العرب والمسلمين - لأننا ساميون قبل غيرنا لا سيما يهود أوروبا وأمريكا الذين ينتمى أغلبهم إلى الشعوب السلافية، ولاسيما الخزر الذين اعتنقوا اليهودية فى العصور الوسطى، ومنهم معظم قادة إسرائيل (المترجم).

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أوروبا فإن الشكاوى حول إسرائيل تحولت إلى حالة مرضية من تلطيخ اليهود، على حين كانت نزعة «معاداة الصهيونية» تغذى نزعة «معاداة الأمريكان».

وألقى متحدث باسم إدراة بوش بجزء من اللوم على مبادرات إدراة كلينتون للسلام في الشرق الأوسط في زيادة التوتر، وسخر منها بحسبانها محاولة «لإطلاق النار على القمر». وكان لابد أن تتأثر سياسات بوش المتناقضة تجاه الشرق الأوسط. فلا جهود جادة للسلام، ولا حتى انتقاد للاستيطان المستمر في الضفة الغربية - بشكل حاسم بتحالف المحافظين الجدد في اشنطن مع الليكود، الحزب اليميني الحاكم في إسرائيل. وكان لابد لمن يحبذون الخط المتشدد الذي ينتهجه بوش أن يرحبوا بشارون. وكان التعاون بين الزعيميين قد تبلور في رمز، عندما سمى بوش في ١٨ إبريل سنة ٢٠٠٢م، شارون «رجل السلام».

المسلمون واليهود والمسيحيون والسلام

٢٣ أكتوبر ٢٠٠١م

أكتب هذا وأنا في طريقي إلى مؤتمر للديانات تم التخطيط له منذ زمن طويل في معهد شالوم هارتمان في القدس. فعلى مدى ربع قرن من الزمان، كان المعهد مركزاً للمصالحة بين الأديان، بحيث يجعل اليهود والمسيحين، ثم المسلمين أخيراً، يتبادلون الآراء حول أشد المسائل صعوبة. ويرأس المعهد الربي داڤيد هارتمان، ولم يكن عمله الديني أبدًا أكثر أهمية مما هو واضح الآن. وحسبما قرر اللاهوتي الكاثوليكي هانز كونج في صياغة مشهورة للمسألة: «لا سلام بين الأمم بدون سلام بين الديانات. ولا سلام بين الديانات دونما حوار بين الديانات. ولا حوار بين الديانات بدون البحث في أصول الديانات».

خذ، مثلاً، عنوان جلسة المؤتمر التي سأحضرها: «تصحيح ذكرياتنا وتقاليدنا - مواجهة انفعالات الأصولية الدينية». فإذا ما مضى الأمر على ما يرام، فإنه في الوقت الذي تقرأ فيه هذا سأكون قد انضممت إلى المسلمين واليهود في تدبر مسألة كيف «نصحح تراثنا» على حد تعبير المؤتمر «عندما يظهر على أنه غير إنساني» وكيف

يمكن القيام بالتغيير الأساسى فى التأكيد الدينى «دون أن نقوض سلطة» التقاليد نفسها.

إننى أضع تحت البحث تجربة مسيحى يدرك التحدى الذى يواجهه الضمير المسيحى من جراء تاريخ من معاداة الكنيسة للسامية. ولأن هذا التحدى صار خطيراً - حوالى ألفى سنة من الاحتقار المسيحى لليهود، الذى لم يكن ممكنًا أن يحدث الهولوكوست بدونه - فإنه خيط واحد فقط من المشكلة الدينية التى تجعل مستقبل الإسرائيليين والفلسطينيين غير مضمون على هذا النحو، والتى تجعل من العالم مكانًا خطيراً بهذا الشكل المتجدد. إن «الصدام بين الحضارات» بين الغرب والإسلام، بعد كل ذلك، ليس فقط محتمل الظهور أمامنا، بل إنه أيضًا يحدد الكثير مما هو خلفنا. ومع وجود مثل هذه الفجوة فى الفهم التى تفصل بين الأغلبية الواضحة من المسلمين وخلفاء الغرب المسيحى، فما الفرصة المتاحة أولاً، لتجنب الصراع الأوسع الآن، وثانيًا، لتحقيق الاحترام المتبادل؟ والصيغة المحلية الأكثر كثافة لذلك السؤال، بعيدًا عن أوروبا وبقايا المسيحية، تقول: ما الأمل الذى يمكن أن يوجد للسلام بين إسرائيل والفلسطينيين؟ هذه الأسئلة الصعبة بالفعل أسئلة مركبة، طبعا عندما تُظهر وجوه الفرقاء المتنافسين «انفعالات الأصولية الدينية».

ولأننى توقعت هذه المناقشات، فليست هناك لدى أوهام حول صعوبتها. ذلك أن الحقائق السياسية والاقتصادية مروعة بالقدر الكافى حتى بدون عدم الإدراك الدينى. بيد أن تاريخ الحوار المسيحى - اليهودى الذى هو تاريخ ضيق نسبيّا، يوحى بأن هناك إمكانية للتقدم الحقيقى مع الإسلام. أولاً، لأن الخصومة بين المسيحية واليهودية كانت جوهر العلاقة بينهما، ولا يصدق هذا على الخصومة بين كل منهما والإسلام. ولم يكن الأمر مقصوراً على أن الكنيسة "أبطلت" اليهودية، مثلما يرى الإسلام نفسه «يَجُبُّ» اليهودية والمسيحية، وإنما تمثل فى أن الكنيسة كانت تعوف نفسها بمصطلحات إيجابية فى مقابل مصطلحات سلبية تعرف بها اليهود والديانة اليهودية. وقد انعكس هذا البناء المعرفى للعقول فى كتب المسيحية المقدسة (العهد الجديد فى مواجهة العهد القديم) فى المسيحية (يسوع المعبد الجديد) وفى اللاهوت (اليهود بوصفهم شهودًا منحطين - Degraded witnesses) هذه تلميحات إلى التقاليد المسيحية المؤسسة التى

http://www.al-maktabeh.com

http://www.almaktabeh.com

بقيت حتى تم تصحيحها بعد الاعترافات المرتبطة بالهولوكوست. هذا مستوى من التصحيح المطلوب والذى يبقى أعمق كثيراً من أى تصحيح مطلوب لعلاج التوترات بين الإسلام واليهودية أو بين الإسلام والمسيحية.

والسبب الثانى لتوقع إحراز التقدم مع الإسلام يتمثل فى أن ثمة توجها نحو هذا التصحيح المطلوب فى المواقف المسيحية تجاه الإسلام. وهناك أمل يلوح بالنسبة للعلاقات مع الإسلام، يتمثل فى التقدم الذى أحرزه اليهود والمسيحيون مع كل منهما الآخر. إذ إن الكنيسة ترى باطراد ما ينبغى تصحيحه فى عقائدها ومواقفها، وعلى الرغم من حقيقة أن مثل هذا التغيير يمكن أن يبدو تقويضاً لسلطة التراث، فإن المحاولات الدءوبة فى إنجاز هذه التصحيحات تجرى الآن. وينبغى الاعتراف بأن مثل هذا الاصلاح يمضى على نحو متقطع، ولكن تصحيح التعصب الأعمى ضد اليهود صار واضحاً لاسيما فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بعد الهولوكوست. وإذا كان من الممكن اجتثاث أشد اشكال الانحياز الدينى اللاإنسانى تأصلاً، فإنه يمكن كذلك استئصال أشكال التعصب والبربرية المبررة دينياً - من تفوق الذكور، إلى الشوفونية العرقية، وإلى الوطنية الوثنية، إلى الرضا عن النفس الذى يميز أولئك الذين يخطئون فى إفراطهم سعياً إلى البركة الربانية، إلى غضب المحرومين الذين يمكنهم أن يروا فى العنف الانتحارى أمراً مقدساً.

ونحن نكاد نأخذ ظاهرة المصالحة اليهودية - المسيحية المعاصرة على أنها أمر مسلم به، ولكن منذ زمن غير بعيد، لم يكن ممكناً لمثل هذا التقدم أن يطرأ على البال. وأسفاه، إن هذا التقدم ينتج عن الإدراك الذى ينمو من ثنايا أكثر الجرائم وحشية فى التاريخ، وهو ما يوحى بما هو محل الرهان فى الأزمة الراهنة. ذلك أننا فى العمل من أجل المصالحة الدينية قبل حدوث انفجار أكبر من انفجارات العنف اللاإنسانى، نبنى على إعادة المصالحة ما أدى العنف اللاإنسانى فعلا إلى جعله إجبارياً ملزماً. لقد أدى الماضى المأساوى بين المسيحيين واليهود إلى فتح الباب أمام مستقبل جديد. ويمكن لهذا المستقبل أن يضم الإسلام أيضاً. ومن ثم فإن هذا المسيحى يعود إلى القدس وهو يحمل أملاً، حتى فى ظل الظروف الراهنة.

٣٠ أكتوبر ٢٠٠١م

وصلت بوصفى ضيفًا على العشاء إلى منزل أستاذ بجامعة القدس فى القدس العربية، وهو ابن لعائلة فلسطينية بارزة. وعند وصولى، يرقص مضيفى وابنته ذات السنوات الخمس فى غرفة المعيشة، وكلاهما يرفع سبابته فى الهواء، رقصة ترحيب. وثمة ضيوف آخرون، منهم أستاذ آخر من جامعة القدس، وهو فلسطينى أيضًا، واثنان من المثقفين الإسرائيليين. وجلسنا نحتسى شرابناونتبادل الأحاديث القصيرة. وتبرز صورة مارك توين عن القدس، ثم نناقش مشاعر توم سوير بأنه محصور بين عالمين.

وتأخر العشاء لأن الضيفة الأخيرة لم تكن قد وصلت، وتبادل مضيفنا وزوجته نظرات قلقة. ثم رن الهاتف، إنها الضيفة المنتظرة، تتحدث من بيت لحم التى لا تبعد أميالاً كثيرة عن القدس. وبعد الانتظار يشرح مضيفنا أن الضيفة لن تحضر. ذلك أن الدبابات الإسرائيلية فى البلدة، وإحداها تطلق النار خارج منزلها مباشرة. وهى آسفة وترسل تحياتها.

ليس هناك مارك توين. ويدعونا مضيفنا إلى مائدة عامرة، بيد أن الكرب الناجم عن الحرب عبر التلال احتل مكان الضيفة الغائبة. وبدأت دورة العنف الجديدة تتحول إلى الطريق الآخر عندما تم اغتيال الوزير الإسرائيلى رهافام زئيفى على يدى أحد الفلسطينيين، وكان زئيفى على الجانب المتطرف من السياسات الإسرائيلية، وكان محبذًا «لترحيل» الفلسطينيين العرب جميعًا من إسرائيل، وهى معادلة لحرب شاملة: بيد أنه لم يحدث أبدًا من قبل أن تم اغتيال وزير إسرائيلى على يد فلسطينى. وفى الجنازة التى أعدتها الدولة، بدا أن غضب عائلة زئيفى قد صار غضب إسرائيل كلها. ولا شك فى أن قاتل زئيفى كان يأمل فى اشعال شرارة من ردود الفعل التى تجعل من عملية التفاوض من أجل السلام أمرًا أقلّ احتمالا. إن ردود الأفعال المعاكسة فى الطريق. فقد تم قتل عشرات من الناس.

وعلى المائدة، نرفع أكوابنا، وكل منا يحاول لمس أكواب الآخرين جميعًا. ولكن حينئذ، حدث بشكل حتمى مع الطعام، أن سيطر الموضوع المؤلم على الجميع. فقد أخذ زميل ضيفنا فى جامعة القدس يكرر فى لهجة عاطفية قصة تجريد الفلسطينيين من

http://www.al-maktabeh.com

ممتلكاتهم. ويجيب أحد الإسرائيليين، وهو موظف سابق بالأمم المتحدة، بحرارة بقصة عودة اليهود إلى وطنهم. ولكن وطن من؟ وكل منهما يلخص مأساة الحكايتين. فاليهودي نفسه ناج من الهولوكوست، ولكن الحافة الحقيقية من قصته تأتي من صلوات شعب على مدى ما يقرب من ألفي سنة «السنة القادمة في القدس». أما الفلسطيني فهو نفسه ابن لرجل تم إجباره على النفي من وطنه، يعيش في المدينة التي ولد بها بتأشيرة زيارة. ويشير كل منهما إلى تاريخه على أنه برهان. إنهما حقًا عالمان مختلفان(*).

ويملأ الأذى والغضب الغرفة. ولم يحدث في حياتي من قبل أن سمعت الحقائق المتضاربة وهي تتقرر على هذا النحو من الحيوية، وهي قصص يمكن أن تبدو كل منها لاغية للأخرى تمامًا. والواقع أن «الإلغاء» صار الحاكم للسياسات الإسرائيلية الاستراتيجية الفلسطينية على السواء. فمنذ شهور مضت فقط، كان الفرقاء على كلا الجانبين قادرين على سماع الحيوية التي تتسم بها مزاعم الآخر، ولكن الآن هناك كثيرون على كل جانب يقولون إن واحدًا من الجانبين فقط هو الذي يمكن أن ينتصر. ويبدو من سوء الأدب أن نسأل: وما هو النصر؟

حتى في هذه اللحظة اليائسة، من الواضح أن الأهم من أي كلام مجرد عن «الحقوق» هي الحقيقة التوءم لشعبين جنبًا إلى جنب في المكان نفسه، وكلاهما عقد العزم على البقاء. و«الترحيل» يمثل فانتازيا مميتة لأي من الجانبين. ومن الواضح أيضًا أن الأغلبية في كل من الجانبين قد اعتنقت هذه الحقيقة التوءم، وما تزال تفترض ضرورة التسوية بالتالي. والآن، فإن الاقليات التي ترفض التسوية هي المسيطرة. وعرفات تحت رحمة القتلة(**) الذين كان يشرف عليهم في الماضي ويبقيهم على الحياة اليوم. أما حكومة شارون، مع هذا الهجوم الوحشي، إنما تطبق كتابا كتبه الإرهابيون أنفسهم. هل هناك مزيد من الأمن لإسرائيل في إشعال غضب الصبية الفلسطينيين الذين يمكن تجنيدهم الآن في التفجيرات الانتحارية؟

(*) هذه مقارنة غير عادلة بين الجاني والمجني عليه؛ ولا عبرة هنا بأسطورة الهولوكوست، لأن ضحاياها «أوروبيون عانوا من حاكم أوروبي، ولم يضطهدهم العرب أو الفلسطينيون. أما الفلسطينيون فهم ضحايا حقيقيون لعدوان الصهيونية (المترجم).

(**) كم عدد ضحايا قتلة عرفات وكم عدد ضحايا قتلة شارون. ومن الذي سلب حقوق الآخر؟ وأي دولة احتلت الدولة الأخرى طبقًا لقرارات ومبادئ الأمم المتحدة؟ ـ المترجم.

http://www.al-maktabeh.com

إن العنف المنفلت تم تبريره في الماضي بألف طريقة، ولكن عندما ينبغي لقتل الأعداء أن يحتل المكان الثاني بعد كسب المزيد من الجماهير الذين ينمو العدو فيما بينهم، فإن مثل هذا العنف يصبح بلا فائدة. ويبرهن غزو بيت لحم على هذا، وكذلك قصف أفغانستان بالقنابل. لقد أعيد تعريف معنى النصر، ولكن المحاربين الذين يؤمنون بمبدإ «حيًا أو ميتًا» لم يسمعوا. إنهم لا يرون كيف أن أسلحتهم الثقيلة لا تتماشى مع الصراع الجديد الذي يواجهنا جميعًا.

وفي نهاية حفل العشاء، جعل مضيفونا الكرماء من الممكن لنا أن نرحل وكل منا يتمنى الخير للآخر، بما في ذلك الخصوم، وهذا وحده يبدو علامة صغيرة على الأمل. وعدت إلى فندقي، وقفت في النافذة أتطلع إلى التلال التي تدور الحرب وراءها. وقمت بالصلاة من أجل الضيفة التي لم تستطع الحضور، ولهذه المدينة، ولبلادي، وللعالم. إنني آمن في غرفتي ومع ذلك فأنا خائف.

الأطفال المفقودين في الصراع

١٩ مارس ٢٠٠٢م

«يا هذه القطعة المدمرة من الطبيعة. إن هذا العالم العظيم سوف يتمزق إلى العدم». هذا السطر، الذي نطقت به جلاوستر في الملك لير، يشير إلى الفناء الفردي، ولكن المصير المخيف للعالم العظيم يمكن أيضًا أن نلمحه في شئون الأوطان. إذ إن الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين مزعج لأسباب كثيرة - ليس أقلها حقيقة أن التصميم العربي القديم على القضاء تمامًا على دولة إسرائيل يبدو أنه حاز قبولاً متجددًا بين الفلسطينيين(*). ويمكن حساب هذا على أنه نجاح عرفات الوحيد، بيد أنه من المؤكد معيار أيضًا لفشل شارون - ومقياس لفشل سياسة بوش بمبدإ «حيًا أو ميتًا» التي أعطت الرخصة لشارون في هذا التصعيد المميت.

(*) هل يمكن محاسبة كل الفلسطينيين على تصريحات لقلة قليلة منهم، تراجعت عنها، ولا نحاسب، إسرائيل على تصريحات أسوأ لقادة في الحكومة وحاخامات بارزين، وفي الإعلام، وبصورة أفظع كمًا وكيفًا، بالإضافة للأفعال؟ - المترجم.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ولكن الآن، مع قوة الدفاع الإسرائيلية والاستشهاديين من المنظمات الفلسطينية مشتبكين فى صراع لا يستطيع أيهما الإنسحاب منه، فإن المرء يرى مثالاً على أفظع سيناريو مخيف يمكن تخيله. هذه هى الطريقة التى يمكن بها للأرض ذاتها أن تتحرك صوب تدمير نفسها- قوتان فى صراع، حتى لو تم حله، يفهمه كل منهما على أنه يؤدى حتما إلى الدمار المتبادل، ومع ذلك فإن أيا من الفريقين لا يمكنه التوقف. إن الانعدام الكامل للعقلانية فى العنف لم يكن أبدًا أكثر وضوحًا مما هو فى الشرق الأوسط هذا العام، إلا أن قبضة العنف على عقول القادة الإسرائيليين والفلسطينيين لا يمكن أن تكون أقوى. وفى أمريكا، فى الوقت نفسه، نقول لأنفسنا إن حربنا العنيفة على الإرهاب قد مضت بشكل جيد، إلا أن التجربة الإسرائيلية توضح كيف يتم بكفاءة تجنيد الانتحاريين من المناطق المدمرة فى الطبيعة التى أحدثتها «القوة الغالبة». ومعضلة إسرائيل نذير لأمريكا بأن: «هذا الوطن العظيم سوف يتمزق هباء كذلك».

أين الأمل؟ اليوم فى همرشولد پلازا بالأمم المتحدة فى نيويورك، سوف يتم رص أكثر من ألف كفن فى صفوف. وسوف يتم تغطيتها بالأعلام- أعلام بالأزرق والأبيض لدولة إسرائيل وأعلام بالأحمر والأخضر والأسود والأبيض للسلطة الفلسطينية، وتمثل الأكفان كلاً من الأشخاص الذين قتلوا فى ثمانية عشر شهراً من الحرب، وهو عرض يرفض التعامل مع أعداد الضحايا بوصفها رقمًا مجردًا. لقد كان كل من الموتى شخصًا يحمل اسمًا، وتاريخًا، وأملاً؛ كان كل منهم شخصًا له عائلة. وكان كل منهم ابنا لشخص ما. وسوف يتم تقديم كل منهم فى البلازا اليوم.

والملفت للنظر، أن آباء الموتى الإسرائيليين والفلسطينيين هم الذين رتبوا اليوم لعرض الأكفان- وهو رد فعل للحزن وانكسار القلب الذى لم يؤد إلى صرخة انتقام وإنما إلى دعوة للسلام. ودائرة الآباء Parents هى مجموعة تتخطى الصراع، تتكون من ١٩٠ إسرائيليا، ١٤٠ فلسطينيا لهم تجربة رائدة مشتركة فى فقد أحد الأبناء بسبب العنف. وبرؤية العنف بعدسات هذا الفقد، فإنهم يرونه على نحو مختلف. وفجأة يدخل الميلاد والشباب وأمل الأجيال فى الصورة لكى يوازن الموت المرعب للعجوز. وبالإصرار على حقيقة أن حياة الأولاد هى المهمة أكثر من غيرها فى هذه الحرب، تطلب دائرة الآباء بديلاً عن اليأس الذى يولده العنف.

ليس هذا فقط . إن دائرة الآباء، وهي تذكرنا بأن أولئك الموتى بدءوا أطفالاً محبوبين ومايزال الحداد عليهم بهذه الصفة، تضع مصير الأبناء أمام صانعي القرار بشكل عادل. ليس بوصفها مسئولية فقط ولكن بوصفها فرصة. «إن كل طفل جديد يأتي إلى العالم يحمل داخله وعداً بالمستقبل البراق»، هذا ما قالته دكتورة چين شالر، من بوسطون ورئيس رابطة أطباء الأطفال العالمية، لتجمع كبير في إسرائيل في الشهر الماضي. وقالت: «لا يوجد طفل وفي ذهنه أي تفرقة، أو حقد في قلبه، أو حجارة في يده. فكل هذه أحوال مكتسبة». إنها ليست صفات فطرية. وهي ليست ضرورية. وليست حتمية. ويمكن للمستقبل أن يكون مختلفاً.

وفي خضم حرب لا نهاية لها ما المطلوب لرؤية هذا؟ في حالة دائرة الآباء يستدعي الأمر تحطيم الأمل الشخصي لخلق إمكانية الأمل السياسي. إن هؤلاء الفلسطينيين والإسرائيليين العاملين سويّاً قد نصبوا لوحة إعلانات عبر مناطق المعارك في إسرائيل والضفة الغربية وغزة، تقول ببساطة: «إن آلام السلام أفضل من عذابات الحرب- إسحق رابين» ولأن هؤلاء الآباء فقدوا أبناءهم، فإنهم يرون أفضل من أي أحد آخر كيف أن الحرب تجر العالم العظيم إلى الفناء. كل تلك الأكفان. ومع ذلك، فإنهم يدعون إلى طريقة أخرى «عندما يمكن للناس الذين قدموا أكبر تضحية أن يلزموا أنفسهم بالتصالح والسلام، من منطلق معاناتهم للخسارة والحزن الشامل، فإن أولئك الذين يهتمون منا بالإقليم لا يحق لهم أن يفقدوا الأمل»، حسبما أخبرني أحد مؤيديهم الأمريكيين.

الحدود المتلاشية

١ مايو ٢٠٠٢م

إن السر، عندما يقابل آرييل شارون الرئيس بوش في واشنطن اليوم، هو: لماذا لا يعامل مؤيدو إسرائيل شارون بقدر أكبر من الشك؟ لقد فعل شارون المزيد مما يشين الدولة اليهودية بأكثر مما فعله أي زعيم آخر، كما أن وجوده الحالي بالمنصب كارثة لا توازيها كارثة - ومن الواضح أنها كذلك بالنسبة للفلسطينيين، ولكنها كارثة أكبر

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان
http://www.al-maktabeh.com

بالنسبة للإسرائيليين. لماذا لا يتوقف شارون عند أهم اختبار أساسي للحكم: هل هو يدعم سلامة مواطنيه، أم أنه يقوضها؟! اطرح السؤال وتاريخه المهنى الطويل فى ذهنك.

http://www.al-maktabeh.com

فى أوائل سبعينيات القرن العشرين، كان شارون قوة قائدة وراء«خلق الحقائق»، أى زرع الضفة الغربية وغزة بالمستوطنات اليهودية. إن الحركة المنفلتة هى أرض الصراع الحالى. كانت «الحقائق» التى تولدت عن المستوطنات الإسرائيلية فوق الأرض المتنازع عليها ينظر إليها أصلاً من جانب أقلية صغيرة من اليهود بوصفها حقًا من الأرض التوراتية، على حين رأى معظم الإسرائيليين أن المستوطنات، لاسيما تلك البعيدة عن القدس، أوراق يمكن بها المقايضة فى المفاوضات النهائية. الأرض مقابل السلام. ولكن مع تشجيع شارون وغيره، قويت مزاعم الأقلية الهامشية على مرِّ السنين، وازدادت«الحقائق» صلابة. ويسكن المستوطنات الآن أكثر من مائتى ألف شخص، وأعلن شارون فى الأسبوع الفائت فقط أنه لن يوافق على إزالة حتى مستوطنة واحدة منها. إن ما بدأ أساسًا خدعة تهدف إلى الحل قد صار، تحت حكم شارون، أكبر عقبة فى سبيل الحل. وما بدأ حركة هامشية فى إسرائيل تحول، تحت حكم شارون، إلى المركز السياسى.

وفى الوقت نفسه، كانت المستعمرات بالنسبة للفلسطينيين، لا سيما تلك التى شيدت بعد اتفاق أوسلو، دليلاً على أن إسرائيل لا يمكن الوثوق بها. والمستعمرات التى وضعت بشكل إستراتيجى على قمم التلال، والمزدهرة بالمقارنة مع المجتمعات الفلسطينية المجاورة، إنما هى توضيح صارخ لعدم المساواة، ومن ثم فهى منابع للغضب الفلسطينى. كما أن طرق الوصول للمستوطنات تمثل «حقائق» إضافية تقوض دعاوى الفلسطينيين فى أرضهم. وهذه الشكاوى معروفة تمامًا.

أما ما يلاحظ غالبًا فهو النتيجة الوحيدة الأشد قسوة على دولة إسرائيل والناتجة عن حركة المستوطنات التى يقودها شارون. وإذا كانت هناك كلمة واحدة لتعريف أمل يهود إسرائيل، فهذه الكلمة هى«الأمن». كانت المسئولية الأساسية لحكومة إسرائيل ضمان الأمن لمواطنيها، والقاعدة الأولى فى مهمة الدولة الحديثة هى أن مثل هذا الأمن

يبدأ بحدود وطنية محددة بشكل واضح، ومتفق عليها. وقد حدث في معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨م، والتي أنهت عقوداً من الحرب الدينية في قلب أوروبا، أن تم تكريس مبدأ الحدود السياسية المحددة بشكل نهائي مطلق بحسبان أن ذلك هو البناء الأساسي للسلام. وقد أعاد كونجرس ڤيينا سنة ١٨١٥م تأسيس هذا المبدإ، وكذلك فعلت معاهدة ڤرساي سنة ١٩١٩م. فلا سلام دونما حدود واضحة تقرها الدول القائمة على جانبي تلك الحدود.

وفي نموذج يدل على تدمير الذات بشكل مذهل، فإن الحكومات الإسرائيلية قامت مرات ومرات بتعمد إخفاء الحدود الشرقية للدولة وتحريكها بالفعل، وهذا هو ما فعله شارون ومستوطناته من إسرائيل ـ دولة بلا حدود واضحة، والنتيجة؟ انعدام الأمن بشكل جذري وبغض النظر عما يفعله الفلسطينيون. وحتى الدول الصديقة، مثل الولايات المتحدة وكندا، تعتمد على حدود واضحة مرسومة ومتفق عليها. والحفاظ على هذه الحدود وحمايتها هي الواجب إذا ما كان الجار عدواً محتملاً.

إلا أنه لا توجد حكومة إسرائيلية يمكن أن تحافظ على الحدود أو تحميها فيما بين الضفة الغربية وإسرائيل، لأن هذه الحدود ببساطة غير موجودة. وهناك نقاط تفتيش عسكرية على امتداد الخط الأخضر الوهمي، وهي حدود سنة ١٩٦٧م، ولكن الخط الحقيقي بين الأراضي الآن وبين إسرائيل غامض ومرتبك بالضرورة لأن عدداً كبيراً من المستوطنات اليهودية مزروعة في وسط كثير من المدن والمعسكرات الفلسطينية. وكون أن كثيرين من المستوطنين اليهود قد قدروا قيمة هذا الغموض لأنه ساعدهم على الإدعاء بملكية المزيد من الأراضي الفلسطينية يجعل من عهودهم ومواثيقهم أمراً مثيراً للسخرية.

والمستوطنات اليهودية، التي تحيط بها جماهير من السكان المعادين، مكشوفة كليًا ومعرضة لهجمات الفلسطينيين. وبالمثل فإن قوة الدفاع الإسرائيلية غير قادرة على «تأمين» مثل هذه الأراضي التي جرى تحديدها بشكل سيئ، وهو ما يفسر جزئيًا السبب في أن قوة الدفاع الإسرائيلي، بسبب الإحباط التي يعتريها، تضرب بهذه الطريقة اللاإنسانية في الأسابيع الأخيرة. وعمليات التوغل الإسرائيلية في الضفة الغربية صارت غير معقولة وأدت إلى نتائج مضادة لأن وجود مستوطنات إسرائيلية هناك أمر غير

http://www.al-maktabeh.com

معقول ويجلب نتائج مضادة. وعندما يشكو القادة العسكريون الإسرائيليون من أن المستوطنات لا يمكن الدفاع عنها، على نحو ما شكوا مرة أخرى فى الأسبوع الماضى، فإنهم حقًا يشجبون عدم وجود الحدود التى يمكن الدفاع عنها. وفى القاع، يشتاق المدافعون الإسرائيليون عن مسألة "الفصل" الإشكالية، إلى حدود بسيطة، بيد أنه لا يمكن أن تكون هناك حدود متفق عليها عندما يتم تقطيع خط الحدود بأراضى يدور من حولها النزاع. لقد كانت المستوطنات التى تشوش الحدود أمرًا سيئًا بالنسبة للفلسطينيين، ولكنها كانت أسوأ بالنسبة لإسرائيل، لأنها اخترقت الأمن اليهودى.

ومن هو مهندس بيت الورق المتمايل هذا؟ إنه آرييل شارون الذى يزعم أنه المدافع عن إسرائيل. ومع هذا فإنه لو كان عدو إسرائيل اللدود، كيف كان سيمكنه إلحاق الأذى بدولة إسرائيل أكثر من هذا؟

القاتل الانتحارى

٢٥ يونيو سنة ٢٠٠٢م

ذات مرة كان ينظر إلى الانتحارى على أنه فعل شخصى بدرجة كبيرة، وبعد موت كثيرين بحلول منتصف القرن العشرين من الفنانين والكتاب (فيما بين ڤيرچينيا وولف سنة ١٩٤١م، مثلا، وآن سكستون سنة ١٩٧٤م) أصبح محل جدل أدبى وفلسفى. وقد شهدت حرب ڤيتنام الاحتجاج انتحارًا من جانب رهبان بوذيين فى سايجون، ثم من دعاة السلام الأمريكيين (مثل آليس هرتز، ونورمان موريسون، وروچر لاپورت سنة ١٩٦٥م). مثل حالات الانتحار هذه، أيا كان تقدير المرء لها، كانت بيانات سياسية قوية. (كانت تقارير وزير الدفاع الأسبق روبرت ماكنمارا قد اضطربت بشكل خاص بسبب موت موريسون، الذى حدث فى البنتاجون). وفى أثناء تسعينيات القرن العشرين حدث وباء من حالات الانتحار بين المراهقين، وكان أكثرها فى بوسطون، وأخذت على أنها علامة خطر شبابى، وعمل المجتمع الأوسع بجدية على الاستجابة. وهكذا فإن فعل قتل النفس ينتهك على هذا النحو غريزة الحياة بحيث يتطلب الانتباه، سواء كان السياق شخصيًا وخاصًا أو عامًا وسياسيًا، فالانتحار فعل إنسانى واحد لا يمكن تجاهله.

http://www.al-maktabeh.com

ثم ظهر الانتحار فى السنة الماضية بفعالية جديدة فى شكل قتل جماعى، مع المتعصبين الذين يحولون موتهم إلى أسلحة. وقد شهد التاريخ هذا من قبل، مثلما حدث مع الطيارين الكاميكازى مثلاً، ولكن مع جلب مثل هذه الأفعال من نطاق المعركة الضيق إلى أوضاع الحياة فى المدن، بحيث تستهدف المدنيين بشكل عشوائى، يبدوا هذا الشكل من القاتل الانتحارى جديداً. والآن، فى إسرائيل، فإن الذين يزعمون أنهم شهداء من أجل فلسطين قد حولوا انتفاضة الأقصى إلى حرب كبرى فى الشرق الأوسط بتحويل أجسادهم إلى قنابل. إن الرعب الذى يخيم على القدس وغيرها من المدن الإسرائيلية يستعدعى ماهو أكثر من الاشمئزاز من الجناة وحماتهم المثيرين للسخرية، وماهو الأكثر من التعاطف مع الضحايا. ويتسرب نوع من النشاط الإشعاعى الاجتماعى من مثل هذه التفجيرات الانتحارية، وكلنا نعيش داخل منطقة تلوثها. إن الغبار الساقط عنها روحى.

ومثل أى انتحار، فإن هذه الاعمال تسترعى الانتباه. ولكن ليس مجرد الانتباه للدافع أو للظروف التى تنتجها، كما لو أن التعاطف مع مأزق الفلسطينيين يمكن أن ينتج بشكل صحيح عن هذه الأفعال الفظيعة. إذ إن القتلة الإنتحاريين يناقضون كل تطلع فلسطينى مشروع. إنهم أعداء لشعبهم، لأن الفلسطينيين أيضًا، بشر لديهم ما يفقدونه مثل غيرهم إذا وجدت أخلاقيات الانتحاريين بالقنابل مكانًا مشرفًا فى خيال القرن الحادى والعشرين. لقد جلب القتلة الانتحاريون الجنس البشرى إلى عتبة إذا ما عبرناها، فإننا سنفقد كل ما كان له قيمة عند البشر فى الماضى. وهذا ينطبق على الحدود التى تحدد الوطن والعرق والطبقة والثقافة. والخط الأخضر، وحدود ما قبل سنة ١٩٦٧م التى تفصل ما بين إسرائيل والضفة الغربية. إن السمة الهشة جدا للحياة الإنسانية على الأرض على المحك(*).

فكر فى نفسك وأنت تقود سيارتك تقطع الطريق السريع بسرعة ستين ميلاً فى الساعة. وأنت محاط بسائقين آخرين، غرباء، وكلهم يفعلون الشيء نفسه. وهناك

(*) مع احترامنا الشديد للمؤلف ورأيه، فنحن نرى أن الظلم الإسرائيلى والأمريكى دفع الفلسطينيين إلى حائط اليأس. ومن ناحية أخرى، فإننا لا نوافق المؤلف بأى حال على الأوصاف التى يسبغها على الأعمال التى يقوم بها الاستشهاديون الفلسطينيون ضد العدوان الصهيونى المستمر بدعم من الولايات المتحدة. (المترجم).

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

شيء واحد يساعد على رقصة الموت هذه في حركة المرور - هي ثقتك في السائقين الآخرين وثقتهم فيك. هذه الرابطة المسكوت عنها تمامًا بين غرباء بعضه عن بعضهم كليًا ثمينة بلا حدود، بيد أننا نأخذها على أنها أمر مسلم به تمامًا. وعلى الطريق، يثق الجميع في الجميع ويعهدون إليهم بحياتهم نفسها. هذه الثقة تقوم على أساس افتراض أن غريزة الحياة كونية، وأنها مطلقة تقريبًا. ولايكاد يكون هناك شيء جدير بانتزاع الحياة - سواء حياة المرء أو حياة أى فرد آخر. ونحن نثق فى بعضنا البعض من حيث الإيمان بذلك.

هذه الثقة هي الهدف الحقيقي للانتحاريين بالقنابل، والنشاط الإشعاعي الذي ينتشر، غير مرئي، من تفجيراتهم، يجعلنا مرضى بالفعل. إننا قوم مضطربون بشكل عميق، مع كثير من مصادر القلق أخيراً - من فضائح الدين(*) والاقتصاد إلى الحنين العام للوطن فى العالم الأكثر بساطة وبطأ. بيد أن الانتهاك المشترك لاثنين من المحرمات الأولية - ضد الانتحار والقتل - يقطع نظامنا الاجتماعي بسرعة. وفي سبتمبر الماضي، تم خرق هذا التحفظ بشكل كبير فوق نيويورك وواشنطن، ولكن الانتظام الدنيوى الفظيع الذى تنزل به الآن على إسرائيل قد أخل بتوازن شيء فى دوران الأرض: لقد توقفت حركة آلة التوازن.

وأسفاه، إن فائدة أسلوب الانتحارى فى التغلب على من لا حول ولا قوة لهم نسبيًا قد باتت واضحة بشكل صادم. ومن ثم فإن الابتهاج الغريب بين كثيرين من الفلسطينيين إنما هو تحذير في حد ذاته. واحتمال أن الانتحارى سوف يبرز كاستراتيجية فى الصراع العالمى، الذى تسوقه جيوشه ممن ضللوا أنفسهم وحماتهم المستهزئون، يحركه بالفعل ليس الخوف من التفجير فى مقهى بـ «بوسطون» مثلا، وإنما الخوف الأعمق من أنه لا ينبغى أن نثق بالغرباء على الإطلاق. ونحن نرى ما فعلته المرحلة الأولى من هذا الخوف فى مطاراتنا.

وإذا لم يتم دفع القتل الانتحارى بثبات من جانب كل البشر، تخيل ما يمكن أن يفعله بطرقنا السريعة.

(*) ربما يقصد المؤلف الفضائح الجنسية لبعض من قاوسة الكنيسة الكاثوليكية - المترجم.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(٦)

خائف

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فى السنوات الست التى قضاها چورج دبليو بوش حاكمًا على تكساس، أعدم ١٥٢ شخصًا. هذا الاستعداد المسرف لإعدام الكائنات البشرية يذهب به بعيدًا، وربما كان نذيرًا بقسوة قلبه فى شن الحرب بصيحة «أحضروهم إلى هنا».

ولكن فى الولايات المتحدة، ينتشر التأييد لعقوبة الإعدام، وغالبية المواطنين يؤيدونها فى صناديق الانتخاب، ويخسر السياسيون الذين يعارضون القتل تحت إشراف الدولة فى الانتخابات. وفى حملة الانتخابات سنة ٢٠٠٤م كان كل متحد رئيس لبوش يؤيد عقوبة الموت ـ بما فى ذلك بعض الذين كانوا يعارضونها ذات مرة، ولكنهم الآن حفظوها للجرائم الخسيسة مثل الإرهاب.

ومع هذا فإن عقوبة الإعدام الأمريكية عقبة خطيرة فى طريق شن حرب ذات فعالية كاملة ضد الإرهاب. والسبب فى هذا أنه فى البلاد الصناعية، تُعَدّ عقوبة الإعدام عقوبة بربرية بشكل متزايد. ولا تسمح أى دولة فى الاتحاد الأوروبى بها. وهكذا، فإن الحلفاء الذين يؤدى تعاونهم فى تعقب الإرهابيين والقبض عليهم دورًا حاسمًا، سوف يتعاونون فى فرض القانون الأمريكى إلى نقطة معينة فقط. وقد رفضت ألمانيا تسليم المشتبه بأنهم إرهابيون إلى الولايات المتحدة، وكما أوضح الكاتب سامانتا بورز وغيره، نبهت لندن واشنطن إلى أنه إذا ما قبض الجنود البريطانيون على أسامة بن لادن، فلن يتم تسليمه إلى السلطات الأمريكية دون ضمانات بألا يتم توقيع عقوبة الإعدام عليه.

فلماذا تكاد الولايات المتحدة تقف وحدها فى هذه المسألة؟ هل هى مسألة انتقام؟ أم أن هناك شيئًا آخر؟ فى الثقافات البدائية، كانت طقوس التضحية بالبشر تهدف إلى تهدئة الآلهة المعادية. فهل التعطش إلى الدماء المتضمن فى القتل تحت إشراف الدولة،

والمتجسد بهذا الوضوح فى چورچ بوش، مؤشر على مثل هذا التخويف اللاعقلانى الكامن فى الأعماق؟ إن عقوبة الإعدام، فى حقيقتها، تضحية بالبشر، والتضحية بالبشر ليست سوى الجهد اليائس الذى يبذله قوم مرعوبون لإبعاد تهديد غير متصور. ولكن ما الذى يهددنا بالضبط؟ ما الذى نخاف منه؟

***

فى المخبأ

٥ مارس ٢٠٠٢م

كان أبى من كبار موظفى البنتاجون خلال أزمة الصواريخ الكوبية فى خريف سنة ١٩٦٢م. وكانت أسرتى تعيش فى قاعدة بولنج للقوات الجوية فى واشنطن بشارع يعرف باسم «صف الچنرالات». وكان جيراننا كبار الضباط فى القوات الجوية، وخلال حرارة الأزمة التى نشبت مع السوفييت لم يكن أبى وزملاؤه يحضرون إلى منازلهم لعدة أيام. وعندما سألت أمى فى وقت لاحق ماذا كان شعورها هى وغيرها من الزوجات إزاء تركهن فى بولنج؟ قالت لى إنهن كانت لهن طريقة لمعرفة ما إذا كان اندلاع الحرب وشيكًا، وأنها لم تكن على وشك الحدوث أبدًا.

وسألتها «كيف عرفت؟». أجابت بأنها هى وغيرها من زوجات الچنرالات قد نظمن أنفسهن فى نوبات. وفى كل ساعة، كانت إحداهن تقود سيارتها إلى الركن البعيد من القاعدة الجوية حيث كان طائرات الهليوكوبتر تتمركز، لكى ترى ما إذا كانت الطائرات الهليوكوبتر ما تزال هناك. وقد عرفت النساء أن هذه الطائرات الهليوكوبتر كانت موضوعة لنقل كبار ضباط البنتاجون خارج واشنطن إلى مخبأ القيادة الآمن فى جبال بلوريدچ الذى يمكن منها خوض الحرب. وطالما كانت طائرات الهليوكوبتر ما تزال على خط الطيران، كانت الزوجات يعرفن أن أزواجهن ما يزالون فى واشنطن. ولم تغادر طائرات الهليوكوبتر أبدًا. وحكت أمى هذه القصة بنفحة من الفخر، لأن زوجها «چو» كان واحدًا من أولئك الذين أداروا الأزمة بهدوء لدرجة أن المخبأ الحصين تحت الأرض لم يكن ضروريًا أبدًا.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فكرت فى هذه القصة حينما طفت الأخبار على السطح الأسبوع الماضى من «حكومة الظل» فى إدارة بوش - قوة من حوالى مائة موظف كبير كانوا يعيشون فى خنادق فترة الحرب الباردة منذ الحادى عشر من سبتمبر «فريق إدارة الطوارئ القومى». وحسب تعبير «جلين چونسون» الكاتب فى صحيفة Boston Globe: «لقد فعل أسامة بن لادن ما لم يستطع أن يفعله أبدًا «نيكيتا خروتشوف، وماوتسى تونج، وفيديل كاسترو: لقد ساق حكومة الولايات المتحدة إلى تحت الأرض».

ولكى نستعيد تذكر تناول إدارة كنيدى لأزمة الصواريخ الكوبية، لاسيما فى ضوء ما نشر حديثا من السجلات، فإننا نفعل ذلك ليكون لدينا مثال عن التصرف الثابت الحازم. وبالمقارنة مع كنيدى تحت الضغط الرهيب، لا يبدو الرؤساء الآخرون بصورة طيبة، من خضوع «ليندون جونسون» لفكرة استحوذت عليه عند بداية حرب ڤيتنام، إلى «ريتشارد نيكسون» وانهياره العاطفى الشاذ عند نهايتها. (فقد قال لـ «هنرى كيسنجر»، كما عرفنا الأسبوع الماضى، «القنبلة النووية، هل هذا ما يزعجك؟»).

إن حرب چورج دبليو بوش المسعورة على الإرهاب يمكن أن تبدو على أنها ظهور آخر لعدم الثبات الرئاسى. والواقع، أن ريحا من الذعر من النوع المنحط كانت علامة على استجابة بوش منذ اليوم الذى تم فيه الهجوم على مركز التجارة العالمى وعلى البنتاجون. فمنذ ذلك الحين أدت بلاغة الرئيس الطائشة وصخبه الصبيانى إلى ترويع الحلفاء، وتعبئة أعداء جدد، وحولت وزارة الخارجية بالولايات المتحدة إلى مركز للتحكم فى الدمار. ومكانة نائب الرئيس بحسبانه الرجل المختبئ صارت نكتة قومية. أما وزارة الدفاع فقد بادرت - ثم أسقطت - بإنشاء مركز على الطراز السوڤييتى للتضليل. وفى الوقت نفسه، كان النشر المستمر لقوات الولايات المتحدة - فى الڤيليبين؟ اليمن؟ جمهوريةچورچيا التى كانت ضمن جمهوريات الاتحاد السوڤييتى السابق؟ - يبدو خاليًا من الحكمة والتدبر. كما أن الحملة الجوية غير المركزة على أفغانستان كانت «نجاحًا» فقط بسبب خديعة وضع طالبان محل القاعدة بحسبانها عدونا المميت. فماذا عن أسامة بن لادن؟ إن الإدارة تقول الآن إنه لم يكن أبدًا على هذا القدر من الأهمية. أو ربما يكون فى الكهوف التى يجرى اليوم قصفها بحسبانها أهدافًا فى الحرب الجوية المتجددة. شبّك أصابعك و- ماذا؟ - آمل فى أن يموت؟

وفى سياق مثل هذا الاضطراب، فإن الكشف عن موظفى الولايات المتحدة الذين صدرت لهم الأوامر بأن يكونوا فى المخابئ الحصينة ربما تعيد فرض صورة رئيس خائف قليل الخبرة، يمضى اليوم من هذه الأزمة هاربًا. ولكن هل هناك شيء آخر يجرى هنا؟ وإنه لأمر غريب أن كل هذه التجليات التى أشرف عليها بوش لأمة تحت الحصار تدعم حالة الطوارئ التى قيض لهذه الحكومة أن تعتمد عليها فى ممارسة السلطة. وإذا ما كان الموظفون فى المخابئ للمرة الأولى فى تاريخ الأمة، فكيف يجرؤ أحد على أن يثير الأسئلة عن الأساليب السياسية التى ينتهجها أولئك الموظفون؟ ففى الأسبوع الماضى أبدى الديمقراطيون فى الكونجرس أخيرًا عجبهم بصوت عال من الحرب حول الإرهاب. لقد أثاروا أسئلة خجولة مثيرة للشفقة، كان يجب طرحها منذ زمن طويل، ومع هذا فإن الجمهوريين أهدروها على أساس أنها تقدم الراحة لأعدائنا المجهولين. وتراجع الديمقراطيون الذين روعهم التهديد.

ما الذى رأته أمى حينما قادت سيارتها إلى ذلك الركن من قاعدة بولنج الجوية؟ لقد رأت دليلاً على حكومة فهمت العلاقة بين مظهر التقدير الناضج والممارسة الفعلية له. وعندما يتخبط زعماء أمة، ويطلقون العنان لمخاوفهم وانعدام شعورهم بالأمن، ثم يتوارون فى يأس خلف المواقف التى يتخذونها ضد الأشياء السيئة التى يمكن أن تحدث، فإنهم يجعلون هذه الأمور أكثر احتمالاً. وعلى النقيض من ذلك، فإن هؤلاء السيدات اللاتى وقعن تحت اختبار الضغط فى «صف الجنرالات» كانت لديهن أسباب قوية للشعور بالثقة. أما نحن أبناءهن، فليس لدينا ذرة من هذا الشعور لأن طائرات الهليوكوبتر قد أقلعت.

أمريكا الخائفة

٢١ مايو ٢٠٠٢م

كلما صارت الولايات المتحدة أقوى، صرنا أشد خوفًا. فلماذا؟ سرى تيار تحتى من الهيستريا خلال الكلام الصادر عن واشنطن على مدى الأسبوع الماضى، عندما، طالب النقاد، أولا، بأن يعرفوا ما إذا كان موظفو الحكومة قد تجاهلوا التحذيرات المسبقة من الهجمات الإرهابية فى سبتمبر الماضى، وعندما، ثانيًا، أصدر أولئك الموظفون

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أنفسهم ـ في الرد على هذا ـ تحذيراً جديداً من هجمات قادمة يمكن أن تكون أشد سوءاً. والتحذير الجديد حادّ بما يكفي لتوليد الخوف ولكنه غامض بالقدر الذى يحول دون أى استعداد دفاعى. ففى المطارات يخضع المواطنون كالقطيع لإجراءات تفتيش تتم بدرجة من عدم الكفاءة، بحيث لا ينتج عنها سوى القلق ـ بحيث تستدعى السؤال: هل هذا هو بيت القصيد؟ وفى الوقت نفسه، تعترف الـ FBI بأنها ليست لديها مفتاح لحل قضية الهجمات بالأنثراكس، ويظل الجنود الأمريكيون فى المطاردة بأفغانستان، ويستعد مخططو الحرب فى البنتاجون للعراق، بل وحتى كوبا يقال إنها تجهز أسلحة بيولوجية. يا إلهى.

إن الحرب على الإرهاب ليست هى التجلى الوحيد للمستويات المرتفعة لخوفنا القومى. ففى هذا الأسبوع سوف يوقع الرئيس چورج دبليو بوش والرئيس ڤلاديمير بوتين اتفاقية لخفض التسلح ـ معاهدة موسكو ـ تتضمن شرطا أمريكيا يسمح بتخزين غير محدد للأسلحة النووية المفككة. لاحظ هذا. فالولايات المتحدة، التى تنتهك أساس التحكم فى الأسلحة النووية، هى التى تقول الآن إنه يجب الاحتفاظ بالإمدادات القاتلة فى الرءوس الحربية بها لمواجهة التهديدات فى المستقبل ـ التى هى الآن غائبة تماماً عن التصور. إن هذا علامة على نهاية الأمل، الذى تقاسمه المحافظون والليبراليون زمناً طويلاً، بأن البشر ربما يخلصون أنفسهم فى النهاية من هذه الأسلحة المرعبة تماماً. فبعد هذا النزول إلى عبثية «التخفيض» لا يجب أن نسمى هذه الاتفاقية والاتفاقيات التالية START (بداية) وإنما ينبغى أن نسميها STASH (خبيئة). إذ إن بوش فى ضربة واحدة قد عكس المسار الوحيد الأشد إيجابية فى سياستنا الخارجية طوال حياتنا ـ وفعل ذلك بوازع من الخوف.

وهنا تكمن السخرية: إن أضمن الطرق لجعل العالم أشد خطورة مما هو عليه هو أن تضع الخطر بوصفه أهم شيء فيه. إن معاهدة هذا الأسبوع هى أكثر الحالات وضوحاً فى هذه النقطة. ويعنى إصرار أمريكا على حفظ آلاف من الرؤوس الحربية النووية الزائدة، أن روسيا، على الرغم من تفضيلها الثابت للتخلص من هذه الأسلحة، سوف تحتفظ بها كذلك. وما الذى سيحدث على مدى الزمان لهذه الرؤوس الحربية؟ عندما تكون ضرورة الاحتفاظ بمثل هذه المواد بعيداً عن متناول الأيدى المارقة واضحة، يتحرك الأمريكيون بعيداً عن التخلص الكامل من الأسلحة النووية، لاسيما وقد

تضاعفت فى روسيا، على النحو الذى يخلو من أى منطق. بيد أن هذه اللاعقلانية نفسها هى التى تكشف الأمور.

إننا نشبه أمة انتابها شرخ نفسى، تغوص فى مرض البارانويا. ويوضح تدمير البرجين التوءمين أن هناك أمورًا يجب أن نخاف منها، ولكن استجابات حكومتنا المجنونة تجعلنا أكثر انكشافًا وتعرضًا لمثل هذه الأمور، ولا أقل من ذلك. لقد أدت الحرب على الإرهاب إلى تقوية أيدى أولئك الذين يكرهون أمريكا. إن المثال الذى تضربه أمريكا عن «القوة الغالبة» قد دفع الشرق الأوسط إلى أتون جهنم كما جر الهند وباكستان إلى حافة جهنم. إن الحماية الحقيقية الوحيدة ضد الإرهاب العابر للحدود تكمن فى البناءات العالمية للقضاء الجنائى، مثل تأسيس المحكمة الجنائية الدولية حديثًا، إلا أن الولايات المتحدة «التى لم توقع عليها» أسقطت المحكمة من حسبانها بازدراء. ومنذ سبتمبر بددنا ثروتنا وتركيزنا على حرب ضخمة، على حين أهملنا تمامًا عمل الشرطة والمخابرات فى الوطن وفى الخارج. ومن ثم فإن غموض التحذير الجارى يصبح طبيعيًا. وكيف تجرؤ حكومتنا على أن تطلق تحذيرات عن مشروع كوبى للإرهاب البيولوچى، على حين أنها لم تفعل شيئًا لضبط قاتل الأنثراكس؟ أوه ـ وسامحونى، فأنا أسأل فقط ـ أين أسامة؟

وكان من الممكن أن يبدو تحذير إدارة بوش من اهتمام كاسترو بالإرهاب البيولوچى قد تم توقيته بحيث يجهض الضغوط السياسية الناجمة عن رحلة چيمى كارتر إلى هافانا. كما أن تحذير نائب الرئيس ريتشارد تشينى المهيج يوم الأحد عن الهجمات الإرهابية الوشيكة، ربما يبدو توقيته بقصد إبطال الهجوم السياسى الذى شنه الديمقراطيون طوال الأسبوع الماضى بعد أن طال انتظاره. ورفض الرئيس، من حيث المبدأ، «لخفض» الأسلحة يمكن أن يبدو موجهًا لخدمة غرضه السياسى والاقتصادى الأكبر لإعادة الصناعة الحربية الأمريكية إلى مكان الصدارة. ذلك أن الرئيس ومستشاريه المقربين، بعبارة أخرى، يمكن أن يكونوا قد بالغوا فى حجم التهديدات التى تهدد أمننا القومى لخدمة أغراضهم الضيقة.

ولكن ربما يكون الأمر أسوأ من ذلك. إن شكل الرعب الذى انتابهم مفيد لهم بهذه الطرق، ولكن أيضًا، مثل الذين يعانون من الاضطراب العقلى، فإنهم يبدون مقتنعين

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

بأن أى خطر يتخيلونه هو خطر حقيقى. إن أمتنا يقودها رجال ونساء واقعون تحت رحمة مخاوفهم. وكونهم يبذلون جهدهم لجعل الشعب الأمريكى خائفًا ربما يبدو موحيًا بأنهم لا يريدون سوى تبديد أى إعادة نظر فى المسار الذى اتخذوه، ولكن الحقيقة أن خوفنا يعزز خوفهم. لقد صار الخوف هو استجابة واشنطن المطلقة كما أنه يشكل استجابتها ذاتها تجاه المستقبل. إن أمريكا يقودها جبناء.

الفناء الأمريكى

٢ يوليو ٢٠٠٢م

نحن نحتفل بالبدايات، سواء بدايات الأفراد أم بدايات الأمم، بوصف ذلك وسيلة لتكريم مكاننا فى الزمان. والمراسم المبهجة للرابع من يوليو، والتى لا يتم الاحتفال بها بسعادة فى أى مكان أكثر مما يحدث فى بوسطن، تذكرنا باليوم الذى خرج فيه وطننا إلى الوجود. ونحن نحتفل هذا الأسبوع بإقامة مأدب من طعام الصيف، ونستمع إلى الموسيقى الوطنية، ونطلق الألعاب النارية، وربما نرتوى للحظة من العاطفة السامية بحب هذه البلاد.

ولكن أن نعترف بأن الولايات المتحدة الأمريكية لها بداية، وأنها بذلك مربوطة بقواعد الزمن، يتضمن أن نتذكر أن هذه الأمة سوف تكون لها نهاية أيضا. وما يتم الاحتفال به فى الرابع من يوليو فى الجوهر، هو قبول أمريكا للفناء. ومثل كل احتفال عيد ميلاد، فإنه يقاوم الإغراء الإنسانى بتخيل المرء أنه سيحيا إلى الأبد. لقد كان هناك زمن مضى لم نكن موجودين فيه، وهناك زمن مستقبل لن نكون فيه موجودين أيضا. وكل شىء تنجزه أمريكا وله أهمية يجب قياسه، أخيرًا، فى ضوء هذا الزوال السريع الجذرى الذى يحدث كل شىء فى إطاره.

ما الذى يمكن أن يكون أكثر وضوحًا من ذلك؟ هذا هو السؤال الذى يراودك. ومع هذا، فإن حقيقة فنائنا كأمة تراوغنا باستمرار. إن الموت النهائى للولايات المتحدة الأمريكية أمر مقلق بشكل عميق. حتى من حيث كونه مجرد فكرة. وربما يصدق هذا على وطننا أكثر من غيره، لأننا نعرف أنفسنا فى ضوء المستقبل أكثر من الماضى. وعظمة بريطانيا، مثلا، أو اليونان، مرتبطة بما كانت عليه، وهذا هو السبب فى أن

المهاجرين إلى تلك البلاد، ولا يشاركون فى ماضيها، يعتادون الهوية الوطنية بصعوبة. أما العظمة الأمريكية فهى دائمًا مرتبطة بما يصير عليه الوطن، وهذا هو السبب فى أن المهاجرين هنا يشعرون باستعدادهم للشعور بالالتزام بخلق هذه العظمة. إن المستقبل الأمريكى ينتمى إلى الجميع بقدر متساو.

ولكن ماذا لو أن المستقبل محدود؟ وهى طريقة أخرى للسؤال عن الموت. لقد اقترح أبراهام لنكولن فى جيتيسبرج أن موتانا المبجلين لم يموتوا «عبثا» إذا ما تم فى المستقبل «إنجاز المهمة العظيمة التى تنتظرنا». وهكذا نطق لنكولن بغرض أمريكى أساسى: أن التجربة الحالية مسوغة فقط بحصادها فى المستقبل. ولكن إذا ما حدث أن الاتحاد [يقصد اتحاد الولايات الأمريكية، أى الولايات المتحدة] «اختفى من العالم» فهل سيكون كل الذين ماتوا من أجله فى الماضى قد ماتوا «بلا طائل»؟ ففى عالم يبقى مرتبطا بقواعد الزمن والفناء، لايهم كيف نتغطى بالحماسة الوطنية، هل تكون الفكرة الأمريكية المميزة عن «انعدام الحدود أمام الأمريكيين» تهزم ذاتها بشكل حتمى؟ وإذا كانت الولايات المتحدة قد عرفت المستقبل بأنه المطلق الوحيد لديها، فما الذى يحدث عندما يكشف المستقبل، أيضا، عن أنه نسبى؟ هذه الأيديولوچية المتطلعة إلى الأمام كانت هى آلة كل من الصناعة والعدالة الاجتماعية، ولكن هل هى بالرغم من هذا مبنية على التناقضات؟ ولماذا لا يجب أن يبحث الأمريكيون عن سبل لتحاشى ألم مثل هذه الأسئلة؟

الرب المشترك. هذا هو السياق الذى يمكن فيه فهم استخدام ديانتنا المدنية حيث وضعناها. وعندما نزعم أننا أمة «تحت الرب» ـ وكان لنكولن هو أول من استخدم هذه العبارة فى جيتيسبرج ـ أو حينما نصلى ببهجة «ليبارك الرب أمريكا»، على افتراض أن بركة الرب لهذه البلاد فريدة فى بابها، فإننا ننسب لأنفسنا خصائص مقدسة من الخلود واللاتناهى، وهى فى الحقيقة لا وجود لها على الأرض. ولاحظ، نحن نفعل هذا عندما يكون مستقبلنا عرضة للخطر (١٨٦٣، ١٩٥٤، ٢٠٠١). إنه تغير الإيمان الأمريكى فى حُفر الخنادق. ولا ينبغى أن ندهش لأننا فى الفترة الراهنة التى تتسم بالقلق الوطنى الحاد، استأنفنا اعتمادنا المؤكد على الكلام عن الرب، ولا غرابة فى أن محكمة تجرأت على السؤال عن هذا، كان لابد من قمعها بكفاءة فى الأسبوع الماضى. إننا نحن الأمريكيين نشعر بأننا مكشوفون بما يكفى إذا لم نستسلم للإحساس بالحماية الفائقة التى نستمدها من التعبير العام عن شعورنا بالارتباط مع الرب.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وهكذا، هناك المزيد على المحك فى توسلاتنا إلى «الرب» ، بأكثر مما هى موجودة فى أسئلتنا الدستورية حول الكنيسة والدولة. لكل أمة طريقة فى التوسل إلى الالهة، وكل جيش يذهب إلى المعركة تحت حماية إله ما. ولا جديد فى هذا. ولكن التوسل الأمريكى مختلف بسبب الوظيفة التى يقوم بها «الرب» كحل للمشكلة الأمريكية. فنحن نفضل أن نفكر فى أنفسنا على أننا «الأمة التى لاغنى عنها»، على أمل أن نؤجل حساب حقيقة مضادة لأطول ما يمكن. «الرب» هو وسيلة التأجيل لدينا.

وعلى هذه الأرض، وفى حدود الزمن، ليست هناك أمة لا يمكن الاستغناء عنها. وليست هناك أمة تدوم إلى الأبد. وعندما يتعلق الأمر بالحالة الإنسانية، ليست هناك أمة استثنائية. ومن ثم، فإن الفرح الذى نحتفل به ببداية أمتنا، يجب أيضا أن يُعلمنا بأن نهاية أمتنا الأخيرة تشير إلى أننا جزء من الأسرة الإنسانية، التى تبقى هى مجدنا الحقيقى.

الحرب القادمة فى العراق

٢٣ يوليو ٢٠٠٢م

إننا نحن الأمريكيين نجد أنفسنا فى الوضع الخارق للعادة ونحن نشهد حكومتنا تتحرك ببطء ولكن بالتأكيد صوب حرب كبرى فى العراق. مثل هذه المناورة المكشوفة، مع بيانات واضحة من إدارة بوش، وتسرب خطط الحرب من البنتاجون، وإذعان الكونجرس، لم يكن ممكنًا أن تحدث عندما كانت قوة الولايات المتحدة، تقابلها، ومن ثم تكبح جماحها، قوة الاتحاد السوفييتى، ولا حينما كانت هذه القوة محكومة بمراعاة واشنطن للرأى العالمى - والآن فإن الضابط الوحيد المتصور على القوة العظمى الوحيدة يتمثل فى إرادة شعبها، والتى تتجلى من خلال التحركات السياسية، وهذا هو السبب فى أنه يجب علينا أن نعالج الموضوع بأنفسنا حالاً.

ويمكن الموافقة على أن صدام حسين خطر على جيرانه، وعدو لشعبه، وتهديد للسلام العالمى. ولكن فى هذه الصفحة يوم السبت الماضى، عبر رئيس فريق الأمم المتحدة للتفتيش عن الأسلحة فى العراق «سكوت ريتر» عن شكوكه العميقة حول مزاعم بوش بأن صدام حسين يهدد الولايات المتحدة على هذا النحو بأسلحة الدمار

الشامل بحيث تكون الحرب مبررة. واقترح «ريتر» جلسة استماع فى الكونجرس لكى «تسأل إدارة بوش أسئلة صعبة» حول أغراضها. وهذه هى بعض الأسئلة التى تخطر على بالى:

* إذا كنا قد عشنا مع صدام حسين بوصفه كعدو مميت على مدى أكثر من عشر سنوات، هل الضرورة لاستبداله الآن تبحث من أدلة حقيقية [على خطره]، أم من عقلية «نحن ضدهم» التى تدفع الحرب ضد الإرهاب؟ هل سبب الحرب شىء يفعله صدام، أم أن هذا السبب شىء نتخيله؟

* هل النزعة إلى الحرب لدى إدارة بوش تستبعد أى بدائل أخرى للحرب؟ مثلا سياسة «الاحتواء والتعويق» التى جاءت بنتيجة ناجحة ضد الاتحاد السوفييتى وكانت ناجحة حتى الآن ضد صدام حسين، وتعتمد على التعاون متعدد الأطراف مع الدول الأخرى. ولكن حديث الحرب لدى بوش المتباهى، حتى وإن قصر عن الغزو الحقيقى، يدمر مثل هذا التعاون.

* عندما يتحول هدف أمريكا من تعديل سلوك صدام حسين إلى الهدف الصريح لتغيير النظام، فما الذى سيخسره صدام حسين؟ وعندما يعرف صدام أن قوة غزو أمريكية قادمة بالتأكيد، ألن يكون عليه «أن يستخدم أسلحته أو يخسر الحرب»؟ وأيا كانت هذه ألا تجبره واشنطن على الرد بأسوإ ما لديه؟

* ما التأثير الذى سوف تحدثه حرب أمريكية كبرى ضد العراق على صراع الحدود بين الإسلام والغرب؟ إذا كانت القاعدة قد برزت من ثنايا الإذلال الذى ارتبط بحرب الخليج فما الذى سيبرز من خلال الإذلال الجديد من حرب أمريكية شاملة على العراق، بما يتطلبه ذلك بالضرورة من احتلال أمريكى طويل المدى؟

* ما العلاقة بين المشروع الأمريكى الملح فى العراق ونقص الاهتمام الأمريكى بالأزمة الإسرائيلية الفلسطينية المتفاقمة؟ هل يستخدم بوش مشكلة العراق عذراً لتجنب التصارع فى المشكلة الفلسطينية؟ كيف يكون من مصلحة إسرائيل دعوة صدام حسين إلى إطلاق صواريخه من طراز سكود مرة أخرى؟ وما الأمل فى تحسن العلاقات بين الولايات المتحدة والعرب طالما بقى الفلسطينيون على بؤسهم؟

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

* ما معنى القول عن الولايات المتحدة بأننا على وشك أن نصبح دولة «الضربة الأولى»؟ وبالتخلى عن التعددية، هل تخلينا عن الدبلوماسية أيضا؟ هل لم تعد الحرب الملاذ الأخير، بوصفها دفاعًا عن النفس، ولكنها صارت منهجًا روتينيا لشق طريقنا، طالما أن أحدًا لا يمكن أن يوقفنا؟ هل جاء علينا الوقت لمناقضة ميثاق الأمن العالمى سنة ١٩٤٧م، والعودة إلى تسمية وزارة الدفاع وزارة الحرب؟

* هل الحرب ضد العراق، بما تحمله من مخاطر إشعال «صدام الحضارات» وإضعافها المحتمل للروابط بين الولايات المتحدة وحلفائنا، تجعل وطننا معرضًا لهجمات إرهابية؟ إذا كان الطريق الحقيقى الوحيد لتعقب القاعدة ومنع الهجمات فى المستقبل يتأتى من خلال التعددية التى سوف تضعفها حرب بوش، أليس هو بوش الذى ينفذ النص الذى كتبه أسامة بن لادن؟

* ما الذى يخبرنا مشهد مطول من صناعة الحرب؟ تذكروا أن صدام حسين كان قد بدأ عميلاً أمريكيا (مثلما كان أسامة بن لادن) عندما كنا نخوض حروبًا أخرى، أليس هو دليلاً على بطلان الأسطورة القائلة بأن الحرب تحل مشكلات أكثر من التى تسببها؟ وإذا ما وصلنا إلى هذا الاستنتاج، ألا تظهر أساليب أخرى إجبارية لمقاومة طغيان صدام حسين؟ وعلى المدى الطويل، من الذى يقول إنها لن تكون أشد فعالية؟

إن الفرق الواضح بين العراق وأمريكا هو أن هذه الأمة ديمقراطية. وهذا يعنى أننا مواطنى الولايات المتحدة مسئولون عن سلوك چورچ دبليو بوش بطرق غير متاحة لمواطنى العراق ليكونوا مسئولين عن صدام حسين. وهناك سبب قوى للاعتقاد بأن بوش، فى حملته الشخصية واللاعقلانية والشاملة والمانوية جدًا ضد صدام حسين، قد وضع العالم على مسار الكارثة. ولا أحد يمكنه تغيير هذا المسار سوانا.

أكاذيب، أكاذيب ملعونة

٣٠ يوليو ٢٠٠٢م

قال ڤاكلاڤ هاڤل فى خطبته الافتتاحية بوصفه رئيسًا للتشيك: «رفاقى المواطنين الأعزاء، على مدى أربعين سنة إلى هذا اليوم سمعت من أسلافى الشى نفسه بتنويعات متعددة: كيف أن بلادنا تزدهر، كم مليون طن من الصلب أنتجناها، كيف أننا سعداء

جميعًا، وكيف نثق فى حكومتنا، وما الاحتمالات التى تنتظرنا. ولست أفترض أنكم اخترتمونى لهذا المنصب لكى أكذب أنا أيضا عليكم».

كان هذا سنة ١٩٩٠م. ويبدو ذلك زمنًا عتيقًا، عندما كان الكذب العام يعرف بأنه أحد الفروق الأساسية بين الإمبراطورية السوفييتية وأمريكا. ويتكشف الكذب العام الآن على أنه مرض مستوطن فيما آلت إليه الرأسمالية فى الولايات المتحدة. تلخيص هائل للخدع الستالينية يبدو مثل تقرير قياسى للـCEO لحملة الأسهم. هذا الاكتشاف لعدم الأمانة الأساسية فى قلب «مؤسسة حرة» يمكن أن يصدمنا فى مستوى النضج الأخلاقى.

إن أسوأ تأثيرات الحرب الباردة على العقل الأمريكى كان هو التفكير ثنائى القطبين الذى شجعت عليه. لقد سمحنا لأنفسنا بأن نعتقد أن العالم يمكن تقسيمه بين ما هو فاضل جوهريًا وما هو شرير فى جذوره. وعملنا على مدى جيل على افتراض أن البشر وراء الستار الحديدى كانوا فى قبضة الشيطان، بينما نحن فى الغرب قد عهد إلينا «هنا على الأرض» ـ حسب تعبير چون كنيدى فى خطابه الافتتاحى ـ بتنفيذ أعمال الرب. وهكذا، عرَّفنا الكرملين ومقاصده على أنها مقاصد توسعية إمبريالية، بينما كان هدفنا العالمى هو الوصول إلى الأسواق الحرة فقط. وكون أننا أنفقنا موارد خزانتنا وأفضل جهودنا الفكرية استعدادًا لتفجير العالم، يبدو فى الكيمياء الأخلاقية للردع، عملاً من أعمال الفضيلة السامية. ولا نثق فى التوقيعات السوفييتية على المعاهدات. ولا نتصور حسن النية الدنيوى لدى الشعب الروسى، ولهذا كنا متأكدين من أن العدو الشمولى يمكن تركيعه فقط بالعنف العالمى القادم. إن التفكير الأخلاقى التبسيطى ينذر دائمًا بنهاية العالم.

لقد عرفنا، فى الوقت نفسه، أننا وزعماءنا، كنا قادرين على الكذب، ولكن فى الرواية الأمريكية، كان الخداع العام، مثل ووتر جيت يعد استثناء يؤكد قاعدة البراءة الأمريكية. ذلك أن چيمى كارتر، فى حملته الانتخابية تحت شعار «لن أكذب عليكم أبدًا»، أوضح أن هذا ما ننتظره من الرؤساء ـ ومن أى فرد من السلطة. وهل كانت الأمة التى مسحت نفسها بنفسها(*) على حقيقتها أكثر من لحظة إحساسها بالتفوق الأخلاقى الكبير على بيل كلينتون الذى لحقه العار؟

(*) كما يتم مسح الأنبياء فى الكتاب المقدس.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ولكن الفشل الأخلاقى الأساسى للعاملين فى CEO ـ ورؤساء الولايات المتحدة ـ لا يدخل فى مكونات الفساد الواعى المتمثل فى التفكير فى شيء، بينما تقول شيئا آخر. إن الفوضى أعمق من ذلك، ذلك أن الأكثر احتمالاً أن مثل هؤلاء القادة مقتنعون بالمبررات الزائفة التى يقدمونها. وكون المبررات تخدم نفسها بشكل شامل، بطبيعة الحال، هو جزء من السبب فى أن القادة مقتنعون. وعندما حنث چورچ دبليو بوش حديثا بالوعد الذى قطعته أمريكا بمعاهدة ABM، لم يجعلنا أمة من الكذابين، كما قال لنا، وإنما من الواقعيين. تحققت أچندته.

إن النموذج واسع. فالتنفيذيون الذين لا يريدون سوى وضع الأرقام «فى ضوء أفضل» ينتهون بطبيخ الدفاتر. والسياسيون الذين يهدفون دوئما أذى إلى إخبار الناخبين ما يريدون أن يسمعوه ليس لديهم أى إدراك بما هو حقيقى. والزعماء الدينيون الذين يحافظون على مظهر الفضيلة بوصفها قيمة مطلقة، يفقدون القدرة على معرفة قابليتهم للخطإ. ولكن فى كل هذا، يتصرف مثل هؤلاء الأشخاص فقط بوصفهم أفراداً من الجنس البشرى، لأن الاتجاه نحو خداع الذات أمر عام.

وهكذا، فإن الأزواج والزوجات يمكنهم أن يمضوا أعوامًا دون أن يدركوا أنه ليست هناك ألفة. كما أن أصحاب الوزن الزائد يمكن أن يخدعوا أنفسهم حول مشكلتهم الصحية. ومن يشربون الخمر يمكنهم أن ينكروا ما صارت إليه حياتهم. والعمال المجبرون يمكنهم أن يجعلوا أنفسهم عبيداً لحلم زائف بالنجاح. والإحباط الذى يغرق الحياة يمكن أن يمرَّ بوصفه قلقًا غير ذاتى. ويمكن للطمع أن يبدو كما لو كان طموحًا. إن السعى وراء السعادة يقتلنا. إن أكثر الأكاذيب دماراً هى تلك التى نقولها لأنفسنا.

واليقظة القاسية على امتداد الوطن اليوم تثير غضبًا مفهومًا على الزعماء المخادعين، بيد أن ذلك لا يجب أن يكون ردنا الوحيد. ففى أثناء الحرب الباردة أعفينا أنفسنا من ذلك النوع من التدقيق الأخلاقى الذى كان يمكن أن يمنع انتشار هذه السحابة المسمومة. إن أكاذيب العمل (ماديسون آڤينيو) والحكومة (فجوة الصواريخ) والثقافة (شباب دائم) والدين (الرب يبارك أمريكا) قد بنيت داخل نظامنا، ولكننا لم نستطع أن

نرى أنها أكاذيب بسبب الانشطار الحاصل فى تفكيرنا . وفى هذا الوقت من الحساب الأخلاقى، هل سنقوم مرة أخرى بتقسيم العالم بشكل فج بين الخير والشر؟

نعم، يمكن أن نصر على التطهر من الأكاذيب العامة ـ أى على إصلاح حقيقى . ولكن نحن نكرر التخبط على مستوى كبير إذا ما استنتجنا أن مشكلة خداع النفس تتعلق بأحد سوانا . لقد عمل هافل على أن يخبر مواطنيه «عندما أتحدث عن الجو الأخلاقى الملوث، فإننى أعنينا جميعا».

غلطة، وجريمة

٦ أغسطس ٢٠٠٢م

اعترف ألبرت أينشتين بقوله : «لقد ارتكبت غلطة عظيمة واحدة فى حياتى، عندما وقعت خطابًا للرئيس روزفلت أوصى بصناعة القنبلة الذرية» . وتم إحضار الخطاب للرئيس فى خريف سنة ١٩٣٩م، فى غضون أسابيع من بداية الحرب فى أوروبا . كان أينشتين وغيره من العلماء قلقين من أن هتلر قد شرع فى مشروع قنبلة ذرية، وهذا هو السبب حسبما يستمر تعليق أينشتين : «ولكن كان هناك مبرر ما ـ الخطر الذى سوف يلحقه الألمان بهم» (مصدرى فى هذا الاقتباس، والذى ألهمنى هذا العمود هو كتاب مارتن ج ـ شيروين الفائق الأهمية بعنوان A world Destroyed).

وإذ حركتهم دفعة ملحة إلى الحصول على السلاح الذرى قبل هتلر، تجمع فريق من ألمع علماء الطبيعة من أجل العمل . وكانت أول سلسلة من ردود الفعل تغذى نفسها بنفسها قد تكونت فى جامعة شيكاجو فى ديسمبر سنة ١٩٤٢م . ولكن حينئذ حدث شيء غريب غير معروف للعلماء . فلم يعد كسب السباق ضد النازى هو الاهتمام الأعلى . فعندها رأى رؤساء السياسة فى مشروع مانهاتن الامتلاك الحصرى للقنبلة بوصفه مصدرًا لضبط سياسى غير مسبوق على الاتحاد السوفييتى بعد الحرب . لقد كان للقنبلة غرض جديد، وإن لم يتم الاعتراف به بعد .

وفى نوفمبر سنة ١٩٤٤م، اكتشفت الولايات المتحدة أن برنامج ألمانيا الذرى كان ما يزال فى طوره الجنينى، ولم يكن هناك تهديد حقيقى من قنبلة نازية . ويقترح شيروين

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أن هذه المعلومة الاستخبارية الحاسمة ربما تكون قد حجبت عن العلماء الذين كانوا يعملون على إنتاج القنبلة «لكي لا يهدئ حماستهم». وبهذا التحول في الحرب لم يعد هناك أي خطر حقيقي من هزيمة للحلفاء، إلا أن مشروع مانهاتن مضى بإلحاح أكبر من ذي قبل، وكان رؤساء السياسة ينظرون إلى المنافسة بعد الحرب مع الاتحاد السوفييتي بنفس نظرتهم إلى نهاية مباراتهم مع ألمانيا واليابان، مما أعطاهم دافعًا جديدًا تمامًا لاستخدام القنبلة بأسرع ما يمكن.

واليوم هو الذكرى السنوية لإسقاط القنبلة الذرية الأمريكية على هيروشيما. إن الجدل الذي لم يتم حول ما إذا كان الهجوم، والقصف الذي أعقبه لنجازاكي، برره دائمًا التركيز على مسألة الحرب مع اليابان بطريقة ضيقة. ألم تنقذ القنبلة الذرية، حقًا، حياة الجنود الذين كانوا ينزلون على شواطئ دولة الجزر التي يتسم الموت فيها بالصعوبة؟ ترى ماذا كان بوسع ترومان أن يفعل غير هذا؟ هذه الأسئلة أحرجت الضمير الأمريكي مما يجعل من المستحيل الحساب الجدي لهذا العبور للعتبة النووية، وهو ما يؤدي بدوره إلى كبت حسابنا الأخلاقي مع ترسانتنا النووية الحالية.

ولكن ماذا إذا كان غزو اليابان، ويظل، كذبة مثل أسماك الرنجة الحمراء؟ ماذا لو أن التهديد الياباني لم يكن، مثل التهديد، النازي الذي سقط على جانب الطريق، لم يكن هو الموضوع الحقيقي حينذاك أيضا؟ ماذا لو أنه بحلول صيف سنة ١٩٤٥م، لم يكن الغرض البارز المهيمن هو إنهاء الصراع ضد اليابان وإنما كان هو التحكم في شكل الصراع المتوقع مع الاتحاد السوفييتي؟ ماذا لو لم يكن الإمبراطور هيروهيتو هو الذي كنا نحاول إرهابه ولكن چوزيف ستالين؟ ألم تكن طلقة أخيرة ضد قوى المحور ولكنها طلقة أولى ضد الكرملين؟

في الحرب والسياسة لا توجد أبدًا إجابات من عنصر واحد عن أسئلة مركبة. في الحقيقة، كانت القنبلة الذرية طلقة أخيرة وطلقة أولى معًا. وهدف تساؤلي ببساطة أن أقترح أننا، كشعب يصرُّ على حكاية تكون فيها هيروشيما على نهاية صراع بدلاً من بداية صراع، قد أعطينا أنفسنا الحق في تجاوز سؤال أكثر إزعاجًا. إذا استخدمنا السلاح النووي لإرسال إشارة إلى الاتحاد السوفييتي ولإنهاء الحرب العالمية الثانية أيضا، فإن كل الشر الذي سيخرج من ذلك الاستخدام ـ ليس فقط سباق التسلح ولكن الفكرة

الجديدة الشيطانية بأن القوة الوطنية يمكن أن تعتمد بشكل صحيح على التهديد بالدمار الشامل - ينتمي إلينا. وإذا كان صدام حسين يريد أسلحة الدمار الشامل من أجل القوة الدبلوماسية الإستراتيجية فإنهم سوف يعطونها له، إنه يلعب وفق قواعد كتبت في واشنطن. هناك طريقان لاستخدام السلاح النووي: بوصفه مصدرا للدمار العالم وبوصفه مصدراً لقوة العالم. وقد استخدمنا الطريق الأول عند نهاية الحرب العالمية الثانية، والتي كانت هي بالضبط بداية الحرب الباردة. وظللنا نعمل في الطريق الثاني يومياً منذ ذلك الحين. ولماذا لا ينبغي لصدام حسين أن يرغب في تقليدينا؟

الانهيار الكاثوليكي وسياسة الولايات المتحدة الخارجية

١٣ أغسطس ٢٠٠٢م.

القساوسة يسيئون للأطفال. والأساقفة يحمون المفسدين بدلاً من الضحايا. والفساد مكشوف. ما التأثير الذي يتركه انهيار السلطة الأخلاقية للكاثوليكية الأمريكية على السياسة الخارجية للولايات المتحدة؟ إن البعض سوف يستبعد هذا السؤال بوصفه سؤالا لكاثوليكي متطرف يرى كل شيء من خلال العدسات الضيقة لمشكلة كنسية أبرشية. وفي الحقيقة، فإن انشغال وسائل الإعلام بالفضيحة الكاثوليكية يمكن أن يبدو صرفًا للانتباه عن المشكلة الأخطر التي يسببها جورج دبليو بوش بإثارة الحرب. ولكن الحقيقة أن الموضوعين متصلان. إذ إن المجابهة بين الكاثوليكية الأمريكية وشخصيتها المتصدعة يمكن أن تؤدي إلى تلطيف الاستقامة الذاتية الأمريكية، لصالح العالم.

لقد كان الاستبداد الأخلاقي لدى الكاثوليك الرومان أحد أعمدة السياسة الخارجية للولايات المتحدة منذ بداية الحرب الباردة. والواقع أن الكاثوليكية ارتبطت بالاتفاق الأمريكي فقط عندما تبلور ذلك الاتفاق حول نزعة معاداة الشيوعية التي لها - حسبما حذر رجل الدولة برنارد باروش سنة ١٩٤٧م - نكهة «حرب دينية». ولا شيء خطأ في ذلك حسبما كان يمكن للرئيس هاري ترومان أن يقول. لقد كانت سياسته الخارجية تهدف إلى تجسيد شيء لا يقل عن «الموعظة على الجبل» على حد قوله. إن السمة الدينية للحملة الصليبية الجديدة التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية هي التي حفزت

http://www.al-maktabeh.com

ترومان على أن يصدر دعوته الحربية ضد السوڤييت فى حفل العشاء السنوى الذى أقامه الكاردينال فرنسيس سپيلمان فى يوم سان پاتريك عام ١٩٤٨م.

لقد صار سپيلمان بطل النزعة الأمريكية لمعاداة الشيوعية. وبدا وكأن كل كاثوليكى قد تم تجنيده. ومن هنا ظهر فولتون ج. شين المشهور فى وسائل الإعلام، ومن هنا ظهر السيناتور چوزيف مكارثى باعتباره مدافعًا عن النقاء الأيديولوچى. هذه السياسات ذات المظهر الدينى هى التى أضفت مسحة مقدسة على استراتيچية الولايات المتحدة وجعلت سپيلمان أكثر الأساقفة الكاثوليك تأثيرًا فى التاريخ الأمريكى. ثم ساعد على تشكيل أبعاد أزمة ما بعد الاستعمار فى ڤييتنام بتمركزها حول معاداة الكاثوليكية للشيوعية، كما ساعد ربيبه «نجو دينه دييم» لكى يصير رئيس الوزراء سنة ١٩٥٤م. وكان جنوب ڤييتنام بوذيًا فى غالبه، ولكن كان الأمريكيون يرون فيه بلدا كاثوليكيا فى الأساس، وينظرون إلى الكاثوليك على أنهم يحاربون فى سبيل كل ما هو طيب، كما يرون فى البوذيين المحتجين اناسًا يرتبطون بالشيوعيين الأشرار القادمين من الشمال. والواقع أن «دييم» كان يشن حربًا دينية ضد شعبه هو، ولكن النظرة الأخلاقية العالمية حالت دون ظهور هذه الحقيقة المأساوية. هذه الغلطة هى التى بدأت بها المغامرة الأمريكية الطائشة فى ڤييتنام (وعندما اغتيل دييم سنة ١٩٦٣ كان يرتدى مسوح القساوسة).

وقد خفف البابا يوحنا الثالث والعشرون من استبداد نزعة معاداة الشيوعية لدى الكاثوليك، عندما تساءل عن اعتماد أمريكا على الرادع النووى ورعى انفراج العلاقات بين الولايات المتحدة والسوڤييت. وهناك حركة سلام كاثوليكية ساعدت على إنهاء الحرب فى ڤييتنام، كما برزت إلى الوجود دائرة عريضة من الأنصار الكاثوليك، بل إن الأساقفة فى هذه الدائرة انضموا إلى الذين يشكون فى الأسلحة النووية. بيد أن النزعة الأخلاقية الكاثوليكية العمياء عادت إلى الظهور بشكل علنى عندما تناغمت رؤية البابا يوحنا بولس الثانى الرؤيوية(*) للشيوعية مع رؤية رونالد ريجان. كما أن أموال إدارة المخابرات المركزية كانت تذهب إلى الجناح اليمينى فى الكونترا بنيكاراجوا عبر قنوات الكنيسة الكاثوليكية، مثلاً عندما قاطع الڤاتيكان

(*) يقصد ما جاء فى سفر رؤيا يوحنا، آخر أسفار العهد الجديد والكتاب المقدس ـ المترجم.

الكاثوليك المتحالفين مع حركة تحرير أمريكا اللاتينية، فقد صدرت الأوامر إلى قساوسة الولايات المتحدة وإلى راهباتها بأن يبقوا بعيداً عن التحركات السياسية للجناح اليسارى، واستأنف الأساقفة الكاثوليك وظيفتهم بحسبانهم تعويذة الحظ للاتفاق الأمريكي. كان الأمريكيون متجذرين بثبات مرة أخرى فى الإحساس بطهارة وطنهم لدرجة أنه حتى الأساقفة لم يظهر أنهم انتبهوا عندما بدأ البابا يوحنا بولس الثانى يعترض على حروب واشنطن. لقد كانت الأمة التى لا يمكن الاستغناء عنها محصنة ضد النقد من الخارج، وغير قادرة على ممارسة النقد الذاتى.

ومع بركات الكنيسة الكاثوليكية، فإن كلمة «الشر»، التى تصدق على الأعداء، قد صارت مفتاح الخطابة الأمريكية منذ خمسين سنة مضت. وقد أعاد چورچ دبليو بوش تنشيط هذا التراث، على محور جديد. كان رفيق بوش الروحى فى هذا كله كاردينال بوسطون المدعو برنارد لو، الذى سعى بوش إلى الحصول على موافقته الخاصة خلال حملته الانتخابية سنة ٢٠٠٠. ورؤية الكاردينال العالمية للخير والشر داخل الصراع المعرفى المطلق تعكس رؤية بوش، وكل من الرجلين واثق من تحالفه مع الخير.

لا مزيد. فالخزى الذى لحق بالكاردينال لو بوصفه حامياً للعابثين الجنسيين خزى تام. وانظر كيف يحافظ بوش على المسافة التى تبعده عن الرجال الذين يرتدون الرداء الأحمر الآن. لقد أدت فضيحة الإساءة الجنسية من جانب القساوسة للأطفال والتغطية عليها إلى الحط من زعم الكنيسة بأنها قدوة أخلاقية. أما وظيفتها بوصفها أحد أعمدة الاستثنائية الأمريكية فقد انتهت. وبوصفهم رعاة قانونيين لقضية الاستقامة، فإن فائدة الأساقفة الكاثوليك الأمريكيين فى هذا تماثل فائدة موظفى إينرون. ومع ذلك فإن فضيحة الكنيسة تستمر. والقساوسة الكاثوليك الذين مازالوا يتحدثون عن الشرعية، ويهددون القساوسة المعارضين، ويرفضون الهبات المالية البديلة، ويمنعون العلمانيين المهتمين من التجمع فى قاعات الكنيسة، لا يفعلون شيئا سوى إظهار خيبتهم الأخلاقية الشاملة. إن انهيار هذه المؤسسة الكنسية المولعة بنفسها مطهر كاثوليكى(*) بالمعنى الحرفى، ولكن المطهر صحيح وعادل بالنسبة للكنيسة.

(*) المطهر الكاثوليكى له معنى فيه بعض الشبه بالأعراف ـ المترجم.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ويمكن أن يكون هذا شيئًا طيبًا للأمة أيضًا. إن التجلى المستمر لخداع النفس الذى تمارسه الهيراركية، والقسوة، والجرائم المحزنة لابد أن تذكر الجميع بأن كل مؤسسة قاصرة من الناحية الأخلاقية ـ بما فى ذلك أمريكا. إن الشر ليس محورًا ولكنه مدار يحيط بالكواكب، إنه مشكلة عالمية.

هل ستكون «موعظة الجبل» سياسة خارجية أمريكية؟ إن الرئيس ترومان، وهو يزعم لنفسه ولخلفائه دور الواعظ الذى يلقى هذه الموعظة ـ وهو دور يسوع المسيح ـ ربما لم يكن قد لاحظ كيف أن الموعظة فى إنجيل متى تتضمن السؤال الذى يقول: لماذا ترى القشة فى عين أخيك، ولكنك لا ترى جذع الشجرة الذى فى عينك؟

إذن ماذا أظن أننى أكون؟

٢٠ أغسطس ٢٠٠٢م

فى يوم الثلاثاء منذ عشرة أعوام مضت، بدأت أظهر على هذه الصفحة بوصفى كاتب عمود منتظم، ولم أكن أتخيل كم سيكون دورًا مثيرًا للجدل. ومن بين الأعمدة التى كانت تجتذب نقدًا غير متوقع كان عمود كتبته عن الكلبة صوفى التى تمتلكها أسرتنا. وتضمن وصفى للركض معها فى الممرات على امتداد نهر تشارلز جملة تقول: «انظر إلى صوفى مطلقة السراح، ولكنها لا تبعد أكثر من قدمين». وكما أشار كثير من القراء، كان ذلك اعترافًا بأننى انتهكت فنيا قواعد إطلاق السراح، على الرغم من أن صوفى كانت دائمًا فى عقبى. فقد افترض من ردوا علىّ، خطأ، أننى واحد من ملاك الكلاب الذين يركزون على ذواتهم، الذين يتجاهلون القانون، فقد أهملت أيضا تنظيف مخلفات كلبتى. إن كتاب الأعمدة يفترضون بشكل عادى أن من حقهم الحكم على مثل هؤلاء المواطنين السيئين وإدانتهم. ألم أكن أنا واحدًا منهم؟ والواقع أنهم سألوا: من تظن نفسك؟

وما تزال صوفى عضواً معززًا فى أسرتنا، ولكنها حسبما أخبرنى الطبيب البيطرى لتوه، مريضة بالشيخوخة الآن. وقد ولت الأيام التى كانت تركض فيها. وكجزء من فحصها، كان علينا أن نقدم عينة من بولها فى الصباح الباكر، وهذا ما جعلنى أتابعها

فى اليوم التالى وأنا أنحنى وبيدى جفن من البلاستيك. وكان المارة مندهشين من رؤيتى وأنا أتعقب صوفى محاولاً أخذ قطرات من بولها قبل أن تسقط على الرصيف. الكلام عن التبول الإجبارى. وعندها فكرت فى الذين انتقدوا العمود الذى كتبته عن الكلبة وودت لو استطاعوا رؤيتى الآن.

وبينما أبحث فى ملفاتى، بحثًا عن الموضوعات التى كتبت فيها على مر السنين، تعرفت على خيط مشترك، فمنذ أول عمود منتظم كتبته سنة ١٩٩٢ ـ «كفى حربًا» ـ حتى العمود الذى كتبته الأسبوع الماضى ـ «الانهيار الكاثوليكى وسياسة الولايات المتحدة الخارجية». لقد كنت مهمومًا بالمخاطر التى تجلبها نزعة «الخير فى مواجهة الشر» الأخلاقية، بيد أننى تعرفت فى الحال، أيضًا، على مخاطر مثل هذا الاهتمام. من تظن نفسك؟ ما الذى يمنع ناقد المنافقين الأخلاقيين من أن يكون هو نفسه منافقا أخلاقيّا؟ لماذا ترى القش التى فى عين أخيك، كما سألت الأسبوع الماضى مقتبسًا من إنجيل متى، ولكن لا ترى جذع الشجرة الذى فى عينك؟ لقد سألت هذا السؤال لنفسى، وأنا أفكر فى لازمة «بوب ديلان»: «فى وقفة جندى صوبت يدى/ صوب الكلاب الهجينة التى يُعَلمها/ ولا أخاف، أصبحت أنا عدوى/ فى اللحظة التى أبشر فيها».

وما التنازلات التى أدين بها لقارئى؟ إن فى افتراض «وقفة الجندى» لدى راوى للحقيقة موضوعى، هل ينبغى أن أؤكد بشكل متوازن على الكشف المستمر الغريب لتاريخى الشخصى؟ فى الكتابة بشك عن النزعة الحربية الصادمة لدى حكومتنا، هل يجب أن أعترف بصراحة أكثر بتوتراتى النفسية التى لم تنته مع المرحوم أبى، والذى كان جنرالا فى القوات الجوية، وانقسامنا حول ڤيتنام؟ وعندما أنتقد الهيراركية الكاثوليكية، هل يجب أن أعترف بشكل أكثر اتساقا بانهيار المثالية الحماسية التى أخذتنى إلى سلك الكهنوت الكنسى عندما كنت شابا؟ فى الحقيقة، سواء كان الموضوع هو الحرب أو الممارسات السياسية أو الشأن الدينى ـ فكلها أمور شخصية بشكل مكثف معى. هل هذه مشكلتى؟ أم أنها الحل الذى عندى؟

من تظن نفسك؟ يتم طرح هذا السؤال دائمًا كطريقة للإسكات. وهو يعنى ضمنًا أن هناك أصواتًا معينة فقط لها الحق فى أن تكون مسموعة، الأصوات التى تؤكد الأشياء كما هى، وتبقى على القوى فى مركز القوة. وفيما يتعلق بأمور الحرب، فإنها

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الأصوات التى تنتمى إلى الصفوة الكنسية فقط. إن السؤال يستغل بطريقة شريرة حقيقة الحال الإنسانية ـ أنه لا أحد بمنجاة من النفاق. بيد أنه يعنى ضمنا وبطريقة زائفة العكس، أن بعض المخلوقات الكاملة تقف فوق النقد ولهم وحدهم حق توجيه النقد. وبطبيعة الحال، إنهم الأفراد الذين يطرحون السؤال المسكت أولا. باستثناء عندما نطرح نحن أنفسنا السؤال على نحو معاكس.

بعد عشر سنوات من كتابة هذا العمود، أفهم بشكل أفضل من ذى قبل أننا نحن البشر متشابهون فى نقائصنا، ويدين كل منا للآخر بعدم الوعظ، على حد تعبير «ديلان». ومن المؤكد أن العمود ليس منبر وعظ. ولكننى أفهم أيضا أننا نحن البشر متشابهون فى كوننا مسئولين عن هذا العالم. لا أحد معفى من الالتزامات بأن نحكم ونتكلم. فكل صوت له الحق فى أن يكون مسموعًا. فالعمود ميكروفون بامتياز، هذا كل ما فى الأمر. أشكركم لأنكم أتحتم لى أن أكتبه.

من تظن نفسك؟ عندما يتعلق الأمر بالحرب، فإننى مواطن أمريكى يقول لا. وعندما يتعلق الأمر بالدين، فإننى كاثوليكى مؤمن ومدرك بأن جميع مخلوقات الله ناقصون. وعندما يتعلق بالأمر بالحياة فى المدينة، فإننى صديق لكلبة، وهى الكلبة ذات الجفنة البلاستيك.

* * *

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(٧)

قرع الطبول

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فى الأول من يونيو ٢٠٠٢م، بدأ الرئيس يبين «مذهب بوش» الجديد فى وست پونيت: «على مدى معظم القرن الأخير، اعتمد دفاع أمريكا على مذاهب الحرب الباردة فى الردع والاحتواء.. بيد أن هناك تهديدات جديدة تتطلب فكرًا جديدًا أيضًا». لم يعد مبدأ «الردع والاحتواء» كافيًا.

فـفى الرد على «الشبكات الإرهابية المستترة» و«ديكتاتوريات ذوات سلطات مطلقة»، كان على أمريكا أن تكون أشد عدوانية، لاسيما إذا أخذنا فى اعتبارنا الطبيعة الغامضة للأزمة العالمية الراهنة». «نحن فى صراع بين الخير والشر، وأمريكا سوف تسمى الشر باسمه». لقد بدأ قرع طبول الحرب.

«استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة»، وهى لاهوت كامل لمذهب بوش، نشرت فى أكتوبر التالى. لقد كان إعلانًا رسميًا باستعداد أمريكا المبرمج لشن الحروب «الوقائية». ولم يقل المذهب ما إذا كان مثل هذا الحق يمكن أن يكون لأمم أخرى. وقد أكد مذهب بوش، بوضوح، أن المبادرات العسكرية سوف تحل محل الدبلوماسية، وأن الولايات المتحدة كانت مستعدة تمامًا وبشكل مناسب للعمل وحدها؛ وأن فضيلة الأهداف الأمريكية كانت واضحة بحد ذاتها؛ وأن قوة أمريكا التى لا يمكن تحديها تُعد مبررًا كافيًا للقيام بأى مبادرة وقائية. هذه التأكيدات على «الفكر الجديد» الذى يمثل انقطاعًا شاملاً عن السياسة الخارجية فى القرن العشرين، تمت صياغتها بطريقة نافذة بدون استشارة الحلفاء، وبدون مناقشة فى الكونجرس.

لقد وجدت تجريدات مذهب بوش بؤرتها الصلبة فى شخص صدام حسين. وتسمية الشر باسمه كانت تعنى تسميته باسم صدام. ولن يشكل الردع والاحتواء بعد الآن الاستجابة الإستراتيجية لمكائده، أو مكائد أى شرير آخر. والحرب الوقائية تعنى

منع صدام حسين. ولم يفسر أحد كيف حل محل أسامة بن لادن فى مرمى بندقية أمريكا. وفى الواقع أن أسامة بن لادن لم يعد محل مناقشة.

***

عاجز عن الإفصاح وفخور بهذا

٢٧ أغسطس ٢٠٠٢م

قال الرئيس بوش فى يوم آخر: «أنا رجل صبور». وكان يرتدى ملابس الكاوبوى. وأضاف بقدر من عدم الصبر: «وعندما أقول إننى رجل صبور، فإننى أعنى أننى رجل صبور». كان الرئيس يجيب عن محاولات رجال الإعلام لفهم خطاب الإدارة الأمريكية الساخن والمربك حول العراق. لقد عدلت تصريحاته عن الصبر من تصريحاته عن الحرب، سعيًا إلى تثبيط التوقعات بالهجوم الوشيك، على حين يعد بأن العمل العدوانى آت فى النهاية.

إن الأمة تتأمل شيئًا يمكن تسميته الحظ العاثر. فمنذ أن أعلن بوش مذهبه الجديد عن الحرب الوقائية فى الربيع الماضى، انشغلت إدارته فى حرب كلامية غير مسبوقة موجهة ضد صدام حسين. ففى البداية، كان التبرير لتغيير النظام الحاكم فى بغداد مسألة التهديد الذى يشكله صدام حسين، ولا شىء أكثر من ذلك. والآن فإن التبرير يتضمن حماية سلامة تهديد أمريكا. فعلينا أن نذهب إلى الحرب الآن لأننا قلنا إننا سنخوض الحرب. ولم تعد اللغة تعبيراً عن الهدف، ولكنها هى التى تشكل الهدف.

والحقيقة أن الولايات المتحدة فى أزمة لغة. وهذا ما يعنيه أن يكون لنا رئيس، يفخر بأنه عاجز عن الإفصاح، ولا يفهم حقًا العلاقة بين الكلمات والأفعال، بين البلاغة والقصد. تأمل تباهيه الحار بصبره. لقد رأيت إعلانه فى أخبار المساء، وكان واضحًا أنه عندما بدأ فى نطق الجملة الثانية، كان يسعى إلى التأكيد على الجملة الأولى، فقد كان يعنى أن يجد طريقة أخرى لإظهار عزمه وتصميمه. ولكنه كان، كالعادة، يعانى من خسارة حرفية لمعانى الكلمات. ولذلك عاد إلى التكرار الأجوف «عندما أقول إننى رجل صبور، فإننى أعنى أننى رجل صبور».

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

إن چورج دبليو بوش يخطيء فى الشرح بالتكرار والحشو، وهى عادة عقلية تتسم بها إدارته كلها. إن بوش يحكم بالتأكيد بدلاً من الإقناع. وسواء كانت الولايات المتحدة تسعى لممارسة القوة على طالبان، أو على آريل شارون وياسر عرفات، أو على روسيا، أو على حلفائها الأوروبيين، أو حتى على مواطنيها، فإن المنهج هو نفسه. وواشنطن لا تضيع لحظة فى محاولة إقناع طالبان بالوقوف معنا ضد أسامة بن لادن. وترفض واشنطن عرفات شريكا فى الحوار ولا تبذل أى جهد للتأثير على شارون. وواشنطن تقدم موسكو مع إنذارات على معاهدات الحد من التسليح. وترفض واشنطن المحكمة الجنائية الدولية، بدلاً من المساعدة على تشكيل تطورها. وعلى الجبهة الداخلية تزعم واشنطن لنفسها حق الإعفاء الذى يمنحه قانون الطوارئ لها من إجراءات القضاء التقليدية. وفى كل حالة، تتجنب واشنطن الحاجة إلى تفسير موقفها بالوضوح والمنطق الضرورى لتغيير العقول وكسب التأييد. وبدلاً من الإقناع، تمارس واشنطن الإجبار. ولماذا؟ من الواضح أن السبب هو أن واشنطن تقلد طراز الرئيس الذى يفتقر إلى القدرة على استخدام اللغة بوصفها شكلاً أو أسلوبًا للقيادة.

وتبرز المشكلة عندما يحدث، السعى إلى القيادة من خلال الصوت الآمر بدلاً من الشرح والتفسير، ألا يتغير شيء. إن العالم آخذ فى التصرف مثل مراهق أمريكا المتجهم، الذى يرفض إطاعة الأوامر. إن أسامة بن لادن مطلق السراح. والشرق الأوسط في حالة تصعيد. وثمة سباق فى التسلح النووى على وشك أن يُستأنف. وقمة عالمية فى چوهانسبرج أغضبتها غطرسة الولايات المتحدة. حتى أوروبا تعبر عن ازدرائها صراحة. وفى الداخل، لم يتم التعرف على قاتل الأنثراكس. والمواطنون عرضة للخطر. والاقتصاد قد اهتز. وفى مواجهة مثل هذا الإخفاق، ليس أمام الصوت الآمر سوى أن يعلو. وقد لاحظ أحد موظفى هيومان رايتس ووتش أن «مستوى التهديدات قد تزايد بشكل درامى. وتصاعد التهديدات علامة على سياسة أصبحت مسعورة» فيما يخص هجمات الولايات المتحدة الحالى على ICC.

صيحة ما بعد ١١ ـ ٩ «نحن نقف متحدين». ولكن الأمر ليس كذلك. إذ إن الولايات المتحدة بلاد متشرذمة ضائعة حيث صارت الكلمات بلا معنى. وهذا من أعراض الضغط الذى يتولد فيما بعد الجروح، وهو مرضنا القومى. فنحن غير قادرين

على التعبير عن تجارب رهيبة. وتبقى أسوأ مخاوفنا فى اللاوعى، ولكننا نتعرف عليها فى عيون جميع الآخرين. وفى انعكاس هذا اليأس الذى لم يفصح عنه، كان رئيسنا الذى يكرر الكلام دوئما فائدة هو الرمز الكامل للحالة الأمريكية. إنه هو المايسترو الذى يفصل ما بين الكلمات والتجربة. وإذ أفرغ كلمة «الشر» من معناها (فإيران شريرة لكنها أيضا حليفتنا)، إن بوش الآن ـ وبشكل لا يصدق ـ يفرغ كلمة «الحرب» من معناها.

هذا الانعكاس الفارغ لكربنا الصامت يمكن أن يكون عزاء لأنه مألوف ولكنه أبعد ما يكون عما تحتاج إليه البلاد. إن الصخب الصبيانى الذى يرتدى ملابس الكاوبوى لا يفعل شيئًا لرعاية جماعة لها هدف. إنه يؤدى إلى العكس.

وكمرشح أظهر چورچ دبليو بوش بوضوح أميته الإرادية. إنه عاجز عن التعبير بالكلمات وهو فخور بذلك. وقد خلب ألباب كثير من الناخبين. وآخرون روعهم الأمر. وعلى أى حال، فإن قلة فهموا أن هذا التنازل عن الزعامة بالاستخدام الذكى للغة سيكون خطرًا على الديمقراطية فى الوطن، كما أنه تهديد خطير للسلام فى الخارج.

* * *

الذكرى السنوية للحرب

١٠ سبتمبر ٢٠٠٢م

١١ سبتبمر. إن الذكرى السنوية الموجعة للقلب تستحق، وسط هذه الكثرة من الأمور الأخرى، تأملاً ملحّافى موضوع الحرب. أمة تخوض حربًا، وعلى حافة حرب أوسع، نحن معرضون لخطر تعريف أنفسنا بالحرب على نحو شامل ـ وداخل الهالة الغامضة لهذا التاريخ المحطّم. هل سنكون صادقين غدًا بشأن ما حدث منذ سنة؟ هل نخلد بجدارة ذكرى أولئك الذين ماتوا بهذا القدر من العنف بأن نجعل منهم رعاة لعنف بلا نهاية؟

إن الحرب ليست ماكينات. والحرب ليست تهديدات. والحرب ليست استراتيجية أو تكتيكات أو موسيقى عسكرية، وليست هى المصدر الصحيح للامتياز الذى يحصل

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

عليه أحد الأحزاب السياسية. والحرب ليست طريقة لإثبات الرجولة. والقول بأن الحرب هى الجحيم، بما يعنى أنها عالم منفصل، خطأ أيضا. ولم تعد الحروب تُشن فى الجحيم أكثر منها فى السماء. ويا حسرتاه يتم خوض الحروب على الأرض نفسها. وأولئك الذين يحملون أوزارها هم آخر من يعلم معانى الحرب المتجاوزة. إنهم صُمٌّ لا يسمعون موسيقاها. الحرب العادلة، والحرب الظالمة - هى نفسها بالنسبة لهم لأنهم موتى.

كتب هنرى ل. ستيمسون بعد الحرب العالمية الثانية: «عندما أنظر ورائى على السنوات الخمس التى قضيتها فى منصب وزير الحرب [١٩٤٠ - ١٩٤٥م]، أرى كثيراً جدًا من القرارات الصارمة والصادمة بحيث لا يمكن أن أكون مستعدًا للتظاهر بأن الحرب شىء آخر عما هى عليه فى الحقيقة. إن وجه الحرب هو وجه الموت؛ فالموت جزء حتمى من كل أمر يصدره قائد فى زمن الحرب». فهل زعماؤنا فى زمن الحرب يعرفون هذا اليوم؟ إن النزعة الحربية ذات الفروسية التى يتحدث بها الرئيس بوش وتشينى ورامسفيلد ورايس عن شن أمريكا الحرب ضد العراق تثير السؤال المهم والجوهرى: فهل يعرفون أن الموت على وشك تحديد هدف أمتنا؟ موت الجنود. موت الرجال المسنين، والنساء والأطفال. موت العرب والأمريكيين، وربما الإسرائيليين. موت الكثيرين الذين سيموتون فى العنف القادم الذى سيحدث فى «الحرب الوقائية» التى تم إسباغ الشرعية عليها.

غدًا سوف يتم إعادة تكريس مبنى البنتاجون الذى أعيد بناؤه. ومعجزة إعادة بنائه فى سنة واحدة تستدعى إلى الذاكرة المعجزة الأكبر لبنائه الأصلى فى ستة عشر شهراً، وهو عمل تم إنجازه تحت إشراف هنرى ستيمسون. ولكن المبنى كان أقل إنجازاته، والتى نزلت جميعًا فى النهاية إلى إحساس حى بحقيقة الحرب. لقد أشرف على حملة الولايات المتحدة كلها بعزم لا يلين - حتى إلى الأمر بنهايتها النووية. إلا أن الحرب حفظت نفسها داخله. وكتب يقول إن القنبلة الذرية «أوضحت تمامًا أننا لا يجب أبدًا أن نخوض حربًا أخرى. هذا هو الدرس الذى ينبغى على الناس والقادة فى كل مكان أن يتعلموه».

غداً تمر سنة كاملة، عندما حدق وجه الموت فى أمريكا. وعلى مدى لحظات قليلة، تمت إعادة عرضها بلا نهاية، كان رعب الحرب مجسداً. وعلى مدى شهور بعد ذلك، كانت الوجوه الفردية للرجال والنساء الذين راحوا فى سبتمبر تحدق مطلة من صفحات الجرائد والصحف التى أخبرتنا بأسمائهم وحكت لنا قصصهم. وقد شعرنا بغضب شديد موجه ضد قاتليهم، ولكننا عرفنا أيضا أن مثل هذا الغضب الشديد يمكن أن يخزى الموتى بأن نجعلهم ضحايا مجهولين مرة أخرى. لقد كان موتى سبتمبر، الذين عرفنا أسماءهم ونعيناهم، بمثابة عيد الظهور الذى تجلت فيه حقيقة الحرب. إن قوة مثل هذا الموت، الموت الحقيقى، يجب أن تؤدى إلى معارضة ما يسببها ـ وهو الدرس الذى تعلمه ستيمسون.

هل تغير العالم منذ سنة مضت؟ وإذ يدعى بوش أنه تغير، فإنه يتابع طريق الحرب بقدر من الطاقة أكبر من ذى قبل. ومع ذلك، فهل هذه هى علامة التغير الحقيقى؟ لقد كان ستيمسون متأكداً من أن العالم قد تغير فى أغسطس سنة ١٩٤٥م. ومن المؤكد أنه كان قد تغير. وفى آخر عمل له بوصفه وزير الحرب، قدم اقتراحًا صادمًا إلى الرئيس ترومان. وإذ فكر ستيمسون فى القنبلة التى كان قد بناها بنفسه واستعملها، فإنه حثّ الرئيس ترومان بأن يقوم بتقارب سريع مع الاتحاد السوفييتى، لكى يتجنب «سباق تسلح سرى ذى طبيعة أشد يأسًا». لقد كان الوزير يريد معاهدة بين الولايات المتحدة والسوفييت يمكن أن توقف العمل لإنتاج سلاح ذرى فى الحال، وتقييد القنابل الموجودة، وتدين الاستخدام المستقبلى، وتشارك صراحة فى البحوث الذرية من أجل الأغراض السلمية. كل هذا مع ستالين الذى لا يمكن الوثوق به؟ وتوقع ستيمسون الاعتراض. وقبل خدمته فى الحرب العالمية الثانية، كان وزيراً للحرب (١٩١١ ـ ١٩١٣م) عندما أطلقت نيران مدافع الحرب العالمية الأولى، كما كان وزير الخارجية (١٩٢٩ ـ ١٩٣٣م) عندما وصل هتلر إلى السلطة. وقال لترومان «إن الدرس الرئيسى الذى تعلمته فى حياتى الطويلة هو أن الطريق الوحيد لجعل رجل جديراً بالثقة هو أن تثق به».

وتم رفض اقتراح ستيمسون الراديكالى، وتقاعد بعدها بأسبوع، وانطلق سباق التسلح اليائس. ولكن اقتراح ستيمسون يبقى علامة على كل من الطريق الذى لم

http://www.al-maktabeh.com

يسلك في تلك اللحظة الحاسمة والطريق الذى ما يزال مفتوحًا أمام الإنسانية. فالحرب موت لا ضرورة له، وإذا ما رأى أحد القادة وجهه الحقيقي مرة، فإن حل الصراع بوسائل أخرى سيكون هو هدف ذلك القائد الذى لا يموت. إن هنرى ل. ستيمسون يطارد خياراتنا. فقد طرح اقتراحه في الحادى عشر من سبتمبر ١٩٤٥م.

http://www.ibtesamaktabeh.com

* * *

شك طيب، وإيمان سيئ

١٧ سبتمبر ٢٠٠٢م

ثمة صلاة شهيرة تتضمن السطر القائل «عندما يكون هناك شك، دعني أبذر الإيمان» عادة ما يعتبر الشك شيئا يجب التكفير عنه. فلا شيء يميت الروح البشرية مثل الشك. إذ إن الشك يمكن أن يقوض العزم، ويجعل العمل البطولى أمراً مستحيلاً. بل والأسوأ من ذلك، أن الشك يمكن أن يُسمم النفس، بحيث يجعل المرء مرتابًا في دوافعه الخاصة. وفي هذه الظروف يمكن للشك أن يؤدى إلى الشلل. ولكن حتى ذلك ليس هو أسوأ ما في الأمر. عندما تقع الجماعة الأوسع فريسة يقين طنان، فإن الشك يمكن أن يؤخذ بوصفه علامة على الإيمان السيئ، مما يجعل المرتاب منبوذاً ووحيداً.

وفي مسألة الحرب التي يلوح التهديد بها مع العراق، فإن مدّ اليقين يتفاقم في أمريكا وربما حول العالم. ويبدأ الشك في الظهور وكأنه عدم ولاء في الوطن، وحماقة في الخارج. ذلك هو السبب في أنه، منذ خطاب الرئيس بوش في الأمم المتحدة الأسبوع الماضي، تساقطت التعبيرات الصريحة عن الشكوك بشأن تعريف أمريكا الجديد لنفسها بأنها أمة محاربة توجه الضربة الأولى. وقبل ذلك كان العكس عندما يعبر قادة العالم عن تأييدهم لوصف صدام حسين بأنه تهديد عالمي حال يتطلب القيام بعمل مُلحّ. وفجأة يأخذ كتاب الأعمدة والمحررون الشكاكون مرة واحدة ضرورة العدوانية العسكرية الأمريكية المكشوفة على أنها أمر مسلم به. فالديمقراطيون في الكونجرس يقايضون النقد بالموافقة. وثمة اتفاق سياسى لصالح الحرب ضد العراق يبدو أنه يتبلور على الرغم من حقيقة أن إدارة بوش لم يكن لها قضية. كان خطاب بدائي يحمل بلاغة التأكيد المطلق، كافيًا.

وقال الرئيس بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى الأسبوع الماضى إن صدام حسين يمثل خطرًا عالميًا مميتًا، لا يمكن التعامل معه إلا بالقوة العسكرية. وفى الحقيقة، أنه لم تتم مناقشة أى من القضيتين، بل لم تتم البرهنة على أى منهما. وربما يكون صدام حسين، أو لا يكون، يمتلك أسلحة دمار شامل يمكن استخدامها؛ ومهما كانت ضآلة الدليل الذى تم تقديمه فهو محل خلاف. وإذا كان صدام حسين يمتلك بالفعل مثل هذه الأسلحة، فربما يكون قصده أن يستخدمها، وربما لا يكون قصده أن يستخدمها؛ لقد تم ردعه بشكل ناجح عن استخدام هذه الأسلحة فى الماضى. ومن الواضح، أن الأسئلة من هذا النوع لا تهم.

وثمة سؤال أكثر عمومية يتعلق بكيفية التأثير على صدام حسين. وربما يكون سلوكه، أو لا يكون، قابلاً للتحسن بالديبلوماسية أو غيرها من الضغوط غير العنيفة، ولكن الحرب، أو حتى التهديد بالحرب الوشيكة، سوف يبدو ضمانًا لسلوك نحو الأسوإ. وهذا يعد بكارثة، لاسيما بالنسبة لإسرائيل، إذا ما كانت أقوى اتهامات بوش بشأن ترسانة صدام حسين واستعداده لاستخدامها اتهامات حقيقية. ولكن من الواضح أن هذا أيضا لا يهم. وما يزال على بوش أن يفسر كيف يمكن خدمة العالم بأن نجعل الدكتاتور يرى أنه لن يخسر شيئًا. لماذا حل تغيير النظام محل تغيير السلوك؟ لقد بقيت هذه الأسئلة دونما أجوبة فى أثناء الحديث الحالى، ولكن المدهش الآن هو تناقص عدد الأصوات التى تطرح هذه الأسئلة.

كان الموضوع الحقيقى لخطاب الرئيس بوش فى الأمم المتحدة عن إرادة أمريكا التى لا تقهر وليس عن سلوك العراق المحظور. ما السبب فى أن العراق يمثل خطرًا مميتًا يستوجب الإطاحة العنيفة بحاكمه؟ لأن هذا ما تقوله أمريكا. ولماذا تخفى الدول شكوكها لتنضم إلى هذه الحملة؟ لأن أمريكا طلبت منهم ذلك. فالدول ـ سواء كانت فرنسا أو السعودية ـ لا يمكن أن تتحمل الوقوف على الجانب الخاسر فى حرب تشنها أمريكا. لقد غير بوش الموضوع فى الأمم المتحدة من تبرير الحرب إلى حتميتها، ولم يعد تبريرها مهمًا. وكان الرد الإيجابى على خطاب بوش عبارة عن مقياس لا لعزيمته الشخصية، ولا لزعامته وإنما لمعنى الهيمنة الأمريكية الجديدة. وهذا هو ما تبدو عليه القوة الغاشمة للقوة العظمى الوحيدة فى العالم.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

كذلك كان الأمر أشبه بهذا داخل الولايات المتحدة. إذ تشتتت القوة السياسية ولم تركز على شيء سوى الحرب. وما أن تحدد الحرب هدف الأمة، فإن الحرب نفسها لا تكون موضوعًا مناسبًا للجدل ـ لا فى وسائل الإعلام، ولا فى الكونجرس. لقد أوضح بوش ـ عندما ظهر أمام الأمم المتحدة الأسبوع الماضى، وعندما ألمح إلى التعددية ـ بشكل مثير نقطة النقد الوحيدة التى كان معارضو الحرب فى الداخل مستعدين لإثارتها. إذا لم تقم فرنسا بمعارضة صريحة لحرب غير مبررة للإطاحة بصدام حسين، فكيف يتأتى للديمقراطيين أن يفعلوا هذا؟ فالحرب غير الضرورية التى تشنها عدة دول ما تزال غير ضرورية، ولكن بوش استطاع مرة أخرى أن يكبت معارضة الحرب بحتمية الحرب. يجب أن تركب القطار مع الباقين.

ترى مـا الذى يجب على المتشككين أن يفعلوه إذن؟ أولا، أن يكونوا على بينة وواضحين حول الذى جرى. ولم تتم مناقشة الاعتراضات على الحرب وإنما طرحت أرضا بسيل من التأكيدات البلاغية. لقد كان التأكيد فارغًا، ولكن الغريب أن ذلك ما جعله قويًا. كيف تتأمل بشكل عقلانى فوائد وأضرار عمل ما مع من يرى أنه ليس هناك أضرار على الإطلاق؟ إن مسئولية المتشككين واضحة: أن يظلوا منشغلين بالحوار والجدل، حتى ولو بالإصرار على أن الجدل لم ينته بعد. يجب معارضة الحرب الأمريكية على العراق. يجب وقفها. وحيثما يكون هناك إيمان فى عدالتها أو فى حتميتها، ازرع الشك.

***

تهديد الرئيس النووى

١ أكتوبر ٢٠٠٢م

تشرح «إستراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة»، وهى الوثيقة التى نشرتها إدارة بوش الأسبوع الماضى وتفسر الاندفاع إلى الحرب، وتكشف بوضوح عن مدى زيادة خطورة العالم تحت حكم بوش، وتوضح أنه لا هو ولا مستشاروه يفهمون التاريخ الذى يعيشون فى رحابه. ففى تصريح حافل بالتأكيدات المزعجة، وربما تكون أكثر الجوانب إزعاجًا، هو استبعاد معاهدات الحد من الأسلحة النووية بين الأمم لصالح «الجهود النشطة لمنع زيادة الأسلحة النووية» التى ستنشأ الآن فى واشنطن.

وثمة تأكيد قصير النظر على مخاوف ـ لم تتأكد ـ حول قدرات العراق وإيران وكوريا الشمالية ونواياها، قد أعمى إدارة بوش عن أحد الانتصارات العظمى المعاصرة للدبلوماسية التي قادتها أمريكا. ذلك أن نظام منع انتشار الأسلحة النووية، الذي كان أبعد ما يكون عن الفشل، والذي كان أصله معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية سنة ١٩٧٠م، كان نجاحًا، وجزئيته تبرهن على أهميته. وكما عرفت أول مرة من محادثة مع خبير منع انتشار الأسلحة النووية چيمس وولش من كلية كنيدي في جامعة هارڤارد، أن العجب الحقيقي في مسألة الأسلجة النووية هو كيف تسنى لعدد قليل من الدول أن يمتلكوه، وكيف أن أممًا كثيرة رفضت الأسلحة التووية تمامًا.

ففي سنة ١٩٧٠م، كانت هناك خمس دول فقط تملك السلاح النووي، ولكن أممًا كثيرة أخرى كانت على أعتاب السلاح النووي. فمنذ ذلك الحين انضمت إسرائيل والهند وپاكستان إلى النادي النووي، ولكن تأمل ما حدث غير ذلك. فالأرچنتين والبرازيل اللتان تتبادلان الشكوك، انطلقت كلتاهما نحو تطوير أسلحة نووية، ثم تخلت كلتاهما عنه. وكذلك فعلت جنوب إفريقيا وتايوان. وبعد الانفصال عن الاتحاد السوڤييتي، كان يمكن لأوكرانيا وقازاخستان وروسيا البيضاء أن تتمسك ببقايا القدرة النووية وتتوسع فيها، ولكن الدول الثلاث جميعًا فعلت العكس. وفي سنة ١٩٩٤م، حتى كوريا الشمالية الموصومة بأنها شيطانية، استجابت للضغوط الدبلوماسية من الأمم المتحدة، وأوقفت إنتاج البلوتونيوم وبقيت كوريا الجنوبية على الجانب النووي. وعندما فجرت الهند ثلاث قنابل نووية في مايو سنة ١٩٩٨م، كانت مؤسسة المخابرات الأمريكية، كالعادة، تحت وطأة مفاجأة كاملة، ولكن المفاجأة الحقيقية كانت ينبغي أن تكون هي أن الهند التي اختبرت أولى قنابلها النووية سنة ١٩٧٤م، قد انتظرت كل هذه الفترة.

إن منع انتشار الأسلحة النووية هو الذي حدد النظام العالمي. والاستثناء يؤكد هذه النقطة، إذ كان يمكن بسهولة شديدة أن تكون حياتنا في عالم تنتشر فيه الأسلحة النووية مثلما تنتشر الطائرات المقاتلة ذات التكنولوچيا العالية ـ مع بلاد مثل مصر وإندونيسيا، وأستراليا، وغيرها كثير، وقدرة پاكستان النووية على الرغم من الفقر الشديد، إشارة على ما يمكن أن يكون عليه انتشار الأسلحة النووية من اتساع. إن الأمم

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

التى تخلت عن الطموح النووى، والدول الـ ١٦٧ التى جددت معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية سنة ١٩٩٥م إنما فعلت هذا ليس تفضيلا لانعدام القوة، وإنما انطلاقًا من الالتزام بمبدأين أساسيين: الأول نموذج نزع السلاح النووى نهائيًا. وحجر الزاوية فى معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية هو المادة السادسة، التى توافق فيها الدول الخمس المالكة للأسلحة النووية (الولايات المتحدة وروسيا والصين وفرنسا وبريطانيا) على «مواصلة المفاوضات بنية طيبة حول الإجراءات الفعالة المتعلقة بوقف سباق الأسلحة النووية فى تاريخ مبكر، ونزع السلاح النووى».

هذه العملية تعرضت للتراجع والتقدم، ولكن حتى الآن بقيت فى مركز الأمل العالمى. وفى تصريح الأسبوع الماضى، رفض بوش مثال النزع النهائى للسلاح النووى، برفض «أى قصد بالسماح لأى قوة أجنبية بأن تلحق بالسبق الكبير الذى حققته الولايات المتحدة منذ سقوط الاتحاد السوفييتى منذ أكثر من عشر سنوات مضت». إن التفوق العسكرى الأمريكى المرتكز على أساس القوة النووية سيكون أبديا. وهكذا، توجد بالتالى، تلك الفجوة من عدم الاستقرار بين الذين يملكون السلاح النووى والذين لا يملكونه.

والمبدأ الثانى الذى أتاح لمنع انتشار الأسلحة النووية أن يمسك الزمام يتمثل فى فكرة الديمقراطية. تزعم استراتيجية بوش أنها فى خدمة الديمقراطية، ولكن ما فشل بوش فى إدراكه هو أنك لا يمكن أن تكون هناك ديمقراطية داخل الدول، بينما تنتهك القيم الديمقراطية فيما بين الدول. لقد نجحت معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية؛ لأنها جسدت فكرة أن الدول، حتى ولو لم تكن متساوية فى القوة والثروة، تحسب حساب بعضها البعض، وأنها مخلصة لمعايير مشتركة، ومرتبطة بالتزامات مشتركة. إن البناء الأساسى للديمقراطية فيما بين الدول يتكون من شبكة من المعاهدات أساسًا، وهو ما أزاحه بوش بفكرته عن «العالمية الأمريكية الاستثنائية».

إن بوش يعلن: «لن نتردد فى العمل وحدنا» وهو يعد بأن يتوسع فى مد السيطرة الأمريكية عن طريق «إقناع الدول أو إرغامها على قبول مسئولياتها السيادية». لقد صارت الولايات المتحدة تناقضًا يفضح ذاته: ديكتاتورا فى شكل دولة تُملى الديمقراطية وتفرضها. وكيف يتصور بوش ما ستكون عليه استجابة الدول الأخرى؟

من المؤكد أن الحقيقة هي أنه لن تكون هناك قوة تنافسنا في السيطرة على العالم، ولكن في العصر النووي ليس هناك ثقل مطلق. إن الأمم الأخرى سترد حتمًا على هذه المباهاة الأمريكية غير المسبوقة باتباع طريق تحقيق القدرة النووية - حتى ولو كان ذلك فقط لإجبار واشنطن على التعامل معها باحترام. ومع انتشار المعرفة النووية، ولا سيما مع المواد النووية الروسية والقدرات النووية الروسية الموجهة نحو السوق، تكون الحماية الممكنة الوحيدة من كارثة نووية نهائية هي بالضبط المعاهدة الدولية التي سحقتها الولايات المتحدة لتوها وألقت بها في سلة المهملات، كما لو كانت قطعة من أوراق الكلينيكس المستعملة.

* * *

ضد الحرب آنذاك، وضد الحرب الآن

٨ أكتوبر ٢٠٠٢م

في سنة ١٩٧١م صُدمت واشنطن عندما ظهر حشد من جرحى الحرب من الجنود لكي يحتجوا على الحرب في ڤيتنام. وعسكروا في المول وبسرعة حصلت إدارة نيكسون من وارين برجر رئيس القضاء على أمر للجنود القدامى بإخلاء المكان. ورفضوا. فهل كان يمكن القبض عليهم؟ لقد حدث آنذاك أن السيناتور إدوارد كنيدى ذهب بجسارة إلى المول حيث كان المحاربون القدامى المعارضون للحرب قد أقاموا خيامهم وفرشوا أكياس النوم، وقال لهم: «لقد خدمتم بلادكم جيداً في الخارج، وسوف تخدمونها على نحو أفضل هنا في واشنطن». كان التأييد العلنى من جانب كنيدى لمظاهرة غير قانونية مفتاحًا لتحويل مد الرأى العام - ثم القانون - لصالح المحاربين القدامى وضربة حاسمة ضد الحرب.

وتيد كنيدى يفعل نفس الأمر ثانية. فقد قال لى عندما كنا نجلس سويًا يوم السبت الماضى: «لقد بدأت حياتى المهنية في زمن كانت تدور فيه حرب من المهم أن تنتهى، والآن - ليس لأننى أنهى حياتى المهنية - هناك حرب تتطلب منا أن نعيد تعلم تلك الدروس التى يعلمنا التاريخ إياها». وبعد ذلك بدقائق قليلة وفى مسرح ساندرز بهارڤارد، ألقى كنيدى خطابًا مؤثرًا في احتفال التنصيب الذى أقامته الأكاديمية الأمريكية للآداب والعلوم، ربما كان أقوى نقد للحركة صوب الحرب في العراق حتى

http://www.al-maktabeh.com

الآن قام به سياسى بارز، على الرغم من أنك لن تعرف مضمونه بسبب الطريقة التى تم بها تجاهل الخطاب فى وسائل الإعلام التى تدق طبول الحرب.

http://www.alamaktabeh.com

وبدلاً من التركيز على تفاصيل الحل المحبذ للحرب الذى يحتمل أن يوافق عليه الكونجرس هذا الأسبوع، ركز كنيدى على «جدل أكثر اهتمامًا بالأسس، ما يزال فى بدايته ـ جدل ومناقشة مهمة تماما عن كيف ومتى وأين سوف تستخدم بلادنا فى السنوات القادمة قوتها العسكرية التى لا تبارى». إن العراق ببساطة هو الحالة الأولى فى الموضوع.

وفى استجابة على استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة الذى نشرته إدارة بوش حديثًا، حلل كنيدى بدقة الافتراضات الراديكالية التى تسوق الأمة باتجاه الحرب. أولاً أظهر أنه بالمساواة بين الهدفين المختلفين تمامًا لـ «المنع» و«الاحتلال»، فإن بوش يقود أمريكا نحو تبنى مسار من الفعل طالما أدانت الآخرين بسببه. قال كنيدى «تقليديا يشير العمل إلى الأوقات التى كانت الدول تتصرف فيها برد الفعل تجاه خطر وشيك بالهجوم». وقدم استجابة إسرائيل على تحركات الحدود من جانب مصر وسوريا فى سنة ١٩٦٧م، بوصفه مثالاً على العمل الاستباقى المبرر[1]. وعلى النقيض من ذلك، كان الهجوم اليابانى على بيرل هاربور يهدف إلى تقويض قدرة كامنة يمكن أن تكون مصدر تهديد فى يوم ما»، عملاً من أعمال الحرب الوقائية. «إن الطبيعة الباردة للعزم المسبق على شن الهجمات الوقائية والحروب الوقائية تجعل منها انتهاكًا للمبادئ الراسخة ضد العدوان».

وبالنسبة لكنيدى ما تزال الحرب الوقائية لعنة، كما أن إدانته تبنى بوش الحرب الوقائية ضد العراق تستند إلى حقيقة أن الرئيس چون كنيدى سنة ١٩٦١ و١٩٦٢م، قد رفض حجج الحرب الوقائية ضد الاتحاد السوڤيتى، بحيث يحمى الحدود الأخلاقية.

---

(١) مع احترامنا الشديد لرأى السناتور البارز إدوارد كنيدى الذى استشهد به المؤلف ـ الجدير بالتحية والاحترام ـ فلا نرى أن العدوان الإسرائيلى عام ١٩٦٧م له ما يبرره، فأولاً لم يكن لإسرائيل أى منفذ على خليج العقبة حين قامت بقرار من الأمم المتحدة.
وثانيًا: حجة إسرائيل بأنها كانت ستختنق بغلق خليج العقبة هي مردودة؛ لأن لها ساحلاً طويلاً على البحر المتوسط، فمثلها مثل سوريا ولبنان، يمكن أن تعيش بدون البحر الأحمر.
وثالثًا: كانت هناك مفاوضات بين مصر والولايات المتحدة بخصوص تلك المشكلة، ولكنها تعجلت الحرب التى كانت تخطط لها ـ المترجم.

ويقتبس إدوارد كنيدى كلام روبرت كنيدى وهو يقول: «على مدى ١٧٥ عامًا لم نكن ذلك النوع من البلاد».

فهل نحن كذلك الآن؟ إن مذهب إدارة بوش الجديد، حسبما قال كنيدى «يؤكد أن الحقائق العالمية الآن تضفى الشرعية على الحرب الوقائية وتجعل منها ضرورة إستراتيجية وتفكر الوثيقة صراحة فى الهجمات الوقائية ضد الجماعات أو الدول، حتى مع غياب التهديد الوشيك بالهجوم.. إننى أعارض بقوة أى مذهب بمثل هذا التطرف».

والسمة الثانية لتناول بوش الراديكالى الجديد الذى لامه كنيدى كان افتراضه أن الولايات المتحدة معفاة على نحو ما من قاعدة «توقع من الآخرين أن يطيعوا». لقد أعاد كنيدى طرح كليشيه عن الأخلاق العامة ـ «القوة لا تصنع الحق» ـ ولكن فى السياق الحالى فإن إشارته ترقى إلى مستوى النبوءة الموحى بها. إن غرور القوة المهيمنة يفسد الأمة. «إن أمريكا لا يمكنها أن تكتب قواعدها الخاصة لحكم العالم الحديث. ومحاولة القيام بهذا سوف تكون أحادية تتحول إلى سعار». إن بوش يقوض الحرب على الإرهاب، ويدمر التحالفات، ويضع سوابق خطيرة، كما أنه يسلب من الشرعية الأخلاقية لأمريكا قوتها.

ومرة أخرى غامر كنيدى بما لا يستطيع فعله سوى عدد قليل من زملائه، عندما عرف هذا كله باسمه الصحيح: «إن مذهب الإدارة إنما هو دعوة إلى الإمبريالية الأمريكية فى القرن الحادى والعشرين، وهى دعوة يمكن لأى أمة أخرى أن تقبلها، ويجب أن لا تقبلها». والجدل فى الكونجرس هذا الأسبوع قد تركز على صدام حسين والعراق، ولكن ما على المحك حقيقة هو البنى الأساسية للفكرة الأمريكية. ويرتبط اسم كنيدى بشكل سليم إلى أنبل نبضات هذه الأمة، ومن المناسب أن آخر الأخوة يرفع صوته دفاعًا عنها.

وبعد الظهر عقب خطبته، كان السناتور وأنا معه جالسين فى مقهى سومرفيل. واقتربت إحدى الزبائن من طاولتنا فى الركن الخلفى كى تقول: «سيناتور، أود أن أشكرك لكل ما فعلته للوقوف من أجلنا ضد هذا الاستعجال للحرب».

وسألتها عن اسمها، وإذا ما كان يمكن أن أنقل عنها، فقالت بثبات: «لوسى بورودكين، ويمكنك أن تنقل عنى بالتأكيد».

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(٨)

الرهينة

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فى خريف سنة ٢٠٠٢م، صار الإرهابيون خاطفى رهائن. وثمة قناص مجهول أخذ كل منطقة العاصمة واشنطن رهينة، ثم أخذ فدائيو الشيشان موسكو رهينة عندما استولوا على مسرح يعج بالناس.

ولكن چورچ دبليو بوش، وهو يقوض دعائم النظام العالمى الذى تم إرساؤه منذ أكثر من خمسين سنة، برهن على أنه خاطف رهائن أيضًا.

وفى أثناء ذلك الخريف، أعد الرئيس بوش للحظة ظن الكثيرون أنها لن تأتى أبدًا، ثم فى ١٧ ديسمبر، فعلها. فقد أمر بأول نشر فعلى لنظام مضاد للصواريخ - وهو حلم ريجان الذى احتجب طويلاً عن حرب النجوم. ففى ألاسكا، وكاليفورنيا ومدمرات آيجيس فى المحيط سيتم وضع الجيل الأول من الصواريخ الاعتراضية ضد الصواريخ الباليستية، بتكلفة قدرها ثمانية عشر بليونا من الدولارات على مدى عامين - وتمهد الطريق للمزيد. وقبل ستة أيام من إعلان بوش، كانت الصواريخ الاعتراضية قد تم اختبارها، وفشلت للمرة الثالثة. وحقيقة أن العلماء كانوا تقريبا مجمعين على القول بأن مثل هذا النظام لا يمكن صنعه أبدًا بالشكل الذى يمكن الاعتماد عليه، لم تؤد إلى ردع بوش. فقد برر فعلته، كما فعل بشكل أو بآخر فى كل فعل فى السنة السابقة، بالإشارة إلى الحادى عشر من سبتمبر.

هذا النشر للأنظمة المضادة للصواريخ كان علامة على عبور عتبة أخرى. لقد كان يتخلى رسميًا عن الاعتراف الذى خلفته الحرب الباردة: ففى العصر النووى تؤدى الإجراءات «الدفاعية» مثل درع الصواريخ بالحتم إلى إثارة الإجراءات الهجومية، مما يقوض الأمن القومى بدلاً من تعزيزه. وربما تبدو هذه الفكرة على النقيض من البديهة، ولاشك فى أنها تفتح السبيل أمام وجهة نظر عالمية تقوم على أساس التناقض بدلاً من الصراع. إن إنكار الدفاع، والذى تأسس فى معاهدة منع الصواريخ الباليستية التى

رفضها بوش الآن، هو فقط الذى أدى إلى الانفراج فى العلاقات الدولية، وخفض الأسلحة، ووقف انتشار الأسلحة النووية، وأخيراً قطع شوطًا صوب حلم السلام بعد الحرب الباردة. أما الآن فإن هذه الرؤية الثاقبة، والإنجاز الدبلوماسى الذى أدت إليه، قد تم التخلى عنهما. ومن ثم فنحن على عتبة الطريق العكسى. ومع مبادرة بعد أخرى، جرّ الرئيس بوش الجنس البشرى مرة أخرى إلى حقل الألغام الذى بدا وكأنه هرب منه للتو، مع بداية الألفية الثالثة.

***

فترة العتبة

١٧ أكتوبر ٢٠٠٢م

كون أن موظفة فى جمهورية ألمانيا الاتحادية قد طُردت من الخدمة الشهر الماضى لأنها قارنت چورج دبليو بوش بأدولف هتلر كان أمراً صحيحًا، ولكن ليس بسبب الإهانة التى وجهت إلى بوش. ذلك أن تفرد شرور هتلر يجب أن نصرٍّ عليها دائمًا. وأيا كانت مشكلات المرء مع بوش، فإنه يكون عملاً شريراً أن نساويه بكاتب «الحل النهائى». ويجب على الألمان بشكل خاص أن يكونوا حريصين على ألا يفعلوا هذا.

وغالبًا ما يمكن للتشابهات التاريخية أن تؤدى إلى التضليل، حسبما تظهر نهايات الموتى كثيراً فيما وراء خط الأبدية. كم من الناس ماتوا بلا ضرورة باسم تجنب ميونيخ أخرى؟ بيد أن البشر مع هذا ملتزمون بفهم الحاضر فى ضوء الماضى، لاسيما حينما تكون الأحداث غير مسبوقة بشكل جذرى. ويبدو واضحًا أن البدء بالحرب فى العراق، مع قصد الرئيس الأمريكى تنفيذ برنامج جديد من الإمبريالية الأخلاقية، يجعلنا فى فترة يمكن أن نسميها فترة العتبة، التى تقودنا من مفهوم للمجتمع إلى مفهوم آخر لم يتم تحديده بعد. إن الموقف المشئوم يتطلب منا أن نسأل: متى وقفنا على مثل هذه العتبة من قبل؟

بالنسبة للأمريكيين من جيلى، تقفز السنوات ما بين ١٩٦٣م، وسنة ١٩٦٥م، إلى الذهن. حين كانت القرارات التى تؤخذ فى واشنطن قد أسست دافعًا إلى العنف ظل بلا ضبط على مدى عشر سنوات، وفى الوقت الذى أدرك فيه مواطنو الولايات المتحدة

http://www.al-maktabeh.com

ما الذى كان يتم عمله باسمهم، وكان الوقت قد فات لإيقاف القوة الدافعة حتى تباطأت حسب جدولها الخاص. فقد كانت أمريكا قبل حرب ڤييتنام مختلفة تمامًا عن أمريكا بعدها. إذا لم نقل شيئًا عن تحويل حرب ڤييتنام. لقد تم عبور عتبة تاريخية، ولكن ما رآه الجميع بحلول سنة ١٩٧٥م، كان القلائل قد رأوه فى فترة ١٩٦٣ - ١٩٦٥م الحاسمة.

ميز تلك العتبة أربعة أشياء:

* الذعر الاجتماعى من الدرجة المنخفضة. فقد كان المواطنون الأمريكيون قد عانوا لتوهم من خلال صدمتين: قرب نهاية العالم بحرب نووية حول كوبا ثم بعثرة الثقة القومية بالذات باغتيال الرئيس كنيدى.

* وضع الأفكار «المتطرفة» من قبل فى تيار رئيسى. فقد تم انتخاب ليندون چونسون سنة ١٩٦٤م باعتباره «مرشح السلام» ولكنه اعتنق فى الحال النزعة الحربية لبارى جولد ووتر منافسه الذى خسر. وتم تطوير العنف الوحشى بعقل مفرط فى البرودة باعتباره المسار «المعتدل».

* استسلام المشرعين وتسليم سلطتهم الدستورية. إذ إن الكونجرس منح سلطات الطوارئ للفرع التنفيذى مع أزمة خليج تونكين، وتم تهميش المعارضة السياسية للحرب - من يوچين مكارثى إلى چورج ماكجڤرن - بشكل دائم.

* إعادة تشكيل الوطنية بحيث تعنى الانصياع. فقد تم تعريف النقد الوطنى للذات على أنه عدم ولاء. أمريكا - عليك أن تحبها أو تتركها وترحل.

وإعداد قائمة بمثل هذه الملاحظات التى تحدد فترة عتبة فى الماضى يعنى الاعتراف بها فى الحاضر. وذعرنا القومى اليوم مربوط بالإرهاب. والأفكار التى كانت متطرفة من قبل (احتقار الأمم المتحدة، الأحادية، وعدم الاهتمام بالحريات المدنية) هى الآن محببة لدى واشنطن. لقد منح الكونجرس بوش لتوه رخصة مطلقة تقريبا لاستخدام القوة. فالمواطنون مستبعدون، والمعارضون مهمشون، وتم إطلاق الحركة صوب الحرب الدائمة.

http://www.al-maktabeh.com

ولكن تعداد هذه الخصائص التى تميز الوقت يعنى أن نتذكر فترة عتبة أخرى، وهى فترة يجب أن نرجع إليها مجدداً مرة بعد مرة - حتى على الرغم من أن فعل الذاكرة هذا يمكن أن يبدو عدوانيا لسبب لاحظناه بالفعل. وفيما بين سنة ١٩٣٣م وسنة ١٩٣٥م، تغير العالم على الرغم من أن الكيفية التى تغير بها لم تكن واضحة حتى انقضت السنوات العشر المرعبة التى أعقبت ذلك. وملاحظات عتبة تلك الفترة مألوفة. وكان الذعر الاجتماعى فى ألمانيا سنة ١٩٣٣م مرتبطًا بالكساد الاقتصادى والرعب النشط للإرهاب - الإرهاب الشيوعى. (تم انتخاب هتلر ٥ مارس ١٩٣٣م، وبعدها بيومين أحرق الرايخستاج، مما مثل رعبًا قوميًا وجه اللوم فيه إلى الشيوعيين). وأفكار النازى التى كانت مدانة على نطاق واسع ذات مرة، ولاسيما الاستغلال السياسى لمعاداة السامية، سرعان ما وجدت لنفسها مكانًا فى مواقف التيار الرئيسى، وقد تنازل المشرعون الألمان عن مسئوليتهم تمامًا لهتلر بتمرير «مرسوم المساعدة» فى أبريل. وآخر حزب معارضة - وهو حزب المركز - حل نفسه. وسرعان ما تبنى الجمهور العريض فى ألمانيا النزعة الوطنية الهيستيرية، على الرغم من أن قلة هم الذين كانوا يؤكدون عليها من قبل. لقد تم عبور العتبة.

إن القصد من هذه المشابهة ليس المقارنة بين هتلر وبوش، مثما أن التشابه بين ١٩٦٣ - ١٩٦٥م، لا يعقد مقارنة بين چونسون وبوش. إن السؤال ليس عن الزعامة وإنما يتعلق بالمجتمعات التى تسمح لنفسها بأن تتحول جذريا دونما جدل عميق. إن السؤال يتعلق بما ضاع عندما تم التخلى عن الضوابط التقليدية، كما يتعلق بما جاء عقب إطلاق حركة الدفع تجاه حرب بلا نهاية محددة. إن السؤال يتعلق بمدى تكلفة المباهاة بقيادة العالم، ومن ذلك الذى سيدفع هذه التكاليف. إن السؤال يتعلق بما حدث عندما تم اختطاف الاتفاق القومى لمصلحة السياسات الهامشية، وعندما لا يقول الشعب الذى يمتلك سلطة الاعتراض شيئًا. وبعبارة أخرى لا يتعلق السؤال بـ «بوش»، ولكنه يتعلق بنا.

***

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الرهينة المحتجزة

٢٩ أكتوبر ٢٠٠٢م

تظل تفكر فى الناس فى ذلك المسرح بموسكو كيف بدا الخطر المحيق بهم مألوفًا جدًا لك. فذات مرة كانت محنة من هذا النوع - خاطفون مقنعون، والقنابل، والساعة التى تدق - لا يمكن تخيلها خارج الروايات، ولا شىء غير ذلك. والواقع أنه بينما تشاهد عرض الدراما، تفكر فى المسارح ببلادك وتدرك أنها الآن أيضا ستقوم بتركيب بوابات تفتيش معدنية. متى سيتم احتجازك رهينة، ويتم إجبارك على الانتظار فى رعب، مشاركًا فى ذلك الجزء المخصص للأوركسترا فى مقدمة المسرح كمرحاض، محاولاً معرفة دوافع أعدائك الملثمين، مستخدمًا هاتفك المحمول سرًا، باكيًا فى قلق، هامسًا مع رفاقك المحتجزين، حتى تنهار بسبب الغاز، وربما يتم إنقاذك من الكابوس الذى نجوت منه؟

إن قسوة الأغراب، أيا كانت دوافعهم، تقطع أنفاسك - ولكن ذاك أيضا، يبدو أيضًا مثل شىء فى متناول اليد. فقبل لحظات فقط من قيام فدائيى الشيشان بالاستيلاء على مسرح موسكو، ألم تكن أنت تتصور نفسك فى واشنطن دى سى والقناصة مطلقو السراح؟ لقد كان المسرح الذى تم الاستيلاء عليه فى هذه الحالة هو المدينة نفسها. كم مضى عليك من الوقت منذ كنت تشعر بالأمان؟

ماذا كان عليه الحال فى موسكو؟ تأخذ قصة پيير بيزوخوف مثالاً، كيف أنه فقد الوعى ليجد نفسه أسيرًا لدى غزاة متعصبين. وعندما أعلنوا عن قصدهم بقتل رهائنهم، كان بيزوخوف فى الصف، رقم ستة. وشعر، «كما لو أن جزءًا من روحه قد تمزق وانتزع. وفقد القدرة على التفكير أو الفهم. كان يستطيع فقط أن يسمع ويرى. وكانت لديه رغبة واحدة فقط - هى أن الشىء المخيف الذى يجب أن يحدث ينبغى أن يحدث بسرعة». وتم إجبار بيزوخوف على مشاهدة رفاقه من الرهائن وهم يسقطون صرعى الرصاص، الواحد تلو الآخر، وهى حالة من الرعب تفوق أى شىء جربه من قبل. فلم يكن يتوقع أبدًا أن يكون من الناجين، ولكنه نجا - ثم جاءت المفاجأة الحقيقية. فبدلاً من الشعور بالارتياح الحلو لأنه نجا من القتل، كان مدمرًا أكثر من ذى قبل «كان الأمر كما لو أن منبع حياته، الذى يعتمد عليه كل شىء يبدو حيًا، قد تم ردمه

فجأة وانهار كل شيء فى كومة من النفايات التى لا معنى لها . لقد تم تدمير إيمانه بالنظام الصحيح فى العالم، وبالإنسانية، وبروحه، وبالرب» .

وبيير بيزوخوف، بطبيعة الحال، هو الشخصية المركزية فى رواية «الحرب والسلام» لليو تولستوى، كما أن آخذى الرهائن المرعبين هم الغزاة الفرنسيون، وليسوا الشيشان. وكون أن حرب تولستوى سنة ١٨١٢م يمكن أن يكون لها هذا الصدى الواضح يذكرك بما تهدف إليه الرواية العظيمة. إن تجلياتها تصلح للأبد. أنت لا تحتاج إلى أن تكون ضحية مباشرة للإرهاب لكى يُنتزع جزء من روحك. بل إنك لست بحاجة حتى لقراءة الرواية. فأنت أيضا من خلال الصحيفة والتليفزيون فقط تشعر بأن النبع الرئيسى للنظام قد ارتطم بأهوال الرعب الحالى.

لقد جاء بيير بيزوخوف من حياة رغدة - قد لا تختلف عن حياتك - ليواجه صدمته ويطهرك أن تدرك أن القسوة والفاجعة والعنف العشوائى هى التى تحدد حدود الحياة لمعظم البشر. ومع هذا، فإن الأثر التراكمى للصدمات التى حدثت هذا العام، بل والصدمات الكبرى التى يهددنا بها المجهول، قد تركتك ترتعش حتى الأعماق. ليس هذا فقط، فإن إيمانك «بالنظام السليم للكون» قد ارتبط بأمل فى أن تكون مقاصد وطنك، أيا كان غموضها، أكثر ميلاً لذلك النظام ولصالحه. إلا أنك الآن قلق من أن النبع الرئيسى نفسه قد تم ردمه أيضا، بسبب البداهة الأخلاقية الأمريكية، التى تهدد بأن تنزل اهتمام الأمة التقليدى بالآخرين إلى ركام من النفايات التى لا معنى لها تسمى الإمبراطورية الأمريكية.

ما علاقة هذا بك - ليس فقط أن تشهد عن قرب (من التليفزيون الذى يمكن أن يوضع على طاولة بالمطبخ) تجليات القسوة التى تأخذ الأنفاس، وإنما أن تشعر أنك أنت التالى فى الصف بعد الضحية؟ هل يزيدك صلابة بحيث تصل إلى مثل هذه القسوة؟ هل تجهزك لتكون أنت نفسك قاسيًا؟ إن القناص فى واشنطن، ومختطفى الرهائن فى موسكو، والانتحاريين بالقنابل، والفدائيين المسعورين، وقاذفات قنابل الليزر عالية التقنية فوق العراق، كلهم على نفس الخط. فالدفاع يصبح هجومًا، وحماية أطفالك تصير اغتيالاً لأطفال الآخرين، والتهديد الذى يوجهه لك يتحول إلى حرب استباقية من جانبك. فأنت تقتل لكى توقف القتل. فلماذا لا تشعر بأنك غريب فى أرض غريبة، قد تخلى عنه الرب؟

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

يسأل تولستوى فى الخاتمة «ماذا يعنى هذا كله؟ لماذا حدث؟ ما الذى يجعل أولئك الناس يحرقون المنازل ويذبحون إخوانهم من البشر؟ ماذا كانت الأسباب وراء تلك الأحداث؟ ما القوة التى جعلت الرجال يتصرفون على هذا النحو؟ هذه هى الأسئلة الغريزية الواضحة والأكثر شرعية التى تطرحها الإنسانية على نفسها». إذن، فلماذا لاتطرحها أنت؟ ولماذا لاتضطرب روحك ـ إذا وجدت نفسها وقد أخذت رهينة مرة أخرى بالحرب؟

* * *

غرض الحرب

٥ نوفمبر ٢٠٠٢م

ما يزال الارتبالك يخيم على هدف الحرب الأمريكية، كما أن الجدل الذى دار هذا الأسبوع فى مجلس الأمن، وامتد إلى الوطن، يكشف عن هذا. هل تريد إدارة بوش «تغيير النظام» أم «نزع السلاح»؟ وعلى الرغم من مساواة الرئيس بينهما فى الشهر الماضى ـ «إن نزع السلاح هو تغيير النظام» ـ فإن الغرضين ليسا مختلفين فحسب، بل إن أحدهما يمكن أن يعمل ضد الآخر. مثل هذه الفوضى هى نمط عقلية بوش اللامبالية، ولكنها فى مثل هذه الظروف خطر. ربما يكون هناك شيء نتعلمه من زمن آخر عندما كانت المفاهيم العامة والخاصة لهدف أمريكا من شن الحرب مرتبكة فى اللحظة الحاسمة ـ مما أدى إلى نتائج مأساوية.

وبداية باتفاقية تم عقدها فى الدار البيضاء سنة ١٩٤٣، كان غرض حرب الحلفاء هو «الاستسلام غير المشروط» للأعداء من دول المحور. وبعد التدمير الكلى لألمانيا، بدأت اليابان تضع «مجسات السلام» فى خريف وأوائل صيف سنة ١٩٤٥م، سعيًا لاستيضاح أهداف الحلفاء. وكان اهتمام اليابان منصبًا بصفة خاصة على مصير الإمبراطور، وهو اهتمام زاد منه بلاشك الميتة الغريبة لكل من هتلر وموسولينى، فقد كان هيروهيتو، بالنسبة لشعبه، ليس مجرد فوهرر أو دوتشى، ولكنه كان شخصًا مقدسًا، وموضع عبادة. فهل ستتم محاربته بوصفه مجرم حرب؟ وهل سيتم إعدامه، ويجبر على التخلى عن عرشه؟ ما الخزى الذى ينتظره؟ هل يمكن التفاوض بشأن هذه

التساؤلات؟ وكانت إجابة الحلفاء بالنفى: وكرر ترومان «الاستسلام غير المشروط» فى أوائل يونيو.

ولكن كبار مسئولى الولايات المتحدة تناقشوا سرّا حول المعنى الفعلى «للاستسلام غير المشروط»، وهم يعرفون أن القوة المحاربة اليابانية - المهزومة - سوف تحارب إلى آخر رجل قبل أن تخون الإمبراطور. والواقع أن كلمة الإمبراطور كانت ضرورية لكى تجعلهم يضعون سلاحهم. بيد أنه لم يكن هناك أى تخفيف علنى للمصطلحات. وفى نهاية شهر يوليو، «وبقسوة وشمولية»، على حد تعبير وزير الخارجية چيمس ف. بيرنيس، تم تكرار طلب «الاستسلام غير المشروط» من جانب بوتسدام. وقدرية اليابانيين التى تدفعهم إلى الموت وهم يقاتلون والتى أعقبت ذلك تم حسابها ضمن التكلفة الشاملة للغزو الذى توقعوا أن يقوم به الحلفاء للجزر اليابانية، وهى التى استخدمت بدورها لتبرير إسقاط القنبلتين الذريتين. ولأن اليابانيين أرادوا حماية إمبراطورهم، ولأن أمريكا رفضت التفاوض حول هذه النقطة - لا تراجع عن «الاستسلام غير المشروط» - بدأ العصر النووى.

فماذا حدث آنذاك؟ فى ١٠ أغسطس بعد يوم واحد من قصف ناجازاكى، جاءت رسالة من طوكيو بقبول شروط بوتسدام، ولكن «مع فهم أن الإعلان المذكور لا يشمل أى طلب يمتهن امتيازات جلالة الإمبراطور بوصفه حاكما ذا سيادة». وتوقفت كل المقاومة اليابانية، ولكن فقط مع افتراض أن الإمبراطور لن يمسه سوء - بوصفه إمبراطوراً. وكان بيرنيس يريد أن يرفض العرض لأنه لم يكن غير مشروط و«يمكن أن نتعرض للنقد لأننا تخلينا عن القسوة والشمولية التى نص عليها إعلان بوتسدام». وتم التغلب عليه وانتهت الحرب، إلا أن مسألة ذلك التراجع ظلت باقية. وإذ تم محو هيروشيما وناجازاكى على هذا النحو سعيًا وراء انتصار مطلق، ألم يجعله الشرط اليابانى المرفق نصراً نسبيّا؟ وإذا تعين علينا أن نوافق على نجاة الإمبراطور بعد القنابل الذرية، فلماذا لم نفعل ذلك من قبل؟ لقد حافظنا على الموقف الفكرى والروحى المطلق المطلوب لمحو مدينتين كاملتين - ولكن لوقت كان يكفى للقيام بمحوهما من الوجود. هل كانت الصدمة النابعة مما ارتكبناه هى مصدر المرونة المفاجئة والإنسانية؟ هل كانت حتى واشنطن تدرك أن هيروشيما وناجازاكى قد خدشت معياراً أخلاقيًا؟

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فنى خضم الهول الذى فعلناه، كان يمكن أن يبدو مصير الإمبراطور، والاستسلام اليابانى المفروض بشرط، مجرد تفاصيل. فعلى مدى عامين ونصف العام كان «الاستسلام غير المشروط» يحدد هدفنا المحدد من الحرب، ولكن فى النهاية قبلنا شيئًا آخر. (إذ إن هيروهيتو لم يتخل عن وضعه المقدس حتى سنة ١٩٤٦م. وظل يحكم حتى موته سنة ١٩٨٩م). كيف كان يمكن للحرب العالمية أن تنتهى إذا ما كانت أمريكا قد اكتشفت بسرعة وأوضحت استعدادها للتخلى عن هذه النقطة من الشرف الفائق؟ ترى كم عدد الأجساد المدفونة فى طيات هذا السؤال؟

و«تغيير النظام» هى طريقة أخرى لقول «الاستسلام غير المشروط». وبالنسبة لأذن صدام حسين فإن العبارتين مترادفتان. وربما يكون من مظاهر التقدم أن تم الإعلان أيضا عن هدف مختلف تمامًا للحرب، وليس مطلقًا، وهو نزع السلاح، ولكن باستثناء ما يدور فى ذهن بوش، فإن الموقف الأمريكى ربما لا يعكس الارتباك. وربما تكون الملاحظات المتناقضة الصادرة عن واشنطن ـ عبارة دونالد رامسفيلد «كلى وقاس» وكولين باول المرن نسبيًا ـ تطرح عمدًا نوعًا من الضبابية حول الهدف القومى فى الحصول على ترخيص من مجلس الأمن هذا الأسبوع. فما أن يمر قرار ـ أى قرار سوف يمر ـ «لتغيير النظام» لابد وأن يؤدى إلى استئناف مكانها فى الصدارة. وكما كان الحال من قبل، سوف تتمسك واشنطن بقصدها الثابت حتى تزيح حركة الحرب كل شىء آخر، وحتى يكون البيت الأبيض والبنتاجون والكونجرس المطيع بشكل مخجل، مرعوبين أخيراً بما تكلفه هذه النزعة الاستبدادية المنحرفة بالفعل من خسائر فى الحياة البشرية.

***

الالتزام بسياسة الخوف المعيبة

١٨ نوفمبر ٢٠٠٢م

«هل أنت اليوم أكثر أمنا مما كنت منذ سنة مضت؟». هذا سؤال طرحه عنوان رئيسى فى صحيفة نيويورك تايمز فى ذلك اليوم، وكان مذيع بالتليفزيون يسأل الناس فى الشارع «ما مدى ما نتمتع به من أمان حقيقى فى رأيك؟». وفى الأيام الأخيرة، وربما بسبب صوت أسامة بن لادن الذى أعلن عودته، زادت التحذيرات الحكومية من ارتفاع

حدة القلق القومى مرة أخرى. فعندما يمس الكلام العابر مسائل عامة، تتخلى متعة المحادثات عن مكانها للقلق. وكون أننا شعب على استعداد لشن الحرب ضد خصم لا يمكن التنبؤ به فى منطقة ملتهبة أمر يزيد من قلقنا. وفى الوقت نفسه اتخذت القاعدة أبعاد عدو سرى. ذلك أن جهلنا ببنائها الفعلى تجعلها تبدو كلية القدرات.

ما هى السلامة على أى حال، أكثر من غياب التهديد المادى المباشر؟ تشير الكلمة إلى الشعور، والواقع أن المرء يمكن أن يقول إن الكلمة تشير إلى مخادعة؛ لأنه فى الحقيقة أن من شأن الحياة على الأرض أن تكون خطرة. إن ما يشتاق البشر إلى أن يكونوا فى مأمن منه فى نهاية الأمر هو الموت ـ ومع ذلك فإن كل إنسان يموت. نحن نلف أنفسنا فى إنكار الفناء وقابلية الموت ونولى قدرًا قليلاً من الاهتمام بقانون الزمن الساخر بقدر الإمكان. وتتطلب الحياة هذه الحيل العقلية: أننا ننطلق فيها يوميًا وكأنها مستمرة إلى الأبد؛ أننا نقوم بأعمالنا الدنيوية كما لو كانت لها أهمية نهائية، وأننا نتصرف كما لو أن حبنا الناقص بالضرورة بعضنا لبعض سوف يقضى على الوحدة؛ وأننا نتجاهل مصادفات الوجود الجذرية لكى نشعر بأننا «آمنون». وليس هناك شىء خطأ فى هذا كله. إن الحلم المؤرق بالخلود المريح لهو تعديل ضرورى لحقيقة الفناء المرتبط بالأرض، والوعى الصارم بما قد يشل الحركة. إن الشعور بالأمان، بعبارة أخرى، ربما لا تكون له علاقة بأحوالنا الحقيقية فى عالم مأساوى ولكنه ضرورى للفعل الإنسانى الذى يحول المأساة إلى أمل.

ولكن الشوق إلى الأمان يمكن أن يأخذ إلى ما هو أبعد من اللازم، ومثل هذه الرغبة يمكن أن تستغلها الحكومة دونما استحقاق. فباسم السلامة الأمريكية، التى لم يكن هناك ثمة تفكير فى تحقيقها؛ قتلت الـ CIA فى اليمن منذ أسبوعين دونما عذر ستة أفراد قالت إنهم إرهابيون وذلك لتقنين الإعدام دونما محاكمة. ويتم الآن علنا اقتراح الاغتيالات فى الخارج، كما أن وسائل سيطرة ديكتاتورية يتم الترتيب لها. وتحت غطاء من تصعيد قلق المواطنين، تعيد إدارة بوش باقتدار صياغة كل من السياسة الخارجية والسياسة الداخلية ـ حسب أمزجة أيديولوجية موضوعة سلفًا. إن السياسات تعد بـ «الأمان والسلامة» ولكن سياسة بوش تجعل أمريكا تشعر أنها أقل أمنًا من ذى قبل.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فلماذا نحن خائفون إلى هذه الدرجة؟ ذلك السؤال يقود الفيلم الجديد المزعج والمهم لمايكل مور Bowling for Columbine. وهو دينامية عبثية من الخوف الخاص بأمريكا ـ الخوف الذى يستدعى ردود أفعال تجعل الخوف أشد سوءاً ـ والذى يتضح فى عرض الفيلم لكيف أن عنف البنادق يولد شراء البنادق الذى يولد المزيد من عنف البنادق. تلك الدائرة اللاعقلانية تحدد هوس الولايات المتحدة بالبنادق ـ واقتصاد الحرب فى الولايات المتحدة. ما الذى يكمن تحت مثل هذا الخوف؟ يقترح مور أن جريمة الاستعباد التى لم تتم تصفية حسابها والجرح الناتج عنها متمثلاً فى الخصومة العنصرية هى التى تؤمن استعداد الأمريكيين البيض المخيفين لإحضار الأسلحة المحشوة بالذخيرة إلى مرمى أبنائهم.

إن المطلب الاستحواذى «للأمن القومى» كان نسخة من نفس الدافع على نطاق أكبر. ففى أثناء الحرب الباردة، حول الشيوعيون الملاعين أسلحتنا النووية ضدنا. وكما حدث فى أعقاب العبودية كان التهديد يتضمن كارثة أخلاقية لم تتم تصفيتها من صنعنا نحن. إن سيناريو الكابوس الذى يتم فيه محو المدن من الوجود قد دمرنا لأننا نحن كنا قد محونا مدناً من الوجود فعلاً. وفى كل حالة مرعبة ـ سواء العبودية أو الحرب النووية ـ نخاف من الأعداء القساة لئلا يردوا لنا الضربات على جرائم لا تستحق الرحمة.

هل يمكن أن يكون هناك شىء شبيه يسبب خوفنا من الإرهاب اليوم؟ إن المرء لا يحتاج إلى التعرف على أسامة بن لادن كمدافع عن المعدمين لكى يعترف بالهوة الشاسعة بين من ينعمون برغد العيش واليائسين باعتبارها الدافع الأولى للإرهاب. وهنا يكمن المعنى الحقيقى لعبارة «حرب الخليج»: فالأمريكيون الذين تستحوذ عليهم هواجس الأمن على أحد جوانب الخليج، وأكثر أبناء الجنس البشرى حرماناً على الجانب الآخر. هذه التفرقة الكارثية ليست من صنعنا بالضبط، ولكن رخاءنا مستمد جزئياً من الحياة المتدهورة لحياة أولئك الذين لا يشاركون فيها (فالغازات المنبعثة من بيوت النبات لدينا تؤدى إلى الفيضانات عندهم، كما أن اقتصاد الحرب لدينا يمد جيوشهم الشريرة بأسلحة شديدة الفتك؛ كما أن تعطشنا للبترول يزيد من قوة طغاتهم. وهكذا).

لماذا لا نشعر بالأمان؟ لنفس السبب الذى يجعل الأمريكيين البيض لا يشعرون بالأمان بعد نهاية عصر العبودية ؛ السبب الذى يجعل الأسحة النووية تؤذينا قبل كل شيء. نحن محكومون بأن نكون مرهوبين بالإرهاب لأنه يتحرك على امتداد خط معيب نشارك نحن فيه بالمسئولية. ويتسع الخط المعيب. ولا نفعل شيئًا لإغلاقه. إن المكان الملائم للخوف هو الضمير غير المستريح، ومن معرفته الأكيدة بأنه لا مهرب.

* * *

هل هناك تغطية على الصواريخ في معهد ماساتشوستس (MIT) للتكنولوچيا؟

٢ ديسمبر ٢٠٠٢م

فى الشهر الماضى أعلن قائد القوات الجوية المسئول عن تطوير نظام الدفاع الصاروخى أن التكنولوچيا المحيرة قد برهنت نفسها أخيراً. قال الچنرال روناد كالديش: «إننا لسنا بحاجة بعد الآن إلى أن نجرب أو نستعرض أو نوارب، إننا بحاجة إلى أن نستمر فى هذا».

ولكن سجل تأكيدات الپنتاجون لصالح الدفاع الصاروخى لا يمكن الاعتماد عليه على أقل تقدير. إذ إن مشروعا يجلب عشرات كثيرة من ملايين الدولارات إلى خزائن الصناعات العسكرية يحمل انحيازًا لا يقاوم، كما أن التاريخ يوضح أنه لا وزارة الدفاع ولا مقاولوها يمكن الاعتماد عليهم فى تقييم العلم أو التكنولوچيا التى سيستند إليها «درع» الرئيس بوش المتبجح. دعك من لحظة السؤال المزعج عما إذا كانت الولايات المتحدة بمبادراتها نحو الدفاع الصاروخى سوف تشعل سباق تسلح جديد وقاتل مع الصين وغيرها. والسؤال المتبقى عن الجدوى خطير بما فيه الكفاية: هل يمكن للأمة أن تتحمل مائة بليون دولار من أجل نظام لن يعمل؟ هل يمكن للحكومة أن تضع حياة مواطنيها فى خطر وراء درع لن يوفر الحماية؟

مثل هذه الأسئلة من الأهمية بحيث لا يمكن تركها للمنحازين من رجال الپنتاجون والصناعة الحربية ممن يقومون بعمليات التقويم. وهذا هو السبب فى أن المزاعم العلمية لوكالة الدفاع الصاروخى ومقاوليها يجب اختبارها على أيدى خبراء من الجماعة

http://www.al-maktabeh.com

العلمية ليست لهم مصالح. وعلى مثل هذا الاستقلال تقوم صحة اقتصاد الولايات المتحدة، وسلامة الأمة، وتماسك العلم نفسه، على حين فسد هذا القدر الكبير من الأشياء الأخرى. هذه هي ركائز النزاع الذى كان يتشكل فى معهد ماساتشوستس للتكنولوچيا على مدى أكثر من سنة.

وثيودور أ. پوستول أستاذ للعلوم والتكنولوچيا وسياسة الأمن القوى فى معهد ماساتشوستس للتكنولوچيا. وقد حاز شهرة بوصفه الذى فضح كذب أداء صواريخ پاتريوت فى حرب الخليج، ثم متشككا فى الدفاع الصاروخى. وقد تحدى ما إذا كان النظام تحت التصميم يمكن أن يميز بشكل يعتمد عليه بين الرءوس الحربية القادمة والشراك الخداعية. وفى موضوع معين تم إجراء اختبار سنة ١٩٩٧م من مقاول الدفاع TRW وأعلن نجاحه. وبعد أن تم التساؤل حول هذا «النجاح» من جانب المحققين الفيدراليين، تم توظيف معمل لنكولن فى الـ MIT لتقييمه. وفى سنة ١٩٩٩م أكد المعمل النتائج التى توصل إليها TRW. وبعد ذلك بوقت قصير اعترض پوستول، متحديًا ليس فقط البنتاجون ومقاوله ـ ولكن الجامعة التى يعمل بها. وحقق مكتب المحاسبات الحكومى ووصل إلى نتجة أن پوستول كان محقًا فى إبرازه الخلل الذى فى اختبار TRW، ولكن تهمة پوستول تعدت الخلل إلى الخداع. وقال لى أخيرًا ونحن نشرب القهوة: «لقد غطى معمل لنكولن على خلل فى نظام إيقاف البرنامج فى نظام الدفاع الصاروخى. هل تورطت جامعة كبيرة فى عملية تغطية؟».

فى إبريل سنة ٢٠٠١م، ذهب پوستول إلى سلطات معهد ماساتشوستس بشأن هذا الموضوع، ثم خرج إلى العلن فى بواكير هذه السنة، وطرح السؤال الخطير عما إذا كان معمل لنكولن متواطئًا فى عملية الخداع التى قام بها TRW. وجادل پوستول بأن «النجاح» فى تلك التجربة اعتمد على التوفيق بين الظواهر الملاحظة والظواهر التى كانت متوقعة. فهل قامت TRW بالتزييف عندما وضعت هذه مكان تلك؟ وهل تستر معمل لنكولن عن علم على هذا؟ وهل ضلل معمل لنكولن المحققين الفيدراليين؟ هل تجاهل كبار موظفى معهد التكنولوچيا فى ماساتشوستس هذه التهم وشوشوا عليها؟ وطلب پوستول إجراء تحقيق. وفى فبراير الماضى قام المعهد بإجراء تحقيق داخلى حول الاتهامات.

http://www.alkottob.com

وقد انتهى التحقيق الداخلى بمعهد التكنولوچيا الشهر الماضى تحت إشراف المعهد، ودعا إلى إجراء التحقيق الخارجى الذى كان پوستول يدعو إليه على الدوام. هذه التوصية ذهبت الآن إلى كبار موظفى المعهد، ويبقى أن نرى ماذا ستؤدى إليه. أما پوستول من جانبه، فقد توصل فعلاً إلى استنتاج ويأمل فى تدخل الكونجرس. وفى خطابات أرسلها أواخر أكتوبر إلى عضوى الكونجرس هوارد برمان (الديمقراطى عن كاليفورنيا) والسيناتور تشارلز جراسلى (الجمهورى عن إيوا) اللذين وضعا قانون الادعاءات المزيفة، وكتب پوستول «فى الواقع أن معمل لنكولن حقق وشهد مثل مدققى الحسابات على حين كان المعمل يعرف أن ممارسات مسك الدفاتر كانت مزيفة».

وربما بدا هذا مثل تكرير لفضيحة إينرون، عندما تم ضبط شركة ومراجعى حساباتها متلبسين بالكذب ـ وهو فساد لا يقتصر على النظام الأساسى فقط ولكن بآلية الإشراف على النظام. ولكن فضيحة إينرون كانت تشمل المال فقط. أما الفساد فى مزاعم پوستول فإنه يتجه بسرعة إلى الأمانة العلمية، وإلى مركز العلاقة بين الأكاديميين والحكومة، بل وبشكل أشد حسمًا، إلى المنهج الذى سوف يتم به بناء إستراتيچيات الدفاع الأمريكية فى المستقبل.

وقد مضى زمن طويل على طلب التحقيق المستقل الذى تقدم به البروفيسور الشجاع پوستول. ولابد أن طلباته بدت مثل عدم الولاء بالنسبة لجامعة محاصرة تحاول حماية سمعتها. ولابد أنها ظهرت مثل «مراوغات» بالنسبة للپنتاجون الذى يريد أن يمضى فى برنامج الدفاع الصاروخى. ولكن بالنسبة لأمريكا لا يمكن أن يكون هناك شىء خفى بشأن الحقيقة، لاسيما حينما يمكن للزيف، ولإشعال سباق تسلح، أن يمهد الطريق لشن الحرب.

***

ما الذى مات السبعة فى سبيله

٤ فبراير ٢٠٠٣م

إن رواد الفضاء الشجعان الذين فقدوا حياتهم يوم السبت الماضى كانوا يضغطون على الحد الحرفى لما يفصل الأرض عن كل ما سواها. وبموتهم يذكروننا بالحقيقة

http://www.al-maktabeh.com

البديهية بأن البشر موجودون لكى يضغطوا مثل هذه الحدود، حتى وهم يعرفون أن النتائج فى الغالب مأساوية. إن الطيران فى الفضاء لم يتم ترويضه بأكثر مما يمكن للمشروع الإنسانى أن يطهر نفسه من الخطر. فعندما يخاطر النساء والرجال عن وعى بتلك المخاطرة من أجل الدافع الإنسانى للمعرفة والاكتشاف، وعندما يموتون آنذاك وهم يفعلون ذلك ـ فإننا نحن بقية بنى جنسهم، نستجيب بشكل صحيح كعائلة واحدة، ونكرمهم بوصفهم أمثلة تجسد النبل الإنسانى.

إن الزرقة الشاسعة التى مات فى رحابها طاقم سفينة الفضاء كولومبيا كانت دائمًا ترسم النظرة الإنسانية الباحثة عن المزيد. ومن المؤكد أن هذا هو السبب، منذ البداية، فى أن البشر قد أسكنوا السماء بالملائكة، والآلهة والأبطال. فى زماننا هذا تغيرت السماء من كونها مكانًا تسقط منه النيران ـ مملكة القنابل والصواريخ ـ إلى مكان صارت فيه الحدود الأرضية التى تشن الحروب فى سبيلها خفية، ومن ثم صارت بلا معنى. كان هذا، على أى حال، هو الظهور الدنيوى، الصورة التى أخذها من ساروا على سطح القمر منذ جيل مضى للكرة الزرقاء ـ الخضراء المعلقة فى الفراغ، كوكبنا الهش باعتباره واحة للحياة والأمل فى كون مختلف لا يبالى. ثم حدثت أعجوبة الأعاجيب، الحلم اللا محدود بأرض واحدة صار مؤسسًا فى محطة الفضاء الروسية ـ الأمريكية المشتركة، التى كان المكوك كولومبيا وغيره يرونها موطنًا أقصى لهم.

لقد حدد استكشاف الفضاء الحرب الباردة فى أخطر مراحلها ـ منذ سبوتنيك سنة ١٩٥٧م، وإعلان الاتحاد السوفييتى أنه يمكن أن يمطر الولايات المتحدة بالقنابل الهيدروجينية، إلى سباق چون كنيدى الانتقامى صوب القمر، الذى أطلق شرارة السيطرة العسكرية الأمريكية النهائية. وفى نهاية الأمر، كانت هناك دفعة مضادة تضرب بجذورها فى التواضع فى مواجهة المجهول، قادت واشنطن وموسكو إلى عبور حدود فضائية أكثر جسارة ـ إلى مجال للتعاون. وتحويل «ثقل الرمية» و«إسقاط القوة»، صار العدوان شريكين فى نفس المشروع الذى كان يهدد الأرض أكثر من غيره.

هذه المشاركة تكرست فى محطة الفضاء التى فيها يواجه روسى وأمريكيان ـ حتى الآن ـ قلقًا مهلكًا بعد كارثة كولومبيا. إذ إن المهنة المشتركة التى أخذوها على عاتقهم

http://www.al-maktabeh.com

تذكرنا بأنه لم يحدث فى شىء أن حدث عكس مسار الحرب الباردة أكثر مما حدث فى تحويل الفضاء من أرض معركة للمصالح القومية إلى ميدان عابر للأوطان للتحقيق الإنسانى. هذا التراث الجيد تم تكريمه الأسبوع الماضى بحضور رائد الفضاء الإسرائيلى الوحيد على متن كولومبيا، وقد سار على درب مشاركين من بلاد أخرى.

وأحد الأشياء التى تجعل السماء خطيرة مجدداً هو الغواية العائدة برفع الحدود المسلحة إلى الهواء وما وراءه، وهو تكرار للتلفيق القديم بين الإنسانى والقبلى. وينعكس الدفع فى المبادرات، التى رعاها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، فى اتجاه تسليح الفضاء، تحت ما يسمى قيادة الفضاء بالولايات المتحدة، وإذ يقوم البنتاجون بتحدى اتفاق جماعى تقريبا فى الأمم المتحدة، بإدعاء مزاعم بشأن «الحدود العالية»، وهو نتيجة طبيعية لإستراتيجيات الولايات المتحدة الحالية تجاه السيطرة العسكرية العالمية. إن برنامج إدارة بوش للدفاع الصاروخى هو المرحلة الأولى فى هذا التوسع. فأسلحة الليزر التى لها قواعد فى الفضاء «الأقمار الصناعية الحارسة»، و«مركبات القتل» الدوارة، والمجسات الفضائية التى تعمل بقوة البلوتونيوم ـ كلها أشياء مرعبة آتية من عصر حرب النجوم. لا شىء يمكن أن يخون الروح الإنسانية لرواد الفضاء فى مكوك كولومبيا على هذا النحو الشامل أكثر من التراجع عن الشراكة العالمية من أجل الفضاء باسم هيمنة أمة واحدة ارتكازاً على الفضاء.

واليوم فى الخدمة الرسمية [الصلاة والدعاء] فى ذكرى ملاحى الفضاء الذين فقدوا فى المكوك كولومبيا بهيوستون، وفى أيام الحداد والتأمل القادمة، سيكون قلب أمتنا غاصّا بالأحزان. فمرة تلو المرة، وسوف نرى، فى صور التليفزيون السماء الزرقاء يقطعها قوس أبيض من التدمير المفاجئ، سوف نرى وجوه أولئك الذين ماتوا من النساء والرجال، ووجوه عائلاتهم الثكالى. وسوف نرى وجوه الإسرائيليين وقد روعتهم صدمة جديدة. وما الذى سوف سيحض عليه ذلك كله فى القلب الأمريكى؟ فهل سنخرج من هذا الأسى أكثر حياة لهشاشة الحياة الإنسانية التى هى بالتالى حياة نفيسة غالية؟ هل سنتعرف فيما يصبه من معتنقات إشارة على أن مشاركة عالمية تتخطى الآن أى مفهوم ضيق «للأمن القومى»؟

http://www.al-maktabeh.com

عندما تنظر عيوننا صوب السماء اليوم، فما الذى سنراه؟ وماذا عن رفض نفس الهواء، ناهيك عن الفضاء الخارجى، لأن يعرف نفسه بشىء غير اللون الأزرق؟ إن الزرقة العميقة الكثيفة اللانهائية التى فيها يتعلق فيها كوكب الأرض، حسبما يخبرنا رواد الفضاء النبلاء ـ يتعلق دونما خيط يمسكها. وكل الذى يتعلق به هذا الكوكب فى الفضاء هو الشجاعة الإنسانية. وليرقد أولئك الذين علمونا هذا مرة أخرى فى سلام.

* * *

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(٩)

الذاكرة الأخلاقية

al-maktabeh
www. .com
مكتبة
المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

بنهاية سنة ٢٠٠٢م، كان واضحًا أن إعادة تذكر ٩ ـ ١١ قد أخذت شكل «ذاكرة قومية»؛ أى ملاحظة تحدد إطار عمل سياسى جديد، فقد فاق الاحتفال بالذكرى تحت رعاية الدولة كل تجارب الحزن والفقد الشخصية.

إذ إن هذا المثال العام قدحدد ملامح الأعداء الأجانب الأشرار كما حدد ملامح الأمريكيين النبلاء (رجال المطافئ، والشرطة والمسافرين على الخطوط الجوية). أما الشخصيات التى لا تتواءم مع هذا الإطار السردى، مثل قاتل الأنثراكس، الذى تحول إلى أجنبى، وسرعان ما تحول إلى نذل أجنبى ماكر لا يمكن القبض عليه، فقد حُذفت ببساطة من الحكاية الجماعية. وحل صدام حسين محل أسامة بن لادن. وراجت قصة تحكى عن الهجمات الإرهابية التى بررت مساراً خاصًا اتخذه قادة الأمة. وتمت تصفية التعقيدات ونُسيت الذكريات المعارضة. وكان هذا قد حدث من قبل. ففى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، سدت الذكريات البطولية للمعارضة الطريق أمام ذكريات التعاون والجبن. وبعد حرب ڤييتنام، وفى الولايات المتحدة، أكدت ذكريات الحرب ـ ونصبها التذكاري الكبير فى واشنطن ـ على معاناة الأمريكيين، دونما اعتراف بالتجربة الڤييتنامية الأشد كارثية.

إن النسخة التى يرعاها بوش للماضى تهدف إلى الفعل فى الحاضر، وفى ١٠ أكتوبر ٢٠٠٢م، تم التأكيد على هذا الفعل بالقرار ١٤٤ المشترك بين الكونجرس ومجلس النواب: «تفويض باستخدام القوات المسلحة للولايات المتحدة ضد العراق». ولكن فى ذلك اليوم نفسه، تم توجيه ملاحظة مضادة عندما اختير أحد معارضى القرار، وهو الرئيس الأسبق چيمى كارتر، لجائزة نوبل للسلام. وفى تعليقه وإعلان قبوله، رفض كارتر صراحة هذه الحرب؛ فقد قال كارتر وهو يرفض مشروع بوش «لأن تتبنى البلاد القوية مبدأ الحرب الوقائية، قد يُرسى نموذجًا يمكن أن يؤدى إلى عواقب

كارثية». ولم يكن الجدل فقط حول الأهداف الأمريكية فى الحاضر والمستقبل، ولكن استغلال الماضى مبرراً هذه الأهداف.

***

فيليب بيريجان

١٠ ديسمبر ٢٠٠٢م

مات فيليب بيريجان. ودفنته أسرته وأصدقاؤه أمس فى بالتيمور. ومعظم الناس الذين يتذكرون فيليب بيريجان يربطون بينه وبين الغارات على وحدة التجنيد منذ زمن طويل والتى جعلته شهيراً فى الستينيات. وعدد أقل من الناس يعرفون أنه ارتكب ثمانية أفعال كبرى من أفعال العصيان المدنى فيما بين سنة ١٩٨٠م وسنة ١٩٩٩م - أفعال حقيقية من نزع السلاح وكلفته سنوات من السجن. ولكن صورة الرجل المبتسم ذى الشعر الأبيض فى الأصفاد يمكن أن تكون مضللة. وهو أبعد ما يكون عن شخص هامشى ولت أيامه منذ زمن طويل، لأن فيليب بيريجان، حتى فى موته، له علاقة خاصة جداً بمسألتين من أكثر المسائل إلحاحًا اليوم.

وتتعلق الأولى بالقساوسة الكاثوليك. فقد ظهرت الضغوط التى تواجه الكنيسة الكاثوليكية كمسألة كنسية، ولكن الحريق الأخلاقى الذى يذيب الدعائم الداخلية لهذه المؤسسة بدأ فى تهديد بناء السلطة والمجتمع فى الصميم. وإذ إن الكاثوليك استمروا يترنحون من هول فضيحة التحرش الجنسى التى تم التستر عليها، مع كل كشف جديد عن بلادة الهيراركية الكنسية - وعن فراغ القساوسة الأجوف. ومنذ وقت مبكر، شهد الآخرون مسرحية انعدام أخلاقية الكنيسة بذهول منفصل، ولكن فيما بعد، حتى غير الكاثوليك أحسوا قشعريرة خطيرة على امتداد المجتمع. فإذا أمكن سقوط الكنيسة الكاثوليكية، فما الذى لا يمكن أن يسقط؟ والحقيقة أن النظام الاجتماعى كله بمثابة برج واحد - ويمكن أن ينهار أيضًا.

عاش فيليب بيريجان حياة تقدم صورة من التوبة للقساوسة الكاثوليك. فقد أظهر، على نحو خاص، ما الذى يعنيه حقّا يمين الطاعة. فمع أخيه الجيزويت دانييل وجد نفسه فى صراع مع هيراركية كانت فى الواقع تشجع على حرب لا أخلاقية (قال

http://www.al-maktabeh.com

الكاردنيال فرنسيس سبيلمان: «لن نقبل ما هو أقل من النصر»). وكان تحدى بيريجان موجهًا إلى الكنيسة بقدر ما كان موجهًا إلى الأمة. فالكنيسة أيضًا خاضعة لأن تدان بالكتاب المقدس؛ والكنيسة أيضًا سقطت. وبرفض مجاراة أولئك الذين ساووا بين نقده وعدم الولاء، ومؤكدًا عقيدته الكاثوليكية حتى النهاية، ومتجاهلاً أولئك الذين يمكن أن يحكموا عليه بالحرمان الكنسى، أظهر بيريجان الطريق الذى ينبغى على الكاثوليك أن يتبعوه اليوم. وبتفكيك السلطة الفاسدة، أنقذ مبدأ السلطة. والوقوف ضد بناء سلطة كاثوليكية مفلسة أخلاقيًا هو أسمى تجل للحب الكاثوليكى. وفيليب بيريجان، المتزوج والأب لا بنتين رائعتين وولد رائع، لم يتوقف أبدًا عن أن يكون قسيسًا مثاليًا.

بيد أن هناك أهمية أبعد من هذا بكثير. فبينما كان معظم الأمريكيين يستنكرون تكريس أمتهم «للقوة المهيمنة» القائمة على أساس من الأسلحة النووية، كان بيريجان يدق أجراس الإنذار بلا توقف. وعندما انتهت الحرب الباردة، وانتهى معها التهديد الذى كان قد دفع العالم إلى حافة الهلاك، كانت أمريكا وحدها التى تراجعت. ذلك أن «الأمة التى لا غنى عنها» سوف تتسلح حتى أسنانها. واحتج بيريجان، على الصواريخ المهاجمة مباشرة، وعلى المدامرت، والطائرات الحربية ورءوس اليورانيوم الحربية. وحذر من أن اقتصاد/ ثقافة الحرب سرف يشعل الدافع المحرك نحو العنف الشامل الذى سيكون هو مبرره نفسه، ولن يمكن إيقافه.

وانظر، وتأمل أين صرنا. إن الغزو الوشيك للعراق مثال دقيق على ما تنبأ به بيريجان: أمريكا ذاهبة للحرب ليس بسبب حاجتها إلى ذلك ولكن لأنها تستطيع ذلك. وكان لابد لبيريجان أن يصر على أن هذه الأزمة تنبع أصلاً ليس مع الكيد الشاذ لجورج دبليو بوش، ولكن مع الفنتازيا الأمريكية العالمية بأن«الأمن القومى» يمكن أن يعتمد على أسلحة الدمار الشامل. وفى هذه النقطة يكون صدام حسين مرآة تعكس صورتنا، ولابد أن هذا هو السبب فى أننا نكره صدام حسين بهذا الشكل. وغالبًا ما كان يتم استبعاد بيريجان بوصفه داعية سلام مثاليًا، ولكن الأزمة الحالية تكشف عن أنه كان واقعيًا ذكيًا. إن الأسلحة التى نجمعها ونراكمها، بدلاً من أن تحمينا، هى نفسها مصدر الخطر القاتل الذى يهددنا.

لا يجب على الأمريكيين أن يتنازلوا للكنيسة الكاثوليكية المضطربة. إن الأمة والدين يتخبطان فى نفس الضباب الأخلاقى. وعلى مدى سنوات كان الكاثوليك - من الأساقفة والعلمانيين على السواء تحت رحمة السلك الكهنوتى الفاسد - يتطلعون صوب الطريق الأخر على حين كان القساوسة يتحرشون جنسيًا بالأطفال. والآن ربما يحلو للبعض أن يلوموا القادة الجبناء، ويفصلوهم، ويعودوا بالأمور إلى سيرها المعتاد. ولكن ماذا لو كان «المعتاد» هو المشكلة؟ ماذا لو أن النظام الكنيسة كله يجب أن يتم هدمه؟

وبنفس القدر فإن المسائل المهمة تتناول ثقافة الحرب الأمريكية. يجب معارضة الهجوم على العراق، ولكن ألا يجب أن يعاد اختبار كل ما قد أتى بأمتنا إلى هذه العتبة من الإمبريالية العنيفة؟ لماذا على مدى السنوات الاثنتى عشرة الماضية لم نبذل سوى القليل لكى نبتعد عن الهواية النووية؟ لماذا يكون مثال القانون الدولى بلاوزن هكذا فى واشنطن؟ كيف يمكن أن نتوقع من الأمم الأخرى ألا تقلد اعتمادنا غير المحكوم على أسلحة الدمار الشامل؟ متى صارت هذه النزعة العسكرية الأمريكية الشاسعة «عادية»؟

هذه الأسئلة كانت لدى فيليب بيريجان القدرة على طرحها طوال حياته، بوصفه كاثوليكيا وأمريكيا. كقسيس ونبى. إن فيليب قد مات. وقد أحببناه. مات فيليب ولكن صوته مايزال مسموعًا هناك. مات فيليب. فليرقد فى سلام.

* * *

القصف يوم الكريسماس

٢٤ ديسمبر ٢٠٠٢م

يبدو أن عشية الكريسماس قد عملت للذكرى. فأنا أتذكر أننى كنت محشوراً بين أخوتى، وكلنا بين والدينا، فى الشرفة المزدحمة لكنيسة سانت مارى لصلاة القداس فى منتصف الليل. شذا البخور، وفحيح المدفأة القريبة، ومكان الركوع غير المبطن الصلب تحت ركبتى، وصلوات أمى تنساب من تحت قفازيها. وكان أفضل جزء من

http://www.al-maktabeh.com

ليلة الكريسماس هو الهواء البارد النقي الذى كنا نمشى فيه ونحن خارجون من الكنيسة، وركوب السيارة إلى المنزل والشعور بالنشوة لأننا بالخارج فى مثل هذا الوقت المتأخر. أما الجزء الأسوأ، فهو: كيف كان يستحيل أن أبقى عينى مفتوحتين بينما كان أخوتى يتجادلون فيما إذا كان سانتا كلاوس سيأتى إلى منزل وسكانه بعيداً فى صلاة القداس.

http://www.almaktabeh.com

ولكن بينما كانت موسيقى الأجراس والترانيم تستسلم لطبول إيقاعات عسكرية متصاعدة، أمريكا على وشك الذهاب للحرب، وتتدخل ذكرى أخرى من ذكريات الكريسماس. هذه السنة هى الذكرى الثلاثون لقصف ڤيتنام فى الكريسماس.

وبالنسبة للناس فى سن معينة، فإن فكرة هجوم جوى غير مسبوق، يستمر من ١٨ إلى ٣٠ ديسمبر يشوش هدوء المناسبة المقدسة. وكم روعتنا التقارير عن القنابل التى تسقط ليلاً ونهاراً على المدن فى جميع أنحاء ڤييتنام الشمالية. وتم ضرب هانوى وهايفونج بقسوة بشكل خاص. وقد طار الطيارون الأمريكيون حوالى أربعة آلاف طلعة، من بينها سبعمائة طلعة بطائرات B52 التى تحلق عاليًا. هذه القاذفات التى «تقصف المناطق» لا تقدر على توخى الدقة، ولم تستخدم أبدًا ضد المدن قبل ذلك. وكونها استخدمت الآن كان علامة أكيدة على أن هذا كان قصفًا إرهابيًا خالصًا وبسيطا. وقالت واشنطن إن حملتها الجوية البشعة كانت ضرورية لأن هانوى قد عرقلت مباحثات السلام، ولكن معظم العرقلة كان واضحًا أنها تأتى من سايجون حليفة واشنطن. وكان بوسع الجميع أن يروا أن القصف كان إجراء نهائيا يعبر عن الإحباط والغضب من جانب قوة عظمى تواجه هزيمة مخزية.

إن السبب فى تذكر القصف ليلة الكريسماس سنة ١٩٧٢م ليس هو الشعور بالتفوق الأخلاقى على أولئك المسئولين عنه. وإنما هو محاولة فهم شىء أساسى بالنسبة لتجربة الحرب. هنا تكمن أهم حقيقة فى هذه الذكرى: إن أولئك الذين أمروا ونفذوا هذه الهجمات الوحشية ضد المراكز السكانية عند نهاية الحرب الڤيتنامية، لم يكونوا ليفعلوا هذا أبدًا من البداية. وما أمر به نيكسون سنة ١٩٧٢م كان لابد أن يدينه سنة ١٩٦٩م. لقد غيرت الحرب حساسية أمريكا الأخلاقية، بل إن الحرب أماتتها. وقد حدث هذا

من قبل. ففى سنة ١٩٣٩م، طلب الرئيس الأمريكى من الدول التى كانت قد دخلت الحرب فى أوروبا «ألا يشنوا تحت أى ظرف من الظروف قصفًا جويًا على السكان المدنيين أو المدن غير المحصنة». وبنهاية تلك الحرب قامت القوات الجوية للولايات المتحدة بتعريف نفسها بأنها أداة لتدمير الحضارة، لتحيل المدن إلى أكوام من النفايات (فقد تمت إبادة ٨١ من أكبر المدن اليابانية الـ ١٢٠ من الجو، حتى قبل هيروشيما). وما حرمته واشنطن فى بداية الحرب صار أمرًا مسلمًا به فى نهايتها.

إن ديناميكية الحرب تتعدى قدرة المحاربين على مقاومتها. ففى الحرب تقود الاختيارات بشكل روتينى إلى عواقب غير متوقعة، بما تطرح من اختيارات جديدة خارجة تمامًا عن التصور، تتضمن بدورها عواقب أكثر، تؤدى فى النهاية إلى خيارات لم يكن المحاربون ليوافقوا عليها أبدًا فى البداية. بسبب هذا العجز البشرى عن التنبؤ أو السيطرة تتردى الأمور إلى الوحشية ما أن يبدأ القتل، والطريقة الوحيدة للإبقاء على الحرب «إنسانية» هى عدم اللجوء إليها منذ البداية.

ولكن فى بعض الأحيان يطرح الرعب الأخلاقى القادم نفسه من منظور القوة والوضوح. فعندما يعلن الرئيس بوش، كما فعل منذ أسبوعين، استعداد أمريكا لاستخدام الأسلحة النووية فى الرد على أى استخدام من جانب صدام حسين للأسلحة البيولوچية أو الكيميائية ضد قوات الولايات المتحدة، فهو فى الواقع يسلم لصدام حسين الأولويات فى الحكم الأخلاقى. فهو يقول إنه تحت ظروف معنية يمكن توقعها، ربما تكون ممكنة أو غير ممكنة، فإن الولايات المتحدة سوف تلحق بالعراق فى تخطى العتبة إلى الهاوية الأخلاقية للدمار الشامل. وبرفع شبح الحرب النووية، فإن الرئيس بوش يحدد بالفعل الحرب التى هو على وشك أن يشنها على أنها حرب دون حدود أخلاقية. وإذا تصور الخيارات والعواقب إلى هذا المدى، فإنه للأسف لا يبدو أنه قد وضع بحسبانه ما الذى سيحدث من جراء عودة أمريكا إلى ممارسة القوة بالرعب النووى؛ إنه قرن وحشى ومايحسب له، مع هذا، هو أنه أعطى العالم وأعطى أمته وصفًا عادلاً لما يتصور أنه يمكن أن يفعله. إنه تحذير عادل، ولكنه ليس موجهًا إلى صدام حسين وحده.

http://www.al-maktabeh.com

هل سمعناه؟ فى ليلة الكريسماس هذه، التى هى تقريبًا عشية حرب أمريكية عدوانية، تركع الأمة على ركبتها للصلاة من أجل السلام. إننا نعبد ذكريات عن فضائلنا. أى كذب هذا الذى نقوله لأنفسنا! سانتا كلاوس قادم الليلة. نحن القوى الخيرية التى تم تجريدها ضد الشر. نعم، كما أن قصف نيكسون ليلة الكريسماس جلب لنا السلام المشرف.

http://www.al-maktabeh.com

* * *

السنة الأخيرة

٣١ ديسمبر ٢٠٠٢م

ماذا لو تمكنا من أن نعرف بشكل مؤكد أن السنة القادمة ستكون هى السنة الأخيرة فى عمر الدنيا؟ وتلخيصًا مستمدًا من الطريقة التى سيصل بها التاريخ إلى ذروته، وبعيدًا عن كل رؤى نهاية العالم، كيف ستؤدى معرفتنا بأن كل شىء سينتهى بعد سنة من الآن إلى تغير تعاملنا مع الحياة والزمن؟ إن طرح مثل هذا السؤال تمرين خارج عن المألوف، بيد أن الدراما التى ينطوى عليها متضمنة فى دورة الزمان. واليوم الأخير من السنة مشحون بالمخاوف لأنه ينذر بما سيكون عليه اليوم الأخير فى كل السنين. ولماذا نحاول أن نتذكر ما الذى يهمنا أكثر من غيره؟ لماذا نلجأ إلى إعادة تنظيم حياتنا وفقًا لذلك؟ ولماذا، بالنسبة لهذا الموضوع، نتحطم؟

ما الذى سيعنيه الحد المعلوم للزمن بالنسبة لنا نحن الأمريكيين؟ كيف سنعبر عن هدفنا القومى إذا ما رأينا النهاية العامة قادمة؟ سنة واحدة زيادة فقط لكى تجعل العالم يعرف ماذا يساوى الحلم الأمريكى. والسؤال الأول، بطبيعة الحال، هو عن الحرب والسلام. فهل سيكون معقولاً أن نمضى فى خطط شن الهجمات على العراق، وخصوصًا أن الغرض المعلن من الحرب هو منع العراق من سوء التصرف فى المستقبل البعيد؟ فإذا لم يكن ثمة مستقبل بعيد، فماذا إذن؟ وماذا عن دور أمريكا فى الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين؟ هل سنقنع بالاستمرار فى الجلوس على مقاعد المتفرجين ومع هذه الخصومات التى وصلت إلى طريق مسدود فى صراعاتهم المميتة؟ أم أننا سوف نشعر بضرورة ملحة جديدة لمساعدتهم على فض الاشتباك؟

إن عدم القدرة على التنبؤ بالمستقبل المفتوح هو الذى يجعل أمريكا تشعر بعدم الأمان. إن استحواذ «الأمن القومى» علينا سوف ينتهى فى ضوء المستقبل المحدود، وسوف نرى بوضوح تام أن ما يحدد علاقتنا ببقية العالم هو ثروتنا الطائلة. فبدلاً من حمايتها، فى الظرف الجديد، ألن نرى ثراءنا بوصفه المصدر العظيم لأجندة جديدة؟ إن مفاهيمنا سوف تتحول. و«الآخر» الذى يهددنا سوف يظهر أنه كائن بشرى من جنسنا يحتاج إلى مساعدة. فالكوريون الشماليون، مثلاً، لن يظهروا بمظهر الشيوعيين المجهولين الذين تصورناهم على مدى خمسين عامًا، وبدلاً من ذلك سيصبحون، مجموعة من الأمهات والآباء والأطفال الذين لا يستطيعون توفير التدفئة لبيوتهم. الطاقة النووية، القنبلة النووية - سوف يتخلى النزاع عن مكانه للحقيقة الكبرى عن الحياة فى كوريا الشمالية اليوم، وهى أن كل فرد هناك يعانى من البرد. فإذا ما بقيت سنة واحدة فقط، ألن نريد مساعدتهم للحصول على الرفاهية الكبرى متمثلة فى التدفئة فى الشتاء؟ ألن نرسل للناس البترول لأنهم سوف يتجمدون بدونه؟

إن رؤية العالم من خلال عدسات الحاجة الإنسانية بدلاً من التهديد المميت، ومع عدم وجود استخدام على طول المدى لثرواتنا المخبوءة، ولا للأسلحة التى تحميها بالتالى، ألن تنفق أمريكا ثروتها فى سبيل أن يعرف الجوعى مرة الرضا البسيط الذى تولده المعدة الممتلئة؟ ألن نفتح مخازننا ونعطى الدواء الفائض، والبطاطين الزائدة، والملابس التى لانحتاج إليها، والكتب والخبز والأدوات الفائضة عن حاجتنا؟ وألن نكتشف ونخجل كم هى كمية ذلك الخبز المخزون الذى ضاع سدى لأننا كنا نملك أكثر مما نستطيع نحن أن نأكله؟

وكأفراد، ما الذى سنفعله فى سنتنا الأخيرة؟ هناك أشياء معينة واضحة. ألن ندعم علاقاتنا، ونتأكد من أن يعرف كل من نحبه أننا نحبه؟ أما أولئك الذين جرحناهم، ألن نعوضهم عن ذلك؟ وبدلاً من أن نحيا لنعمل، ألن نعمل لنعيش؟ ألن نتخلى عن عادتنا فى التأجيل، ونسمح أخيراً بأن يدخل إلى حياتنا الجمال والهدوء والمتعة، والصحبة الطيبة، والوحدة الاختيارية التى كانت تتملص منا؟ وبدون القلق على المستقبل البعيد، أن تستعيد اللحظة الحاضرة قيمتها؟ وألن نعيش كل لحظة مثل هذه ونحن متناغمون مع زوالها السريع، وإذا ما أدركنا مؤخراً، أن ما يجعل التجربة الإنسانيةمأساوية هو الشىء عينه الذى يجعلها جميلة؟

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

نحن شعب متشرذم، ونقع بلا أمل تحت رحمة أهداف متعددة ومتصارعة غالبًا. وثمة ازدواجية دنيوية تحدد وجودنا (الجسد فى مواجهة الروح، العام ضد الخاص، المثالى مقابل الواقعى) وتتركنا لا هنا ولا هناك. ومع سنتنا الأخيرة بوصفها مصدرًا للتركيز الشديد جدًا، ألن نعلن عن وحدة الهدف؟ وهل سننظم وقتنا حول سبب واحد للوجود؟ ماذا سيكون ماذا؟ الثروة؟ الشهرة؟ المتعة؟ السيطرة؟ السعادة؟ العدالة؟ أو ربما يكون هو الحب؟

إنه مجرد تمرين فى السنة الجديدة، أن تتصور أنه بعد سنة من اليوم تغرب الشمس لآخر مرة. وحسب التقاليد والتراث، فإنه سيكون بعد سنة من غد يوم الدنيوية، ولكن ما يظهره التمرين أن الأحكام التى تهم تحدث الآن. إن السنة الجديدة ستكون حسب كل الاحتمالات، ليست السنة الأخيرة فى عمر الدنيا، ولكن ألن تكون الدنيا مكانًا أفضل إذا ما عشنا، نحن البشر الذين تحبهم، كما لو أنها كذلك بالفعل؟

* * *

اليوم التاسع والعشرون

١٤ يناير سنة ٢٠٠٣م

قال يسوع تأملوا الزنابق - ولكنه كان يفكر فى الحقل. إن درس الفصل السياسى الحالى يأتى من زنابق البرك، زنابق الماء. إنه لغز فرنسى قديم. «فى البدء يكون هناك غصن زنابق واحد فى البركة، ولكنه يتضاعف فى اليوم التالى، وبعد ذلك يتضاعف كل من الزنابق التى تولدت عنه. وتمتلئ البركة تمامًا بأعواد الزنابق فى ثلاثين يومًا. فمتى تكون البركة ممتلئة إلى النصف بالضبط؟ الإجابة: فى اليوم التاسع والعشرين».

يستخدم عالم الحشرات إدوارد أو. ويلسون هذا اللغز لتوضيح مدى إلحاح أزمتنا البيئية. «لأن الأرض محدودة فى كثير من الموارد التى تتحكم فى نوعية الحياة - بما فى ذلك الأرض القابلة للزراعة، والأغذية، والمياه العذبة، والفضاء اللازم للنظم البيئية - فإن مضاعفة الاستهلاك على فترات دائمة يمكن أن يجلب الكارثة بفجائية صادمة. وحتى عندما يكون قد تم استخدام مورد غير متجدد نصف استخدام فقط، فإنه تبقى فقط فترة واحدة على النهاية». ويمكن بأن نشعر أن اليوم التاسع والعشرين مثل الأيام

العادية - انظر حجم المكان الذى كان خاليًا فى البركة - ولكنه يمكن فعلاً أن يكون عشية الكارثة. وأولئك الذين يبدون اهتمامًا شديدًا هم فقط الذين يمكنهم أن يروا الأهمية الفائقة لذلك اليوم، ولكن عندها تكون مشكلتهم الكبرى هى إرضاء أولئك الذين لايعرفون ماهية الوقت.

ففى اليوم التاسع والعشرين، ستكون البركة قد توقف نصفها بالموت، ولكنها تبدو على ما يرام. ومن المؤكد أن أمامنا تسعة وعشرين يومًا أخرى لحل المشكلة. ولكن هل نفعل؟ والكيفية التى ينطبق بها هذا الدرس على موارد الأرض المتآكلة واضحة بينة، بيد أن له معنى فى مناطق أخرى كذلك. طبق صورة أوراق الزنابق المتكاثرة على ظاهرة عدوانية البشر. فهل أنا أتخيلها، أم أن هناك تضاعفًا وتضاعفًا فى النزعة الحربية للعالم منذ الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١؟ فى يناير الماضى، أصدرت الولايات المتحدة «تقرير الوضع النووى»، الذى تخلى عن الالتزام الذى استمر طويلا بالتخلص النهائى من الأسلحة النووية. وإضفاء الشرعية بشكل مؤكد من جانب أمريكا على أسلحة الدمار الشامل لديها، قد أدى بالتأكيد إلى مضاعفة وإعادة مضاعفة موقف الاعتماد على أسلحة الدمار الشامل حول العالم، طالما أن أهميتها فى ممارسة القوة قد باتت واضحة بنشر «إستراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة» فى أكتوبر سنة ٢٠٠٢م.

وفى الأسبوع الماضى، وفى عرض يشبه تكاثر أوراق الزنابق، أصدرت الهند تقريرها عن الوضع النووى، وفى الحال تضاعفت قعقعة السلاح من پاكستان. ورفعت الدولتان مزاعم تهديدية متبادلة بأنه يمتلك القوة. وفى بيئة تتنامى فيها النزعة الحربية، فمن ذا الذى سيزعجه أن تستفز كوريا الشمالية خطر الحرب العالمية الثالثة، فمع مثل هذه المستويات الجديدة الصادمة من استعدادات الحرب التى تجتاح آسيا، تخيل نوع القرارات التى تتم صياغتها فى بكين وطوكيو فى هدوء؟ وفى الوقت نفسه، يأخذ الإسرائيليون والفلسطينيون مستوى من الصراع المسلح الذى لم يكن التفكير فيه واردًا منذ وقت طويل، على أنه أمر مسلم به. وهناك أيضًا النزعة العسكرية التى ترفع شعار «حيًا أو ميتًا» التى ترجع بجذورها إلى واشنطن. وكون أن هذه التطورات التى جرت على العالم تقترب من ذروتها بالضبط عندما تأمر الولايات المتحدة أخيرًا بنشر جيشها المقاتل فى الشرق الأوسط - هل يمكن أن يكون مصادفة؟ ربما تكون أمريكا أمة لا

http://www.al-maktabeh.com

يمكن الاستغناء عنها، وربما لا تكون كذلك، ولكن عندما يتعلق الأمر بالحرب، فإنها تكون بالتأكيد أشبه بورقة الزنابق التي تتكاثر. وفي هذا الأسبوع امتلأ أكثر من نصف البركة.

http://www.almaktabeh.com

وليست الحرب فقط. فهناك قدر متزايد من خشونة الحياة في الولايات المتحدة. فالناس الذين لا مأوى لهم ينامون مجددًا أمام الأبواب مما يعد علامة أكيدة على أن الشعور الأمريكي بالروابط المدنية يموت. وحماية القانون تنكمش أيضا. فنحن مدعوون باستمرار بأن نهتم بأنفسنا وبنى جنسنا، دونما اهتمام بأولئك الذين يعيشون فى ظروف مختلفة. والرمز الكبير لهذا هو دور الحكومة الذى يتقلص بوصفها الضامن، والمانح للحاجات الإنسانية عند الضرورة. وتخفيضات الضرائب ربما تكون محفزات اقتصادية وربما لا تكون كذلك، ولكن المؤكد أنها ضربات مميتة للعيادات، والمدارس، والمكتبات، والمعامل، وبنوك الطعام ـ والدافع لدى الشباب لكى يعملوا فى الخدمة العامة. تخيل وطننا فى شكل بركة تكاثرت فيها الزنابق بحيث لم تترك سوى بصيص من ضوء الشمس يكفى لازدهار أوراق قليلة، على حين تغرق كل الزنابق الأخرى فى الظلام المهلك. ومع ذلك، فإن الزنابق المحظوظة ربما تتوهم للحظة أن لا علاقة لها بالبقية، وهوما يجعل فناءها حتميّا أيضا.

الحرب فى الخارج، والقسوة فى الوطن، وكارثة بيئية أيضًا. وفى اليوم التاسع والعشرين، ربما لا تبدو الأشياء على هذه الدرجة من السوء؛ ولكن هل نحن لدينا ما هو أكثر «من فترة واحدة قبل النهاية»؟ هذا السؤال الملح يجب أن يحدد الفصل السياسى الذى يبدأ الآن ـ إنه التحدى الذى فات أوانه أمام چورج دبلو بوش الذى تخنق سياساته الأمة والعالم.

* * *

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

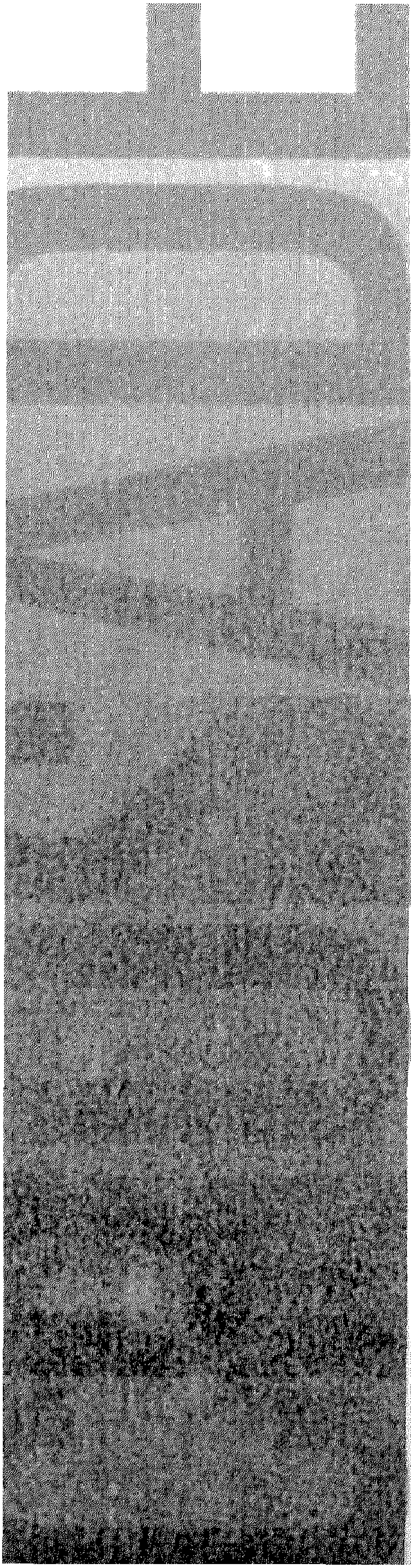

THE AMERICAN EMPIRE PROJECT

http://www.al-maktabeh.com

الجزء الثالث

الحرب

CHRONICLES OF AN UNJUST WAR

١٠- العراق

JAMES CARROLL

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(١٠)

العــراق

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فى ١٧ مارس ٢٠٠٣م خاطب چورج دبليو بوش الأمة قائلاً: «رفاقى المواطنين، لقد وصلت الأحداث فى العراق الآن إلى الأيام الأخيرة لاتخاذ القرار. . . ونحن نتصرف الآن لأن مخاطر عدم التصرف ستكون أكبر كثيرًا».

ثم أشار إلى أسلحة الدمار الشامل، قائلاً: «بهذه القدرات يمكن لصدام حسين وحلفائه من الإرهابيين أن يختاروا لحظة الصراع المميت عندما يكونون هم الأقوى». وفى إشارة واضحة إلى الحادى عشر من سبتمبر أضاف: «نحن نختار أن نواجه هذا التهديد الآن، حيث يبرز، قبل أن يمكنه الظهور فجأة فى سماواتنا وفى مدننا».

وكان التأييد الأمريكى الواسع للحرب قائمًا فى أغلبه على الربط بين العراق وهجمات الحادى عشر من سبتمبر، والهلع من تلك «القدرات العراقية». ولم تكن أيٌّ منها موجودة كما يعرف معظم الناس فى العالم، وأقلية نشطة فى الولايات المتحدة الأمريكية. وباتت مشروعية الحرب محل تساؤل، ولا سيما، من جانب فرنسا وألمانيا. وحتى فى البلاد التى كان قادتها مؤيدين لبوش مثل إسپانيا وإيطاليا، وبلدان من «أوروپا الجديدة»، كانت الأغلبيات الشعبية تقف بصرامة ضد الحرب. وقبل بدء الهجوم على العراق بالفعل، كانت شوارع المدن الكبرى فى العالم تغص بالمحتجين - فى مظاهرات احتجاجية لم يسبق لها مثيل.

وبعد يومين من خطاب الرئيس، بدأت عملية «حرية العراق». ووفقًا لمجموعات الأطباء المراقبين، قتلت الحرب ٥٥ ألف ضحية منهم حوالى عشرة آلاف مدنى. ومع بداية سنة ٢٠٠٤م، كان أكثر من ٥٢٥ أمريكى قد قتلوا، وحوالى ٢٧٠٠ جريح معظمهم أصيب بعاهات مستديمة (لم تصل أعداد المصابين الأمريكيين فى ڤيتنام إلى هذا المستوى حتى سنة ١٩٦٥م، أى بعد عامين من التورط هناك). وقد أدت الحرب

إلى المزيد من تدهور البيئة العراقية، والبنى التحتية الاجتماعية، والنظام المدنى، ونظام الرعاية الطبية، والتغذية. وقد وافق معظم العراقيين على إزاحة صدام حسين حسبما أشارت التقارير، ولكن تبرير إدارة بوش للحرب تم ربطه ليس بالديمراقرطية أو حقوق الإنسان، وإنما بالتهديد الوهمى لأسلحة الدمار الشامل. وعلى مدى ثمانية شهور أفلت صدام حسين من الأسر.

وخارج العراق، التهبت مشاعر المتطرفين من بين العرب والمسلمين. وفى المناطق السنية بالعراق، بدأ التأييد لصدام الغائب يظهر علنًا. وانتشرت المقاومة ضد الاحتلال العراقى ببطء من وسط العراق الذى يسيطر عليه السنة، إلى مناطق خاضعة لسيطرة الشيعة. وبدلاً من «الأيام الأخيرة»، كانت الحرب هى بداية فوضى جديدة.

فى الأمم المتحدة

١١ فبراير سنة ٢٠٠٣م

لا تترك كولين پاول يخدعك. فبشهادته أمام مجلس الأمن الأسبوع الماضى، جعل وزير الخارجية الكثير من السياسيين الذين كانوا مترددين من قبل، ينضمون إلى حزب الحرب. بيد أن ذلك مقياس مدى ما كان عليه الجدل الأمريكى حول الحرب ضد العراق من سذاجة. فالمسألة ليست ما إذا كان صدام حسين شريرًا. فقد أكد اتهام پاول سلوك العراق السيئ، على الرغم من أن ذلك لم يحمل أية مفاجآت أو ظهور لتهديد مفاجئ. وإنما تتعلق المسألة بما الذى ينبغى فعله إزاء سلوك صدام السيئ.

ولا يخدعنك دونالد رامسفيلد أيضًا. فقد قال وزير الدفاع فى ميونيخ يوم السبت: «إن مخاطر الحرب يجب موازنتها مع مخاطر عدم فعل شىء، على حين يتابع العراق إنتاج أسلحة الدمار الشامل». وتمامًا مثلما غش پاول حول ماهية السؤال، غش رامسفيلد حول عدم وجود بديل للحرب. إذ إن عمليات التفتيش المستمرة بل الأكثر غلظة، مثل تلك التى اقترحتها فرنسا وألمانيا، هى بديل للحرب كما أن الاحتواء بديل للحرب. والتطبيق العدوانى لمبادئ القانون الدولى بديل للحرب.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

لقد كان تلخيص كولين پاول الادعائى للقضية ضد صدام حسين استهلالاً ليس لمزيد من الإثارة للحرب، وإنما لشهادة قانونية ضد الرئيس العراقى بارتكاب جرائم ضد الإنسانية. وتسأل نفسك، فى أية محكمة، وتحت أية سلطة؟ إن حرب أمريكا الوشيكة تأخذ شكلاً عبثيًا - ومأساويًا أيضًا - فى ضوء ما يجرى الآن. ففى الأسبوع الماضى أنشئت المحكمة الجنائية الدولية بالانتخاب الرسمى للقضاة. وفى الشهر القادم ستكون المحكمة رسمية. وغرضها هو أن تتناول بالضبط تلك التهم التى توجه إلى صدام حسين. والشهادة الإجبارية فى مثل هذه المحكمة، والتى تعقبها المحاكمة، الإدانة، وحكم ينفذه العالم، تحمل إمكانية غير مسبوقة تشبه الليزر فى إطلاق الطاقة الأخلاقية. إن المحكمة تقصد أن تفعل على المسرح العالمى ما حدث بالفعل داخل الأمم - أن يتم إحلال قوة القانون محل قوة العنف. وهو بديل حقيقى للحرب.

ولكن الأمم الـ ١٣٩ التى وقعت على اتفاقية المحكمة الجنائية الدولية لم تعد تضم الولايات المتحدة الأمريكية، منذ قيام چورچ دبليو بوش برفض التوقيع على هذه الاتفاقية. ورفض الولايات المتحدة الإسهام فى المحكمة الدولية الجديدة يجعل هذه المحكمة غير مختصة بالأزمة الحالية، ولكن الرفض يكشف صراحة أيضًا عن أفدح مشكلة تواجه العالم: وهى احتقار أمريكا لخلق بدائل الحرب.

وأهم سبب للتشكك فى مزاعم إدراة بوش عن الضرورة لا علاقة له بصدام حسين. وإنما يتعلق بميل بوش الواضح إلى الحرب، وعندما يكون سبب الحرب محل نزاع، فإن إنحياز بوش يؤثر على كل شىء. وقد قورن أداء پاول فى الأمم المتحدة بأداء السفير الأمريكى أدلاى ستيفنسون سنة ١٩٦٢م، ولكن الحرب تم تجنبها فى الأزمة الكوبية، وكما حدث فى أزمة برلين فى السنة السابقة بالضبط؛ لأن چون ف. كنيدى فى خطابه الافتتاحى الذى غالبًا ما يُساء فهمه ويرد إلى الذاكرة باعتباره دعوة إلى السلاح فى زمن الحرب الباردة، كان تحديًا مباشرًا لخلق بنى جديدة للسلام. فقد اقترح الابتهال من أجل التغير السياسى، ومد وثقية الأمم المتحدة، ونهاية لسباق التسلح؛ وإحلال «توازن القوة مع عالم جديد من القانون»؛ وثقة جديدة من المفاوضات (لا تخشوا من المفاوضات أبدًا)؛ تأكيدًا على أن التحضر ليس علامة على الضعف. وفى كل من هذه النقاط - الأمم المتحدة، سباق التسلح، القانون الدولى، المفاوضات، وحتى التحضر - قامت إدراة بوش باتخاذ مسار عكس الحركة التى كانت قد بدأت مع كنيدى.

أما بالنسبة للحرب، وفى أكثر فقرة يتم تذكرها بشكل خاطئ، فقد أوضح كنيدى رفضه لها: «إن الطبول تُقرع الآن لكى تجمعنا - ليس كدعوة لحمل السلاح، على الرغم من أننا نحتاج السلاح، وليست كدعوة للمعركة، على الرغم من أننا نخوض المعركة، ولكن الدعوة لحمل عبء نضال طويل، نضال سنة فى الداخل وسنة فى الخارج . . . نضال ضد الأعداء المشتركين للإنسان: الطغيان، والفقر، والمرض، والحرب نفسها».

إن الحرب نفسها هى العدو. ليست عاطفة «المثاليين» ولكن الاستنتاج البراجماتى للرجال والنساء الذين شاهدوا أهوال الحرب فى القرن العشرين. فى رفض حرب بوش، تكرم فرنسا وألمانيا تلك الذكرى اليوم، وكذلك يفعل الذين أقاموا المحكمة الجنائية والدولية. «لا حرب بعد اليوم» - هذا ما أعلنه البابا بولس السادس - فى الأمم المتحدة أيضًا - سنة ١٩٦٥م. عندما صاح «لا مزيد من الحروب» حياه جيل من قادة العالم، كلهم باستثناء واحد. وحينذاك أيضًا، فى ذلك الخريف أيضًا الذى شهد «الرعد المتدحرج»، خيّب رئيس أمريكى شوقًا عالميًا إلى طريق آخر. ولكن البابا، فى خطابه أمام الأمم المتحدة، لم يتردد فى أن يقرر «لقد رحل رجل عظيم، هو چون كنيدى» ضد الدعوة للحرب فى واشنطن، كما أننى لا أتردد أيضًا. لقد تذكر البابا كنيدى بقوله: «إن على البشرية أن تضع للحرب حدًا، وإلا فإن الحرب ستضع نهاية الجنس البشرى».

***

عصر البراءة

١٨ فبراير ٢٠٠٣م

كتب اللورد بيرون: «هذا هو العصر المفتوح للاختراعات الجديدة/ لقتل الأجساد وإنقاذ الأرواح. وكلها تولدت عن أحسن النوايا». هذه السطور استخدمت لتصدير كتاب جراهام جرين The Quiet American. وقد ظهرت تلك الرواية للمرة الأولى سنة ١٩٥٥م، ولكن نسخة منها على شكل فيلم وصلَت إلى دور العرض الأسبوع الماضى، وهو تجديد جاء فى وقته للنبوءة التى تحملها. والدور الذى قام به مايكل كاين لتمثيل شخصية توماس فولر، الصحفى البريطانى الذى أدمن الأفيون والذى يصارع - ويصادق - أحد منفذى عمليات المخابرات الأمريكية، والذى تم ترشيحه للأوسكار

http://www.al-maktabeh.com

للتو. وربما يذهب الأمريكيون لمشاهدة هذا الفيلم بسبب الأداء التمثيلي الرائع، ولكن فى «العصر المفتوح» للحرب القادمة، ربما يجدون شيئًا أكثر من هذا.

http://www.ibtesamaktabeh.com

لقد كان جراهام جرين خبيرًا ليس بالخير والشر ولكن بالبراءة والفساد. وأخطار الفساد معروفة جيدًا ـ ولكن البراءة هى التى ينبغى الخوف منها بشكل خاص. فقد كان جرين واقعًا تحت وطأة الاستحواذ من هذا التناقض الأخلاقى. ففى «The Power And The Glory»، يكون مساعد الشرطة حسن النية مصدرًا للموت والفوضى، على حين يحضر القسيس الهارب المنشق أولئك الذين يقابلهم إلى رحاب الحياة التامة. ويعانى «سكوبى»، بطل «The Heart of The Matter» من «الفساد بالشفقة» ويجسد مأساة التدخل الأوروبى فى أفريقيا. وفى «Honorary Consul»، حيث يتم خطف أمريكى على أيدى الثوار فى الأرجنتين، يوضح ملامح شخصية أساسية يكون بالنسبة لها «الاهتمام هو الشىء الوحيد الخطر». ودائمًا، البراءة التى يعرفها جرين فى «The Quiet American» باعتباره «المنبوذ الغبى الذى فقد جرسه، ويجوب حول العالم، دونما قصد بأن يؤذى أحدًا». والمنبوذ هو الشخصية الأساسية فى«The Burntout Case»، والتى تجرى أحداثها فى الكونغو، حيث المسألة ما بين البراءة الغبية والعدمية ـ واسم البطل Querry.

يمكن للمرء أن يحكى القصة الوحشية للاستعمار الأوروبى باعتبارها ملحمة حافلة بمخاطر النية الحسنة. (فالبلچيك، على أية حال، بدأوا عمليات الإبادة فى الكونغو باسم القضاء على الرق). فالنيات الحسنة تكون عباءة لأجندة أكثر غموضًا، وبوصفه رجلاً إنجليزيًا جاء فى عصر تجلت فيه الأعمال الوحشية النبيلة من الخنادق خلال الحرب العالمية الأولى (الحرب لإنهاء الحرب)، كان جرين يعرف هذا جيدًا.

بيد أن جرين أنجز رائعته الأدبية حينما طبق هذا النقد على الدافع الأمريكى الوليد فى ڤيتنام، كما أنجز أكثر انتقاداته السياسية حدة. إذ إن آلدين پايل، الأمريكى الهادئ الذى يشير إليه عنوان الرواية The Quiet American، رجل تضم رفوف مكتبته كتب سياسية مثالية من نوع The Challange To Demoraay، ولكن على نفس الرف يوجد كتاب The Physiology Of Marriage مما يشير إلى براءته المثيرة للشفقة عندما يتعلق الأمر بالشئون الجنسية. وپايل مشدود إلى عشيقته فولر، وهى امرأة جميلة تدعى

«فوونج». ويريد پايل أن ينقذها من فولر، الذى يجسّد فساد «أوروپا القديمة»، إذا ما استخدمنا العبارة الجارية فى واشنطن. ويريد پايل إنقاذ وطن «فوونج» أيضًا، بهدف خلق« قوة ثالثة» فاضلة ليست شيوعية ولا استعمارية. ويعترف فولر بقوله: «نحن الشعوب الاستعمارية القديمة يا پايل، ولكننا تعلمنا قدرًا من الحقيقة، تعلمنا ألا نلعب بالكبريت. هذه القوة الثالثة - إنها تخرج من كتاب».

ومع هذا، فإن پايل لا يقدم الكبريت فقط ولكن المتفجرات. وبعد قصف مرعب بالقنابل يريق الكثير من الدماء، يخبر فولر پايل « لقد وضعت القوة الثالثة والديمقراطية الوطنية على حذائك الأيمن». ويرى فولر ما سوف يأتى فى سياق التدخل الأمريكى، ولكن پايل لا يراه. «لقد كان مسلحًا بشكل محصن بنواياه الحسنة وبجهله». أما فولر، الذى لم يكن لديه أى أحساس خاص بالفضيلة، فيقوم بالتصرف أخيرًا ضد پايل ويصبح متورطًا فى قتله. ومع موت الأمريكى، لا يكون أمام عشيقة فولر خيار سوى العودة إليه. ويقول السطر الأخير من الرواية «لقد مضى كل شىء على ما يرام معى منذ أن مات، ولكننى أتوق إلى أن يكون هناك شخص موجود أستطيع أن أقول له إننى آسف».

ورؤية جرين رؤية مكشوفة، كما لو أن الخيار الوحيد هو بين البراءة الجاهلة المدمرة والفساد المؤذى ولكنه واع بذاته. وليست رواية The Quiet American تنبؤية فى أىّ جزء منها أكثر من ذلك الاسم البسيط الذى أعطاه جرين للمرأة التى تحرك كلاً من الرجلين. ويقول فولر عن اسم «فوونج»: «إن معناه العنقاء، ولكن لا يوجد اليوم شىء خرافى، ولا شىء يقوم من بين الرماد». ولكن ما لم يستطيع جرين أن يعرفه فيما بين عامى ١٩٥٢م و١٩٥٥م عندما كتب الرواية، هو أن الدائرة النهائية للجحيم فى خلفاء پايل فى CIA، سوف تنزل من المثالية، إلى برنامج أواخر الستينيات للاغتيال، والذى يسمى «عملية العنقاء» «عملية فوونج».

إن ڤيتنام تطارد روحنا الوطنية لأن عنف أمريكا قد تحرك على نحو جيد تمامًا، تدمير القرى، نعم، ولكن فقط لإنقاذها. وتعلمنا ڤيتنام أن المقاصد الحسنة لا تكفى. وفى العصر المفتوح للاختراعات الجديدة، يجب أن تكون هناك بنفس القدر المعرفة - ونحن نأخذها من جرين ولكن أيضًا من الجيل الذى حقق نبوءته - بأن إنقاذ الأرواح بقتل الأجساد أمر مستحيل. تأمل أمة تعلن براءتها وهى فى الطريق إلى الحرب.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

راقب الحرب بعينيك الاثنتين

٢٥ فبراير ٢٠٠٣م

لأن دائرة الفوضى كانت تطبق على المملكة، فقد ذهب البطل إلى الوحش الخرافى، وأخضعه بالقوة، وطلب أن يعرف سر إرساء النظام من رحم الفوضى. وأجاب الوحش الخرافى «أعطنى عينك اليسرى وسوف أخبرك». ولأن البطل كان يحب شعبه المهدد بدرجة كبيرة، فإنه لم يتردد. وخلع عينه اليسرى وأعطاها للوحش، الذى قال له حينئذ: «إن السر فى سيادة النظام على الفوضى هو: راقب بعينيك الاثنتين».

هذه القصة، من الروائى الراحل چون جاردنر، توضح بالضبط المشكلة الأمريكية. فنحن مقبلون على حرب بعين واحدة فقط. وتلك العين ترى العراق وصدام حسين وتهديد الإرهاب، والانفصال عن ـ أوروبا القديمة ـ بمثابة الفناء الأمامى المخيف فى عالم ما بعد ٩ـ١١. ولكن ما نراه هو الخلفية الأكبر حيث تكمن أخطار أشد فتكًا بكثير. فليست لدينا عين ننظر بها إلى أية إمكانية حقيقية، بأن هذا الحرب المتباهية المختالة، التى تتراوح مع روح «نحن أو هم» التى تهيمن على السياسة الخارجية الأمريكية، لابد وأن تجبر روسيا والصين على العودة إلى العداوة المسلحة التى سادت فى زمن ولى وراح. إن إعادة هذه العداوة، سوف يعيد كلتا القوتين، سواء بشكل مستقل أو مع بعضهما، إلى خندق التهديد النووى ـ الطريقة الوحيدة للحد من ممارسة واشنطن القطب الأحادى للقوة. ومن المثير للسخرية، أن كون نجاة العالم من الرعب النووى فى الحرب الباردة، يبدو أنه جعل الشعب الأمريكى يفترض أن مثل هذا التهديد لن يظهر أبدًا، وهو السبب الوحيد فى أن الأخطار الأقل التى يحملها صدام حسين والقاعدة قد آذتنا على هذا النحو.

ولكن الخطر النووى الذى تحمله القوة العظمى قد عاد. ومن المعلوم جيدًا أن الولايات المتحدة، وروسيا، والصين بدرجة أقل، تحتفظ بترسانات نووية قادرة على تدمير العالم. ولكن ما لم تتم ملاحظته بشكل كاف هو أن القوى النووية قد توقفت عن العمل لإزالة الأسلحة النووية، وتعتمد بشكل متجدد عليها لضمان السلامة القومية. وكان هذا واضحًا منذ سنة فى واشنطن مع تقرير الموقف النووى الذى أصدره

البنتاجون، ولكن ليس هناك فقط. فبينما أعلن ليونيد بريچنيف (في استجابة لحركة على اتساع العالم تنادى بتجميد التسلح النووى) سنة ١٩٨٢م أن موسكو لن تكون أبدًا هى البادئة فى استخدام التسلح النووى، تخلى ڤلاديمير پوتين (ردًا على الحرب الجوية التى شنها حلف الأطلنطى سنة ١٩٩٩م على صربيا) عن هذا الوعد سنة ٢٠٠٠م. وقد اقترح ميخائيل جورباتشوف سنة ١٩٨٦م التخلص من جميع الأسلحة النووية؛ ولكن مفهوم پوتين الجديد للأمن، مثّل مذهب بوش الاستراتيجى الجديد، يفترض الإبقاء عليها.

وكذلك الحال مع الصين. فعندما أعلنت واشنطن فى العام الماضى تخليها عن اتفاقية الحد من الصواريخ الباليستية، كان بوسع بكين أن تفترض بشكل معقول أن نظام الدفاع الصاروخى فى الولايات المتحدة سوف يحد من قيمة الردع لترسانة الصين النووية الصغيرة نسبيًا مما يمثل دافعًا جبريًا لسباق التسلح، ويصبح البرنامج الصينى الوليد لعسكرة الفضاء ردًا حتميًا على برنامج حرب النجوم الذى أعاد البنتاجون إحياءه. إن سباق التسلح قد بدأ.

فما الذى أمامنا هنا؟ روسيا تنتصب منتبهة بسبب التحركات الأمريكية فى آسيا الوسطى؛ والصين القلقة دائمًا من تايوان التى سلحتها أمريكا - هى الشروط الملائمة لحرب باردة متجددة - وما هو أسوأ. هذه هى الخلفية التى تعمينا عنها عيننا المفقودة. إن الحرب فى العراق سوف تفتح على جميع الأهوال المرعبة، التى يمكن أن تنتشر بسرعة. إن نزوع روسيا الحربى المتسارع سوف يؤدى إلى زعزعة الاستقرار فى أوروبا الشرقية وألمانيا التى تزعج أمريكا، والتى ربما تعمل فى النهاية على إنتاج أسلحتها النووية الخاصة بها. وتصعيد الصين فى التسليح النووى سوف يشعل تصعيد الهند بالشكل الذى يزيد الضغط على اليابان، وأخيرًا، لكى تمتلك الأسلحة نووية. والنيران المتأججة بالفعل فى كوريا الشمالية وپاكستان يمكن أن تندلع بسهولة. وثمة نظرية دومينو - سقوط المنع النووى أمام التكاثر النووى الشامل - سوف تبرهن عل صحتها فى النهاية. وهى سلسلة جديدة من ردود الأفعال.

إن المراقبة بكلتا العينين تتيح لنا أن نرى أننا بالتعامل مع صدام حسين، لا يهم اقتناع أية دولة أخرى أكثر من اقتناع روسيا والصين. ولماذا؟ ببساطة لأن روسيا والصين يمكنهما، معنا، إطلاق القوى التى تدمر العالم. إنه أمر أكثر حسمًا عن ذى قبل، بناءً

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

على الحصاد السلمى الذى يقترب من الإعجاز للحرب الباردة، أن نقيم أبنية للثقة والتبادلية مع هذين العدوين السابقين. ومع هذا فإن العكس هو الذى يحدث. فإذا عمدت واشنطن أن تنطلق للقضاء على موسكو وبكين، فلا بد أن تبدو سياستها على النحو الذى تبدو عليه إدارة بوش تمامًا.

ويبدو أن الأمريكيين لم يلاحظوا أن كلاً من روسيا و الصين تعارض خطة الولايات المتحدة لغزو العراق- وهى معارضة كان يجب أن يكون وزنها أبعد كثيرًا من معارضة حتى فرنسا وألمانيا. ويكون من حق روسيا والصين أن تشعرا بالتهديد المباشر إذا ما واجهتا هذا الاستعراض الذى يظهر فقط على أنه هجوم إمبريالى أمريكى. ويمكن أن نتوقع منهما أن تسرعا إلى بناء قوة مضادة تهدف إلى تحديد قدرات واشنطن، وترفع مستوى التهديد الكارثى الذى سيجعل من حرب اليوم على الإرهاب- وحتى حرب الغد على العراق- تبدو مثل الأيام الخوالى الطيبة. ومعنى مراقبة حرب الولايات المتحدة العدوانية الوشيكة بكلتا العينين تعنى معارضتها.

* * *

سياسة حرب تنهار

٤ مارس ٢٠٠٣م

ما الفرق الذى يحدثه شهر؟ فى ٥ فبراير جعل وزير الخارجية كولين پاول قضية إدراة بوش ضد العراق من خلال عرض للسلطة حرّك الكثير من الموظفين والمنتقدين خارج دائرة الرفض ودخلوا إلى دائرة القبول. فقد جعل الحرب تبدو حتمية، مما دعا ملايين الناس آنذاك للتعبير عن معارضتهم فى الشوارع حول الكرة الأرضية. وعلى مدى الأسابيع التالية، دار الجدل بين الصقور والحمائم واتخذ صورة للأيديولوچيين الذين يضربون بعضهم بعضًا من مواقع ثابتة. وبدا أن الغضب الهائج من جانب معارضى الحرب والتجريدات المتكلفة الحمقاء من جانب مؤيدى الحرب، كلاهما لا علاقة له بحشد القوات. فقد كانت الحرب آتية. وكان المزيد من الجدل بلا فائدة. وبدا وكأن الوقت قد حان، أخيرًا، لكاتب العمود فى الصحيفة أن يغير الموضوع.

ثم جاءت أحداث الأسبوع الماضى. ففى غضون أيام قليلة، أظهرت سياسة الحرب التى تتبعها إدراة بوش فجأة علامات الانهيار الأولية. وليس هناك من بين هذه

التطورات ما يقف فى حد ذاته علامة على تغيير بالنسبة لبوش، ولكن إذا ما أخذناها سويّا فإنها تشير إلى أن قانون «العواقب غير المقصودة»، الذى يشتهر بإفساد أفضل الخطط التى يضعها المحاربون، يمكن أن ينطبق هذه المرة قبل أن تبدأ الحرب رسميّا. تأمل ما حدث بينما كان فبراير يتلاشى أمام مارس.

* اضطر تونى بلير إلى انتقاد چورچ دبليو بوش بسبب عناده فى المسائل البيئية، وهو توقيت غريب لمثل هذا الانتقاد من حليف وثيق، ومع ذلك فهو جهد واضح للابتعاد عن واشنطن بقدر ما. لماذا الآن؟

* اختار والد الرئيس أن يتحدث فى خطبة تؤكد على أهمية كلّ من التعاون من جانب العديد من الدول، والواقعية فى التعامل مع أشباه صدام حسين. والقول، كما فعل بوش الكبير، بأن التخلص من صدام حسين سنة ١٩٩١م لم يكن أهم شىء، يثير السؤال: لماذا أصبح هو الشىء المطلق الآن؟.

* للمرة الأولى منذ بداية الأزمة، بدأ العراق فعلاً نزع سلاحه، وحطم صواريخ صمود ٢، ومن الواضح أنه يجهز لاستحضار مفتشى الأسلحة لكى يطلعوا على سر الأنثراكس وغاز الأعصاب. وكان يمكن لإدارة بوش أن تدعى أن هذا انتصار تمارس على أساسه المزيد من الضغوط نحو نزع السلاح.

* بدلاً من ذلك، حفزت عمليات تدمير الأسلحة العراقية المؤكدة واشنطن على مزاوجة دعوتها إلى نزع السلاح، مع دعوتها القديمة المدانه ديبلوماسيّا بتغيير النظام. ولن يكفى تجريد العراق من أسلحة الدمار الشامل لتجنب الحرب. وكان المتوقع، وحدث فعلاً أن سأل العراق لماذا تعين على صدام حسين أن يتخذ خطوات لنزع السلاح إذا كان محكومًا على حكومته بالهلاك؟ على أية حال إن عدم إتساق بوش فى هذه النقطة ـ نزع السلاح أم تغيير النظام؟ ـ قوضت القضية الأولى للحرب. وكونها تعاود الظهور الآن، وهى تطمس مجادلة پاول منذ شهر مضى، يعتبر أمرًا خطير وقاتلاً بالنسبة للتماسك الأخلاقى لموقف المجندين للحرب.

* لقد أعلن وزير الخارجية الروسى استعداد بلاده لاستخدام حق الڤيتو فى مجلس الأمن لتقويض الآمال الأمريكية فى موافقة الأمم المتحدة على الحرب.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

* وعلى الرغم من تقديم عدة بلايين مساعدات، رفض البرلمان التركى الموافقة على الطلبات الأمريكية لشن عمليات هجومية من القواعد الأمريكية فى تركيا - مما مثل أكبر ضربة ضد خطط الولايات المتحدة الحربية حتى ذلك الحين. هذا الإخفاق الذى حاق بديبلوماسية بوش، بحيث قضى على جبهة ثانية، سوف يتم دفع ثمنه من حياة الأمريكيين.

* والقبض فى پاكستان على خالد شيخ محمد، الذى كان من كبار رجال القاعدة، لابد وأنه كان الخبر الطيب الوحيد بالنسبة لإدارة بوش، ولكنه أوضح الفرق بين مطاردة مرتكبى أحداث ١١ سبتمبر، والحرب التى تشن على العراق بدون ما يربطها بذلك. أسامة بن لادن نعم. صدام حسين لا.

* أما الموظفون الأمريكيون، الذين يعارضون التصورات العسكرية، ثم يرفضون الشهادة أمام الكونجرس لتقدير نفقات الحرب وجهود ما بعد الحرب، فقد أظهروا إما عدم كفاية استعدادات الإدارة أو تصميمها، من خلال السرية، على عرقلة الإجراءات الديمقراطية - فاختر أحدهما.

* وفى تطورات أخرى، وفى توضيح حماقة واشنطن المثيرة للفزع، رفضت الفليپين أن تساعد القوات الأمريكية التى وصلت للقتال، وكان واضحًا أن كوريا الشمالية قد أعدت العدة لبدء إنتاج البلوتونيوم، وأمر وزير الدفاع دونالد رامسفيلد بالنشر الفعلى لوحدات الدفاع الصاروخى فى كاليفورنيا وآلاسكا، رافعًا المزاعم العبثية (واللاقانونية الآن) بأن المزيد من الاختبارات غير ضرورية.

ويشير هذا كله إلى إدارة ترتبك سياساتها وتفتقر ممارساتها إلى الكفاءة. إن الكفاءة التى يتحرك بها العسكريون الأمريكيون لاتخاذ موقع الهجوم أمر مؤثر؛ إذ إن آلافًا من الأمريكيين فى الزى الرسمى يستعدون لتنفيذ الأوامر التى يصدرها قادتهم المدنيون بشجاعة واتقان. ولكن فراغ هذه القيادة المدنية الذى تجلى عاريًا فى أخبار الفوضى فى الأسبوع الماضى، يقطع الأنفاس. وكون أن الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تكون على حافة حرب مثل هذه الحرب غير المفهومة جيداً وغير الضرورية، هو بحد ذاته جريمة. والأمل معقود الآن - حتى قبل أن تبدأ الحرب رسميًا - على أن خصائصها الحقيقية تكشف عن نفسها بالفعل، وهو ما يمكن أن يكون كافيًا، فى النهاية، لإيقافها.

تأمل فى الحرب

١١ مارس ٢٠٠٣م

حتى تبدأ الحرب، يجب أن يصرّ المرء على أنها ليست حتمية. فالحكمة التقليدية هى أن الولايات المتحدة، التى نشرت بالفعل قواتها المقاتلة الضخمة، لا يمكن أن تتراجع عن الهجوم ضد العراق دون مهانة ـ وخسارة فادحة فى «المصداقية». ولكن «الحكمة» تفشل فى أن تأخذ فى حسابها الحقيقة الأساسية فى الاستراتيچية العسكرية. «العنف هو الذى يكون الأكثر هدفًا والأكثر نجاحًا» حسبما كتب المنظر توماس سى. شيلينج «عندما يتم التهديد به ولا يتم استخدامه. والتهديدات الناجحة هى التى لا تحتاج إلى تنفيذها». ويبدو أن إدارة بوش مرتبكة بهذا الخصوص، كما لو أن الحركة من التهديد إلى الفعل أمر جامد. فلماذا يجب على واشنطن أن تظهر مثل هذه اللامبالاة المتسقة للنجاح الواضح الذى حققته تهديداتها لصدام حسين؟ لقد انحنى الطاغية باطراد لإرادة واشنطن، وأبدى كل إشارة على الاستمرار فى هذا على الرغم من صخبه.

ولكى نطرح السؤال بطريقة أخرى: لماذا لم تعلن واشنطن الانتصار، وتشرح أن هذا الاستسلام البطىء من جانب العراق لسلسلة من الضغوط ـ المفتش هانز بليكس فى جانب، والچنرال تومى فرانكس على الجانب الآخر ـ هو ما يبدو عليه النصر الآن؟ وبدلاً من فقدان المصداقية، فإن هذا الحل الذى يمنع حربًا مفتوحة سوف يقال إنه يمثل انتصار التهديد المميت مقرونًا بعملية سياسية، وهو مثال راق على القوة العسكرية التى تستخدم بقوة حقيقية. وكبح جماح هذه القوة أمر أساسى بالنسبة لها. ولكن بدلاً من ادعاء تحقيق هذا الإنجاز والبناء عليه، تبدو واشنطن وقد عقدت العزم على تبديد إنجازها والذهاب إلى الحرب ـ على الرغم من التراكم المطرد للأسباب التى تدعوها إلى ألا تفعل هذا. فلماذا؟

لقد تحركت أهوال الحرب إلى الجزء الأمامى من العقل العام كلما اقترب يوم الصفر. عجزت عن الإقناع كل الأسباب التى أقرتها إدارة واشنطن للتحرك من التهديد إلى العنف، وعدم كفاية تلك الأسباب تشى بأن شيئًا آخر قيد التنفيذ. فماذا يمكن أن

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

يكون؟ يتطلب هذا السؤال تفكيراً شاقًا فى الجانب الآخر من الحرب ـ ليس أهوالها وإنما جاذبيتها. فهل يمكن أن يكون الأمر أن هناك رغبة غير واعية للذهاب إلى الحرب ـ هى التى تسوق چورچ دبليو بوش والدائرة المحيطة به على طول المدى؟

خدم پيير تيلهارد دى شاردان، العالم ـ القسيس الكبير، فى الخدمة الطبية فى خنادق الحرب العالمية الأولى. وشاهد أهوال الحرب عن قرب. ولكنه رأى الشىء الآخر أيضًا. وكتب «إن الجبهة تجتذبنا؛ لأنها بطريقة ما هى الحدود القصوى بين ما تدركه وتعيه بالفعل، وما يزال تحت التشكيل والتكوين. فأنت لا ترى هناك فقط الأشياء التى لا تجربها فى أى مكان آخر، ولكنك أيضا تشاهد تياراً من الوضوح والطاقة والحرية تبزغ من داخلك لا يمكن أن تجده فى أى مكان آخر فى الحياة العادية».

ويبدو واضحًا أن إحساس بوش بنفسه باعتباره رئيس حرب، «رجل الجبهة» هو مصدر «الوضوح والطاقة والحرية» التى لم يكن ممكنًا أن تكون من خصاله فى أحوال أخرى عدا ذلك. لقد ذهب قادة وأمم كاملة إلى الحرب باعتبارها طريقًا للخروج من غموض «الحياة العادية»، وغرائبها. وحددوا أهدافهم فى البلاغة الراقية عن الشرف والمجد، بينما كانوا يُشبعون الحاجات الأساسية تمامًا، وهو ما كان بغرض الهروب من التفاهة. ولن يكون الرئيس بوش أول قائد يقود شعبه إلى حرب لسبب مثل هذا، ولن تكون أمريكا هى أول بلد ترحب بالحرب لمثل هذا السبب. والواقع، أنه لفترة ربما كانت الأمة بأسرها تستمد نوعًا من المؤازرة الحية من كونها على «الحدود القصوى»، حيث يكون الأداء البشرى مرهفًا، والاختيارات بطولية، ويحل محل «ضباب السلام» رؤية بللورية للقيمة الثمينة للحياة، ومن دواعى السخرية، أن يتم ذلك بإضاعة الحياة. وكما يعرف أولئك الذين بلغوا من العمر ما يجعلهم يتذكرون ڤييتنام ـ أولئك الأمناء بحيث يعترفون بهذا ـ فإن هذه الحدود القصوى كان لا بد أن تصبح مملكة لأولئك الذين يكرهون العنف بقدر ما هى مملكة لأولئك الذين يفرضونه. إن الحياة التى بنيت حول المعارضة شديدة الكثافة للحرب يمكن أيضًا أن تصبح حياة تم إنقاذها من الوسطية ـ أو تحتها ـ التى تتسم بها التجربة الدنيوية.

هناك حقيقة مؤلمة هنا يجب على الجميع أن يعترفوا بها. إذا تحركت هذه الأمة بالفعل، ضد كل الأسباب المعقولة ـ من التهديد إلى العنف، فإن «الوضوح والطاقة

والحرية» سوف تكون من نصيب أولئك الذين غرضهم إيقاف الحرب بقدر ما هى من نصيب أولئك الذين يخوضون الحرب. وقد لاحظ تيلهارد «إن هذا الإفراط بالشعور بالقوة يصحبه ألم معين. ومع هذا فإنه إفراط حقًا. وهذا هو السبب فى أن المرء يحب الجبهة على الرغم من كل شيء، ويفتقدها». إن ما يعترف تيلهارد بأنه يحبه هنا ويفتقده، هو المكان الذى مات فيه عشرة ملايين من البشر، وأصيب فيه عشرون مليونًا آخرون بالجروح والعجز. ومع هذا فإنه من بين كل أهوال الحرب، أليس هذا هو الأشد غرابة - أن البشر، حتى القدوة منهم مثل تيلهارد، يمكن أن يحبوا الحرب؟

***

الحرب فى العراق

٢٥ مارس ٢٠٠٣م

انظر إلى ما أصبحت عليه أمريكا. نحن نتحرك على خطوات من الصلب عبر فضاء قاس كمخلوق للتدمير، ننطح السحب التى تغلفنا باللاواقعية والتى نرى من خلالها الأوهام حول كفاءتنا وفضيلتنا. وغلو مزاعم أمتنا فى فضائلها فى حد ذاته أمر مذهل. فنحن نستطيع أن نقرر وحدنا متى يكون استخدام العنف المفرط مبررًا. وقبل هجوم أسلحتنا ستكون مقاومة العدو معدومة. وإظهار «الصدمة والرعب»، فى قصف بالقنابل لم يسبق له مثيل، موجه إلى البشر والمبانى بقدر ما هو موجه إلى الخيال البشرى، فنحن سوف نطوع العالم وفق إرادتنا. وبخلاف كل القوى السابقة فى التاريخ، نستطيع أن نشن الحرب بإنسانية. وسيكون نجاحنا تامًا لدرجة أن أية أمة أخرى لن تكون قادرة على أن تتحدانا أو تقلدنا. وقد مضى زمن التعقيد: أنت إما معنا أو علينا. وأيًا كان موقفك منهما، فإن عالمك سيكون أكثر أمنًا عندما ننهى ما نفعله. وأولئك الذين عارضوا هذه الحرب سوف يعودون صاغرين إلى الصف، إلى مجال سيادتنا. إننا غاية فى الطيبة والنبل.

إن الشباب الأمريكى فى الزى العسكرى يموتون الآن من أجل سحابة الأوهام هذه - وكذلك العراقيون من كل الأعمار وفى كل مكان. وعندما يبدأ الموت، تتوقف المناقشة التى تقود إلى الحرب عن ترجيع الصدى. فمن ذا الذى يجادل بعد حول

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

مخاطر التدخل، والعلاقة بين الغايات والوسائل، والسؤال عما إذا كان صدام حسين شريكًا لأسامة بن لادن أم من لعناته؟ وأولئك الذين عارضوا الحرب انطلاقًا من أن آثارها الطيبة سوف تتوارى أمام الكوارث غير المقصودة ـ الهجمات الكيميائية، إحراق آبار البترول، أعمال الشغب في الشوارع عبر العالم ـ هم الآن في موقف من يبتهلون في صلواتهم لكي يثبت أنهم كانوا على خطأ. وأولئك الذين عارضوها لأسباب أشمل، باعتبارها عملاً متهورًا، سواء كانت ناجحة أم لا، ما يزالون يقولون لا دونما انتظار لما سوف تسفر عنه من نتائج. ومع هذا فإنهم جميعًا مشدودين إلى معركة بغداد، تكاد أنفاسهم تتقطع.

ومن الواضح أن الأمريكيين يؤيدون هذه الحرب تأييدًا ساحقًا ـ ولكن هل نفهمها؟ إن القصف الذي تم بالفعل، مثلا سقطت فيه بالفعل قنابل أكثر مما سقط في الأيام الأربعين لعاصفة الصحراء. ولنفترض للخطة أن الضحايا المدنيين ظلوا حقًا عند الحد الأدنى بفضل أسلحة «التحالف» الدقيقة. ومع ذلك، فما الذي لا نراه من خلال عدسات الأخبار المركبة فوق أسطح الفنادق على الجانب الآمن من النهر؟ وماذا تعني تلك الحرائق المتأججة، وكل ذلك الدخان، ما معناه؟ وإذا ما كانت واشنطن هدف «الصدمة والترويع» في هذه الحملة، لكان الكابيتول قد تحول الآن إلى كومة من الأنقاض، وكذلك كل المثلث الفيدرالي، وذلك الصف من المباني القائمة على أعمدة في سبعة تجمعات تمتد في پنسلڤانيا آڤينيو. ولكان البيت الأبيض قد تحول إلى خرابة (وكذلك كامب ديڤيد ـ وبيت بوش في مزرعة كراوفورد في تكساس). ولكان البنتاجون بالطبع قد صار حفرة تفوح منها رائحة نتنة؛ بسبب المياه المندفعة من نهر پوتوماك القريب والتي غمرت الهاوية المشتعلة. وكان لا بد للدمار أن ينال محل إقامة نائب الرئيس على قمة صف السفارات بالقرب من الكاتدرائية الوطنية. ولكانت قاعدة بولينج الجوية وقاعدة أندروز الجوية على جانب الميريلاند من نهر پوتوماك قد راحت طعامًا للنيران. أما فورت مايرز وملحق الأسطول على حافة آرلينجتون؛ وفورت ماكنير والثكنات البحرية جنوب شرق واشنطن؛ والمستشفى البحري في بيتيسدا، ومستشفى والتر ريد في جنوب غرب واشنطن ـ كلها سوف تلتهمها النيران. ومقر أركان CIA في ماكلين بڤيرچينيا، ستكون ندبة ينبعث منها الدخان في الأرض الفضاء.

هذا هو الوصف الذى ينطبق على حملة «محدودة»، وأهداف تم اختيارها «بإنسانية» وفقا لاستراتيجية «قطع الرأس». ويمكننا أن نترك إلى وقت لاحق السؤال حول من وكم عدد الموتى والجرحى؟.

وما هو بالضبط الذى كان سيبرر مثل هذا الدمار؟ هل سيجعله عملاً من أعمال الفضيلة؟ وهل من الممكن أن نتصور أن مثل هذا العنف كان يمكن أن يتم إنزاله بروح من التجرد البارد، على أيدى مراقبين يجلسون على طاولات أمام شاشات على بُعد عشرات، أو مئات، أو حتى آلاف الأميال؟ وبأى طريقة كان لمثل «قطع الرأس» هذا أن يشعل شرارة أى شيء سوى الهول الذى يجعل ذكرى الحادى عشر من سبتمبر تبدو حلمًا سارًا؟ وبعبارة أخرى، إذا ما كانت أمتنا على الطرف المستقبل «للصدمة والترويع»، فلن تكون لدينا مشكلة فى أن نرى من خلال سحابة الأوهام ونعرفها كما هى بالضبط: إرهاب، إرهاب خالص وبسيط.

وموجات الإذاعة فوق أمريكا ممتلئة، فعلاً، بلغة المجد والنصر النهائى. ولكن هذا كله يعتمد على القصة التى نحكيها لأنفسنا. هل نحن السادة الجدد للأخلاق والقوة، ونفرض نظامنا على عالم سيكون فى يوم ما ممتنًا لنا؟ هل نحن المنتصرون، أخيرًا، على خداع النفس والتكبر، ونسحق المعارضة فقط لأنها تجبرنا على أن نفعل هذا؟ هل تغلبنا على عدم كفاءتنا والدوافع التى بداخلنا نحو العنف لدرجة أننا أخيرًا يمكن أن نستخدمه بطريقة إنسانية؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن المجد والنصر يكونان حقًا وعدلاً. أما إذا لم يكن الأمر كذلك فإن كل ما نقدمه اليوم زهو وخيلاء ومباهاة.

***

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

المحتويات

الموضــــــــــوع	الصفحة
مقدمة	٥
تقـــــديم	٩
الجزء الأول: إلى الأمام أيها المسيحى	
(١) الحرب المقدسة	٢٧
القانون لا الحرب	٣٠
حداد البنتاجون	٣٣
هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب	٣٥
يوم ميلاد غاندى	٣٨
الدين: مشكلة أم حل؟	٤٠
(٢) أفغانستان	٤٣
ولكن ما الذى تغير؟	٤٦
إعادة تأمل القصف بالقنابل	٤٩
لماذا أحب هذه البلاد؟	٥١
هذه الحرب غير عادلة	٥٤
الطريقة التى تنتهى الحرب بها	٥٦
(٣) الحرب فى الوطن	٦١
روبرت كنيدى وجون أشكروفت	٦٢
احتفالات ما قبل عيد الميلاد فى زمن الإرهاب	٦٥
وزارة الظلم	٦٧

الكريسماس الأحمر ٧٠
حلول العام الجديد ٧٢

الجزء الثاني: الجنود يزحفون

(٤) حيًا أو ميتًا ٧٧
تحركات الولايات المتحدة تؤجج الولع بالحرب في كل مكان ٨٠
محور الخوف ٨٣
بوش الراديكالي ٨٥
أمريكا تقوم بدور اسبرطة ٨٧
الباكستان في مواجهة الهند ٩٠
(٥) القدس ٩٣
المسلمون واليهود والمسيحيون والسلام ٩٧
الفلسطينيون والإسرائيليون ١٠٠
الأطفال المفقودين في الصراع ١٠٢
الحدود المتلاشية ١٠٤
القاتل الانتحاري ١٠٧
(٦) خائف ١١١
في المخبأ ١١٤
أمريكا الخائفة ١١٦
الفناء الأمريكي ١١٩
الحرب القادمة في العراق ١٢١
أكاذيب أكاذيب ملعونة ١٢٣
غلطة، وجريمة ١٢٦
الانهيار الكاثوليكي وسياسة الولايات المتحدة الخارجية ١٢٨
إذن ماذا أظن أنني أكون؟ ١٣١
(٧) قرع الطبول ١٣٥

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

عاجز عن الإفصاح وفخور بهذا ١٣٨
الذكرى السنوية للحرب ١٤٠
شك طيب وإيمان سيئ ١٤٣
تهديد الرئيس النووى ١٤٥
ضد الحرب آنذاك وضد الحرب الآن ١٤٨
(٨) الرهينة ١٥١
فترة العتبة ١٥٤
الرهينة المحتجزة ١٥٧
غرض الحرب ١٥٩
الالتزام بسياسة الخوف المعيبة ١٦١
هل هناك تغطية للصواريخ فى معهد ماساتشوستس (MIT) للتكنولوجيا؟ ١٦٤
ما الذى مات السبعة فى سبيله ١٦٦
(٩) الذاكرة الأخلاقية ١٧١
فيليب بيريجان ١٧٤
القصف يوم الكريسماس ١٧٦
السنة الأخيرة ١٧٩
اليوم التاسع والعشرون ١٨١

الجزء الثالث: الحرب

(١٠) العراق ١٨٧
فى الأمم المتحدة ١٩٠
عصر البراءة ١٩٢
راقب الحرب بعينيك الاثنتين ١٩٥
سياسة حرب تنهار ١٩٧
تأمل فى الحرب ٢٠٠
الحرب فى العراق ٢٠٢

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

رقم الإيداع ٣٢٤٨/ ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N - 977-09-1208-5

http://www.al-maktabeh.com

مشروع
الإمبراطورية
الأمريكية

جيمس كارول

الحرب الصليبية

ترجمة: د. قاسم عبده قاسم

تواريخ
حرب
ظالمة

الجزء الثانى

مكتبة الشروق الدولية

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين

الحرب الصليبية

تواريخ حرب ظالمة

(الجزء الثانى)

الطبعـــة الأولى

١٤٢٦ هـ ـــ أبريل ٢٠٠٥ م

مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ - ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الحرب الصليبية
تواريخ حرب ظالمة

الجزء الثانى

چيمس كارول

ترجمة: د. قاسم عبده قاسم

مكتبة الشروق الدولية

هذه ترجمة لكتاب:

CRUSADE

Chronicles of an Unjust War

James Carroll

Metropolitan Books
Henry Holt And Company / New York

Copyright @ 2004 by James Carroll
All rights reserved

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

مقدمة

الولايات المتحدة منقسمة الآن قسمين شبه متساويين: نصف مع بوش والغزو الذى أصبح الآن احتلالاً، ونصف ضد ذلك . . .

كان يمكن للحكومات العربية زيادة ثقل الكفة المضادة للغزو والاحتلال، والتى أصبحت ترى أيضًا الظلم الواقع على الفلسطينيين . . . ولكنها للأسف ـ تلك الحكومات ـ أضافت للكفة الأخرى، وإن انتقدت من حين لآخر ببعض البيانات ـ المائعة والمتناقضة للاستهلاك المحلى ـ ما يحدث فى العراق وفلسطين، وكأن فى ذلك ذرًا للرماد فى العيون.

ونقدم هنا للقارئ الجزء الثانى والأخير من كتاب «الحرب الصليبية» للناشر الأمريكى: Metropolitan Books - Henry Holt & Company/ New York.

وهو أحد كتب سلسلة الناشر عن مشروع الإمبراطورية الأمريكية.

يستنكر الكاتب ـ من ضمن ما يستنكر ـ تصريح جنرال الحرب الأمريكى على الإرهاب: «عرفت أن ربى أكبر من ربه، وعرفت أن ربى كان حقيقيًا وأن إلهه كان صنمًا».

تسرب للعلن تصريح الجنرال الأمريكى، وهاجمه المسلمون فى أمريكا . . ولكن لم يعتذر الجنرال، ولا البنتاجون، ولا وزير الخارجية، وبالطبع ولا الرئيس الأمريكى . . .

لزمت الحكومات العربية حكمة القرود: لا أرى لا أسمع لا أتكلم . . . فلم نسمع لرئيس عربى، ولا حتى وزير خارجية أو وزير إعلام، أو إعلام رسمى، استنكارًا

أو حتى اعتراضًا على ذلك . . فكل جهدهم وعقلهم وقلبهم مدخر لخدمة الرئيس . . فما دخل تصريح الچنرال فى ذلك؟

وانظر كيف تنقلب الحكومات العربية وإعلامها حربًا على من يهاجم الرئيس . .

نشاهد الآن محاولات تقسيم وتفتيت جديدة للعالم العربى(*)، مثل ما حدث بعد الحرب العالمية الأولى، عندما ظهرت الأردن للوجود كمكافأة لبعض الحجازيين على مساعدتهم الإنجليز ضد الأتراك، ثم انقسم الشام إلى سوريا ولبنان وفلسطين، ثم ابتلعت إسرائيل فلسطين . . ونشاهد ونسمع وزراء الخارجية والمسئولين الأمريكيين والإنجليز والإسرائيليين، وغيرهم . . يتكلمون عن حقائق الواقع الجديد . . أى الأمر الواقع . . أى شريعة القوة . . أى عالم الغابة . .

وفى نفس الوقت . . نشاهدهم ونسمعهم يتكلمون عن القيم والأخلاق والحرية . .

وينتقلون بكل سرعة وخفة ويسر بين عالم الغابة وعالم القيم ذهابًا وإيابًا . . فى نفس القضية أو المسألة . . بل وأحيانًا فى نفس الجملة . . وكأنهم يضعون القواعد ويغيرونها حسبما يرون . . ولا يجرؤ حكامنا حتى على التساؤل وليس الاعتراض(**) . .

(*) فى الوقت الذى يتوسع فيه حلف الأطلنطى والاتحاد الأوروبى.

(**) يتكلم الرئيس بوش عن المثاليات والقيم والأخلاق والخير، وأحيانًا يتكلم عن الإجماع الدولى، والمجتمع الدولى، والأمم المتحدة، ويدين من ينتهك، أيًا مما سبق، ثم نراه - ومن سبقه من الرؤساء الأمريكيين - يعلنون ويؤكدون مرارًا وتكرارًا أنهم لن ينتظروا الأمم المتحدة ولا المجتمع الدولى فيما يخص مصالحهم، وأن الولايات المتحدة ستتصرف بمفردها، وكان چورچ بوش الأب يقول:
«ما نقوله يسرى - What we say, goes»
يقول بوش الابن عن المقاومة الفلسطينية إنها إرهابية وخارجة عن القانون، وتصدر الأمم المتحدة قرارًا يوجب على سوريا الانسحاب فورًا من لبنان. وفى المقابل لا نراه يتكلم عن انسحاب إسرائيل من الأراضى الفلسطينية والجولان السورية ومزارع شبعا اللبنانية، بل ينتهك - رئيس القيم والمثاليات والحرية وحقوق الإنسان والخير - وما إلى ذلك من لغو وكذب وخداع ونفاق - ليقول متخطيًا بكل رشاقة وخفة لغة الخير إلى لغة وشريعة الغاب - ليس من الواقعى أن تعود إسرائيل إلى حدود ١٩٤٩م [يقصد حدود ١٩٤٨م] - ضاربًا بعرض الحائط قرارات الأمم المتحدة، وركنها الركين فى أنه لا يجوز الاستيلاء على الأراضى بالقوة، ولا يجوز مكافأة المعتدى، وأول حقوق الإنسان حقه فى العودة إلى بلده - كذلك يقول الرئيس بوش إنه يجب على الفلسطينيين أنه يخوضوا حربًا حقيقية على الإرهاب، فيظهر الرئيس بوش على حقيقته، وهو يحرض الفلسطينيين ضد بعضهم البعض، استمرارًا لسياسته التى أعلنها على الملأ:
«سوف نقلب بعضهم على بعض - We will turn them one against another».

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

تجيء من أمريكا لجنة حماية الحريات الدينية . . وتستقبلها الحكومة المصرية بكل الحفاوة . . ولا مانع من ذلك . . ولكن لا يصدر عنها ـ ولو ذكراً فى معرض الحديث ـ شيئًا عما يحدث للمسلمين ومساجدهم فى إسرائيل أو أمريكا ، . . ولا حتى من باب العتاب : كيف يمكن لچنرال الحرب على الإرهاب أن يقول ما قال؟ أو كيف يمكن للدعاة النجوم فى أمريكا ، مثل جراهام الابن وپات روبرتسون ، وغيرهما ـ ممن يشاهده عشرات الملايين فى أمريكا ـ أن يقولوا لمستمعيهم : «إن الإسلام دين إرهاب وأن محمداً ﷺ قاتل وقاطع طريق وزير نساء؟» .

عفواً عزيزى القارئ . . فقد نسيت أن حكوماتنا تدخر كل جهدها لخدمة رؤسائها . . وليس فى أولويات أچنداتها المواطنون ولا الإسلام ولا رسوله .

ولكن چيمس كارول الكاتب الأمريكى المسيحى ، المخلص لوطنه ولدينه ، استنكر ذلك ، وما وراء ذلك .

عادل المعلم

أبريل ٢٠٠٥م

* * *

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الجزء الثالث

الحرب

١١ـ أسئلة
١٢ـ اعترافات
١٣ـ حرب خاسرة
١٤ـ الحرب تنتشر
١٥ـ كل احتلال ينتهي نهاية سيئة
١٦ـ آلام الحرب

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(١١)

أسئلة

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

هددت الفوضى فى الشرق الأوسط بأن تصبح فوضى عالمية بل وأكثر إهلاكًا فى النصف الأول من سنة ٢٠٠٣م. إذ إن مبادرات أمريكا فى الخارج بدأت تعطى نتائجها العكسية، كما أن الأسئلة المرتبطة بالسياسة الخارجية لإدارة بوش وحماقاتها وجدت طريقها للانقلاب على الأمة.

وأحد أشد الأمثلة فظاعة يتعلق بكوريا الشمالية التى كان الرئيس بوش قد وصمها بوصفها جزءًا من محور الشر فى خطابه سنة ٢٠٠٢م عن حالة الاتحاد. وفى وقت لاحق من تلك السنة، صوت الناخبون فى كوريا الجنوبية بشكل غير متوقع ضد الولايات المتحدة عندما انتخبوا «روه مو هايون» رئيسًا لبلادهم، وهو من نشطاء حقوق الإنسان ومن معارضى واشنطن. وقد تكلم الرئيس بوش صراحة عن «إسقاط» رئيس كوريا الشمالية «كيم يونج إيل». ثم وفى نفس الوقت الذى تم فيه إطلاق «عملية الحرية العراقية» فى ١٩ مارس ٢٠٠٣م، اشتركت الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية فى تدريبات عسكرية مقررة منذ زمن طويل تحت اسم «فرخ النسر»، ولم يكن مقصودًا به سوى تصعيد التوتر فى شبه الجزيرة الكورية.

وفى غضون أيام بعد هذا، أمرت كوريا الشمالية، المفلسة والتى يوشك شعبها على الموت جوعًا، بزيادة فى الإنفاق العسكرى الباهظ بالفعل. وفى هذه الفترة نفسها وزع وزير الدفاع دونالد رامسفيلد مذكرة سرية ـ سرعان ما تم تسريبها ـ من البنتاجون تحبذ تغيير النظام فى بيونج يانج. وهنا مربط الفرس: «فالحرب الوقائية» ضد العراق بدت حينئذ وكأنها مقدمة لمبادرة مثل هذه ضد كوريا الشمالية. ولكن الأفعال تتسبب فى ردود أفعال: ففى أبريل أعلنت كوريا الشمالية أنها بدأت تعيد عملية تحويل الوقود إلى بلوتونيوم. هذه الحركة قبل الأخيرة صوب السلاح النووى كان واضحًا أنها تعبير عن استجابة كوريا الشمالية على بوش وحربه ضد العراق. لقد كان ذلك رمزًا دالاً على

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

فشل الإدارة الفظيع فى فهم الأثر المتوالد المحتوم لاستراتيچية الأمن القومى الشاملة لديها، والتى تدرجت من تغيير النظام إلى الصخب المهدد باللجوء إلى ترسانة أمريكا النووية.

أما كوريا الجنوبية، التى يفترض أنها المستفيد من الالتزام الأمريكى طويل المدى، ومن سبعة وثلاثين ألفًا من جنود الولايات المتحدة المقاتلين المنتشرين فوق أراضيها، فقد طرحت أسئلة مدوية حول أسلوب واشنطن برمته. فقد تركزت سياسة «شعاع الشمس» الجديدة التى اتبعتها «سيول» على السعى لإقامة روابط أقوى مع بيونج يانج، لا المواجهة ـ وليس خراب شبه الجزيرة الكورية بأسرها. ولم يكن هناك مكان اتضح فيه رفض مذهب بوش بهذا الوضوح. فقد خرج آلاف من الكوريين الجنوبيين إلى الشوارع ضد الولايات المتحدة التى تتولى حمايتهم. هذا رفض واضح للأسلوب الأمريكى من شعب يفترض أنه أكبر مستفيد منه. لن يكون هناك تغيير للنظام فى بيونج يانج. ويمكن للأسئلة أن تكون قوية.

* * *

مفاجأة يوم كذبة أبريل

١ أبريل ٢٠٠٣م

فى يوم كذبة أبريل منذ خمسة وثلاثين عامًا مضت، رُوِّج للقصة غير المحتملة تمامًا بأن ليندون ب. چونسون قد أعلن عن عزمه ألاَّ يسعى لإعادة انتخابه رئيسًا للولايات المتحدة. ولم تكن نكتة. فعلى شاشة التليفزيون فى الليلة السابقة كان الرئيس الميال للحرب قد أعلن عن إصراره على إنهاء الحرب فى ڤيتنام. وقال إنه أمر بإيقاف ڤيتنام الشمالية بعد خط العرض العشرين، وأنه مستعد للتفاوض. وأكد چونسون رغبته فى السلام بتخليه عن طموحه السياسى الشخصى. وبدا وكأن هناك نهاية محتملة للحرب أخيرًا.

وكتب الصحفى تشارلز كايزر: «على مدى أربعة أيام فى أبريل، حل الفرح محل الغضب فى أمريكا، وحل الأمل محل اليأس». إذ إن الأخبار القادمة من الحرب على مدى الشهور السابقة كانت مروعة: الحصار الوحشى فى خى سانه، هجوم التيت،

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

طلب الجنرال وليم ويستمورلاند مزيداً من القوات إضافة إلى ٥٥٠ ألف جندى التى كانت لديه بالفعل («إننى فى حاجة ملحة إلى التعزيزات») ؛ حشد غاضب من معارضى الحرب يقتحمون البنتاجون ، الخيانة التى شعر بها مؤيدو الحرب مجسدة فى استقالة وزير الدفاع روبرت مكنمارا . لقد كانت الأمة منقسمة بشكل مرعب . لقد جاءت الحرب لكى تشير إلى كل ما هو خطأ . وهذا هو السبب فى أن كل قلب أمريكى كان يمكن أن يخفق فى ذلك الصباح بسبب أخبار الصفحة الأولى .

وأيا كانت مقاصده فى البداية ، فإن سياسة الحرب التى اتبعها الرئيس قد أظهرت نفسها على أنها خلطة من عدم الكفاءة ، والخداع ، والولع بالعنف والغطرسة تجاه المعارضين فى الخارج والاحتقار للمعارضين فى الداخل . بيد أن سياسة الحرب هذه كانت أيضًا وهمًا فاسدًا ومهلهلاً تمت إدانته الآن . وأخيرًا ، لم تكن أمريكا لتدمر ڤيتنام لكى تنقذها . وكان انسحاب چونسون يعنى أن اللطافة الأمريكية استطاعت أن تنتصر بعد كل شىء . بل إننى نفسى تحركت لكى أكتب خطابًا إلى الرئيس چونسون الذى كنت قد لعنته ، وشكرته على شهامته .

بعد ذلك بأربعة أيام ، ومع مصرع مارتن لوثر كنج چونيور ، سقطت السماء على أمريكا . ففى هذه الحادثة الواحدة ، وبطريقة لم نستطع أن نستوعبها فى ذلك الوقت ، تحطم أملنا الوليد ، ومعه تكسر إحساسنا بالشفاء الممكن . فقد ذهب الاغتيال أبعد كثيراً من موت رجل واحد ، وتعدت مضامينه الصراع الخاص الذى ارتبط به . وعلى نحو ما أظهرت أعمال الشغب التى اندلعت بعد اغتيال كنج ، أن التقسيم العنصرى فى أمريكا أعمق حتى مما كان يظن . فقبل أربعة أيام فقط ، كانت لجنة كيرنر قد كشفت عما توصلت إليه من أن الأمة قد صارت أمتين ، فصلتهما العنصرية ـ وقد برهن موت كنج على هذا . لقد كان «المجتمع العظيم» حلما زائفًا ، إذ إن أحداث الأسابيع التالية (حملة الفقراء ، أحداث شغب الطلبة ، اغتيال روبرت كنيدى ، الفوضى فى مؤتمر الديمقراطيين فى شيكاجو ، انتخاب ريتشارد نيكسون رئيسًا على أرضية «السلام السرى») قد عرَّت تمامًا حقيقة أن أمريكا كانت فى حرب ضد نفسها . وبطبيعة الحال ، استعادت ڤيتنام مكانها فى قلب المأساة . وبدأت المفاوضات فى پاريس ولكنها لم تصل إلى شىء على مدى سنوات . ولم تكن الحرب قد وصلت إلى منتصف طريق النهاية . السلام فى أول أبريل ـ كان ينبغى علينا أن نعرف بشكل أفضل .

تلك الأحداث الحزينة هى ذكريات شائعة، وهى أساسية بالنسبة لما تغصُّ به قلوبنا عند ذكر «الستينيات». والواقع، أنها تشكل انهياراً للأمل الديمقراطى، ذلك الانهيار الذى لم تكن الولايات المتحدة قد شفيت منه فى الحقيقة. وهكذا تطفو الحرب ضد العراق على تيارات تحتية من الإحباط كانت مألوفة لفترة طويلة، ولكن هل هناك تيار مضاد من الأمل ما يزال يطفو كذلك؟ منذ خمسة وثلاثين عاما مضت، استيقظ الأمريكيون على اعتراف أخلاقى كان قويا بقدر ما كان عابراً. ويتطلب أن نلاحظه. فقد اعترف الرئيس بشكل مؤثر بما كانت الأمة كلها، من خلال مجادلات اليمين واليسار، قد عرفته بحدسها، أن التدخل فى ڤيتنام كان غلطة، سواء تم تعريفها بمصطلحات أخلاقية أم فنية. لم يكن ممكنا أن يأتى «النصر». ومن ثم فإن المزيد من التصعيد لم تكن له ضرورة. وكون أن الزعماء التالين فشلوا فى الوفاء بوعد هذا الاعتراف (نيكسون وكيسنجر، وخرافة «السلام المشرف») لا ينبغى عزله عن مغزاه.

وعندما قال چونسون: «وبناء عليه فإننى لن أسعى. . .» كان يستجيب لإرادة الشعب التى تجلت واضحة فى أماكن الاقتراع، وفى مظاهرات الشوارع، وفى الإذاعات الجديدة، وفى ملايين المناقشات التى دارت فى غرف المعيشة. كان قرار چونسون انتصاراً للديمقراطية فى حقيقته. وكان لا بد للحرب أن تنتهى. وعرف الشعب هذا. وقد عرف الرئيس هذا أيضًا. وجاءت التحركات السياسية بوصفها حسابًا أخلاقيًا. ولا غرو، فإن الأمة كانت مبتهجة على مدى عدة أيام من شهر أبريل آنذاك.

إنه شهر أبريل مرة أخرى. وآلة الحرب قد أطلق لها العنان، ومن الواضح أنه لا يمكن إيقافها. حرب جوية متصاعدة، اندفاع فى إرسال التعزيزات، عدو مدهش، مظاهرات فى الشوارع، أمة منقسمة. ولكن كما كان الحال من قبل، تمت صياغة سياسة الحرب التى تتبعها واشنطن فى أرض الفانتازيا ـ وهى حتى الآن تعرض كما هى. هذه الذكرى السنوية تشى بأن آلة الحرب التى تسير فى مسارها يمكن إيقافها. والرئيس الفخور المتباهى يمكن إسقاطه. إنها كذبة أبريل حينما يصير السلام نكتة يمكن استرجاعها. أوقفوا الحرب!

***

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الإجابة لا

٨ أبريل ٢٠٠٣م

ألم تهزك خسارة الشبان الأمريكيين الذين ماتوا فى العراق، أم أنك لا تبالى باللوعة التى تشعر بها عائلاتهم الآن، أم أنك أقل قلقًا بشأن ما ينتظر الأفراد الأقوياء الذين يوشكون على دخول بغداد؟

هل أنت مندهش من أن كثيراً من مقاتلى صدام حسين قد حاربوا بقسوة وبلا قانون؟ هل اكتشاف الجثث الجماعية فى البصرة يقدم جديدا؟ هل أنت واثق من أن الأسلحة الكيمياوية أو البيولوچية لن تستخدم، أم أنك متأكد من أن هذه الأسلحة لم توزع على آخرين ممن يكرهون أمريكا؟

هل يعنى موت العراقيين غير المقاتلين بالنسبة لك شيئًا أقل من مصير قواتك؟ هل الأطفال العراقيون أقل قيمة من غيرهم من الأطفال؟ هل الشباب المجندون الذين يشكلون كتلة الجيش العراقى يستحقون السحق والقتل؟ هل الحزن الذى أصاب عائلاتهم أقل من الحزن الذى ألم بالعائلات الأمريكية؟ وهل قادة حزب البعث يحفلون بالناس الذين يختبئون خلفهم؟ ألا يعرف مخططو الحرب أن كثرة من الناس سوف يواجهون الموت، والبتر، وانعدام المأوى قبل أن يتم حصر زمرة القادة فى ركن؟ هل يساعد أى عائلة عراقية مكلومة أن يخبروها بأن الكرب الذى تعانيه أمر «لا بد منه»؟

هل ستسير الحرب هذا الطريق إذا ما قام مجموعات كبار السن بتبادل أماكنها ـ مع صانعى القرار من الأعمار المتوسطة على كلا الجانبين ـ بينما يبقى الشباب من سن العشرين آمنين خلف الخطوط؟ هل ستكون الحرب محبوبة إذا ما انطوت على أى خطر حقيقى على أرض الوطن فى أمريكا من معاناة العواقب المباشرة للحرب: أحياء سكانية مدمرة، أطفال يتامى، آلاف بلا سكن، أمراض من المياه الرديئة، مستشفيات مكتظة؟ هل كانت الحرب ستبدأ لو كانت مثل هذا العواقب تهدد بوسطون مثلاً، أو نيويورك؟ هل يمكن لشعب لم يخضع للغزو قط، أو قصف شامل أن يبدأ فى تخيل ما يمكن أن تفعله مثل هذه الأشياء فعلاً بالأجساد والأرواح؟

هل تقف واشنطن على استعداد لإضفاء الصفة العالمية على سياساتها فى الحرب

الوقائية والانتهاك الكلى للسيادة بوصفها مبادئ جديدة للنظام العالمى المتاح لكل الأمم؟ هل كانت واشنطن سترحب بمثل هذا السلوك من موسكو، مثلاً، أو من بكين؟ هل التعريف قصير المدى للنصر فى العراق سينجو من عواقبه العالمية طويلة المدى، عندما يصير العدوان «الإنسانى» سلوكًا شائعًا بين الأمم؟ وبالنسبة للعواقب المحلية على العراق، هل ستكون أمريكا قوة احتلال أفضل مما تفعله إسرائيل فى غزة والضفة الغربية؟ وهل النصر حقًا نقيض الهزيمة؟

وفى عصر الأسلحة المدمرة للعالم، هل يؤدى العنف إلى التوازن العالمى والأمن الداخلى؟ هل تم إيقاف قوانين الانتقام والثأر القديمة؟ هل ستضع الحرب فى النهاية حدًّا للحرب؟ هل يؤدى استخدام القوة المهيمنة من جانب دولة قوية ضد دولة ضعيفة إلى إبطاء انتشار الأسلحة النووية إذا ما قدمت لدول ضعيفة أخرى المبرر لحيازة هذه الأسلحة؟ هل السياق الأكبر الذى يتضمنه السؤال السابق يبدو أنه قد ورد على مخططى الحرب فى الولايات المتحدة؟

لو أن مقاصد الولايات المتحدة كانت بريئة، وتهدف فقط إلى القضاء على الفوضى، فهل يؤدى هذا الجعل الفوضى الجديدة التى تعقب كل عملية قضاء على الفوضى أقل قسوة؟ ومن ناحية أخرى، إذا كانت أغراض أمريكا أنانية، ترمى إلى الهيمنة الاقتصادية والسلطة العالمية، فهل يمكن لحرب تم شنها على هذا النحو أن تحمى ما يجعل أمريكا أمريكا؟ هل تهم دوافع أمريكا، سواء كانت طيبة أم سيئة، أولئك الذين ماتوا بأى شكل؟

هل يمكن شن الحرب العدوانية على أيدى أولئك الذين يدركون المأساة التى لا نهاية لها فى الأحوال الإنسانية؟ وكيف أن كل قصة ـ سواء كانت قصة شخص أو أمة ـ تنتهى بالموت؟ وكيف أن كل موتة فى غير موعدها تجرح المطلق؟ وكيف أن الموتة غير الضرورية بحد ذاتها هى العدو الأخلاقى؟ وإذا ما عرفنا ذلك، فهل تكون أمريكا على هذا القدر من الاستعداد للدخول فى تحالف مع الموت الذى هو الحرب؟ هل كانت أمريكا ستستطيع أن تقتل كل أولئك الأطفال؟ هل كانت أمريكا ستقدر على إرسال شبانها وشاباتها إلى الموت؟ وهل كانت أمريكا ستستطيع، فى هذه المسألة، أن ترسل

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

بهذه القسوة جيشًا يتكون أساسًا من المجندين الذين ليس لديهم خيار آخر؟ هل كانت أمريكا، على نحو أوسع، ستقدر على الترخيص بحروب مستقبلية مثل هذه، وتبذر بذور الموت فى غير أوانه فى الريح التى تهب الآن عبر إيران وتركيا وإسرائيل وفلسطين، والسعودية ومصر ـ وعبر العالم نفسه إلى كوريا ـ وباكستان والهند؟ وهل الاستحواذ الجاهز لإطلاق فكرة محور الشر، يجعل أمريكا فى صفوف محور الخير الإنسانى؟

هل ما عادت أمتك تعرف أنها، أيضا، جزء من الأسرة الإنسانية، وأن هذه الأسرة تحذر الآن من خسارة فادحة فى الثقة فى المثال الذى رفرف العلم الأمريكى من أجله كل هذه المدة؟ وهل هذا العلم وكل الذين حملوه قد تشرفوا بما يتم عمله تحت رايته اليوم؟

هذه الأسئلة الكثيرة تغلى بحيث تتمركز فى ثلاثة أسئلة: هل كانت هذه الحرب ضرورية منذ البداية؟ هل هى حرب عادلة الآن؟ إذا كانت الإجابة التى تأخذ بالأنفاس ستؤدى على نحو ما إلى أن تغير أمريكا مسارها، بعيدًا عن الحرب وباتجاه القانون والحياة مرة أخرى، فهل سيكون الموتى قد ماتوا عبثًا؟

***

أمة ضائعة

٢٢ أبريل ٢٠٠٣م

حتى قبل استخلاص النتائج حول الحرب فى العراق (صدام حسين؟ أسلحة الدمار الشامل؟ الاستقرار العراقى؟ الثمن الذى يدفعه المدنيون؟ سوريا؟) يتكون اتفاق فى الجبهة الداخلية على مراجعة جذرية لما تعنيه أمريكا فى العالم. إن المذهب الجديد الذى يتمركز حول النزعة الفردية القسرية، يفترض أن الولايات المتحدة لا تقف بمعزل عن البلاد الأخرى فحسب وإنما تقف فوقها. إن النزعة القبلية البدائية لدى الفتيان فى مباريات كرة القدم ـ «نحن رقم واحد» ـ قد تم تحويلها إلى بديهية من بديهيات النظرية الاستراتيجية للولايات المتحدة. لقد حلت القوة العسكرية محل المثالية الديمقراطية بوصفها المصدر الأساسى للنفوذ الوطنى. والخدمة المسلحة الأمريكية، التى كان ينظر إليها من قبل بوصفها دفاعية أساسًا، قد صارت الآن هجومية بشكل صريح. فالعدوان

هو الوقاية. وتم تخفيض دور الديبلوماسية إلى مستوى التمهيد للحرب الوشيكة ثم تجميل وجه الحرب بأحسن ما يمكن ـ وهدف هذا كله ليس السيادة على العالم وإنما النظام العالمى. وكون النظام العالمى فى العصر الجديد يتطلب فى الحقيقة السيادة الأمريكية إنما هو نتيجة غير مقصودة لإيثار أمريكا استخدام القوة. فكرة «نحن رقم واحد» تجعل العالم آمنًا للجميع ـ شريطة أن يقبل الجميع ذلك.

هذه الرؤية الجديدة واضحة، والمدافعون عنها أقوياء، ومع العراق نجد كتلها الأساسية متراصة فى مكانها، بما تنطوى عليه من مضامين واضحة بالنسبة لبلاد متباعدة جغرافيا مثل كوريا الشمالية وإيران. ما العناصر التى تقوم عليها رؤية بديلة؟ فى عالم يرتعد من تهديد الإرهاب وانتشار الأسلحة، والإثارة المروعة من محطتى تليفزيون Fox وCnn، يتم تضخيم التمزق بلا نهاية. وعندما يضرب مثل هذا الرعب، سواء من انهيار البرجين التوءمين أو من القناصين التوءمين اللذين يطلقان النيران على الغرباء، هل يمكن للبشر أن يثقوا فى أى شيء غير القوة الساحقة؟ ما الاستراتيجيات التى يجب على ناقدى المذهب الأمريكى الجديد القائم على الأحادية القسرية أن يستخدموها؟ وإذ تعلمت من الماضى، فإننى أفكر فى عدة استراتيجيات:

* لا تتخل عن لغة الأخلاق للجناح اليمينى. إن الازدواجية تبسط الخير والشر على نحو مخل، ولكن ما يزال من الواجب عمل بعض الأشياء لأنها صحيحة، أو ينبغى معارضتها لأنها خطأ. إن معارضى السلام الأمريكى Pax Americana(*) المقصود، لا يجب أن يترددوا فى القول بأن المبادئ الأخلاقية الراسخة منذ زمن طويل تنتهك الآن. إن من الخطإ نقض المعاهدات، على نحو ما تفعل أمريكا فى معاهداتها لمنع انتشار الأسلحة. إن من الخطإ شن حرب عدوانية على نحو ما تفعل أمريكا الآن صراحة. إن اتخاذ القرارات مع أو ضد مثل هذه التصرفات السياسية على أساس براجماتى خالص إنما هو كسر للرابطة الحاسمة بين الوسائل والغايات، كما لو أن الناتج (تغيير النظام) يمكن أن يبرر ما تم فعله لتحقيقه. وعلى المدى الطويل، يكون الفعل الوحيد البراجماتى حقًا هو الفعل الأخلاقى.

(*) يشير الكاتب هنا إلى نوع من الهيمنة الإمبراطورية مثل السلام الرومانى Pax Romana الناتج عن بناء إمبراطورية واسعة خاضعة لأمريكا، وليس إلى سلام حقيقى قائم على العدل والتعاون المتبادل بين شعوب الدنيا ـ (المترجم).

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

* يجب أن نشك صراحة فى «أمن الوطن». فالتقاليد الأمريكية تفضل المخاطر المرتبطة بالحرية على المخاطر المرتبطة بسيطرة الدولة البيروقراطية. إن «دولة أمن الوطن» الجديدة تهدد بنوع من التجاوزات التى جاءت مع «حالة الأمن القومى» بعد الحرب العالمية الثانية. لقد كان مرسوم الأمن القومى سنة ١٩٤٧م، هو الذى أرسى أساس إسباغ الصفة البيروقراطية على الحكومة، مرتكزة على أساس البنتاجون، وهو الذى أدى إلى تهميش الجدل الوطنى وأزال الضوابط الطبيعية لمراكز القوى المتعددة. إذ إن «الأمن القومى» الذى حددته بارانويا الخوف من الشيوعية فى الوطن وفى الخارج، كان أمنًا زائفًا. إن «أمن الوطن» ينذرنا بأن يكون تكرارًا بارانويا.

* يجب أن نكون متشككين فى السياسة الخارجية القائمة على أساس تفكير «أسوإ حالة». ففى أثناء الحرب الباردة صنعت الولايات المتحدة تقديرات مخيفة لإمكانات الاتحاد السوفييتى ومقاصده اتضح أنها زيف كامل - وهى تقديرات حددت شكل السياسات. فقد كانت المخابرات فى تقديراتها تقدم تقارير منتظمة عن مجرد احتمالات عن التهديد المعادى، وتقدم هذه التقارير من المستويات الأدنى صعودًا فى سلسلة القيادة، بحيث تتحول إلى حقائق معينة بشكل ثابت. وهكذا، تمت المبالغة كثيرًا فى قوة القوات السوفييتية، فى بداية العصر؛ وتمت المبالغة فى قوة الصواريخ السوفييتية فى المنتصف؛ وفى النهاية كانت القوة السياسية للسوفييت محل مبالغة. وتمثلت النتيجة فى سباق تسلح قادته أمريكا، ما تزال آثاره تهدد العالم. و«الحالة الأسوأ» فى التعامل مع السوفييت لم توجد إلاّ فى خيالات واشنطن وأوهامها. ويبدو الآن أن صدام حسين وحالته الأسوأ موجودة فى نفس المكان. إن الأمة التى يسوقها الخوف على هذا النحو سوف تجد دائمًا ما تخاف منه. وأخطر التهديدات التى تهدد الأمة تبرز، بطبيعة الحال، مما تفعله حينذاك للدفاع عن نفسها.

* يجب الحذر من الحرب كمبدأ حاكم للمجتمع. ويجب أن تكون مصدرًا للانتباه والحذر، وليس الزهو، أن الولايات المتحدة تستمد مثل هذا العون المتماسك من الحرب العراقية. فالاحتفالات الفوتوغرافية بمقاتلينا الشباب، وتمجيد إطلاق سراح الأسرى الأمريكيين، والطقوس البطولية لقتلى الحرب، كلها تأخذ سمة الاستغلال الشديد للمجندين من الرجال والنساء. إذ إنهم أجبروا أولاً على الوجود فى ظل ظروف

مُلتبسة، وهم الآن أنفسهم يتم إسباغ الصفة الأسطورية عليهم باعتبار ذلك التبرير النهائى لها - كما لو أن أمريكا ذهبت إلى العراق ليس للإمساك بصدام (الذى اختفى)، أو تتخلص من أسلحة الدمار الشامل (غير موجودة)، أو لإنقاذ الشعب العراقى (فوضى)، وإنما لكى «تدعم» القوات. وهكذا تصبح الحرب هى مبرر ذاتها. مثل هذا الارتباك حول هذه النقطة الخطيرة يعنى أن هناك أمة ضاعت.

***

الوعى الأخلاقى فى كوريا

٢٩ أبريل ٢٠٠٣م

«النسيان هو طريق النفى» هذا نص النقش الموجود فى ياد ڤاشيم. «والتذكر هو طريق الشفاء». إن ياد ڤاشيم هو النصب التذكارى للهولوكوست فى القدس، واليوم هو يوم ذكرى الهولوكوست. ويصمت اليهود فى كل مكان ليفكروا فى ستة ملايين يهودى ذبحهم النازى(*). وفى إسرائيل نفسها يتوقف كل شىء على مدى فترة صمت طويلة. وإذا كان لدى اليهود سبب يدعوهم إلى أن يتذكروا ما حدث فى قلب أوروبا فيما بين سنة ١٩٣٣م وسنة ١٩٤٥م، فماذا يفعل غير اليهود أكثر من ذلك؟

إن التذكر يمكن أن يقدم الأچندة الضيقة - الانتقام، الاستثنائية، تقمص دور الضحية، الذئب - ولكن التذكر يمكن أيضا أن يؤدى إلى الفهم والتغيير. فالذاكرة مصدر أساسى للوعى الأخلاقى، وهى طريق للوصول أخيراً إلى ما نفعله دون أن نقصد؛ طريق لمواجهة حقيقة أنه حتى الفعل الذى يظهر أنه فعل فاضل يمكن أن ينحط

(*) استغلت الصهيونية «الهولوكوست اليهودى» لتبرير «الهولوكوست الفلسطينى»، رغم أن الفلسطينيين والعالم العربى بأكمله ليس مسئولاً من قريب ولا من بعيد عن «الهولوكوست اليهودى»، ورغم أن «الهولوكوست الفلسطينى» واقع حى يعيشه ويعانيه العالم المعاصر، علانية منذ أكثر من خمسين عاماً، بدأت بمذابح دير ياسين، ومذبحة جنين، واغتيال الطفل محمد الدرة، واغتيال الشيخ المقعد ياسين، ورغم الاختلاف الكبير على وقائع «الهولوكوست اليهودى» حتى إن بعض المؤرخين الأوروبيين واليهود يقللون من كيفها وكمها، وإلى درجة نفيها تماماً، حتى ضغطت الصهيونية على كثير من الدول لإصدار قوانين تجرم من يشكك فيها. ويمكن لمن يريد الاستزادة عن هذا الموضوع أن يقرأ «محاكمة جارودى» أو «تقرير لوشتر» (المترجم).

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

بالانحياز أو الأنانية. والأكثر من ذلك، فإن الذكرى بوصفها انعكاسًا أخلاقيًا يمكن أن تقدم، على حد تعبير الفيلسوف السياسى «حنا آردنت»: «العلاج الممكن من ورطة عدم إمكانية الإلغاء». وفيما يتصل بالهولوكوست، فإن هذا يعنى أن غير اليهود يتذكرون هذا الإخفاق الأكبر بين الإخفاقات الأخلاقية بحيث يستوعبون المعنى الكامل لمعادلة السامية التى أدت إليه. والهدف من فعل ذلك، بطبيعة الحال، هو التوبة عن مثل هذا الانحياز واستئصال مصادره. وبذلك يكون التذكر عرضا للحرية من الطغيان ليس فى الماضى فقط وإنما فى الحاضر؛ فالأشياء تحتاج إلى أن تكون ما هى عليه حقًا. فالذاكرة الأخلاقية تخلق مستقبلاً أفضل.

إن الكشف الدائم عن طريقة التفكير هذه تصبح واضحة عندما نطبقها على الصراع الوشيك بين الولايات المتحدة وكوريا. وليس هذا بقصد عقد مقارنة مع الهولوكوست، وإنما لكى نتعلم من حالة الوعى الأخلاقى التى يجعلها الهولوكوست ممكنة. وبينما تتصاعد المواجهة بين واشنطن وبيونج يانج، فإن إحراز «الشفاء من ورطة عدم التغيير» يصبح ضرورة عالمية ملحة. إن الأمريكيين يدينون للمستقبل القريب والمستقبل البعيد بأن يتذكروا أن هذا الصراع قد نشأ أصلاً بوصفه صراع الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ـ وهو انفجار وحشى لسوء الفهم وسوء الحسابات يتحمل كل من الجانبين المسئولية عنه. وقد تسببت الحرب الكورية التى اندلعت فيما بين سنة ١٩٥٠م وسنة ١٩٥٣م فى تعزيز أسوإ نبضات الخوف الحربية لدى أمريكا. وقد أدت إلى تطوير القنبلة الهيدروچينية وجعلت صانعى القرار يصمون آذانهم عن دعوات العلماء من أمثال ج. روبرت أوبنهايمر الذى أراد إيقافها. وكون أن أوبنهايمر نفسه كان كبش فداء يحدد أبعاد المأساة؛ لأن الحرب الكورية تم شنها فى الوطن أيضًا. فقد أشعلت حمى بارانويا الخوف من الشيوعية التى أعمت صانعى السياسة الأمريكية على مدى جيل، بحيث أدت إلى ڤيتنام وأدت كذلك إلى سوء فهم مقاصد الاتحاد السوڤييتى وإمكاناته على مدى عشرات السنين.

عندما صار دوايت أيزنهاور رئيسًا فى يناير سنة ١٩٥٣م، صعد من خطاب التهديد بطريقة ثبتت الحرب الباردة بوصفها من ملامح العلاقات الدولية. وعندما مات جوزيف ستالين فى شهر مارس آنذاك، رفض أيزنهاور العرض المفتوح الذى قدمه الزعيم السوڤييتى الجديد، چورچى مالينكوف. وبدلاً من ذلك، أوضح أيزنهاور

استعداده لحل الصراع الكورى باستخدام الأسلحة النووية - «دونما كابح فى استخدامنا للأسلحة» . كانت هى العبارة التى استخدمها فى مذكراته - لدرجة أنه عندما وافق الصينيون والسوفييت أخيراً على الهدنة فى شهر يوليو ، أخطأت واشنطن فهم الإشارة بأن الشيوعية بعد ستالين ستكون مختلفة . وإذ افترضت واشنطن أن موسكو وبكين قد انحنيتا أمام التهديد بالحرب النووية ، فإنها أخذت استسلامهما على أنه تأكيد على خيارها المميت لبناء النفوذ الأمريكى حول القنبلة . وذلك ما يبرر النمو الصادم فى اعتماد الولايات المتحدة على الأسلحة النووية ، وهو ما اتضح مغزاه بالنسبة لى على أيدى كتاب من أمثال چون شتاينبرونر ، وچيمس ت . پاترسون ، وچان نولان . وفى سنة ١٩٥٠م ، كانت الولايات المتحدة تمتلك حوالى ٢٥٠ قنبلة نووية ، وبعد ذلك بعشر سنوات وصل العدد إلى حوالى عشرة آلاف . وتتطلب الذاكرة الأخلاقية منا أن نتعرف على ذلك النمو نفسه بحسبانه الإخفاق المركزى فى استجابة أمريكا للحرب الباردة .

والقنبلة الآن هى نقطة الصراع بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية . ولو كان الأمريكيون قد أحسنوا عملاً بحساب الميراث الأخلاقى لاعتمادنا على الأسلحة النووية ، لكنا قد رأينا بمزيد من الوضوح كيف أن أچندة بيونج يانج النووية غير المقبولة قد نشأت أصلاً من واشنطن . ولأصبح موظفو الولايات المتحدة أقل تظاهراً بالأخلاق ، ولاستوعب كل الأمريكيين مأساة تجديد الاعتماد على الترسانة النووية فيما بعد الحرب الباردة .

ولا شىء من هذا يعفى من الحكم على الطغيان الفاسد الذى يتولى رئاسة كوريا الشمالية ، ولا إدانة التهديد الذى يحمله الابتزاز النووى من جانب كوريا الشمالية . ولكن الصراع بين واشنطن وبيونج يانج ليس بأى حال من الأحوال مسألة مواجهة بسيطة بين الخير والشر . إن الخطر الحالى ينبع من أفعال أمريكا وكذلك من أفعال كوريا الشمالية ، وبحساب كامل للحماقات العمياء فى ذلك الماضى فقط ، مهما كانت مقاصدها الطيبة ، يمكن أن نُعد لمستقبل مختلف أكثر حكمة .

* * *

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

السلاح المطلق

١٣ مايو ٢٠٠٣م

فى الأسبوع الماضى صوتت لجنة الخدمات المسلحة بمجلس الشيوخ لصالح السماح بتطوير أسلحة نووية منخفضة القدرة ـ وهو نقيض الحظر الذى كان فعالاً منذ سنة ١٩٩٣م. وبحسب التقارير الصحفية وافقت اللجنة أيضًا على تمويل دراسة عن الأسلحة النووية المدمرة للمخابئ، وكذلك تمويل الإسراع فى الإعداد للاختبارات النووية تحت الأرض. هذه القرارات، التى تم اتخاذها استجابة لطلب إدارة بوش، لم تكن مفاجأة فى ضوء تقرير الوضع النووى الذى صدر فى يناير ٢٠٠٢م، ولكنها تحسب بحسبانها الخطوات الأولى فى تنفيذ السياسة النووية الجذرية الجديدة للإدارة.

وحسبما أوردت جريدة NewYork Times، فإن اقتراحات لجنة مجلس الشيوخ قد سجلت لكى تنظر فيها لجنة مجلس النواب للخدمات المسلحة اليوم، ثم المجلس كله فى الأسبوع القادم. وفى كل من هاتين اللجنتين، لا بد أن يعارض الديمقراطيون بقوة محاولات إدارة بوش الخطيرة لإعادة تشكيل علاقة أمريكا بالأسلحة النووية. وهذه هى الأسباب:

* إن المقترحات تؤدى إلى نسبية «السلاح المطلق». ففى سنة ١٩٤٦م، بعد شهور فقط من قصف هيروشيما، نشر المنظِّر السياسى برنارد برودى كتابًا عنوانه «السلاح المطلق» ـ وهى أول إقرار بحقيقة أن الأسلحة النووية فريدة فى بابها، وقد غيرت الشئون الحربية إلى الأبد، ويجب دائمًا تقديرها بشكل منفصل. وصار ذلك محل إجماع من يديرون شئون الحكم بالعالم، وهو مفتاح إلى حقيقة أن الأسلحة النووية لم تستخدم قط خلال الحرب الباردة. وأى تشويش على التمييز بين الأسلحة النووية والأسلحة التقليدية كان يؤخذ على أنه يحرك العالم عبر العتبة النووية مرة أخرى ـ إلى الكارثة، ذلك هو الإجماع الذى تلويه إدارة بوش بالخلط بين الأسلحة النووية والأسلحة التقليدية بوصفها «أسلحة الضربة الهجومية» وباقتراح تطوير أسلحة نووية ذات قدرات منخفضة «يمكن استخدامها» كجزء من الترسانة القياسية.

* هذه الاقتراحات، إذا ما تم تفعيلها، سوف تفاقم «معضلة الأمن»، وهى عبارة تشير إلى التناقض الداخلى الذى عرفته الحرب الباردة. وعلى حد تعبير عالم السياسة

روبرت چيرفيس: « إن الزيادة فى أمن دولة واحدة، سوف تؤدى تلقائيا إلى خفض أمن الدول الأخرى». والحركية حتمية: عندما تزيد دولة واحدة من قدرتها العسكرية، فإن الدول الأخرى تتخذ خطوات لمجاراتها. وبالمقارنة مع النفقات الهائلة والقوة التقليدية التى لاتنافس التى يمتلكها الأمريكيون الآن، فإن القدرة النووية (مثل القدرة الكيميائية والبيولوچية) تكون رخيصة ويمكن حيازتها بسهولة نسبية. وتتعقد معضلة الأمن.

* هذه الاقتراحات، إذا ماتم تفعيلها، سوف تنتهك الفقرة ٦ من معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية، التى تلزم الولايات المتحدة (مثل سائر القوى النووية) بأن تعمل فى اتجاه التخلص من الأسلحة النووية، وليس فى اتجاه جعلها عادية. إن تخلى إدارة بوش فعليًا عن نظام الحد من انتشار الأسلحة ربما يكون أسوأ حماقاتها، وفى انتهاكها معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية ستكون الإدارة قد انتهكت قانون الولايات المتحدة. وفى دفاع بوش، حسبما قال سيناتور جمهورى الأسبوع الماضى، «إن التجربة قد أظهرت أن معاهدات الحد من انتشار الأسلحة ليس لها حقًا أى تأثير على بلاد مثل كوريا الشمالية والهند وپاكستان». ولكن ماذا عن بلاد مثل البرازيل وجنوب إفريقيا، أو السويد؟ هل نريد حقًا عالما تجد كل أمة فيه سببًا ملحًا جديداً يدعوها إلى خلق ترسانة نووية؟ إن الولايات المتحدة تقابل التحدى من جانب من يسمون الأوغاد النوويين بأن تتصرف مثل واحدة منهم.

* كل هذا يجعل الولايات المتحدة أقل أمنا، وليس أكثر أمنًا. والواقع، أن نفس فكرة «الأمن القومى» قد صارت أسطورية. إن المعنى الوحيد الذى يمكن أن يكون «للأمن القومى» الآن يفترض وجود نوع من التعاون العالمى المتبادل، نظام من الاعتراف ـ تفرضه الاتفاقيات ـ بالاعتماد المتبادل بين الدول سوف يؤدى إلى ضبط الميول الإفتائية للمجموعات التى تعمل بمعزل عن الحكومات، وهو التهديد الحقيقى فى العالم اليوم. إن سياسة إدارة بوش النووية تتحرك بالضبط فى الاتجاه المعاكس، بحيث تحافظ على نظام عفى عليه الزمن من المنافسة الوطنية التى أوشكت على تدمير العالم مرتين. وأولئك الذين يفكرون فى هيمنة أمريكا الجديدة كإمبراطورية ما يزالون منغرسين فى القرن التاسع عشر، إن قوتنا الفائقة لن تحمينا فى عالم توجد فيه طرق للدمار الشامل والعنف الشامل رخيصة ولا يمكن إيقافها، بسبب التكنولوچيا الجديدة ونظم المعلومات الجديدة.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

* إن هذه الاقتراحات تمثل إخفاقًا كاملاً لتخيل ما تبدو عليه مثل هذه التحركات بالنسبة للأمم الأخرى، سواء أصدقاؤنا أو خصومنا. وحسبما توضح الحرب فى العراق، فإن الولايات المتحدة هى البلد الوحيد فى العالم التى لا تلزمها زيادة فى قدراتها النووية إطلاقًا. وربما تسأل البلاد الأخرى عندئذ: لماذا تستعد الولايات المتحدة لاتخاذ مثل هذه الخطوات؟ ربما تكون دوافع واشنطن هى الخير الأخلاقى فى عالم يسوده النظام، ولكن نزعتها العسكرية التى ارتضتها لنفسها يمكن فقط أن تبدو للآخرين، بمن فيهم الأصدقاء، مثل مباهاة متغطرسة. فهل هذا حقًا ما صارت عليه الولايات المتحدة؟

وبينما يمر موسم الانتخابات الرئاسية، فإن الفروق بين الديمقراطيين والجمهوريين تتلاشى، كما لو كان الديمقراطيون عازفين عن لفت الانتباه إلى معارضتهم الخجول لثورات بوش الكثيرة. ولكن إطاحته الجذرية بالحذر النووى ما يزال حتى الآن أخطر المسائل التى تواجه هذه الأمة. ونحن نعرف ما الذى سيفعله الجمهوريون إزاء ذلك. وإذا ما بدأنا اليوم يكون السؤال الملح: ماذا عن الديمقراطيين؟

* * *

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(١٢)

اعترافات

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

في ١ مايو ٢٠٠٣م، هبط الرئيس بوش على ظهر حاملة الطائرات يو. إس. إس إبراهام لنكولن وخاطب القوات أمام علم كبير معلنًا «المهمة أنجزت». وقال: «رفاقي الأمريكيين، لقد انتهت عمليات القتال الرئيسية في العراق، وفي معركة العراق، انتصرت الولايات المتحدة وحلفاؤها».

وحتى بالنسبة لأشد مؤيدي الحرب الأمريكية في العراق، اتضح بسرعة أن هذه الحرب لم تكن ناجحة. وبينما تتصاعد الفوضى والعنف عقب الحرب، تبدو تكاليف ما يسمى الآن «إعادة الإعمار» أكبر من أي مكاسب محتملة. ففي أكتوبر، استبعد بوش نفسه شعار «المهمة أنجزت»، زاعمًا أن الذي وضعها هم أفراد طاقم حاملة الطائرات. وفيما بعد كان على البيت الأبيض أن يعترف بأن الشعار قد تم عمله بناء على أوامر منه.

وأمام هذا الشعار، على متن حاملة الطائرات، كان بوش قد تباهى بقوله: «من القواعد البعيدة أو السفن في البحار، أرسلنا الطائرات والصواريخ التي تمكنت من تدمير فرقة للعدو أو ضرب أحد مخابئه». بيد أن مثل هذه الأسلحة لم تستطع أن تفعل شيئًا للقلوب التي داهمها الحزن أو العقول التي ينتابها الشك لأولئك الذين كانت الحرب، ظاهريًا، من أجلهم. فقبل وقت طويل كانت الحقيقة قد اختفت. والكلام السهل عن «إمبراطورية» والذي كان سمة من سمات خطاب مذهب بوش طوال عام ٢٠٠٢م كان قد اختفى بمنتصف سنة ٢٠٠٣م. وعلى المدى الطويل، ربما تتمثل أهم نتائج «عملية الحرية العراقية» فيما لم تؤد إليه. ذلك أن فكرة السيادة العسكرية المهيمنة كانت تعني أن الولايات المتحدة الفخورة بنفسها يمكن أن تفرض فكرة النظام على العالم قد انكشفت في العراق بالقدر الذي أوضح أنها وهم صاخب.

كذلك اتضحت أمور أخرى. إذ إن حكومة آرييل شارون، التى سارت على خطى واشنطن فى مملكة «حيّا أو ميتًا» جعلت إسرائيل أكثر تعرضًا وانكشافًا عن ذى قبل، حسبما أوضح حتى جنودها المحنكون ذوو العقليات الصلبة. كما أن التشدد الإسلامى المشتعل، والذى ارتبط بعودة صادمة لمعاداة السامية [فى أوروبا] قد وضع اليهود جميعا فى موضع الخطر. ففى أمريكا تم تجذير الاختلافات السياسية. وانكشف عدم الأمانة بوصفها من سمات سياسة الحرب التى انتهجتها إدارة بوش، بينما كانت مراوغات بوش حول التعليم والبيئة والرعاية الصحية والضرائب وعجز الميزانية، قد انكشفت عارية.

***

طقس سيئ فوق أمريكا

٢٧ مايو ٢٠٠٣م

متى سينتهى الطقس السيئ؟ لماذا هذه المسافة بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون؟ أين أسلحة الدمار الشامل التى يمتلكها صدام حسين؟ وإذا كان يمثل تهديدًا بهذا الشكل، فلماذا يبدى جيشه هذا الأداء السيئ؟ هل يهم أين هو؟ وإذا لم تكن الحرب فى العراق حول البترول فلماذا تصر الولايات المتحدة على سيطرتها غير المحدودة؟ وإذا كانت الحرب، بدلاً من ذلك، حول الديمقراطية، فلماذا يتم استبعاد الشعب العراقى، بما فى ذلك أعداء صدام حسين، من السلطة؟ هل سيصبح العراق مثل أفغانستان، حيث يحكم سادة الحرب ويزدهر الهيروين؟ هل هناك انتحاريون بالقنابل الآن أكثر من ذى قبل؟ هل أدت الحرب الأمريكية على الإرهاب إلى تحسين السلامة؟ كيف صارت العلاقات بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين على هذا القدر من الهشاشة؟ هل سيعترف التاريخ بالرابطة الأنجلو أمريكية بوصفها مجرد استمرار للإمبراطورية البريطانية فى القرن العشرين؟ ماذا تفيد النوايا الطيبة إذا ما أدت إلى الغرق؟ وهل الطقس السيئ نتيجة انخفاض جوى سوف يرتفع دونما إجابات؟

لماذا يتم تخفيض الضرائب على حين أن المدرسين وأمناء المكتبات يتم الاستغناء عنهم؟ ماذا حدث لحملة الإصلاح المالى؟ لماذا تنقسم الولايات المتحدة على أساس

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

العرق أكثر من ذى قبل؟ متى حدث أن قرر مواطنوها أن يتخلوا عن الخصوصية من قبل؟ كيف يمكن لأصحاب الدخول المنخفضة أن يعيلوا عائلاتهم؟ إلى متى سوف تكون الطبقة الوسطى قادرة على متطلبات التأمين الصحى؟ لماذا يأكل الأمريكيون هذا القدر الكبير من الطعام الردىء؟ هل التليفزيون فى أوقات ذروة المشاهدة يعكس صورة الأمة؟ من الذى يعلم الأطفال أن يجلبوا البنادق معهم إلى المدرسة؟ ما الذى يحدث للمراهقين الذين يستوفون كل متطلبات التخرج باستثناء الامتحان الذى لا يمكنهم اجتيازه؟ كم منهم سوف يفشلون فى اجتياز ذلك الامتحان لأن مدرسيهم تم فصلهم؟

مثل هذه الأسئلة المستحيلة تقطع شوطًا طويلاً فى اتجاه شرح المزاج الأمريكى، ونحن لا نستطيع الإجابة عنها، ولذلك فنحن لا نطرحها، كما أن المناخ العاطفى حقير. ومن ثم فإن هياج چورچ دبليو بوش الزائف بشكل واضح ـ وهو الرجل الذى لا تساوره الشكوك ـ هو الرمز الكامل لأمة متخبطة لدرجة أنها لا تجرؤ على النظر مرتين إلى حالها الحقيقى. ومهما كانت الأسباب الفنية وراء ذلك، فإن الاقتصاد الذى يستعصى على الشفاء يتوافق بشكل كامل مع جمود نفسى واسع يعوق معرفة الذات. لماذا يكون الأمريكيون غير قادرين على النظر مباشرة إلى ما نفعله وإلى ما نصير عليه؟ فى الخارج، تشن الولايات المتحدة حربًا بمثل هذه الذرائع المتبخرة والتى حينما تتبدد مع أول هبات نحيب الحداد، لا يلاحظ الأمريكيون شيئًا. لقد تمت الإطاحة بتراث قوى من العالمية التعددية دونما معارضة سياسية أو حتى نقاش سياسى. وثمة حلم ليبرالى قديم بالفيدرالية العالمية، أى الأمم موحدة بوصفها شركاء ديمقراطيين فى حكم عالمى، قد استبدل به برنامج عن أحادية القطب الأمريكى، أى حكومة عالمية تدار من واشنطن بالأمر، ومن الذى فى واشنطن يتساءل عن هذا؟

فى الوطن ثمة حزن قلق يكمن تحت الحياة المدنية. ويبدو مستقبل الناس غير مضمون بشكل مرعب. أما أوقات الفراغ فهى رفاهية منسية، وهو أمر ليس سيئًا كله؛ لأن الفراغات البيضاء فى دفتر المواعيد تثير الإحساس بانعدام الأمن أكثر من أى شىء آخر. أما العلاقات الحميمة فقد تحملت عبء ما لا تتم مناقشته، كما أن كرسى الاعتراف الذى ربما كان الناس فيما مضى يحملون إليه مثل هذه الأسرار قد بات الآن خطيرًا. ذلك أن الأزمة الكاثوليكية، التى أحلت جماعة كاملة من وشائج السلطة

والمعنى، وتؤثر بشكل مباشر فى جزء فقط من سكان الوطن، ما تزال تبدو أيضًا أزمة أمريكية تمامًا. والحزن سياسى بقدر ما هو دينى.

وفى أمريكا تبدو كل نعمة الآن وكأنها تحمل نقمة. فهل حريتنا آمنة؟ نعم، بواسطة حكومة يمكنها أن تتنصت على كل محادثة. هل يتم إطعامنا بشكل جيد؟ نعم إلى حد البدانة. هل الرعاية الصحية لدينا ممتازة؟ نعم إلى درجة الإفلاس. هل نحن أثقل الشعوب تسليحًا فى التاريخ؟ نحن كذلك بشكل مخيف. هل النجاح غير المسبوق للمشروع الوطنى فى الجيل الأخير يبشر بالخير للجيل التالى؟ من الواضح لا. هل نجرؤ على أن نسأل لماذا؟

ثمة إجابة واضحة فى هذا اليوم بالذات فى العراق. ذلك أن المسافة بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون واسعة بحيث لا يمكن إبقاء الأمريكيين جاهلين به يتطلب عملاً من تعمية الذات الجماعية. إن المزاج الوطنى القاتم له أسباب كثيرة، ولكن أحد هذه الأسباب يصرخ بأعلى صوت لكى يتم حسبانه فى الحال. لقد كانت الحرب العراقية حزمة من الأكاذيب، كما أن حرب واشنطن على الإرهاب هى معالجة تدعو للسخرية للمخاوف من أجل القوة. وحتى الآن شارك مواطنو الولايات المتحدة بإرادتهم فى تمثيلية الفوازير التى قادها بوش. لقد فعلنا ذلك بدافع من شعور عدم الأمان الذى طلبوا منا ألا نشعر به، كما لو أن تمثيلية الفوازير، أيًا كان القدر الذى تتسبب به فى إغراق العالم، سوف تحمينا. ولكن حزننا الكامن يشير إلى ما نحتاج إليه لكى نعرف. ولم يكن مقصودًا أن تصبح أمريكا هكذا. نحن لم نعد نحن. إن الطقس السيئ لن ينتهى حتى نواجه هذه الحقيقة الباردة ونغيرها.

***

معاداة السامية وإسرائيل

٢٠ مايو ٢٠٠٣م

بسخرية تأخذ الأنفاس أحدثت حماس هذا الأسبوع ثغرة فى طريق السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين ـ فقد حدثت أربع هجمات انتحارية فى اثنتى عشرة ساعة من بينها هجمة وحشية بشكل خاص وقعت فى القدس. وتم تأجيل لقاء بوش وشارون الذى كان مقررًا أن يتم اليوم، وفرضت إسرائيل إغلاقًا تامًا على الضفة الغربية، وصار

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

التحدى الذى يواجه صناع السلام الفلسطينيين أشد قسوة. وكل من يحب إسرائيل، على حين يؤكد على الآمال الفلسطينية، قد خارت شجاعته.

من الممكن إدانة الاستسلام الفلسطيني الواسع للتطرف العدمي الذى يرعى مثل هذه القسوة دون أن يسقط فى تعصب دائم ضد الفلسطينيين. وكون أن المطلب الفلسطيني الصحيح بالعدل يغوص إلى هذا الحد فى الدماء يقطع اعتماده على الضمير العالمى بشكل قاس، ولن يكون من قبيل إظهار الكراهية العنصرية أن نقول كذلك. بيد أن انتقاد إسرائيل أمر أشد تعقيداً. إن احتلال إسرائيل للضفة الغربية وغزة «بالقوة الساحقة»، مع استراتيجيات العقاب الجماعي، وعمليات الاغتيال غير القانونية، والسياسة الجارية بالتحفظ على الأرض المتنازع عليها «بحقائق» المستوطنات اليهودية، أمر يستحق الإدانة، وغالبا ما يحدث هذا ـ من جانب كثير من الإسرائيليين واليهود الأمريكيين، وكذلك من جانب آخرين يوضحون أن معارضتهم إنما هى موجهة إلى سياسة إسرائيل، وليس ضد اليهودية.

ولكنها حقيقة كذلك أن النقد ضد إسرائيل يحفزه التعصب القديم الذى ميز معاداة السامية. ويبدو هذا أكثر وضوحًا فى بعض البلاد العربية(*)، ولكن فى أوروبا أيضا وأمريكا حيث يتحول النقد السياسى لحكومة شارون إلى احتقار متصاعد. وقد اجتمعت مؤتمرات عاجلة حول موضوع العداء للسامية التى بعثت من جديد هنا وفى الخارج. وفهم هذه الظاهرة القبيحة مهم لثلاثة أسباب: لمعارضة اللاسامية، ولتأكيد الحالة السوية بالنسبة لإسرائيل، مثل بقية الدول الأخرى، التى تأخذ النقد الموجه لممارسة القوة على أنه أمر مسلم به، ولكى نفكك أحد العناصر المتفجرة التى تبقى على النزاع الإسرائيلى ـ الفلسطينى على هذه الدرجة من التفجر.

وهناك سمتان من سمات التفكير المعادى للسامية تؤديان دورهما هنا: أولاهما يمكن تسميتها الاحتفال «باليهودى المثالى» الذى يؤدى إلى تشويه السمعة بواسطة الإفراط فى الشعور بالأهمية. فاليهود كما هم فى الحقيقة يتم قياسهم على أساس

(*) على الرغم من أسطورية التقسيمات العرقية على أساس «العهد القديم» فى الكتاب المقدس؛ فإن العرب بحسب هذه التقسمات «ساميون». وليس منطقيًا أو بديهيًا أن يكون العرب معادين «للسامية». (المترجم).

اليهود كما ينبغى أن يكونوا، ودائمًا ما يتم اكتشاف أنهم أقل من ذلك . ويمكن أن يتضمن هذا افتراضًا من العهد الجديد بأن شعب الله المختار كان عليهم بالتأكيد أن يعترفوا بيسوع على أنه المسيح المخلص؛ والغضب المسيحى الذى ينتمى إلى العصور الوسطى ضد التلمود باعتباره إنكارًا لكفاءة يهود العهد القديم؛ وغضبا فى عصر النهضة ضد «العشائرية» اليهودية التى تعقد المواطنة اليهودية؛ أو التناقض المعاصر بين المثالية الاشتراكية فى الكيبوتزات والواقعية السياسية التوفيقية فى دولة إسرائيل بعد سنة ٤٨، وفى كل حالة يتم استخدام اليهودى المتخيَّل لتبرير احتقار اليهودى الحقيقى. وهكذا يتم النظر إلى الإسرائيليين بشكل عام فى ضوء مقاييس العدالة التى لا يجاريها الفلسطينيون، ولا إدارة جورج بوش. وعلى أى حال، فإن «القوة الكاسحة»، التى استخدمها بوش هى الرخصة التى يحملها شارون.

أما السمة الثانية، فهى إشارة دالة على التفكير المعادى للسامية تتمثل فى الميل إلى تعريف «اليهودى» بشكل أحادى، كما لو كانت هذه المجموعة شيئًا واحدًا فقط. وهكذا، فإن الانتقادات الموجهة ضد إسرائيل يتم تصعيدها بشكل روتينى خارج إسرائيل مع قدر قليل من الاهتمام بالأصوات اليهودية داخل إسرائيل التى تشير بإخلاص مسائل معاناة الفلسطينيين. حقًّا، كما تظهر صناديق الانتخاب، أنه فى زمن الرعب الحالى، تستحوذ حكومة شارون على تأييد واسع من الناخبين الإسرائيليين، وحقًّا أيضا أن غالبية الإسرائيليين يفضلون الاتفاق والتنازل من أجل السلام، مثل تفكيك المستوطنات ودولة فلسطينية قابلة للبقاء. وعندما يتم الحكم بقسوة على إسرائيل، فربما يسأل المرء؛ أى إسرائيل؟ هل هى إسرائيل التى تمثلها جريدة چيرو سالم پوست أو إسرائيل التى تمثلها هاآرتس؟ هل إسرائيل الليكود؟ أم إسرائيل حزب العمل؟ وأى يهود؟ آريل شارون أم توماس فريدمان الصحفى؟ السناتور چوزيف ليبرمان أم الناشر ميخائيل ليرنر؟

إن عجز كثير من منتقدى إسرائيل عن تجنب الإدانة الكاسحة «لليهود» يكرر الغلطة المسيحية الأساسية ـ النظر إلى «اليهود» بنفس الطرق الأحادية السلبية القديمة التى ترى أن يسوع لم يكن ينظر إليه بوصفه من هذا الشعب. ومن المهم أن نعترف بأن ثمة انحيازًا مسيحيًّا خاصًّا يقوى أحيانًا هذا النقد الكاسح، كما يتضح فى كل مرة يقوم فيها

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الجيش الإسرائيلى بحصار مواقع المتشددين الفلسطينيين فى بيت لحم ويتم تصويره على أن «اليهود» ضد يسوع مرة أخرى.

لقد عادت اللاسامية، وربما لا غرابة فى هذا. وعلى الرغم من إنكار الحكومة الأمريكية، فإن الحرب على الإرهاب، مع الحرب ضد العراق المرتبطة بها، قد تم تصويرها، للأسف، على أنها صراع خطير بين «الغرب والباقين». ويسود شعور، فعلا، بأنها حملة صليبية جديدة. لقد بدأت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦) حربًا ليس ضد الإسلام فقط فى المدينة التى تمثل نقطة الضوء (حينذاك والآن) وهى مدينة القدس، ولكن ضد اليهود فى قلب أوروبا. لقد حدثت المذابح الأولى على امتداد حوض نهر الراين فى تلك السنة. وكما أكدت من قبل، فإن الجانب الخفى فى هجوم شامل ضد عدو ما فى الخارج هو خوف بارانويى من عدو فى الداخل. واليوم فى أوروبا وأمريكا، فإن الخوف يجعل المسلمين والمهاجرين من الأمم العربية مشتبها فيهم، ولكن فى الحضارة الغربية كان العدو فى الداخل بامتياز هم اليهود. ولكى ندرك هذه الحركة الثنائية يعنى أن نكون واعين لخطرها الشديد، وهى الخطوة الأولى فى إلحاق الهزيمة النهائية بها.

* * *

الألم والأمل الفلسطينى

٣ يونيو ٢٠٠٣م

إن رفض إدارة بوش توريط نفسها فى حل نزاع بين الفلسطينيين والإسرائيليين كان أحد أسوإ نتائج الهجمات الإرهابية فى الحادى عشر من سبتمبر. وهناك أمل بأن مقابلة الرئيس غدًا مع الزعيم الإسرائيلى آرييل شارون والزعيم الفلسطينى محمود عباس فى الأردن تكون علامة على تغير فى موقف كل من الخصمين وموقف واشنطن بالمثل.

فعندما شعر الأمريكيون بأنهم معرضون للتخريب الذى يحدثه الإرهابيون الانتحاريون، وجدوا طريقة جديدة فى التوحد مع مواطنى إسرائيل، حيث يقوم انتحاريو القنابل بشن مثل هذا التخريب المنتظم. وقد عزز رد فعل واشنطن المفرط فى نزعته الحربية من استجابة حكومة شارون. وتم تكثيف التحالف التقليدى بين الولايات

المتحدة والدولة اليهودية. وبعد ١١ سبتمبر أخبرنى صديق إسرائيلى «الآن أنت تعرف ما يكون عليه إحساسك». وكان ذلك حقًا.

بيد أن سؤالاً آخر يطرح نفسه: هل لدى الأمريكيين أدنى فكرة حقيقية عما يعانيه الفلسطينيون بعد أن تعاطفوا مع المشاعر الإسرائيلية؟ دعك من تعقيدات النزاع السياسى لكى نركز على عواقبه الإنسانية المعروفة بدرجة أقل. فقد تم استيعاب الشخصية الفلسطينية بطريقة نمطية، كما لو كان كل مواطن بالقدس الشرقية أو رام الله على استعداد لأن يقتل الأبرياء - أو أنهم يرسلون أولادهم لكى يفعلوا هذا. لقد غيم الإرهابيون على الدعاوى الفلسطينية، ولكنهم هم ومؤيدوهم يمثلون قسمًا فقط من السكان الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة والضفة الغربية وغزة. ويمثل انتحاريو القنابل مصدر رعب لكل هذه الملايين أيضا. إن الأمريكيين يجب أن يلتفتوا إليهم الآن ويتعاطفوا معهم. ويجب الاعتراف بتجربتهم. وإذا استوعب الأمريكيون الأبعاد الكاملة للمعاناة الفلسطينية، فإنهم لا بد وأن يصروا على أن تبذل حكومة الولايات المتحدة جهدا لكى تنهى معاناتهم بتجديد العمل من أجل السلام.

إن النقطة الثابتة التى ما يزال الخيال الأمريكى العاطفى يمكن أن يتحول نحوها بشكل مثمر أكثر من غيره هى ورطة الأطفال الفلسطينيين. إذ يقرأ الأمريكيون تقارير الأخبار عن سوء التغذية المستشرى الذى أدى إلى إصابة نسبة كبيرة من الرضع والصغار فى الضفة الغربية وغزة. ولكن هل يدركون حقًا معنى كلمة «سوء تغذية»؟ الطفل الناقص الوزن بشكل مخيف. الأم المعذبة. والطبيب غير قادر على المساعدة. والمدرس يدرك استحالة تعليم الطفل. والأب مَسُوق إلى أعماق العار واليأس. وعمال الإغاثة غير قادرين على تسليم ما هو مطلوب. وكل هذا مضاعف بالآلاف. وأكثر من مليون شخص فى الضفة وغزة، منهم مئات الآلاف فى معسكرات اللاجئين يعتمدون على الوكالات فى طعامهم، ولكنهم يحتاجون إلى مساعدة سريعة. وبدأت مستويات الفقر بين بعض الفلسطينيين تقترب من مستوياته فى أفقر أمم العالم.

وكل هذا أعقب إغلاق الحدود والقيود التى فرضت على الحركة التى منعت الفلسطينيين من الذهاب إلى أعمالهم، وأدت إلى انهيار الاقتصاد. وزاد عدد الشبان

http://www.al-maktabeh.com

العاطلين، لكى يشكلوا الوسط الذى يمكن لحماس أن تجند منه مقاتليها. بيد أن الإجراءات الصارمة لها تأثيرات أخرى أيضًا. إذ إن حالات منع التجول التى يفرضها الإسرائيليون المحتلون بشكل روتينى تخضع أعدادًا كبيرة من الفلسطينيين لنوع من الاعتقال المنزلى الفعال، مما يؤدى إلى ثقافة الخوف من الأماكن المغلقة. ويمكن أن تبدو غزة، بشكل خاص، موضعًا للاحتجاز على نطاق واسع. ويحمل الأطفال وطأة هذا أيضا. على حين تتهشم العائلات والجماعات تحت عبء مثل هذا الضغط غير الإنسانى. وفى الوقت نفسه، يلتهب العنف حول أكثر الناس براءة، مع الكثير جداً من الأطفال الذين راحوا ضحايا الصراع. لقد رأوا آباءهم وإخوتهم وأعمامهم وأخوالهم وأمهاتهم أحيانًا يقتلون ـ غالبًا من مسافة قريبة جداً؛ لأن ساحات المعارك فى هذه الحرب هى المناطق المجاورة. وأسلحتها، بالإضافة إلى البنادق والطائرات والدبابات هى البلدوزرات التى هدمت المئات من منازل الفلسطينيين. كم من حالات الهدم هذه شملت الأركان الغالية التى كان الأطفال حتى ذلك الوقت يشعرون فيها بالأمان؟

إن الحرب مملكة تصبح فيها الوحشية مسألة دنيوية، ولكن تدمير الأشجار يمكن أن يصبح صادمًا مثل الهجمات التى تشن على الحياة البشرية تقريبًا. وعندما يتم تجريف أشجار الزيتون القديمة بالبلدوزرات، مما يسبب خسارة صفوف نبيلة من الأشجار التى حملت الثمار لأجيال وكان يجب أن تستمر لكى تفعل ذلك لأجيال قادمة، فإن القلب الفلسطينى يمكن أن يصاب فى الصميم. وعندما يتم بالمثل رفض المطالب القديمة للعائلات العريقة بالأرض والمساكن مع موجة مذكرات نزع الملكية، فإن الضربة تذهب إلى أعمق مما تتضمنه عبارة «الملكية العقارية». إن ما هو فى موضع الاختبار بالنسبة للرجال والنساء الذين يتم إنكار تاريخهم والذين تم انتزاع مكانهم فى التاريخ لا يقل عن الوجود نفسه. وبالإضافة إلى كل ما عدا ذلك فإن هذا يدفع بسرعة حياة الناس إلى حافة اللامعنى.

يرفض معظم الفلسطينيين أن يعرفوا أنفسهم بالعداوة. وهم يرفضون إغراء تشكيل الوطنية من خلال الانتقام فحسب. وهذا هو معنى أن يجلس قادتهم على مائدة المفاوضات من أجل السلام غداً. فهل سيتم فهمهم؟ هل سيتم الاعتراف بتجربتهم؟

http://www.al-maktabeh.com

يجب أن يحدث الكثير، بعبارة أخرى، قبل أن يتحول الفلسطينيون إلى وفد واشنطن الذى تأخر كثيرًا ويقولون: «أنتم تعرفون الآن ما يكون عليه ذلك الشعور».

***

الحرب الألفية

١٧ يونيو ٢٠٠٣م

الآن بدأ الأمريكيون يواجهون حقيقة أنه، فى غياب أسلحة الدمار الشامل العراقية، كان السبب المعلن للحرب سببًا زائفًا، وثمة سؤال جديد يطرح نفسه: لماذا، حقًا، ذهبت الولايات المتحدة إلى الحرب؟ ولماذا، حتى الآن، يشعر مواطنو الولايات المتحدة بهذه الدرجة القليلة من وخز الضمير لأنهم شنوا حربًا دونما مبرر؟ وهناك سيناتور أمريكى بارز ومرشح للرئاسة يمكن أن يطرح أسئلة صعبة حول تزييف إدارة بوش لمعلومات المخابرات عن أسلحة الدمار الشامل، حتى وهو ما يزال يؤكد موافقته على الحرب التى يفترض أن هذه المعلومات جعلتها ضرورة. ما الذى يجرى هنا؟

إن أشكالاً كثيرة من السلوك الإنسانى يمكن أن تتضمن أغراضًا معلنة وأغراضًا خفية. وعندما تكون الأغراض المعلنة مفضوحة، يتحول الانتباه بالضرورة إلى الأغراض الخفية. ذلك أن الدوافع الخفية للحرب معروفة جيدًا وكثيرا ما جرت مناقشتها ـ من هوميروس إلى فرويد. فالحرب تمنح البشر المبعدين إحساسًا بالالتصاق. والحرب بتقسيم الواقع إلى مملكتين للشر وللخير، تشفى من الإحساس اللاواعى بالذنب وتقوى مشاعر الفضيلة. وتقدم الحرب شفاء من أعباء الوجود الأرضى كافة. وتبرر الحرب خلق الضحايا الذى يقدم نفيهم من الحياة إثارة النصر، والذى يتم تجربته باعتباره فاتحة إلى التفوق. وهكذا.

ونحن الأمريكيين فيما بعد عصر فرويد عادة ما نَعُدّ أنفسنا بعيدين عن مثل هذه النبضات البدائية، وهذا هو السبب فى أن الولايات المتحدة تفخر بنفسها وهى تذهب إلى الحرب فقط من أجل أسباب جيدة وراسخة. ولكن هذا ما يجعل الجدل حول أسلحة الدمار الشامل المختفية يخفت ويصمت. وإذا لم يعد ممكنا تبرير الحرب باعتبارها فعلا أصيلاً «للوقاية»، فلماذا لا يزال الأمريكيون يشعرون بأن كل شىء على

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ما يرام بشأنها؟ ولا يحتاج الأمر إلى محلل نفسى لكى نرى - شيئًا قويًا يتحرك تحت سطح النفسية الأمريكية . إذ إن هناك شيئين يقترحان أنفسهما . نحن تائهون فى الزمان . ونحن تائهون فى المكان . والحرب تساعدنا على تحديد وضعنا فى كل منهما .

تذكر القلق المهيمن الذى راقبنا به الساعة وهى تقترب من اللحظة الأسطورية لشهر يناير سنة ٢٠٠٠م . فقد توقعنا كوارث غير معروفة ، حتى وإن كنا قد ربطناها بالمشكلة «العقلانية» المعروفة باسم Y2K ، وهى مشكلة خلل الكمبيوتر التى هددت كل شىء من شبكات القوى إلى المراقبة الجوية . وفى الإدراك المتأخر ، يمكننا أن نعترف بأننا كنا فى قبضة ذعر ألفى كان جديراً بأجدادنا منذ ألف سنة مضت ، على الرغم من عقلانيتنا . ويكمن الخوف من نهاية العالم فى توقع أن نهاية العالم قد اقتربت ، وأن كل مخلوق يعى مرور الزمن معرض له . إنه أمر بشرى أن تكون خائفًا جدًا من نهاية الزمان ، وأن هذا المفهوم الغامض قد أثر فى العقل الباطن الأمريكى مع مشكلة خلل الكمبيوتر Y2K . كانت الكارثة الألفية تهديداً ظننا أننا نجونا منه - حتى الحادى عشر من سبتمبر . وكما كان ذلك حقيقيًا بالنسبة للعالم المسيحى فى الألفية السابقة ، فإن استجابتنا اللحظية ، إن لم تكن اللاواعية ، قد تمثلت فى شن الحروب الصليبية . إن الحملات الصليبية الألفية تهدف إلى القضاء على الفوضى ، التى كان البشر فى أزمنة أخرى يجدون الوسائل للعيش معها .

وكذلك المكان . فمن المعروف جيداً أن رأسمالية السوق الحرة الأمريكية وتكنولوجيا المعلومات هى مركز عملية عولمة جديدة ، بيد أن هذه التجديدات نسخت التعريفات التقليدية للمكان . فاليوم مع الوصول اللحظى إلى التجربة فى كل مكان متاحًا ليس فقط عن طريق الكمبيوتر وإنما من خلايا تليفون الخلية ، لم تعد الحدود بين هنا وهناك واضحة . هذا التطور تطور كبير وضخم ؛ لأن هذه الحدود كانت بمثابة العلامة الأولى فى الوعى الإنسانى ، والمصدر الأولى للهوية والمعنى . إذ إن الأشخاص يصبحون ما هم عليه - أعضاء فى عائلات ، قبيلة شعب ، أمة - بالخطو خارج الإقليم واكتشاف من يشاركهم فيه . ولكن ما الإقليم فى عصر التليفزيون؟ الهجرة ، ووسائل الإعلام الشاملة ، عالم ماك ، والمول - نفس بناءات الحياة المعاصرة هى مصادر عدم تحديد المكان . إن البشر عبر العالم يتساءلون فى دهشة : أين أنا؟ ولكن الأمريكيين ، الذين يظنون أن لهم حقًا طبيعيًا فى السيادة ، يجدون إجابة بادعاء ملكيتهم للعالم نفسه . إن

هدف حروبنا التى تُشن فى زمن غير مؤكد، هو إعادة تحديد مكان غير مؤكد. أمريكا هى العالم. وكل مكان هو مكاننا.

لا يهم، من ثم، ما إذا كانت أسلحة الدمار الشامل لدى صدام حسين مصوبة إلى أعلى. ولا يهم ما إذا كانت تبريرات إدارة بوش قبل الحرب ناتجة عن خيبة المخابرات أو كانت كذبا صريحًا. ولا يهم ما إذا كانت حروب ما بعد ٩ ـ ١١ ضد أفغانستان والعراق لها علاقة بالأهداف التى طرحت. ومن الواضح أنه لا يهم، حتى لو كانت هناك حروب أمريكية يتم تبريرها بشكل أكثر التباسًا فى الفترة القادمة.

ولكن ما يهم هو أننا هكذا شعب فى قبضة النبضات الألفية والمرتبطة بنهاية العالم، التى نصمم على إنكارها. وكوننا على هذا القدر من البدائية هو الذى يجعلنا بشراً. وكوننا على هذا القدر من العمى هو الذى يجعلنا خطرين.

***

أن تحب أمريكا

١ يوليو ٢٠٠٣م

كانت نقطة الألعاب النارية عندما كنت شابًا. ففى تلك الأيام، كان كل فناء خلفى يشهد احتفالاً بالرابع من يوليو، وكان أبوك، مثل سائر الآباء، يرأس عملية إيقاد الشموع الرومانية، والأقماع البركانية وصواريخ الألعاب النارية. وكان يشرف على توزيع الشرارات التى تكتب أنت وأخوتك أسماءكم بها فى الهواء. وكانت كل تلك النيران تعطى إحساسًا بالخطر، ولكنها لم تكن تخيفك لأن أباك كان هو المسئول.

كانت الألعاب النارية قاصرة على الرابع من يوليو، وكنت تعرف معناها: أمريكا أمة عظيمة. لقد كان اللون فى السماء احتفالاً بهيجًا بهذه العظمة. وقد نَمَوْتَ مع حب دافق لبلادك، وهو حب لم تشعر به بهذا القدر من الامتلاء أكثر من يوم ميلادها. فى تلك السنوات كانت عظمة أمريكا قد تجلت لتوها فى الانتصار على الفاشية، وحتى وأنت طفل استوعبت المخاطر القاتلة للصراع مع چوزيف ستالين، ولم تكن على خطإ. ولكن الخطوة صوب البلوغ قد انطلقت بمعرفة مزعجة. وإذ كبرت وأنت تلعب لعبة «رعاة البقر والهنود»، فقد راودك السؤال يوما: أين كل أولئك الهنود الآن؟ ولماذا

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

يكون كل الفتيان الملونون فى تلك المدرسة الأخرى؟ ثم يخطر على بالك وأنت جاثم تحت معقدك مختبئا فى لعبة «البطة والغطاء» أن قنبلة ستالين النووية وقنبلة أمريكا النووية هما الشيء نفسه.

كان عراكك الحقيقى الأول مع أبيك حول مارتن لوثر كنج جونيور. فقد بدأت تصرُّ على أن «دكتور كنج يقول إذا كانت أمريكا تريد أن تكون أمة عظيمة»، ولكن أباك يقاطعك بقوله: «إن أمريكا أمة عظيمة بالفعل». والاقتناع الغاضب الذى قال هذا به جعلك تفكر فى أنك أنت وهو لم تعودا تؤمنان بالشيء نفسه، ولكنك تفهم الآن أن كلاًّ منكما كان على صواب.

وأنت تحتفل بعظمة أمريكا هذا الأسبوع بالامتنان والفخر، ولكن أيضا بفهم ناضج؛ لأن العظمة لا تحول دون وقوع الإخفاقات الفادحة، كما أنها لا تتكون من الكمال الثابت الذى يعلو فوق النقد. فمنذ تلك الليالى فى منتصف الصيف بالشموع الرومانية وقاذفات الشرارة فى الفناء الخلفى، أعادت بلادك تعريف نفسها مرة بعد مرة: «فالناس الملونون» لم يعودوا مجرد ناس ملونين، وتماما مثلما كانت افتراضات السيادة العنصرية ـ السيادة التى يمارسها الأوروبيون البيض ـ كانت مركزية بالنسبة لتأسيس أوروبا، فإن تحويل هذه الافتراضات أنجز شيئًا لا يقل عن إعادة اختراع أمريكا. وهذا هو السبب فى أنك كنت على صواب فى أن ترى مارتن لوثر كنج جونيور بوصفه المدافع عن التغيرات التى تتخطى أجندة الحقوق المدنية الضيقة بمسافة كبيرة. ذلك أن المواقف المتنامية صوب النوع والعرقية: الاستعداد لمواجهة الأسرار المظلمة فى ماضى الأمة والتكفير عنها؛ والتسامح الحقيقى تجاه الطرق الكثيرة لأن تكون مختلفًا؛ الاعتراف بأن العنف وباء أمريكى خاص، حتى لو ظل الأمريكيون غير متفقين على مغزاه ومضامينه فى الوطن وفى الخارج ـ كل هذا علامة على العقل الوطنى بطرق لم تكن تخطر على البال منذ وقت ليس بعيدًا.

وما يجعلها حقيقة أن تقول، مثلما قال أبوك، إن أمريكا بالفعل أمة عظيمة، هو أن أمريكا كانت تحمل فى داخلها مبادئ النقد الذاتى زمنًا طويلاً. لقد كان بوسع مارتن لوثر كنج جونيور. أن يطالب بالتغيير الجذرى من داخل السياق الأمريكى، لا ضده. وباللجوء إلى أنبل فكرة لدى أمريكا عن نفسها بوصفها طريقًا لعظمة جديدة، كان كنج

يبنى فوق العظمة الموجودة فعلاً. وهكذا يتم تشريف الأمريكيين المؤسسين لا لأنهم أسسوا المجتمع العادل، و لكن لأنهم أقاموا أبنية العقل والاتحاد التى يمكن من داخلها السعى بصفة دائمة نحو المجتمع العادل. وقد رأيت هذا يحدث على مدى حياتك، وكذلك فعل أبوك.

ليس جديداً أن أمريكا بحاجة إلى النقد اليوم. الاستسلام إلى الإغراء القديم بنزعة الانتصار والتفوق، وثقتها فى القوة العنيفة، وتمجيد الامتلاك لدرجة التخلى عن الذين لا يمكلون، وحصر الأمن القومى فى الوطنية الضيقة، والتعامل مع النقد بوصفه عدم ولاء. إن الإظهار الأمريكى المخصوص لحب البلاد يتكون من الاستعداد للإبقاء على الأمة فى مستواها الأعلى. إن أمريكا تحديداً تقصر باستمرار عن أن تكون هى نفسها.

هذه التجديدات للرابع من يوليو ذات مغزى ملح اليوم. فقد دخل الصراع العراقى مرحلة حرب العصابات، ويقتل الشباب بشكل مطرد وثابت، بمن فيهم الأمريكيون. وأصوات الاحتجاج من حول العالم سوف تعلو أكثر بينما يسوء هذا النزيف، ولكن النقد الذى يمكن فعلاً أن ينقذ الأمريكيين والعراقيين من هذه الكارثة يجب أن يأتى من الداخل. إن قدرة أمتك على مواجهة مثل هذا الإخفاق، باسم أفضل ما فيها، وإنهائه هى السبب فى أن أباك علمك أن تحب أمريكا. إن القدرة على نقد الذات والتغيير هى ما تحتفل به هذا الأسبوع.

* * *

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(١٣)

حرب خاسرة

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

بمجرد أن أعلن چورچ دبليو بوش النصر فى العراق، تجلى المدى الكامل للخسارة الأمريكية ليبدأ الإعلان عن نفسه. فقد أخذ المشروع الكامل لما بعد الحادى عشر من سبتمبر يتداعى. ذلك أن أفغانستان، باستثناء مقاطعة ضيقة تتمركز حول كابول العاصمة، قد تدهورت إلى دولة يسودها أمراء الحرب والصراع القبلى، والإجرام المنفلت.

وقد صارت حركة طالبان التى أعيد إحياؤها، وتجارة الهيروين التى بعثت من جديد، والأزمة الإنسانية بين الأفغان أهم سمات الموقف الجديد. وإذا كانت القاعدة قد انتشرت من قواعدها هناك، فإنها لم تختف بأى حال من الأحوال. والهزيمة الأمريكية المتجسدة فى بقاء أسامة بن لادن طليقا كانت أكبر من مجرد هزيمة رمزية. وفى العالم العربى - والواقع أنه فى كل دار الإسلام - كان وضع أسامة بن لادن يتحول من وغد هامشى إلى صلاح الدين عصرى، وهو البطل الذى هزم الصليبيين. لقد رفعت حرب بوش على الإرهاب بن لادن إلى مكانة أسطورية حينما عرفته بأنه خصم عسكرى بدلاً من مجرم سادى. لقد خسرنا «الحرب» على الإرهاب يوم أن أعلنها بوش.

ومما يستلفت الانتباه أن بوش قد عوّل على أن يفعل شيئًا مشابهًا مع صدام حسين، قبل القبض عليه. فعلى مدى ثمانية شهور فى حرب الخيال - ميدان المعركة الحقيقى - كان بقاء صدام حسين يكذب كل مزاعم النصر الأمريكى. وحرب العصابات الغوغائية التى بدأ أنصاره يشنونها مباشرة بعد أن انتهت «حربنا» اعتمدت، مثلاً، على ذخيرة مخبأة فى أماكن جيدة وآمنة، كشف وجودها عن استعداد أذكى كثيراً من أى شىء فعله البنتاجون أو فكر فيه لعراق ما بعد الحرب. والواقع أن فضيحتنا الكبرى فى الاحتلال الأمريكى كانت فى مدى قصور تجهيزاته، وتدريبات وحماية جنود أمريكا الشباب لأرض المعركة التى واجهوها، سياسيًا وعسكريًا أيضًا.

فكل حرب، هى أولا، حرب مخابرات، وعلى كل جبهة من جبهات ذلك الصراع خسرت أمريكا. وهجمات الحادى عشر من سبتمبر نفسها كشفت عن خيبة مخابرات أمريكا الخارجية والداخلية. ثم أعقب ذلك الإخفاقات فى فهم إمكانات طالبان، وتوقع موارد القاعدة فى باكستان، وتقييم قصد صدام حسين الفعلى وموارده، وبصفة خاصة تقديم تحليل ذى معنى لعدم امتلاكه أسلحة الدمار الشامل. إن بوش يخوض حربه على كل جبهة وهو أعمى! فلا عجب أنها حرب خاسرة.

***

تخليص العالم من الشر

٨ يوليو ٢٠٠٣م

فى رحاب الروعة القوطية بالكاتدرائية الوطنية، وفى تلك الصلاة التى أقيمت فى ذكرى الصدمة فى سبتمبر ٢٠٠١م، أعلن چورچ دبليو بوش أكثر إعلاناته إثارة وشؤمًا فى فترة رئاسته. فقد قال: «على مدى ثلاثة أيام فقط من هذه الأحداث لم يكن لدى الأمريكيين بعد مسافة التاريخ. ولكن مسئوليتنا تجاه التاريخ واضحة بالفعل: هى الرد على هذه الهجمات ونخلص العالم من الشر».

وقعت العبارة على آذان معظم الأمريكيين، ربما، بوصفها مجرد بلاغة من منبر الوعظ، ولكن بينما تطول «مسافة التاريخ»، تظهر الأحداث أنه فى تلك الكلمات القليلة أعاد الرئيس تحديد سبب وجوده وسبب وجود الأمة ـ بأنه «تخليص العالم من الشر» ولا شىء أقل من ذلك. والمبادرات غير المسبوقة التى اتخذتها واشنطن فى العامين الأخيرين لا يمكن فهمها إلا فى سياق هذا الغرض. ويرى المرء الآن أن الرئيس بوش كان يعنى بالضبط ما قاله. شىء جديد تمامًا، بالنسبة لأمريكا على الأقل، يدفع حكومتها إلى العمل. إن أكبر قوة شهدتها الأرض معبأة الآن ضد أقدم سر فى الدنيا. وما أثبت البشر أنهم عاجزون عن فعله من قبل، أخذه چورچ دبليو بوش على عاتقه الشخصى، بهدف إنجازه فى دورة انتخابية واحدة أو دورتين على الأكثر.

والأمر الذى ربما لا يعرفه الرئيس أن أسوأ تجليات الشر كانت بالضبط هى رد فعل

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الضربات للتخلص منه. وإذا كان بوسع المرء أن يشير إلى تشخيص الشر، فإن حيلة الشيطان العظمى تكمن فى انقلاب الطاقة الوحشية لمثل هذا التطهر على نفسها. وعبر مسافة التاريخ، كان أنبل طموح يؤدى دائمًا إلى أسوإ الأعمال. وهذا راجع إلى أن يقين النبل يتجاوز وخز الضمير الأخلاقى الذى يلازم المشروعات الأقل سموًا. وسجل هذا التناقض المميت مكتوب فى تراث أدبى كامل، على أيدى كتّاب من سوفوكليسْ إلى ديستوفيسكى إلى أورسولا لوجين. والذين يطرح كل منهم السؤال الدائم: ما المسموح بفعله باسم «تخليص العالم من الشر»؟

هل الكذب مسموح به؟ التعذيب؟ قتل الأطفال؟ أو عسكرة المجتمع المدنى؟ شن الحرب لأسباب غير واضحة؟ ولكن الحرب لا تكون ملتبسة أبدًا عند شنها. إن الاعتراف بالتعقيد ـ الأخلاقى والعسكرى كذلك ـ لا يأتى إلا مع «مسافة التاريخ»، وهذا هو المنظور الذى بدأ يفرض نفسه على الضمير الأمريكى الآن. وإذ انطلقت الولايات المتحدة لكى تخلص العالم من الشر، فى أفغانستان أولاً، ثم فى العراق، فإنها صارت، طوعًا أو كرها، أداة من أدوات الشر. فالكذب (أسلحة الدمار الشامل). والتعذيب (إذا ما كان فقط على أيدى وكلاء الولايات المتحدة)، قتل الأطفال (عرضا ولكن حتمًا)، امتهان الوطنية (رقصة التناطح المبتذلة الأسبوع الماضى)، فرض الفوضى (وتسميتها حرية)، تدمير التحالفات (العراق أولاً ثم فرنسا)، دعوة الأمم الأخرى للتصرف على نفس النحو (وداعا الشيشان)، التصعيد العنيد (أحضروهم هنا)، مجمع الأعداء الخرافيين الذى صنعته واشنطن نفسها (أسامة أولاً، والآن صدام) تحويل الشباب الأمريكى العادى (إلى أبطال موتى). كيف يمكن لهذا كله، أو أى منه، أن «يخلص العالم من الشر»؟

وهو ما يعود بنا إلى تلك الكاتدرائية القوطية لنطرح سؤالا: ما الشر على أى حال؟ هل هو فقط دافع الطغاة؟ دافع الأعداء وحدهم؟ أم أنه مرتبط بالالتزام الشخصى الذى تعلق عليه أمريكا أيضا رايتها؟ هل الشر هو الشىء الذى ربما يدفع البشر دائمًا إلى الاعتقاد بأنهم أنفسهم لم يمسهم الشر؟ إن النضج الأخلاقى، الذى يلين عبر مسافة التاريخ، يبدأ بالاعتراف بأن الشر، مهما كان مصدره الأولى، يقيم مثل فيروس فى مكمنه، فى النفس الإنسانية. ليس هناك تخليص للعالم من الشر بسبب الحقيقة البسيطة القائلة بأنه لا تخليص للنفس من الشر، بسبب الخجل من التاريخ.

ولكن هناك مشكلة الرئيس بوش. وهى ليست عدم النضج الأخلاقى للنصوص التى يذيعها. ومثل عبارته الساذجة فى الكاتدرائية فى ١٤ سبتمبر ٢٠٠١م، التى كتبها له شخص آخر. وعندما يتحدث الرئيس، دون الاعتماد على نص مكتوب، من مركزه الأخلاقى الخاص، فإن الخواء اللامتناهى هو الذى يظهر جليًا. ولكى يرد على العنف الوحشى الذى يقسم العراق «بعد الحرب» بعبارة «أحضروهم هنا» (كما فعل فى الأسبوع الماضى) يعنى أن يظهر غيابًا للخيال يصدمنا فى رجل له مثل هذه السلطة. لقد أظهر قصورًا فى القدرة على التمييز سواء مع العراقيين الغاضبين الذين يجب أن يرتقوا إلى مثل هذه الذرى، أو مع الشباب الذين يجب أن يجيبوا عن ذلك. وحتى فى علاقته مع جنوده، فإنه لا يوجد شيء فى داخل هذا الرجل سوى الوضاعة العميقة.

لا يوجد بشر لديه أدنى معرفة بذاته يمكن أن يتحدث عن الشر كما يفعل، ولكن لا توجد معرفة بالذات دون وجود الذات. وحتى هذه «المسافة القصيرة من التاريخ» تظهر أن چورج دبليو بوش يكون بهذا المعنى، هو الرئيس الذى لا ذات له، وهذه ليست مجاملة. إنها تحذير.

* * *

انعدام المخابرات

١٥ يوليو ٢٠٠٣م

هكذا قدمت جماعة المخابرات معلومات خاطئة لصناع السياسة، الذين استخدموها عندئذ لتسويغ القرارات الكارثية. متى سمعت هذه القصة من قبل؟

* هل كانت فى سنة ١٩٤٤م عندما تم شن حرب جوية من الحلفاء على المدن على أساس تقديرات المخابرات البريطانية (التى عارضها بعض الأمريكيين) بأن القصف سوف يدمر معنويات العدو؟

* أم كان ذلك فى سنة ١٩٤٥م، عندما قدم مشروع مخابرات مانهاتن، الذى كان يشرف عليه البريچادير چنرال ليسلى جروڤز، تقديرات (عارضها العلماء) بأن الاتحاد السوڤييتى لن يمتلك القنبلة النووية قبل عشرين سنة؟

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

* أم كان ذلك فى الخمسينيات من القرن العشرين عندما قامت المخابرات الأمريكية بالتأكيد تمامًا على السمة الأحادية للشيوعية العالمية لدرجة أنها أخطأت الملامح الوطنية المعادية لموسكو فى يوغوسلافيا والصين؟

* أم كان ذلك سنة ١٩٦٠م عندما قامت مخابرات القوات الجوية الأمريكية، التى رأت أن ثمة «فجوة فى القاذفات»، ثم اكتشفت «فجوة صواريخ»، مما أشعل تصعيدات رئيسية فى سباق التسلح مع الاتحاد السوفييتى؟

* أم كان ذلك سنة ١٩٦٨م عندما بالغت المخابرات العسكرية، التى استحوذت عليها «أعداد الجثث»، فى تقدم الحرب (بإحصاء النساء والمسنين على أنهم جنود) لدرجة أن التيت فاجئوا واشنطن بهجومهم مفاجأة تامة؟

* أم كان ذلك سنة ١٩٦٩م عندما اعتمد ريتشارد نيكسون، لكى يسوغ اقتراحه بنظام الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية، على تقارير المخابرات (التى عارضها مدير وكالة مخابرات وزارة الدفاع) بأن الاتحاد السوفييتى كان يعد العدة لشن الضربة الأولى؟

* أم كان ذلك فى السبعينيات عندما قامت مخابرات الولايات المتحدة، وهى تساند شاه إيران، باستبعاد تسجيلات خطب أحد الملالى المنفيين الذى يسمى الخومينى على اعتبار أنها غير ذات علاقة؟

* أم كان ذلك فى ثمانينيات القرن العشرين، عندما فات المخابرات الأمريكية، وهى تؤكد على «إمبراطورية الشر»، كلية، الانهيار الداخلى فى الاقتصاد السوفييتى والمغزى التاريخى للحركات الديمقراطية غير العنيفة أيضًا؟

إن إخفاق المخابرات، الذى يؤدى بواشنطن إلى ارتكاب أخطاء سياسية تهدد العالم، ليس هو الاستثناء. وإنما هو القاعدة. ذلك أن المحللين محكومون بشرط التأكيد على سيناريوهات الحالة الأسوأ. لاحظ ما تتضمنه كل حالة: نظام معلومات فى خدمة الرغبات الموجودة قبلاً والافتراضات المسبقة لدى أولئك الذين فى السلطة. وتقديرات المخابرات التى تتحرك إلى أعلى فى تسلسل القيادة لها طريقة فى تأكيد الافتراضات المسبقة عند القمة. كان ترومان يريد أن يعتقد فى احتكار نووى طويل

المدى لدرجة أنه يمكن أن يوبخ موسكو ـ وأكد له جروڤز أن الأمر سيكون كذلك. وكان نيكسون يريد تسويغا لمشروع اعتراض الصواريخ الباليستية، ووفرته له القراءة المنحرفة لعمليات نشر الصواريخ السوڤييتية، وهكذا. وليس معنى هذا القول أن موظفى المخابرات «يكذبون»، ولكن معناه أنه عند كل مستوى من جمع المعلومات وتحليلها ـ من «عد الجثث» فى الميدان من خلال عدة مراحل وسيطة من التقارير والمراجعة، إلى التقرير القومى للمخابرات الذى يقدم للرئيس ـ يتم حذف التناقضات ومواطن الغموض، ربما دونما وعى، لكى تلبى توقعات الرؤساء.

ففى الصور التى التقطتها الولايات المتحدة سنة ١٩٦٠م ظهرت آثار كثيرة فى الأراضى السوڤييتية الشاسعة، وهى مسلات جرانيتية منصوبة لتكريم قتلى الجيش الأحمر فى الحروب. وأول تحليل للصور كان لا بد أن يظهر هذه البنايات على أنها شواهد قبور «بشكل شبه مؤكد»، والتحليل الثانى «ربما تكون شواهد قبور، ولكن هناك فرصة صغيرة لأن تكون صواريخ»، أما الثالث «يمكن تمامًا أن تكون صواريخ»، والرابع «من المحتمل أن تكون صواريخ، على الرغم من أنها قد تكون شواهد قبور». وفى الوقت الذى كان فيه چون كنيدى يحذر من فجوة الصواريخ، لا بد أنه كان يعتمد على تقرير رأى «دليلاً قويًا» على نشر الصواريخ عبر الاتحاد السوڤييتى. وليست مصادفة، أن تلك التقارير قد عززت مطالب تعزيز ميزانية القوات الجوية، وكانت وقودًا لانتقادات كنيدى للإدارة الجمهورية.

ولا يحتاج المرء إلى أن يصدق أن چورچ دبليو بوش «قد كذب» بشأن أسلحة الدمار الشامل فى العراق. فحسب التقاليد، اعتمد ببساطة على تقارير أعطته ما كان يريده ـ تقارير قد قامت بتصفية التحذيرات، والتناقضات، ونقاط الغموض التى لا تتواءم مع غرضه الثابت. وكان چورج تينيت مدير الـ CIA قد أشار إلى مثل هذه التصفية حديثًا على أنها المذنب.

وما لم يظن المرء أن هذه «التصفية» أمر شنيع، فإنه ينبغى أيضًا تقدير أنها بالضبط ما استخدمته الأغلبية الساحقة من الأمريكيين، والسياسيين «وصناع الرأى» فى اندفاعها الحماسى إلى الحرب فى الخريف الأخير والشتاء الأخير. وكثير من الديمقراطيين

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

والعارفين الذين يدينون الآن «خداع» المخابرات يفعلون الشيء نفسه بالضبط لدعم حرب كانوا أجبن من أن يعارضوها ـ متجاهلين الدليل الذى لوحظ كثيراً (بما يكفى لمساندة معارضة الأمم المتحدة) والذى يتناقض مع المزاعم المضحكة التى تزعمها إدارة بوش.

ولا يشارك كل موظفى المخابرات بإرادتهم فى هذا الفساد، سواء اليوم أو فى الماضى. وكل من الأمثلة التى أشرنا إليها فى السطور السابقة تتضمن موظفين اعترضوا على الاتفاق الذى ساد من القمة إلى أسفل، مما أدى إلى هلاكهم أحيانا. وقد حدث أن عرفت بحالة من هذا القبيل بشكل شخصى، وهذا هو السبب فى أننى أجد هذا النموذج من خداع النفس الأمريكى مؤلمًا إلى هذا الحد. ومدير مخابرات وزارة الدفاع الذى تحدى إدارة نيكسون سنة ١٩٦٩م بمناقضة زعمها حول «الضربة الأولى» للسوفييت ومقاصدها كان أبا، الليفتانت چنرال چوزيف كارول. وقد كلفه حديثه عن هذه الحقيقة مستقبله المهنى.

* * *

هل كانت الحرب ضرورية؟

٢٢ يوليو ٢٠٠٣م

لماذا يضرب الانتحار الواضح لديفيد كيلى على هذا الوتر؟ لقد وجد خبير الأسلحة البريطانى نفسه وسط جدل حول تهويل بوش وبلير من تهديد صدام. فثمة تقارير مجهولة المصدر أذاعتها هيئة الإذاعة البريطانية BBC، وتحقيق برلمانى جرىء، وتأكيدات التفتيش على الأسلحة، ومصداقية الحكومة محل خطر، وسلسلة الخداع ـ كل هذا سويا كان من الممكن أن يكون ثقله أكبر من قدرة رجل واحد. وعلى الرغم من أن الجوانب الشيطانية الخاصة بأى حالة انتحار تبقى غامضة إلى الأبد، فإنه يبدو أن كون الدكتور كيلى معلقًا فى هذا النزاع قد أشعل فى داخله الكرب الذى لم يستطع أن يتحمله. وذكر تقرير «أنه أخبر زوجته أنه سوف يتمشى، وقال فلاح إن كيلى ابتسم فى أثناء مروره». وبعدها ببضع ساعات، وجد بالقرب من إحدى الغابات، وقد قطع معصمه الأيسر.

لقد كشف دكتور كيلى عن حقيقة أن النزاع حول تلاعب المخابرات لتبرير «حرب وقائية» هو مسألة حياة أو موت. ولم يعد هذا مجرد سؤال عن التحركات السياسية، أو مناقشة أخرى بين الليبراليين والمحافظين. وعندما أخبر رئيس الوزراء تونى بلير بموت كيلى، أسماه «مأساة مرعبة للغاية». بيد أن العبء الذى كسر ذلك الرجل، كان فى جوهره، هو وزن السؤال المرعب للغاية هل كانت الحرب البريطانية ـ الأمريكية ضد العراق ضرورية؟

وكل شخص قتل فى هذه الحرب ـ بما فى ذلك بالتأكيد الجنود الأمريكيون الشباب الذين يموتون إلى اليوم ـ يمثل «مأساة مرعبة للغاية» فى برنامج The News Hour with Jim Lehner، ثمة ملف شرفى يتم حفظه، ومعه صور القتلى الأمريكيين تعرض فى صمت. لقد صار طقسًا محبطا مثيرًا للمشاعر، ولكن فى ذلك الصمت يسأل المرء أيضًا وماذا عن القتلى العراقيين؟

لقد كشف قائد قوات التحالف الجوية، الليفتنانت چنرال ت. ميخائيل موسلى فى نهاية هذا الأسبوع أن وزير الدفاع دونالد رامسفيلد كان لا بد أن يوقع شخصيًا على أى ضربة جوية «يُظن أن من المحتمل أن تسفر عن مصرع أكثر من ثلاثين مدنيا»، حسبما كتبت صحيفة «نيويورك تايمز». « وقد تم اقتراح أكثر من خمسين ضربة جوية من هذا النوع، وتمت الموافقة عليها كلها». وكشف الچنرال موسلى أيضًا عن أن الهجوم الذى قامت به طائرات الشبح والذى يحتفى به كثيرًا على مخبإ صدام حسين فى المراحل المبكرة من الحرب كان إخفاقًا مزدوجًا.

إذ لم يكن هناك صدام حسين فقط، وإنما لم يكن هناك مخبأ. نأسف لهذا.

ويرى المرء أخلاقيات الحرب العادلة التقليدية فعالة: يمكن للحرب الضرورية أن تنطوى على «الدمار العرضى» والقتلى المدنيين ـ وهو أمر مأساوى ولكنه مقبول. ولكن هل كانت الحرب ضرورية؟ إن هذا السؤال يحدد نقاط النزاع حول الأساليب التى استخدمها چورچ بوش وتونى بلير فى إساءة تقديم صورة صدام حسين بالأسلحة النووية والبيولوچية والكيميائية. وعندما هاجمت طائرات الحلفاء عن علم وبشكل متكرر أهدافًا كانت ستؤدى لقتل أعداد كبيرة من المدنيين، لم يكن هناك ما يمكن أن يبرر مثل هذه المذابح سوى الجهد العاجل لمنع هجوم وشيك بأسلحة الدمار الشامل من

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

جانب صدام حسين. ولكن ظهر الآن أن العرض المنطقى للضرورة كان زائفًا. وقد اتضح أن «الحرب الوقائية»، لم تمنع شيئًا.

فى مؤتمر صحفى فى اليابان فى اليوم التالى لاكتشاف جثة ديفيد كيلى، سُئل تونى بلير «هل يداك ملوثتان بالدماء يا رئيس الوزراء؟». واأسفاه إن هناك محيطًا من الدماء على أيدى تونى بلير وجورج بوش. وسواء ظهر أنهما «يكذبان» أم لا، فإنهما استبعدا النقاط الغامضة ونقاط عدم اليقين التى اتسمت بها تقديرات المخابرات قبل الحرب حول التهديد الذى يمثله صدام حسين. ومع هذا، حسبما ناقشت الأسبوع الماضى، هناك تراث طويل فى تلاعب الرؤساء بتقديرات المخابرات لخدمة أغراضهم المقررة سلفًا. وعندما تكون المخابرات التى يثور حولها النزاع هى أساس الحرب، فإن قراءة الزعيم لتقارير هذه المخابرات ينبغى أن تكون قراءة حقيقية، وإلا، فإن مناقشة الحرب العادلة من حيث الضرورة تفشل.

ولا عجب فى أن النزاع لم يمت. إذ إن المسألة مهمة إلى درجة كبيرة. ولا عجب فى أن الأصوات الانتخابية تبتعد عن بوش. فلا يحب مواطنو الولايات المتحدة أن يروا فى أنفسهم قتلة متوحشين. ولا عجب فى أن الجنود الأمريكيين فى العراق يعبرون عن شكوكهم صراحة. إن أول متطلبات الديمقراطية من النظام العسكرى هو إيمان الجيش بالضرورة الأخلاقية لمهامه. ولا عجب فى أن ضغوط النزاع قد أدت إلى أن يقتل رجل واحد نفسه. إن المسألة مميتة: هل كانت حرب بوش «الوقائية» جديدة الطراز مجرد حرب أخرى من الحروب العدوانية؟

وسئل تونى بلير عما إذا كان سيستقيل، وأحد الديمقراطيين البارزين على الأقل رشق الرئيس بتعبير «اتهام بالتقصير». بيد أن العواقب السياسية لهذا الجدل بدأت تحتل المكان الثانى بعد العواقب الأخلاقية، بل وحتى القانونية. إن الأخلاق التقليدية تعلن أن الحرب العدوانية هى فى حقيقتها حرب ظالمة، وأن موت كل مدنى نتج عن مثل هذه الحرب لهو جريمة قتل. أكثر من خمسين غارة جوية، تسببت كل منها فى موت أكثر من ثلاثين عراقيًا، وكل منها بموافقة رامسفيلد. إنها مآسى مرعبة للغاية، كل منها مأساة مرعبة. وكذلك ـ كما يتضح أكثر اليوم ـ كل منها جريمة حرب.

* * *

٥ أغسطس ٢٠٠٣م

«على الرغم من أن الحرب لم تتطلب منى جسديا أى طلبات مباشرة، فإنها باستمرارها قد أوقفت نشاطى الفنى تمامًا؛ لأنها أجبرتنى على إعادة تقييم معذبة لافتراضاتى الأساسية». تحدث بهذه الكلمات توماس مان فى خطابه بمناسبة تسلم جائزة نوبل سنة ١٩٢٩م، وهو ما يعكس تمزقا نفسيًا واسعًا وقع على العقل الأوروبى بسبب الحرب العالمية الأولى. ولكن كما أن الحرب يمكن أن تؤدى إلى «إعادة تقييم الافتراضات الأساسية»، فإنها يمكن أن تؤدى إلى العكس، وتعزز الافتراضات إلى درجة إنهاء الجدل. وتبدو هذه قصة أمريكية بدرجة أكبر.

غدًا الذكرى الثامنة والخمسون لقصف هيروشيما بالقنبلة الذرية. وقد أريقت محيطات من الحبر حول سؤال عما إذا كان قرار هارى ترومان باستخدام القنبلة مبررًا، وما إذا كان اليابانيون سيستسلمون بدون استخدامها، وما إذا كانت القنبلة، من ثم، بديلاً حقيقيًا لغزو دموى، وما إذا كان المقصود حقًا بالقنبلة هو تخويف الروس، وما إذا كان قرار ترومان فى الحقيقة، مع أخذ حركة الحرب فى الحسبان، قرارًا صائبًا. مثل هذه الأسئلة لم تختف قط لأن كلاً منها يزعم أن له بعض الحق فى معرفة الحقيقة، وحتى لو كانت جزئية فقط. ولكن «الفروض الأساسية» التى تكمن تحت استخدام القنبلة نادرًا ما يتم تناولها أو بحثها.

«حين وجدنا القنبلة استخدمناها». هذه هى الكلمات التى قالها ترومان فى خطاب إذاعى للشعب الأمريكى مساء ٩ أغسطس، وهو اليوم الذى أسقطت فيه قنبلة ثانية على نجازاكى. «لقد استخدمنا ضد أولئك الذين هاجمونا دون تحذير فى پيرل هاربور، وضد أولئك الذين أجاعوا أسرى الحرب الأمريكيين وضربوهم، ضد أولئك الذين تخلوا عن كل مبادئ قوانين «الحرب العالمية». وكان من النادر أن يتحدث الرئيس ترومان، أو غيره ممن برروا استخدام القنبلة، بهذه الطريقة مجددًا ـ بيان مباشر للانتقام بوصفه الدافع الرئيسى للتدمير الكلى للمدينتين اليابانيتين. وفى ملاحظاته المذاعة بالراديو، واصل ترومان حديثه لكى يضيف المبررات الأخرى: «لقد استخدمناها لكى

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

نقصر من فترة عذاب الحرب، لكى ننقذ حياة الآلاف والآلاف من الشباب الأمريكيين. وسوف نستمر فى استخدامها حتى ندمر تمامًا قوة اليابان على شن الحرب. ولن يوقفنا سوى استسلام اليابان». ولكن حتى الاستسلام عندما جاء، جاء ليزيد النقاش بعد ما حدث؛ لأنه كان ما يزال يصر على سلطة الإمبراطور الدائمة، وبذلك لم يكن استسلامًا بلا قيد أو شرط. وإذا قبلنا استسلامهم المطاط بعد القنبلة الذرية، فلماذا لم نقبله من قبل؟

وكان لا بد لكل تبرير طُرح لاستخدام القنبلة الذرية أن يحتجب خلف سحب الغموض، باستثناء مبرر واحد، الانتقام. لقد كان ذلك المبرر الأول الذى قدمه ترومان، متحدثا عن الحقيقة الأولى، وكان ذلك هو المبرر الوحيد الذى كان الشعب الأمريكى يحتاجه آنذاك. ولكن بسرعة، كان لا بد للانتقام أن يختفى من كل التفسيرات الرسمية، بل إن حتى الذين عارضوا ترومان نادرًا ما تناولوه، إلا بشكل غير مباشر. فمن الأفضل كثيرا مناقشة ضرورة الغزو.

لا يحب الأمريكيون أن يعترفوا بأن الرغبة العارمة فى الانتقام يمكن أن تكون القوة الأساسية وراء الهدف القومى، وهذا هو السبب فى أن ذكرى ٦ أغسطس السنوية تصل دائمًا محملة بالغيوم. ففى سنة ١٩٩٥م عندما حاول الـ «سميثونيان» أن يقيموا معرضًا استرداديًا فى الذكرى الخمسين لهيروشيما وناجازاكى، أدى اتفاق الجمهور الأكبر من الناس إلى منع أى جهد «لإعادة النظر فى الفروض الأساسية» بشأن استخدام القنبلة. وألغى الرئيس بيل كلينتون المعرض. وما يخيف الأمريكيين هو إمكانية أن تكون الأسباب المعلنة بعيدة، أو حتى لا علاقة لها، بالأسباب الحقيقية لسلوك الأمة. ولكن ترومان وضعها بشكل صحيح فى المرة الأولى، لكى تفهم ٦ أغسطس ١٩٤٥م، عليك أن ترجع إلى ٧ ديسمبر ١٩٤١م، الجرح الذى كان يجب علاجه.

لقد طفت بيرل هاربور مرة أخرى على سطح الذاكرة الأمريكية فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م. ومرة بعد مرة، كان يتم تقديم ما حدث فى بيرل هاربور على أنه السابقة المرتبطة بما حدث ـ المرة الأخرى الوحيدة التى عانت فيها الولايات المتحدة مثل هذه الضربة الموجعة. وكما كان الحال من قبل، لم يكن هناك قط شك فى أنه سيتم

الانتقام من هذه الضربة. فقد تحرك الرئيس بوش بسرعة بعيداً عن الحرب المجردة غير المرضية على الإرهاب، ثم من هرب أسامة بن لادن المثير للإحباط من أفغانستان، إلى الحرب على العراق لكى يُشبع تلك الحاجة البدائية. ونجحت الحركة. لقد ضمت الولايات المتحدة الأمريكية قبضتها يوم سقوط البرجين التوءمين. ووجهت الولايات المتحدة أخيراً لكمة إلى العراق. وهذا هو كل ما يهم.

والجدل حول «تبريرات» إدارة بوش المضللة لشن الحرب على العراق إنما هو تكرار للجدل الذى لا ينتهى حول «التبريرات التى استخدمت لتبرير القنبلة الذرية». ولا تستحوذ أى مجموعة أسئلة منهما على الضمير الأمريكى. فليس هناك «إعادة تقييم معذبة للافتراضات الأساسية» فى هذه البلاد. وعندما نريد أن ننتقم، وننتقم، وحتى عندما تسقط عباءة التبرير المنطقى لتعريه، فإننا ننكر بحدة أن الانتقام، وليست العدالة، هو الذى يحدد غرضنا.

***

الحرب خاسرة

٢ سبتمبر ٢٠٠٣م

الحرب خاسرة بمعظم المقاييس التى خططت بها إدارة بوش لمغامرتها فى العراق، فإن هذه الحرب إخفاق بالفعل. فقد كانت الحرب ستجعل الشرق الأوسط مكاناً أكثر أمناً. وكانت ستقضى على الإرهاب. وكانت ستوضح للمستبدين الأشرار فى العالم أن القوة الأمريكية لا يمكن مقاومتها. وكانت ستؤدى إلى تحسين حياة العراقيين العاديين. وكانت ستؤدى إلى استقرار أسواق البترول. وكان الجيش الأمريكى سوف يلقى التحية بالورود.

لم يحدث شيء من هذا. فإن أشد العناصر راديكالية فى مختلف الحركات الفاشية فى العالم العربى اكتسبت طاقة من غزو العراق. والاحتلال الأمريكى نقطة تجمع للإرهابيين. وبدلاً من تقويض التطرف، كانت واشنطن هى الراعية لمرحلته التالية، والمعتدلون الآن فى كل مجتمع عربى فى وضع دفاعى أكثر من أى وقت مضى. وقبل الحرب، كان يمكن لتهديد السيادة العسكرية الأمريكية المهيمنة أن يخيف، ولكن الآن

http://www.al-maktabeh.com

ظهر أن هذه القوة محدودة للغاية من حيث ما تستطيع أن تنجزه. فمن أجل تغيير النظام، نزلت الولايات المتحدة على العراق بقوة ساحقة، وذلك فقط لكى تحقق المفاجأة والدهشة لدرجة أنها، حتى عندما كان صدام طليقًا، كانت هياكل المجتمع المدنى قد دمرت. أما الوكالات الإنسانية اللازمة لإعادة بناء هذه الهياكل فقد أخذت تهرب من العراق.

والسؤال بالنسبة للأمريكيين: الآن ماذا نفعل؟ كل من الديمقراطيين والجمهوريين على السواء يريدون إرسال المزيد من جنود الولايات المتحدة. وترتفع بعض الأصوات على أمل أنه يمكن تحقيق المزيد من «تدويل» الاحتلال، وهو أمر يبقى غير محتمل لأن واشنطن تحتفظ بالسيطرة المطلقة. ولكن أولئك الذين كانوا سيدفعون بالتعزيزات الحربية إلى العراق يرتكبون غلطة الزمن القديم. فعندما تولد القوة الباطشة مقاومة تكون الدفعة الأولى هى زيادة مستويات القوة. ولكن، حسبما يظهر تاريخ هذا النوع من الصراعات، فإن هذا لن ينتج سوى المزيد من المقاومة. وقد رفض وزير الدفاع دونالد رامسفيلد خيار المزيد من القوات حتى الآن، ولكن، باسم حماية القوات فإن الضغوط من أجل التصعيد سوف تتوالد عندما تزيد أعداد قتلى الولايات المتحدة. إن الموت المحزن اليوم لقتل واحد أو اثنين يوميا فى حرب العصابات سوف يبدو أمرا لطيفا عندما يجد انتحاريو القنابل، وقذائف المورتار، أو حتى الصواريخ الأثقل طريقهم إلى الثكنات وقاعات الطعام.

وسيتم إرسال التعزيزات إلى الاحتلال، أو أن القوات الحالية سوف تخفف الضوابط التى ترد بها على الاستفزاز. وكل من الاستجابتين سوف تولد المزيد من إراقة الدماء وسوف تؤجل فقط اليوم الذى سيجب فيه على الولايات المتحدة أن تواجه حقيقة موقفها. إذ إن سياسة إدارة بوش الارتجالية قد انكشفت بما فيه الكفاية وظهر أنها لا تقوم على أساس غير الهلوسة. إن الأسلحة عالية التقنية يمكن أن تقتل البشر، ولكنها لا يمكن أن تجبرهم على اعتناق فكرة لا يريدونها. كما يبرهن استئناف البرنامج النووى فى كوريا الشمالية وإيران، فإن حديث واشنطن عن الشعر يحمل هزيمته داخله كما أنه تضليل للذات. فلم أجد أحدًا قادرًا على أن يتنبأ من سنة مضت أن السقوط من فوق حصان بوش العالى فى الإمبراطورية الأمريكية سيكون بهذه القسوة

http://www.al-maktabeh.com

وبهذه السرعة. أين هى المقارنات مع روما الآن؟ إن صعود واشنطن الإمبراطورية وسقوطها لم يستغرق مئات السنين وإنما استغرق مئات قليلة من الأيام.

عاجلا أم آجلاً، يجب على الولايات المتحدة أن تعترف بأنها ارتكبت غلطة مرعبة فى العراق، وأنها يجب أن تتحرك بسرعة لتصحيحها. ويعنى هذا أن الولايات المتحدة يجب أن تتخلى ليس فقط عن قيادة قوة الاحتلال وإنما المشاركة فيها. ويجب على الولايات المتحدة أن ترفض أى مزاعم بالسلطة أو حتى النفوذ فى العراق، بما فى ذلك البترول العراقى. ولا بد أن تقبل الولايات المتحدة المهانة التى سوف تصحب بالتأكيد حلول الأمم التى أنكرت عليها حق إعادة إعمار العراق محلها. وحين تخرج الولايات المتحدة على هذا النحو من البوتقة العراقية، فإن أولئك الذين تجمعوا لمعارضة «الشيطان الأكبر» سوف يفقدون سبب وجودهم، والشعب العراقى نفسه يمكن أن يتوالى مسئولية إعادة وطنه الغريق.

وهذا كله قد يبدو أمراً بعيد الاحتمال اليوم، ولكن شيئًا على شاكلته أمر لا بد منه. والسؤال الوحيد هو ما إذا كان سيحدث على المدى القصير، نتيجة قرار مسئول يتخذه السياسيون في واشنطن، أو على المدى الطويل، نتيجة لرعب دموى لا ينتهى. وما يسمى دروس ڤيتنام غالبًا ما يتوسل بها الصقور والحمائم على السواء، ولكن هذا درس ينطبق على المشهد السياسى. فقد رأى الشعب الأمريكى أن تلك الحرب قد خسرت سنة ١٩٦٨م، وحتى عندما تم تصوير هجوم التيت على أنه انتصار بواسطة البنتاجون والبيت الأبيض. ولكن على مدى خمس سنوات أخرى، رفضت واشنطن أن تواجه حقيقة موقفها، حتى تعين عليها فى النهاية ولم يكن أمامها خيار. ولأن الزعماء الأمريكيين لم يستطيعوا الاعتراف بغلطة الأمة، ويتحركوا لتصحيحها، مات مئات الآلاف من الناس، أم هل كانوا ملايين؟

إن الحرب فى العراق حرب خاسرة. ترى ما الوقت الذى سوف تستغرقة لمواجهة تلك الحقيقة هذه المرة؟

* * *

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(١٤)

الحرب تنتشر

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فى بداية سبتمبر ٢٠٠٣م، تمت إذاعة شريط ربما يحتوى على صوت صدام حسين فى التليفزيونات العربى. وكانت الرسالة التى تحملها: «أيها الأبطال العظام، كثفوا ضرباتكم الجسورة ضد العدوان الأجنبى».

وبدت المقاومة ضد الاحتلال الأمريكى للعراق - ستة انفجارات فى يوليو وأغسطس - تنتشر فى الخريف. وأخذت الأهداف تتنوع من القوات الأمريكية إلى الأمم المتحدة إلى الصليب الأحمر، وإلى اليابانيين، والكوريين الجنوبيين، والإيطاليين والبلغار، والتايلانديين، والإسبان وكذلك أعضاء المجلس العراقى المختارين وغيرهم من المتعاونين مع الاحتلال. وبينما كانت الهجمات من قبل تأتى أساسًا من فلول البعثيين وفى المناطق السنية تأييدا لصدام حسين على ما يبدو، فإن مقاتلى الشيعة انضموا الآن إلى الساحة، وبعضهم يعلن أن هدفه إقامة دولة إسلامية على غرار طهران. والشيعة وهم أغلبية كبيرة فى العراق، كانوا يكرهون «صدام»، ولكن ما الفرصة التى تجعلهم يتوافقون مع الاحتلال الأمريكى بينما الرئيس بوش كان عند بداية الحرب قد وصم إيران باعتبارها جزءاً من محور الشر؟

وفى الولايات المتحدة، كانت هناك علامات على أن الاعتراضات الهامشية نسبيا على الحرب قد بدأت تستشرى على نطاق واسع. إذ إن الحملة الرئاسية المعادية للحرب لهوارد دين مثلا قد بدأت تأخذ حركتها. فبعد شهور من رفرفة راية «تم إنجاز المهمة» على ظهر حاملة الطائرات إبراهام لنكولن، كان الجنود الأمريكيون ما يزالون يقتلون. ومع هذا فإن السمة المريبة لحرب «التحالف» غاصت صوب النهاية أعمق من رفضها. وسواء عرف الأمريكيون أم لا؛ فإن صدام الحضارات الخاص بأسامة بن لادن كان يجرى بالفعل. إذ إن المجاهدين الإسلاميين من سوريا وباكستان والمملكة العربية السعودية وغيرها من البلاد العربية قيل إنهم انضموا إلى الصراع فى العراق، كما أن الانطباع فى دار الإسلام بحرب دينية ضد المسلمين ترسخ أكثر من ذى قبل.

ولكن بينما صارت الشقوق المقسمة للأمة فى العراق أشد وضوحًا، أظهرت الولايات المتحدة دلائل إسراعها فى التراجع عن المسئولية . إذ إن تسليم بعض الهيئات السيادية للعراقيين كان يجب أن يحدث قبل وقت كاف من الإدلاء بأصواتهم فى انتخابات الرئاسة، (والشيء الوحيد الذى يهم الرئيس چورج دبليو بوش أكثر من حروبه هو إعادة انتخابه) . وفى الوقت نفسه بدأ زعماء الشيعة يتساءلون صراحة عن الإجراءات التى فرضتها الولايات المتحدة لإعادة السيادة إلى العراق. وبدأ كابوس جديد لواشنطن يأخذ شكله: العراق تحت نظام حكم إسلامى شيعى. كان آخر شيء تنويه إدارة بوش من ذهابها إلى الحرب فى العراق هو خلق كتلة سلطة شيعية راديكالية فى المنطقة - العراق فى تحالف وثيق مع إيران فى النهاية. وكان أقدم القوانين العسكرية - قاعدة النتائج غير المقصودة - يبرهن مرة أخرى على قدرته لفرض نفسه .

* * *

الحادى عشر من سبتمبر الآخر

١١ سبتمبر ٢٠٠٣م

إن صدفة التواريخ أمر ثمين للبشر؛ لأنها تخلق الانطباع بأنه تحت فوضى الحالة العادية يكمن هيكل النظام. إن مرور الزمن ليس مسألة فرصة، بل إنه حتى الأشياء التى لا تبدو مرتبطة بعضها ببعض إنما هى مرتبطة سويًا، إذا لم يكن بروابط الصدفة الوقتية، فإنها مرتبطة بالمعنى. فالكائن البشرى الذى يحمل إحساسًا بالتاريخ، وهو ينظر بسرعة إلى الماضى، يتطلع إلى وضع الأحداث التى تبدو يائسة بعضها إلى جانب بعض؛ لأنها سوف تكشف عن الرابطة الخفية التى تفسر الأهمية الكاملة لهذه الأحداث.

إن الحادى عشر من سبتمبر سوف يعيش فى الذاكرة الأمريكية. ولكن كماذا؟ فى الذاكرة تحدث الأشياء مرة بعد مرة. ففى ١١ سبتمبر ١٩٤١م، وفى نفس اللحظة التى اصطدمت فيه طائرة الخطوط الجوية الأمريكية رحلة قم ٧٧ بالبنتاجون تقريبا بعد ستين سنة، تم شق الأرض لإقامة هذا المبنى فى احتفال رصين. وفى ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٤م وصل جنود الحلفاء إلى الحدود الألمانية، لكى يضعوا نهاية مصير هتلر. ولكن أيضا فى

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

١١ سبتمبر ١٩٤٤م، وحسبما قرأت فى كتاب سيبالد On the Natural History of Destruction، كان الألمان يرقبون سماء الليل فوق مدينة دار مشتادت: «كان الضوء يكبر ويكبر حتى كان الجزء الجنوبى كله من السماء يبرق، وتلمع خلاله طلقات حمراء وصفراء». لقد كانت ليلة من القصف المرعب الذى قام به الحلفاء. وفى ١١ سبتمبر سنة ١٩٧٣م قام الإرهابيون بإطاحة عنيفة للحكومة الديمقراطية فى شيلى. فى تلك الحالة، تمثلت النتيجة فى مصرع رئيس الدولة سلفادور اللندى، ولم يكن الإرهابيون تحت رعاية المجموعات العدمية، وإنما تحت رعاية الولايات المتحدة. وفى ١١ سبتمبر سنة ١٩٩٠م، كما رأينا ألقى الرئيس چورج بوش الأب أشهر خطاب له ليعلن عن «نظام عالمى جديد» كمقدمة لحرب الخليج الأولى.

إن ١١ سبتمبر بوصفه ذكرى سنوية للعنف الوحشى يدفع العقل أيضا إلى ١١ سبتمبر ١٩٤٥م، التاريخ الذى يحدد اقتراح وزير الحرب هنرى ستيمسون بعد هيروشيما على الرئيس ترومان بأن تتقاسم الولايات المتحدة فى الحال أسرار القنبلة الذرية مع الاتحاد السوفييتى لكى يحول دون سباق تسلح «ذى نوعية يائسة» على حد تعبير ستيمسون. وقال: «الدرس الرئيسى الذى تعلمته فى حياتى الطويلة هو أن الطريق الوحيد لجعل رجل جديراً بالثقة هو أن تثق به». وكما لاحظت منذ سنة مضت، فإن اقتراح ستيمسون يضع علامة على الطريق الأمريكى الذى لم يسلكه أحد.

فى ١١ سبتمبر ١٩٠٦م تجمع أكثر من ثلاثة آلاف رجل من أصول هندية فى مسرح الإمبراطورية بجوهانسبرج، بجنوب إفريقيا، لإدانة القانون الذى كان قد تم تمريره للتو Asiatic Law Amendment Ordinance ـ الذى كان مجموعة جديدة من القوانين العنصرية تجعلهم مواطنين من الدرجة الثانية. وكما عرفت من كتاب جوناثان شل المذهل الذى صدر حديثًا The Unconquerable World، فإن أحد أولئك الذين أقسموا على عدم إطاعة مثل هذه القوانين كان موهانداس كرمشاند غاندى. فقد تعرف على هذا الالتزام المشترك بتصرف فردى بشكل جذرى ـ وقال فيما بعد عن ذلك اليوم: «لقد ظهر مبدأ جديد» ـ بوصفه الشرارة التى تولدت عنها الساتياجراها، أى قوة الحقيقة. وقال غاندى: «إن تأسيس أول مقاومة مدنية تحت ما كان معروفا آنذاك باسم المقاومة السلبية كان بمحض المصادفة. . كنت قد ذهبت إلى الاجتماع دونما حل فى الذهن.

وقد تولد الحل فى الاجتماع . وما يزال ينمو» . فما بدأ فى ذلك اليوم الحادى عشر من سپتمبر قيض له أن يولد القصة المضادة العظيمة عن اللاعنف الذى سرى فى خلال أعنف قرن شهده التاريخ .

وعند فجر القرن الجديد، ما القصة التى نرويها؟ هل يمثل ١١ سپتمبر تجربة الحزن الأمريكى فقط، وشعور الضحية وتبرير الانتقام فحسب؟ هل يعيش ١١ سپتمبر فقط بوصفه الآلة التى تقود النزعة الحربية الجديدة الصادمة لدى أمريكا؟ أو أننا فى استعادة ذكرى أولئك النفر من أهالى نيويورك بنبلهم وإنكارهم لذواتهم هم وعمال الپنتاجون الذين عادوا لدخول المبانى المصابة، والذين بقوا لإخراج الآخرين، أو الذين حافظوا ببساطة على هدوئهم بينما كان كل شى ينهار من حولهم ـ يمكن أن نحمل هذا التاريخ معنا بوصفه صورة لإمكانية الحب العام؟ ربما يساعدنا أن نرى ١١ سپتمبر ٢٠٠١م فى سياق تلك الأيام من سنوات أخرى . كيف ، عندما تم حفر الأرض للمرة الأولى لبناء مبنى الپنتاجون، افترض من بنوه أنه سيكون مستشفى؟ كيف كان قائد أعظم حرب خاضتها أمريكا يسعى فى أعقابها إلى إنهاء الحرب إلى الأبد؟ كيف يجب أن تؤدى معرفة أن واشنطن أيضا يمكن أن ترعى الإرهاب إلى المهانة؟ كيف يتحقق الحلم القديم باللاعنف؟

إنه أمر عادى أن نفكر فى مثل هذه الحوادث بشكل منعزل، ولكن يمكن أن يكون هناك نوع من علم الآثار الذى يكشف عن التوافق وحالات الانسجام فى طبقات الزمان . ذلك أن ١١ سپتمبر ذكرى سنوية للمستقبل . يوم يتم فيه تقديس أسوإ الدوافع البشرية ـ وأفضلها . وهو بالتالى يوم يضع أمامنا فرصة الاختيار . كيف سنعيش الآن؟ نحن على الأرض ونحن نحيا أقصر الفصول . وإذ نفكر بشكل خاص فى أولئك الذين ماتوا فى نيويورك وواشنطن وپنسلڤانيا فلنكرمهم ببناء الأرض، بدلاً من تدميرها . فلنصنع السلام، بدلاً من الحرب .

***

من التحركات السياسية إلى المقاومة

١٦ سپتمبر ٢٠٠٣م

الكارثة فى الفلوجة ـ عشرة من رجال الشرطة العراقية قتلتهم القوات الأمريكية،

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

التى تتصرف «مثل صدام بالضبط» حسبما قال أحد العراقيين ـ أن تكون مناسبة اعتراف جديد. إن البيئة الطبيعية للحرب هى الفوضى والاضطراب. ولكن يحدث شيء فى لحظة لكى يضع نقاط الغموض فى بؤرة الاهتمام، وتصير السمة الحقيقية لما يحدث واضحة. فالواقع أن هذا هو المعنى الذى أعطاه أرسطو لكلمة «كارثة» فى تحليله للشكل المأساوى، إذ إن عشرة من الرجال الذين يحتاجهم العراق لاستعادة عافيته أكثر من غيرهم ـ يقتلون بأيدى جنودنا؟ الشرطة الموالية للأمريكيين فى خطر من الأمريكيين؟ إنها مأساة بالتأكيد، ولكن هذا هو ما تكشف عنه الحادثة:

* لم تكن هذه الحادثة، حقًا، انحرافًا. إذ إن قتل الحلفاء، جزء لا يتجزأ من الاحتلال الأمريكى الآن. لقد تجاوز الموت الاستراتيجية.

* سواء كان الجنود الذين قتلوا رجال الشرطة العراقيين «عامدين» هذا الفعل أم لا أمر خارج الموضوع. إذ إن نزعة التقوى الأمريكية تغفر النتائج الخسيسة عندما يتم ارتكابها بحسن نية، ولكن النزعة الأخلاقية تقاس بالنتائج أكثر من النوايا. لا يوجد عسكرى من جنود الولايات المتحدة برىء فى هذا المشروع.

* بيد أن كل جندى أمريكى فى العراق قد أخذ رهينة. وخاطفو الرهينة ليسوا هم الإرهابيين وإنما هم الحفنة القليلة من موظفى إدارة بوش الذين انتهكوا تراث الولايات المتحدة، والمعاهدات الدولية، والثقة المقدسة التى يدين بها القادة لجنودهم.

* وأولئك الذين خطّأوا إدارة بوش بسبب التفاصيل التى سقطت فى هذه العملية (قوات أقل من اللازم، تخطيط ردىء، عدم وجود تأييد أجنبى كاف... إلخ) تفوتهم النقطة الكبرى وهى أنه لم يكن هناك طريق «صحيح»، لغزو العراق، كما أنه لا يوجد طريق «صحيح» لاحتلاله. فالعراق ملك العراقيين.

* إن فساد سياسات بوش فى العراق يصيب كل الأمة الأمريكية. إذ إن مثل هذا العنف العدوانى يتطلب الخداع، وتكون الأكاذيب محل ترحيب فى واشنطن أكثر من أى وقت مضى منذ فيتنام. ووزارة العدل تتحول بشكل مطرد إلى أداة للقهر. وعلى أعتاب الانتخابات نجد الشعب الأمريكى فى قبضة الضجر المستشرى.

إذن ما الذى ينبغى عمله؟ مثل هذه الاعترافات تغير السياق لما هو مطلوب الآن.

فبدلاً من المناورات السياسية، حان وقت المقاومة. ولا يحتاج المرء إلى تأكيد المعادلة الأخلاقية السهلة لكى يعرف أن السوابق المتصلة بالظروف الحالية فى الولايات المتحدة تتمثل فى حركات المقاومة التى تشكلت على قواعد عريضة من المواطنين التى عبأت الناس ضد هتلر فى أربعينيات القرن العشرين، وضد حرب ڤيتنام فى الستينيات، وضد الكرملين فى الثمانينيات. ويعنى هذا:

* أن الأمل يتحول بعيداً عن السياسيين الديمقراطيين الذين يتطلعون إلى أن يحلوا محل بوش. إذ إنهم بإظهار معارضة خجولة غامضة، على حين يفترضون أن ثمة ضرورة كبيرة لوجود أمريكا العسكرى الحالى فى العراق، فإنهم يكونون الشركاء الفعليين المتعاونين مع بوش.

* «دعم القوات» عبارة يعاد تحديد معناها. فبدلاً من إخراس المعارضة خوفا من تقويض الروح المعنوية، يعلن أن جنود الولايات المتحدة قد تم تجنيدهم فى حرب غير ضرورية وبالتالى غير أخلاقية. ببساطة يجب إخراج القوات من العراق.

* ويصبح المال هو الحد القاطع للجدل السياسى. إذ إن كل ميزانية الاحتلال الأمريكى، بما فى ذلك مبلغ ٨٧ بليون دولار أمريكى طلبها بوش الأسبوع الماضى، ينبغى معارضتها، يجب استقطاع المخصصات العسكرية.

* تتأكد الوطنية بالمعارضة أكثر من الموافقة. إذ إن إدارة بوش قد حولت بحذر التعبيرات الأمريكية عن حب الوطن إلى رخصة بسياسة خارجية إجرامية. ومثلما خطف بوش شبابنا فى القوات المسلحة، استولى أيضا على العلم. وحتى الآن فإن الطريقة الوحيدة لاسترداد العلم هى إنزاله.

* يرفض الأمريكيون أن يخدعهم أحد، حتى فى أثناء الكذب عليهم. وليس هناك طريق أمام رئيس أمريكى لأن يشتبك فى مثل هذا العمل العدوانى غير المسبوق دون محاولة تشويه حقيقية. إن وقاحة تلاعب بوش فى حد ذاتها تحفز عملية خداع للنفس تعاونية بين الناس. وهذا ما تنبغى مقاومته على كل حال.

* إن الخطر المميت يبدو واضحًا. إذ إن ممارسات بوش السياسية قد أعادت تحريض انتحاريى القنابل فى جميع أنحاء العالم، بينما أشعلت فى الوقت نفسه دورة جديدة

http://www.al-maktabeh.com

من انتشار الأسلحة النووية. إن مشهد ذلك الخليط ـ الأسلحة النووية بأيدى المتعصبين الانتحاريين ـ يمثل أكبر خطر فى التاريخ الإنسانى. لقد أصبح بوش نفسه بهذا هو الشكل النهائى للانتحارى بالقنابل.

من الآن المقاومة. يجب أن تأخذ الحياة العامة فى أمريكا طاقتها الآن من كلمة «لا». إن مثل هذه المعارضة تفعل شيئين. وكما حدث بشكل خاص فى الإمبراطورية السوفييتية، فإنها يمكن أن تحول الممارسات السياسية، بل وتحرك المرشحين الديمقراطيين من الدعوات الخجولة للمواءمة فى الهوامش إلى مطالب التغييرات الأساسية فى السياسة. وفى الوقت نفسه، فإن الحياة فى المقاومة تبقى حياة إنسانية. وفى زمن من اللاأخلاقية العارمة، تكون هذه هى الطريقة الوحيدة للحياة بإنسانية.

ويمكن للكارثة فى الفلوجة أن تكون هى مناسبة مثل هذا الاعتراف. ولكن الكارثة حسب تعاليم أرسطو أيضا، هى مناسبة الرجوع. لقد حان الوقت لتحويل زخم حرب بوش على نفسها.

* * *

عقيدة معاداة الإرهاب

٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣م

يعرف الجميع ما الذى يهدد الولايات المتحدة: الإرهاب. ولكن ما الإرهاب بالضبط؟ والإضافة الملحقة بآخر الكلمة «ism» هى المفتاح. إذ يعرفها القاموس بأنها «عقيدة أو نظام أو نظرية متمايزة». وهكذا، فإن ما نخشاه ليست هى الأفعال غير المنسقة والتى لا يربطها رابط من العنف العدمى ـ الأنثراكس المرسل بالبريد، الطائرات التى تتحول إلى صواريخ، لصوص الكمبيوتر الأشرار ـ ولكن «نظام مبادئ» متماسك يرعى مثل هذه الأفعال. والإرهاب بهذا المعنى يمكن أن يهدد حتى أمة قوية مثل أمريكا لأنه مفهوم أنه يمتلك قدرة عالمية، وطموحًا قد يقضى على العالم، وشبكة تحالفات معادية فى الخارج، وقدرة على استغلال جوانب الضعف فى ديمقراطيتنا بالداخل. ورد أمريكا هو الحرب على الإرهاب، كما لو أن العدو شيء واحد.

ولكن هل هذه الطريقة فى تقييم الخطر خاطئة؟ لقد كانت الإضافة اللاحقة «ism»

http://www.al-maktabeh.com

هى مفتاح تعريف معنى تهديد مميت مرة من قبل، وفى هذه الحالة كانت النتيجة قراءة خاطئة كارثية لما كانت الولايات المتحدة تواجهه ـ سواء فى الخارج أو فى الوطن. ولكى نقيِّم الخطر الحالى، ربما يساعدنا أن نفكر فى زمن آخر، وخطر آخر.

فى ١٢ مارس سنة ١٩٤٧م، ألقى الرئيس ترومان خطبة تحدد «مذهب ترومان»، وهو تحديد صريح للخطر الذى يمثله الاتحاد السوفييتى. فبدلاً من رؤية طموح الرجال فى الكرملين فى ضوء المصطلحات التقليدية عن المصالح الذاتية الوطنية، أو حتى الأغراض الإمبريالية مثل القياصرة من قبلهم، رأى ترومان صراعا ثنائيًا على الطريقة المانوية بين «الحرية» و«ism» فى كلمة «Communism» أى الشيوعية. والتهديد القادم من موسكو لم يكن هو التحدى الطبيعى لأمة تنافس من أجل القوة أو الممتلكات. لقد كان الكرملين لا يريد فقط عاصمة عابرة للقوميات ولكن عاصمة تتجاوز التاريخ. كانت روسيا ترى أنها مسوقة بتصميم كونى يرتبط بنهاية العالم وإنجيلى لكى تقلب نظامًا بأسره من المعتقدات ـ ولا سيما نظامنا نحن، وليس مجرد تعديل الحدود والاقتصاديات.

اقترحت خطبة ترومان، فى تعريفها الخطر بمصطلحات متجاوزة، استجابة لمثل هذا الاكتساح الأيديولوجى ـ وهو مذهب بالتأكيد ـ يمكن أن توصف أيضا، حسب تعبير رجل دولة أمريكى صغير، بأنها «إعلان حرب دينية». مثل هذا التطرف البلاغى خدم هدفًا سياسيًا، بحيث ضمن التأييد فى الكونجرس وبين الأمريكيين لبرنامج الإدارة. ولكن برؤية موسكو فقط من خلال عدسات «ism» فى كلمة Communism، فات على الولايات المتحدة مغزى وأهمية الفروق الوطنية بين الحركات الشيوعية كافة، وسرعان ما وجدت نفسها متورطة فى جهد عبثى باتساع العالم «لاحتواء». ليست روسيا مهما كانت إمبرياليتها، ولكن كل حركة حول العالم ترفع راية كارل ماركس.

ولأن التهديد اعتبر على أنه نهاية العالم، فإن قدرة موسكو على إلحاق أذى حقيقى «بالعالم الحر» كانت محل مبالغة بشكل مستمر، مما ساعد أيضا على ضمان المساندة السياسية المحلية. فقد حل الهلع الغامض محل التحليل. وأيا كان تعريف الصراع فى موسكو، فإنه اكتسى فى واشنطن مغزى دينيًا وجه التحركات السياسية تجاه الحياة الآخرة « Better dead than Red» «الموت أفضل من الشيوعية»، وهو الأمر الذى يفسر

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وحده كيف أن الولايات المتحدة استطاعت بهذه الحماسة أن تواصل سباق التسلح الذى خاطر بكل شىء فى هذا الجانب من الحياة الآخرة.

ليس هذا فقط. فقد هددت الـ ism داخل أمريكا أيضا، وهذا هو السبب فى أن البحث عن الشيوعيين يتطلب تعطيل الضمانات التقليدية للمواطنة الأمريكية، بداية من الأيام التى أعقبت خطبة ترومان التى أعلن فيها مذهبه. وقد أعاد الهلع المعادى للشيوعية تعريف أهداف الحكومة الأمريكية، التى استغلت ذلك الهلع آنذاك لكى تزيد التأييد والدعم لهذه الأهداف بين الشعب الأمريكى. ومفاهيم الـ ism التى هددت الولايات المتحدة وفرت مناخًا من الشك داخل البلاد وقلب الفهم التقليدى للعلاقات بين الأمم. قال إعلان السياسات NSC - 68 سنة ١٩٥٠م: «إن الاتحاد السوفييتى، عكس المتطلعين السابقين إلى الهيمنة، تدفعه عقيدة متعصبة جديدة، مناقضة لعقيدتنا، ويسعى لفرض سلطته المطلقة على بقية العالم».

وربما يكون حقيقيًا أن موسكو تحت حكم ستالين كانت تهدف إلى السيطرة على العالم، ولكن، إذا كان ذلك كذلك، فإن الهدف كان سيطرة موسكو - لا سيطرة الشيوعية. أى التحركات السياسية الإمبراطورية التقليدية، وليس اللاهوت. وفشل واشنطن فى استيعاب هذا الفرق هو الذى تسبب فى استجابة أمريكية شبه دينية، مما أعطى الروس الدافع لتبنى الخطاب الكونى الذى توقعته واشنطن، ثم ساق كلا من الدولتين تجاه حافة معركة هرمجدون نووية. تصورت واشنطن فانتازيا حرب مقدسة وانطلقت لكى تجاريها.

هل يحدث هذا ثانية؟ وثمة إشارة إلى أن لاهوتًا «للإرهاب» قد ظهر بحد ذاته هى أن صناع الأذى المنتشرين على نطاق واسع قد تم رفعهم إلى مكانة صوفية. إذ إن الزعماء القبليين المصابين بالخوف وكراهية الأجانب، والجماعات المتمردة المحلية، ورؤساء المافيا، والمحاربين من أجل الحرية، والفوضويين، و«الأنظمة المارقة»، تم تصنيفهم الآن جميعا على أنهم إرهابيون، كما أن أهدافهم الخطيرة، ولكنها غير متساوية، قد وصمت بأنها الإرهاب. وهذه الـ ism تبرر حرب أمريكا العدوانية فى الخارج، وهجمات المرسوم الوطنى على الحقوق فى الداخل. ولكن الحرب الباردة تعلمنا أن مثل هذا التضخيم المتجاوز للخصوم هو الشيء الذى يجعلهم خطيرين حقًا.

رب بويكن الأكبر(*)

٢١ أكتوبر سنة ٢٠٠٣م

قال الليفتنانت چنرال وليم چ. . بويكن عن خصمه المسلم: «عرفت أن ربى أكبر من ربه، وعرفت أن ربى كان ربًا حقيقيًا، وأن إلهه كان صنمًا». تلك الملاحظة وغيرها من الملاحظات التى تنتقص من قدر الإسلام تسببت فى هياج فى الأسبوع الماضى، لا سيما وأن الچنرال يشغل موقعًا مهمًا فى الحرب على الإرهاب. وطفت على السطح ذكريات فظيعة عن استخدام الرئيس بوش الغافل لمصطلح «الحملة الصليبية»، لتعريف تلك الحرب، وانفجرت تلك المخاوف علنًا من أن الحرب على الرغم من الإنكار هى حرب دينية على أى حال.

ولم يبد على رؤساء بويكن فى البنتاجون أنهم فى الجانب المهاجم، ولكن زعماء المسلمين رأوا فى ذلك عدوانًا، وكذلك أعضاء فى الكونجرس. ويتخيل المرء كيف ظهرت القصة فى وسائل الإعلام العربية. ففى يوم ١٧ أكتوبر قدم الچنرال نوعًا من الاعتذار، فقال: «إننى لست متعصبًا ولا متطرفًا، إننى فقط جندى ذو عقيدة ثابتة».

والذين انتقدوا الچنرال على حق فى أن يستهجنوا التطاول على عقيدة المسلمين، ولكن المشكلة أعمق من الشوفينية الدينية التى تم التعبير عنها بطريقة فجة. والحقيقية أن تصريحات الچنرال لا تجعل منه متطرفًا. فلم يكن من «الذوق الحديث» أن يتحدث بصوت عال عن مضامين «عقيدته الثابتة»، ولكن المزاعم الحصرية التى يرى بها معظم المسيحيين يسوع المسيح، من أروقة الڤاتيكان إلى خيام الإحياء الإنجيلى، تنطوى على إهانة دين الآخرين. فعندما يتحدث الكاثوليك عن «الخلاص» من خلال يسوع فقط، أو عندما يحدد البروتستانت «التبرير» فى الإيمان بيسوع، فإن ذلك يكون طعنًا موجهًا إلى كل العالم غير المسيحى. وفى الماضى، كانت المسافة من مثل هذا اللاهوت الحصرى، إلى احتقار أولئك الممنوعين أو المستبعدين خطوة قصيرة حقًا، وكانت المسافة من مثل هذا الاحتقار إلى العنف الصريح أصغر، ولا سيما فى العلاقة مع الإسلام.

(*) انظر فى آخر الكتاب صفحة ١٢١ مقتطفات من مقالة فريد زكريا فى مجلة نيوزويك، عدد ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٣م، تحت عنوان: وجهة نظر.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

كانت استجابة الأسبوع الماضى لما قاله الچنرال بويكن، على أى حال، مؤشراً على حساسية جديدة على الروابط ما بين اللاهوت غير المتسامح والسلوك غير المتسامح. وخطر الحرب الدينية خطر حقيقى. والحرب الدينية تتبع المقاصد الواعية للمحاربين بقدر أقل من تتبعها للمعتقدات التى تلهمهم. ويجعل بويكن السؤال ملحّا: ما نوع الرب الذى يؤمن به هذا الچنرال والأمة التى يخدمها؟

إن الچنرال بويكن يصف ربّا أكبر فى صراع مع أرباب أصغر، بحيث يقهرهم. ويسحق الأصنام. وعقيدة الچنرال تتقوى بافتراض أن الرب، أيضًا يمكن أن يلجأ إلى العنف، والنصوص المؤسسة فى اليهودية والمسيحية والإسلام وغيرها من الديانات تضع هذا بالضبط. يقول سفر الخروج (١٥ : ٣) «إن الرب محارب». ولأن العنف أحد لوازم الوجود الإنسانى، فإن الديانات غالبًا ما تنسبه إلى الرب، ثم يدور العنف المقدس دورته لكى يبرر الاستعداد الإنسانى للتصرف بعنف. والرب القدير المقاتل راسخ تمامًا فى خيال البشر، لدرجة أنه حتى الملحدين يؤكدونه بالطريقة ذاتها التى ينكرون فيها وجود مثل هذا الرب.

والمعضلة الأخلاقية التى تواجه جميع الديانات اليوم، ولكن ربما تواجه الديانات السماوية بشكل خاص، تتجلى واضحة هنا: كيف يثبت المرء عقيدته دون الحط من قدر عقيدة الآخرين. ويمكن أن تبدو المشكلة وكأنها بلا حل إذا ما فهمت الديانة على أنها جدلية فى بنائها الداخلى - يتم تعريف الحقيقة فيها على أنها تناقضات بين الأرض والسماء، وبين الطبيعى وما هو خارق للطبيعة، بين المعرفة والوحى، الكفر والإيمان، العلمانية والإيمان، والشر والخير. وإذا ما كان الخيال الدينى مبنيّا بالضرورة على مثل هذه الاستقطابات، فإن الدين يكون حتمًا مصدراً للصراع والاحتقار والعنف. دينى هو دين صحيح؛ ودينك وثنى. ربى أكبر من ربك. ربى محارب، وكذلك أنا.

بيد أنه يمكن أن يكون شيئًا مثل الإيمان الدينى الجامع، يرفض هذه الطريقة فى التفكير. فبدلاً من القطبية، فإن هذه الطريقة الأخرى للتدين تفترض الوحدة - الوحدة بين الرب وخلق الرب، وهو ما يخدم بدوره بوصفه مصدرا للوحدة بين مخلوقات الرب. هذه الحقيقة التصالحية هى التى تؤكدها كل الديانات الكبرى - وهى الديانات الإبراهيمية الثلاث - عندما تعرف الرب، أساسًا، بالحب وليس بالصراع. ويقول

الچنرال بويكن إن ربه«حقيقى»؛ لأن ربه يجلب له النصر فى المعركة. ولكن المعيار الأول الذى تقاس به حقيقية الرب، حتى فى تراث بويكن المسيحى الخاص، ليس هو «الكبر»أو القوة وإنما هو الحب العاطفى. الرب هو الحب، والطريقة الوحيدة لتكريم الرب هى أن تحب جارك. وهذا ليس موضوعًا ثانويًا وإنما هو التأكيد الأساسى.

ومن ثم، فقد أخطأ بويكن. ولكن هذا ما تفعله جحافل من المؤمنين بما يؤمن هو به، من الڤاتيكان، إلى تلك الخيام الإحيائية، إلى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض. كان هجوم الچنرال هو الحديث بصوت عال عن مضامين لاهوت ما يزال منتشرًا على نطاق واسع. ولكن هذا اللاهوت خطر الآن. ولم تعد التعددية الدينية المحترمة أملاً ليبراليا فحسب وإنما هى شرط للعدالة والسلام: وفى القرن الحادى والعشرين، فإن الديانة الحصرية هى الطريق الأكيد إلى الحرب الدينية، ولا يهم مدى انتشارها، ولا يهم كيف يتم إخراس اللعنات التى تسير على هدى تعاليمها المطلقة.

***

السيادة الكاملة

٢٨ أكتوبر ٢٠٠٣م

ربما لا تكون حرب العراق هى أسوأ ما يفعله الرئيس بوش. ففى الشهر الماضى تم تأجيل مؤتمر الأمم المتحدة لنزع السلاح فى چنيڤ لأنه أخفق تمامًا. وهذا هو المجلس الذى فرض منذ سنة ١٩٥٩م السيطرة على الأسلحة ومعاهدات وتخفيض التسلح- نظام التعاون و«الثقة المحققة» التى ساعدت على إنهاء الحرب الباردة دون مذبحة نووية. وكانت آخر معاهدة تخرج من چنيڤ هى معاهدة المنع الكامل للاختبارات النووية سنة ١٩٩٦م، وقد كان مؤشر موقف إدراة بوش المستجد تجاه المشروع برمته هو موافقتها الصريحة على رفض مجلس النواب فى الولايات المتحدة تلك المعاهدة.

والآن الموضوع هو السؤال الخطير عن الأسلحة فى الفضاء، وعلى مدى عدة سنوات، عندما اندفعت الصين وغيرها من الأمم إلى معاهدة تهدف إلى منع سباق تسلح فى الفضاء الخارجى، بينما أصرت الولايات المتحدة على أن مثل هذه المعاهدة ليست ضرورية. وفى أغسطس الماضى قدمت الصين حلا توفيقيًا لمطالبها، على أمل

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أن تعتدل الولايات المتحدة فى رفضها العنيد، ولكن لم يحدث أى تقدم. أما الآن، فإن معاهدة الفضاء الخارجى سنة ١٩٦٧م تحكم الاستخدامات العسكرية ولكن الصين تجادل بأن الخطط الاستراتيجية التى تناقش علنًا فى البنتاجون، بما فى ذلك برنامج الدفاع الصاروخى، تتضمن نشر الصواريخ على نحو ينتهك المعاهدة. وعلى حد تعبير چون شتاينبرونر وچيفرى لويس فى Daedalus «لقد تنبه الصينيون بشكل خاص إلى وثيقة تخطيط طويلة المدى سنة ١٩٩٨م أذاعتها قيادة الفضاء بالولايات المتحدة. وقد حددت تلك الوثيقة الخطوط العريضة لمفهوم يسمى الاشتباك الكونى - مزيج من المراقبة والمسح الكونى والدفاع الصاروخى وقدرات قائمة على ضربات موجهة من الفضاء يمكن أن تساعد الولايات المتحدة بأن تأخذ زمام المبادرة فى أى مكان بالعالم وتحرم بلادًا أخرى من مثل هذه القدرة».

وإذا كان الصينيون قد أخذوا حذرهم سنة ١٩٩٨م من مثل هذه «السيطرة الكاملة» كما يسميها مخططو الولايات المتحدة، فلك أن تتصور كم التهديد الذى سيشعرون به الآن من أن شطحات البنتاجون عن الضربات الاستباقية والتفوق الكونى الدائم قد صارت هى سياسات بوش الرسمية. فعلى مدى عقود من الزمان كان «الردع» و«التوازن» هما اللذين يحددان موقف الولايات المتحدة. ومثل هذه التأكيدات يمكن أن تحدث فى واشنطن بمقاصد طيبة فقط، ولكنها تنزل على الآذان الأجنبية بوصفها تعبيرًا عن العدوان. وعندما يتعلق الأمر بالفضاء، فإن الصينيين لديهم الحق فى التفكير فى أنهم المقصد الرئيس لمثل هذا التخطيط، وهذا هو السبب فى أنهم يريدون بأى شكل مجموعة من القواعد التى تحكم الاستخدامات العسكرية فى الفضاء.

ومنذ أسبوعين، وضعت الصين رجلا فى الفضاء، وهى إشارة إلى وصول الصين - وإلى وصول هذا السؤال الخطير. فقد استثمرت بكين بكثافة فى التطور التجارى للفضاء وسوف تصبح منافسًا اقتصاديًا مهمًا فى ذلك المجال. ولكن مثل هذه المنافسة السلمية تتطلب إطارًا من الاستقرار، وليس مقبولاً أن تتابع الصين برنامجًا فضائيا غير عسكرى على حين تشعر بأنها مكشوفة أمام السيادة العسكرية الأمريكية. لقد بنت الصين قوة ردع صغيرة مع عشرات من الصواريخ النووية، ولكن معاهدة الولايات المتحدة الكونية القائمة على أساس الدفاع الصاروخى، سوف تؤدى بسرعة إلى الحد من قيمة الردع فى مثل هذه القوة. وسوف يتعين التوسع بشكل ضخم فى الترسانة النووية الصينية.

وفى الوقت نفسه، فإن قدرة أسلحة أمريكا على «الحدود العليا» سوف تضع استثمارات الصين التجارية فى الفضاء موضع الخطر. ولن تتسامح أى دولة لديها القدرة إزاء هذا الخلل فى التوازن ما دامت قادرة على تغييره، ولا شك فى أن الصين ستكون لديها القدرة على مدى العقود القادمة. ورفض واشنطن التفاوض على القواعد، بينما هى تسعى إلى السيادة الدائمة وتؤكد الحق فى الضربات الاستباقية، يجبر الصين على الدخول فى سباق تسلح لا تريده. وهنا يحتمل أن تكون بداية حرب باردة تالية مصحوبه بكابوس تصعيد نووى بلا نهاية.

واليوم على السطح تبدو العلاقات بين الولايات المتحدة والصين طيبة. وفى استجابة جزئية للصين خفف الرئيس بوش، وهو فى آسيا، من رفضه لأن يقدم لكوريا الشمالية تأكيداً بعدم الاعتداء: وتقابل بوش مع الرئيس الصينى، هو چينتاو، وكرر تهنئة أمريكا برجل الفضاء الصينى. وفى هذا الأسبوع يقابل وزير الدفاع الصينى كاو جانشوان وزير الدفاع دونالد رامسفيلد فى واشنطن. ولكن تياراً سفليّاً أسود يجرى بين الدولتين وهو مثقل بالمخاطر. إن المشكلة، حسبما ظهرت فى چنيف، هى رفض أمريكا أن تناقش المشكلة.

إن ما يجعل هذا الموقف مليئا باحتمالات السوء هو أن التخطيط الاستراتيجى العدوانى من جانب البنتاچون للفضاء ورفض إدراة بوش لقيود المعاهدة لا يجدان فقط من يعارضهما فى الخطاب السياسى الأمريكى وإنما لا يجدان من يلاحظهما. هل أشار الديمقراطيون حتى مجرد إشارة إلى الموضوع فى الجدل الجارى الآن فى ديترويت؟ ماذا لو أن الديمقراطيين أثاروا السؤال المتعلق بمؤتمر نزع السلاح الملغى؟ من الذى يحذر من استئناف سباق التسلح برعاية بوش؟ وأين الدفاع عن الفكرة، التى كانت مقدسة لدى الأمريكيين، بأن الفضاء الخارجى هو عتبة لا يجب على البشر أن يسحبوا عبرها المفاسد القديمة للحرب؟

***

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(١٥)

كل احتلال ينتهى نهاية سيئة

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فى نوفمبر سنة ٢٠٠٣م تزايد إجمالى قتلى العمليات العسكرية فى هذه الأسابيع القليلة فقط وبعد ستة أشهر من القتال الرئيسى، وفى الشهر الذى قام فيه الرئيس بوش بزيارة دعم معنوى للعراق، فى عيد الشكر، كان ذلك هو الشهر الأسوأ حتى الآن.

والواقع أن انعدام الأمن بشكل جذرى لقوات الولايات المتحدة لم يكن ممكنًا أن يتجلى بشكل درامى على نحو أكمل مما حدث فى التخفى الذى كان مطلوبًا فى مغامرة الرئيس يوم عيد الشكر: الكذب على والديه، إغلاق المجال أمام الحركة الجوية، حراسة بالطائرات المقاتلة، وهبوط بالأنوار مطفأة، والعجلات مرفوعة فى أقل من ثلاث ساعات. وإذا كان أشد ملاذ تحصينا فى العالم مكشوفًا للخطر على هذا النحو، فماذا عن الرجال والنساء والأطفال الذين خارجه، والذين يفترض أن هذه الحرب ستدعم رفاهيتهم؟

وفى وقت هذه الزيارة، كان يقال بشكل عام إنه فى العراق كان چورچ بوش قد أعطى أمريكا ضفتها الغربية، وأخذ جيش الاحتلال الأمريكى يقلد بشكل مطرد التكتيكات الفاشلة لجيش الدفاع الإسرائيلى. فإزالة المبانى، وحبس أعضاء أسر مقاتلى حرب العصابات، وإحاطة قرى كاملة بالأسلاك الشائكة، وفرض بطاقات الهوية، وانتشار نقاط التفتيش، وسوء معاملة المسجونين، والاغتيالات المقصودة، هى القوى الغاشمة لشىء يسمى عملية «المطرقة الحديدية». وكان لا بد للمنظمة الإنسانية Human Rights Watch أن تسجل بعض هذه الانتهاكات، ولكن وكما يصدق على الجيش الإسرائيلى، فإنه يصدق أيضًا على الانتقادات من داخل جيش الولايات المتحدة نفسه.

ومثل هذه التكتيكات فى إسرائيل هى بلا شك رد على الإرهاب الفلسطينى[1]، بيد

(١) هذه هى التسمية الإسرائيلية لأعمال المقاومة الفلسطينية ونحن بالطبع لا نوافق عليها، ولكن هذا هو نص المؤلف ـ (المترجم).

أنها مع ذلك قد أدت إلى تحويل الدولة اليهودية إلى أرض تقيم بها حامية داخل أسوار منعزلة. أما فى العراق، فإن القوات الأمريكية، وهى أبعد ما تكون عن الانتصار، تبنى «حاجز الأمن» الخاص بها. والأسلاك الشائكة مبعث طمأنينة.

أما الشعب العراقى، الذى تم تحديده موضوعًا للتحرير على أيدى الولايات المتحدة، فقد أعيد تعريفه مرة أخرى على أنه العدو. وكان هذا هو الموضوع الذى كشفته زيارة التباهى الخاطفة فى عيد الشكر بهذا القدر من الوضوح. ذلك أن آخر قوة عسكرية عظمى لا تجارى فى العالم قد تقهقرت وراء حاجز يتم الحفاظ عليه بكل قسوة، وكل حارس فيه متوتر بعصبية وأصبعه على الزناد مثل أى حارس فى الخدمة السرية التى تحرس الرئيس.

قال بوش للأفراد الثلاثمائة من القوات التى تجمعت فى مطار بغداد الدولى بجعجعة مستهترة: «إننى كنت فقط أبحث عن وجبة ساخنة فى مكان ما». «أشكركم على دعوتى إلى العشاء». وانضم الرئيس إلى صف الآكلين ليملأ طبقه ببعض الطعام. ولكن فى الحقيقة، لم يمكث الوقت الذى يكفى لأن يأكل. ولم يكن هناك شيء يدعو للاسترخاء. فمن حيث الصورة، كان دخوله إلى ملجأ أحد المطارات يعطى إحساسًا بأن مراقبًا ينزل من برجه إلى صالة الطعام ليتبادل بعض الكلمات القلقة مع حرس السجن. هل هناك شغب؟ تمرد؟ الكهرباء فى الجو - إنذار بالمتاعب.

لقد أدت الزيارة إلى إزالة لغز فى قلب عراق أمريكا: العرب نالتهم المهانة من جراء هذه الحرب، ولكن الأمريكيين أيضًا لحق بهم الخزى. فقد تناقص انعدام الأمان لدى الأمريكيين بشكل تناقض مع كل مزاعم النصر التى طرقت الأسماع، كما أن الانتشار الكلى للعدو أنهك التماسك الذى كان يميزهم عند إرسالهم للحرب. ولذلك فلا ينبغى أن تراودنا الدهشة من أنهم يحاربون بلا رحمة وبشكل يؤدى إلى هزيمتهم. ومن الناحية الأخلاقية إذا لم يكن حقيقة، كانت الحرب فى سبيلها إلى أن تصبح سجن أمريكا.

***

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الحل هو المشكلة

٤ نوفمبر ٢٠٠٣م

إن الأحمق هو الذى يحدد مشكلة ما بطريقة ما تجعل حلها غير ممكن. كانت تلك هى كلمة التحذير للمفاوضين حول الحد من التسلح فى أثناء الحرب الباردة، ولكن يبدو الآن أنها صارت درسًا منسيًا. فعندما يحدد الرئيس بوش مشكلة الإرهاب بأن يقرر بتبسيط: «إذا لم تكن معنا، فأنت ضدنا»، فإنه يجعل حل هذه المشكلة المعقدة أمرًا مستحيلاً. وبإبعاد الحلفاء، وإدانة ما لا ينضمون لصفوفه، وفرض خيار«إما أو» على الناس الذين يرفضون ذلك، فإنه يلعب داخل أيدى الإرهابيين. ففى العراق، يتزايد باستمرار عدد الناس العاديين، بمن فيهم من كرهوا صدام حسين، الذين يرون أن أمريكا عدوهم. إن الجنود الأمريكيين الستة عشر الذين قتلوا فى طائرة هليكوبتر منذ يومين هم آخر من دفعوا الثمن المأساوى لحماقة بوش.

وكذلك فى إسرائيل. آرييل شارون هو شريك چورج بوش الأصغر، ولكن عندما يتعلق الأمر بتحديد المشكلات بطرق تجعل الحل مستحيلاً، يكون شارون هو الأستاذ بلا منازع. ذلك أن إسرائيل مروعة من هجمات الانتحاريين بالقنابل، وهناك شعب يخاف حتى من معظم عمليات الحياة اليومية - فى الأتوبيس وفى المقهى - قد وضع رهن رد الفعل المتطرف. وما أن يتم تجربة الصراع على أنه صراع من أجل البقاء، فإن الفضائل العامة مثل ضبط النفس، والاعتدال، بل وحتى التعاطف مع الأبرياء على الجانب الآخر، يمكن أن تهرب من النافذة. إما نحن أو هم. وأولئك الذين يحكمون على إسرائيل دونما شفقة الآن يخفقون فى فهم الحقيقة الوحيدة الأهم من غيرها فى تجربة الإسرائيليين - وهى الخوف الجذرى، ليس على أنفسهم وأولادهم شخصيا فحسب ولكن أيضًا على بقاء وطنهم نفسه. ولم يظهر قائد فلسطينى حتى الآن على استعداد لأن يقول بصوت عال إن مثل هذا الخوف الإسرائيلى هو مشكلة الفلسطينيين، وليس هو الحل الفلسطينى.

وإذا بدا أن الفلسطينيين، بما فى ذلك الذين لا يستخدمون الانتحاريين من بينهم، قد رضوا بهذا الخوف الإسرائيلى، فإن الأمر يصدق بنفس القدر على مخاوفهم. فالفلسطينيون الخائفون، أيضًا، تحت رحمة «نحن أو هم» وربما ترفض الجمهرة العريضة من السكان الانتحاريين نظريًا، ولكن صمتهم إزاء الحقيقة يدعم فى الخفاء

عدم استعداد السلطة الفلسطينية لتحدى المتطرفين المتشددين. والمشكلة هى، حسبما هى عند العدميين الفلسطينيين، جعل الحل مستحيلاً. وأى حركة مقاومة وطنية تعتمد على الأفراد الانتحاريين لا يمكن إلا أن تنتهى بانتحار الأمة.

وفى الوقت نفسه أدت سياسات حكومة شارون إلى تجنيد المزيد من الانتحاريين للعمل ضد إسرائيل بدلاً من ردعهم. فقد جعل شارون من إسرائيل مكانًا أخطر كثيرًا اليوم ومكانا مثقلا بأعباء غير عادية غدًا. وكما هو الحال مع بوش عاد تحديد شارون للمشكلة بالوبال عليه. وترد الأخبار الآن بآلة حرب إسرائيلية جديدة - بلدوزر يعمل بالريموت كنترول. والبلدوزر الذى يستخدم لتدمير منازل الفلسطينيين المرتبطين بالإرهاب كان بالفعل رمزًا للسياسة المضطربة التى تعتمد العقاب الجماعى. وبمثل هذه البلدوزرات التى لا يقودها الإنسان، لن يواجه الجنود الإسرائيليون الذين كانوا يقومون بتشغيلها خطر الانتقام ردًا على الهدم. ولكن أى مشكلة تلك التى يمثل البلدوزر حلاً لها؟

كيف يمكن للفلسطينيين القرويين أن يروا فى مثل هذه الآلة أى شيء غير وحش مرعب؟ وكما لو لم تكن الحرب سيئة بما يكفى، فإن هذا التجريد الزائد من الصفة الشخصية لها يجعلها أسوأ - ولا بد أن تصعد الخوف الذى يغذى العنف. والحرب التى لا يخوضها أشخاص تصبح هى مبرر ذاتها. أما الفلسطينيون الذين يواجهون الهدم من آلة لا وجه لها، فسيكونون تحت رحمة الكراهية التى تحكم فكر الجماعة أكثر من ذى قبل. والإسرائيليون الذين تفصلهم مسافة عن العمل الفعلى لآلة مصممة لهدم المنازل ومزارع الزيتون، سوف يتجنبون باطراد الأسئلة المزعجة التى لا بد وأن يثيرها هذا التكتيك. وكذلك مع «سور الأمن» الجديد الذى بنته إسرائيل بهدف حجز الإرهابيين خارجه، ولكن أيضًا جعل الإسرائيليين بمنأى عن المعاناة الفلسطينية التى تزداد سوءًا، والتى يضيف هذا السور مزيدًا إليها.

وإذا كانت المشكلة بين الإسرائيليين والفلسطينيين تتحدد من كل جانب على أنها مجرد وجود الآخر - فلا يوجد حل. وعلى نفس المنوال إذا كانت أمريكا تحدد عدوها على أنه أى أحد «ليس معنا»، على حد تعبير الرئيس بوش فإننا على طريق موحش لا يؤدى إلى أى مكان. والآن، ومع كون الرئيس بوش لديه فى العراق الضفة الغربية الخاصة به، فإن إسرائيل وواشنطن تجدان أنفسهما على نفس الطريق المميت، بدون خريطة.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وفيما بين الفلسطينيين والإسرائيليين، يوجد أمل العثور على طريق جديد. وهذا هو مغزى ما يسمَّى اتفاقيات جنيف التى بنيت على الاتفاقية القريبة فى سنوات حكم كلينتون، والتى كتب عنها أخيرا الزعيم الإسرائيلى عمرام ميتزنا. إن حركة السلام فى إسرائيل ليست ميتة، ويمكن سماع الأصوات الفلسطينية وهى تدين الإرهاب وتصل إلى تسوية. والآن يجب على كل من الجانبين أن يعيد تحديد المشكلة بطريقة تجعل حلها ممكنًا.

يوم للتذكر

١١ نوفمبر سنة ٢٠٠٣م

يوم المحاربين، فى كندا، يسمى يوم التذكر. ففى هذا اليوم سنة ١٩١٨م، انتهت الحرب العالمية الأولى، وتمت تنحية اليوم جانبًا، أولاً لتكريم ذلك الجيل الهالك من الرجال الذين سقطوا فى غياهب الخنادق. وسرعان ما صار يوم المحاربين القدماء، فى الولايات المتحدة، يوما لتذكر كل الأمريكيين الذين فقدوا حياتهم فى الحرب وكذلك أولئك الذين خدموا دفاعًا عن بلادهم. واليوم، وبشكل مناسب تذهب صلوات الأمة إلى المقابر الوطنية، كما تتجه أفكارها إلى أولئك الذين يرتدون الزى العسكرى. ونحن نحمل فى قلوبنا، بصفة خاصة الشباب من الرجال والنساء الذين يخدمون فى العراق. وأيا كانت الأعباء الأخلاقية والسياسية للحرب، ومهما كان حجم النزاع الذى يدور حول قرارات قيادة البلاد، فإن الناس فى الخدمات المسلحة يستحقون أن يشعروا بامتنان مواطنيهم. واليوم نحن نتذكر جنودنا فوق كل شيء.

ولكن فعل الذاكرة يمكن أن يكون أكبر. ونحن يمكن أن نتذكر بنفس القدر ما فعلته تجربة الحرب العالمية الأولى بضمير البشرية. ذلك أن ما حدث من موت بفعل الآلة على نحو غير مسبوق فرض إدراكًا جديدًا على الرجال والنساء بأن الحرب لم تعد أمرًا يمكن التسامح إزاءه. وفى سعيهم الحثيث لتجنب أى حرب مستقبلية، قاموا بالخطوة الأولى لبناء نظام اجتماعى جديد. واختفت الإمبراطوريات القديمة، وتم تبنى ترتيبات سياسية جديدة، وصار إيجاد بدائل للعنف أولوية عالمية.

وبعد«ترضية» ميونيخ، اعتبرت هذه الدفعة المثالية بمثابة غلطة. إذ إن هتلر وستالين استغلا ميراث ١١ نوفمبر ١٩١٨م الناعم. وكانت الحاجة الملحة لإيقاف كل منهما قد

اتخذت منذ ذلك الحين دليلاً على أن حلم السلام بعد الحرب العالمية الأولى لم يكن غير واقعي فحسب وإنما كان غير مسئول.

ومع هذا، فإنه في يوم التذكر، ربما نعاود السؤال. فقد كان جيل ما بعد الحرب العالمية الأولى عاقداً العزم على ألا يرسل ثانية زهرة الشباب في أتون الدمار. وبعد الحرب العالمية الثانية، التي حل فيها تدمير المدن وغرف الغاز محل الخنادق رمزاً للشر، أعادت الأمم المهزومة اختراع نفسها بوصفها شعوبا مسالمة، بل إن المنتصرين عولوا على أن يتركوا الحرب وراءهم. وقال الرئيس كنيدى للأمم المتحدة «يجب القضاء على أسلحة الحرب قبل أن تقضي علينا».

ولكن الرؤية لم تتحقق مرة أخرى. ففي أمريكا، كان ثمة اهتمام مفتوح بهذه الأسلحة، تم تبريره بالتهديد من جانب أبناء ستالين، وهو ما أدى ليس فقط إلى تحديد غرض قومي رئيسي ولكنه أيضًا غير معنى التحركات السياسية، وربط الجامعات بنظرية الحرب ومخصصات الدفاع، وخلق اعتماداً اقتصاديًا لا يمكن كسره على التصنيع العسكري. ثم انتهت الحرب الباردة، وبدا أن العالم كله مستعد أخيرا لتأسيس سلام واقعي يمكن الركون إليه. وبدا أن سلامًا نهائيًا «نافعًا» على وشك أن يتحقق.

وما تزال واشنطن وحدها، من بين القوى العظمى، ترى الحرب أمرًا ذا معنى، وترى في الاستعداد للحرب أولوية. والپنتاجون الذي لا عدو له الآن مصر على أن يبقى إلى الأبد على«رهان» ترسانته النووية، كما أن البيت الأبيض، وبخاصة تحت قيادة چورچ دبليو بوش، قد استبدل حلم النظام العالمي القائم على أساس الاتفاق الديبلوماسي بفكرة السلام الأمريكي Pax Americana القائم على أساس السيطرة الكاملة.

في يوم التذكر انظر إلى ما تم نسيانه. رؤية واشنطن للعالم، تكرر الرؤية البروسية الإمبريالية للعالم منذ مائة عام مضت، وتتعامل مع التجلي الرئيسي في القرن العشرين كما لو كان لم يحدث. وكما لو أنه لم تكن هناك دروس تعلمها الناس في خنادق الفلاندرز، حرائق درسدن وطوكيو، ودمار هيروشيما وحروب الفلاحين التي لا تحصى والتي أطاحت بالقوى وحروب الإبادة التي ضحت بشعوب كاملة لحساب الوجوه الوحشية من الحقيقة.

وبالفعل نجح أكثر الدوافع الإنسانية إثارة للسخرية في مجال البحث عن طريق آخر

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

عندما سقط الاتحاد السوفييتى من الداخل، ولكن ذلك أيضا تم نسيانه فى واشنطن التى تفضل أن تفكر فى نفسها بوصفها المنتصرة فى الحرب الباردة. وطقوس التذكر كلها عسكرية، وما تزال قيم الحرب توضع بشكل تجعلها تبدو نبيلة ومشرفة. وأسفاه فهناك جيل جديد من الشباب يتغذى على ذلك الكذب ـ وفيه. وكون أن جدول خدمة قتلى حرب أمريكا تتم إضافته إلى يوم المحاربين القدماء يجب أن يثير ضمير الأمة.

بدأنا بالتفكير فى العراق، وننتهى هناك أيضًا. إذ تعود التقارير بأن كثيرًا من الجنود الأمريكيين ليست لديهم تجهيزات كافية وحماية قاصرة، ولكن انكشافهم للخطر أسوأ من هذا. إنهم يفتقرون إلى حماية سبب واضح وعادل. وأعداؤهم يتزايدون فى سحابة السموم التى خلقتها إساءات بوش الغاشمة. لقد وضع بوش جنود هذه البلاد فى موقف مستحيل دونما سبب وجيه. هذه الخيانة للشباب هى خيانة للمسنين أيضا. إذ إن حرب بوش تحجب ما رآه أبطال القرن الماضى عندما رأوا من خلال الحرب، وتخون ذكرى المستقبل البديل الذى رأوه بشجاعة ـ السلام ـ وهو المستقبل الوحيد الذى يمكن أن يكون هناك.

***

نوفمبر كنيدى

١٨ نوفمبر ٢٠٠٣م

جاءت ريح الشمال الباردة، وتسقط الأيام فى الظلام قبل أن تأخذ حقها فى الاستمرار. والآن يبدأ الموسم الذى جعل البشر فى البداية يخافون السنة. إذ إن دوران الأرض وثوراتها تحدد الحدود الصارمة للوجود، وضبط الضوء والدفء، وما يزال الفهم المباشر لهذه الحركات غير ممكن حتى الآن. والواقع، أن مفهومك اليومى ـ أن الشمس هى الشىء الذى يتحرك من الفجر إلى الغسق ـ لا يمكن الاعتماد عليه، أو هكذا يخبرك العلم. والآن فإن الدليل الموسمى مربك بنفس القدر. وفى المناخ الشتوى هذا هو الوقت الذى يظهر فيه ما يبدو تراجعًا للشمس. بيد أن هذا فقط هو قوس دوران الأرض. لا يهم. وبينما تحولت الأوراق الخضراء النضرة ذات مرة إلى اتباع مسار الشمس فى السماء (فالأوراق تصدق أنها تتحرك)، كذلك فإن روح الشتاء توائم نفسها مع الظلام.

وكذلك الحال أيضا مع ما يثيره التقويم من مشاعر. وفي أمريكا، تستعد للاحتفال بالذكرى السنوية الأربعين لموت چون ف. كنيدى، الذى انتهك كل قوانين الطبيعة فيما عدا قانون هذا الفصل من فصول السنة. كان له أريج مقدس بيد أنه لم يكن إلهًا. إلا أن موته لم يحظ بتوضيح. وكان يمكن للآمال التى ارتبطت به أن تخبو وتختفى فى نوڤمبر فقط، أو هكذا كان الشعور السائد.

ما الذى فى كنيدى بحيث جعله يبدو مصدراً للضياء؟ أنت تعرف الآن أى رياح باردة تمرق من خلال عظامه، بحيث تجعله هشّا مع التظاهر بحماية الذات. إنه يبدو أيقونة للنضج الذكورى إلا أنه سرّا تسابق إلى الساعة دائمة الدقات للرغبة الجنسية المراهقة. فقد عرف مخاطر الحرب من تجربته الخاصة إلا أنه جعلها تتفاقم بلا نهاية عندما أطلق سباقًا صاروخيّا شريراً. كان مريضا، على حين كان يبدو أتم الرجال صحة. كان فطنًا، مع ابتسامة دائمة، ولم يكن هو نفسه قط فى أي لحظة أكثر من اللحظة التى يتأمل فيها وحده. أنت تصوره دائما على شاطئ كيب كود، وقد تم تصويره من الخلف، ورأسه منحن، يمشى متثاقلاً على الرمال، وقد لبس الكاكى - والآن فقط يطرأ على بالك أن ذلك، أيضا، ربما كان شهر نوڤمبر، فى عطلة عيد الشكر.

والشيء الغريب هو، أنه كلما انتشر أريج الأسطورة، زاد ظهوره بمظهر الإنسان وبشكل لا يمكن مقاومته. وكلما زاد غموض تراثه، اشتدت قبضته على مشاعرك، وولائك، وفى قمة تواضعك، تبقى واحدًا من أطفال كنيدى. ففيه رأيت أكثر مما عرفت، أنك كنت تراه فى ذلك الوقت. إمكانية الطراز العام - والخاص - نعم، ولكن أيضًا، حسبما ظهر، إمكانية الالتزام الدائم، الحل المتشدد فى الحرب الباردة، نعم - تلك الصواريخ - ولكن أيضا دفعة نحو طريق آخر. وعندما تبدى ذلك الطريق واضحًا من خلال أمثال ليخ ڤاليسا وفاكلاف هاڤيل، ألم يجسدا هما، بحساباتهما الخاصة، شيئا كان يومض قبل زمن طويل فى كنيدى أيضا؟

هل كان يمكن لسيطرته على خيال جيل عالمى، حسبما يقول البعض، أن تكون ناتجة فقط عن أنك فقدته فى شبابه؟ ولكنك ترد بالنفى، إن الأمر أكبر من ذلك. فحتى فى عز حياته، التى كانت الزهرة الأولى فى حياتك، أشار إلى تجلى مملكة من التجربة

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

التى حكمت الظروف على السياسيين أن يبتعدوا عنها. لقد أقام مناقشته من أجل السلام وضد سباق التسلح ليس على أساس مصطلحات الجغرافيا السياسية وإنما فى ضوء المصطلحات الإنسانية. «لأنه فى التحليل الأخير، فإن الرابطة الأكثر عمومية لدينا هى أننا جميعا نسكن فى هذا الكوكب الصغير. ونحن جميعا نتنفس الهواء ذاته. وكلنا فانون».

كان كنيدى وهو ينطق هذه الكلمات فى الجامعة الأمريكية قبل شهور قليلة من موته المفاجئ له ـ ولك ـ يخاطب بشكل واضح عدو الولايات المتحدة، وفى موسكو أخذت كلماته على أنها كلمات غير مسبوقة. فللمرة الأولى، يقوم رئيس أمريكى بالربط بين أمة خائفة، وإن كانت محاربة ـ محاربة لأنها خائفة ـ ومجموعة من البشر. الكل فان الكل خائف، والكل يتطلع إلى روابط جديدة، وأنت فكرت حتى فى ذلك الوقت أن ما قاله كنيدى ربما يساعد؛ لأنه كان الطريق الذى أوصله تمامًا إليك. وقد أظهرت الحوادث ـ فقد جاءت معاهدة الحظر الجزئى للتجارب النووية بعد ذلك مباشرة، وكان يمكن لعدة معاهدات مماثلة أن تنقذ العالم ـ إن كنيدى قد حرك الدفة عبر الريح وغيَّر مجرى التاريخ. لقد أعطى كنيدى ليخ ڤاليسا فرصته.

إن ما حدث فى نوڤمبر منذ أربعين سنة مضت أقر إلى الأبد ما تعرفه بالفعل. الريح الباردة. الضوء الشاحب. الخطر اللانهائى للحياة العسكرية على الأرض. إمكانية فناء العالم التى هى مصدر غير متوقع للأمل. والحزن بوصفه مصدراً للسلام على نحو غريب. الموت ليس فخرا. وعندما يتحول الطقس، فأنت تذهب إلى الداخل بحثًا عن أولئك الذين تحبهم. هذه هى ملاحظات العالم كما هو. ملاحظات العالم، بالتالى، كما تريدها بالضبط.

***

عن الشكر والرحمة

٢٥ نوڤمبر ٢٠٠٣م

فى وقت عيد الشكر منذ أكثر من ثلاثين سنة مضت ـ عندما كنت قسًا كاثوليكيا فى جامعة بوسطون ـ ألقيت موعظة أخرى عن شرور الحرب الأمريكية فى ڤيتنام وربما

حملت على النزعة الاستهلاكية فى الولايات المتحدة، أيضا، مع لطمة ضد حجاج «مزرعة پلايموث» الذين خانوا ماساسويت، زعيم الوامپانواج، الذى علم الأوروپيين كيف يصيدون تلك الديوك الرومية. وبعد القداس وبختنى أستاذة كنت معجبًا بها. وإذ تحدثت عن الطلبة الذين كانوا هم جمهور هذا القداس، قالت: «إن الأولاد المحاصرين لا يحتاجون إلى رحلة ذنب أخرى منك، إنهم بحاجة إلى من يذكرهم بأن حياتهم مليئة بالأشياء الطيبة يمكن أن يكونوا شاكرين بسببها».

إننى أفكر فى تلك الأستاذة الآن، وفى أولئك الطلاب. والوعظ ليس هو غرض هذا العمود، ولكننى واع لضرب طبول الحرب التى يشنها الرئيس بوش كموضوع يستحوذ علىّ. إن القتلى من جنود الولايات المتحدة فى نهاية الأسبوع قد زادوا، وهم الآن قد شوهوا. ومزيداً من الإرهاب العالمى على حين تنتشر ضربة الرد. مزيداً من المعارضة فى الخارج. ولكن فى عيد الشكر ألا يمكن لكاتب العمود أن يتوقف؟ الحرب، الحرب، الحرب. وماذا عن كل الأشياء التى يمكن للأمريكيين أن يكونوا شاكرين من أجلها؟

إن عيد الشكر يقترب هذا العام، كيف يمكن لنا أن نقوى الدافع لكى نحتفل ببهجة الحياة، بمسئولية المواطن الرصينة لقياس المسار الذى انطلقت فيه حكومتنا، وأن نحسب حساب محاذير المياه الأكثر خشونة أمامنا؟ فى عيد الشكر، نعم، نقف لكى نتأمل فيما أعطى لنا، ولكننا أيضا نقيس ما نفعله بوفرتنا. لقد حان الوقت للحساب الأخلاقى.

هل يمكن أن نكون شاكرين للوفرة فى وطننا بدون أن نؤكد الفكرة المدمرة بأننا نحن الأمريكيين باركهم القدر على نحو ما أكثر من الآخرين؟ ومنذ زمن الحجاج (المهاجرين الأوائل) فصاعداً، كان عيد الشكر احتفالاً بالانتخاب الأمريكى، وهو ليس عبارة عن موعظة عابسة بإحساس الخطر الكامن فى ذلك. وباسم هذا الاختيار (الذى فطن الأمريكيون إلى أنهم يحظون به) تم استئصال شأفة شعب ماساسويت فى نهاية الأمر.

ونحن نحتفى بعيد الشكر لأنه على عكس الأعياد الأخرى لا يفصلنا بعضنا عن بعض. وثمة روح عامة من الامتنان توحد شعبا متنوع الأعراق فى السر الذى يكمن وراء كل طقس من الطقوس أو شعيرة من الشعائر، ولا يندفع أحد لكى يضع اسمًا

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

قانعًا لمن يوجه إليه الشكر. إلا أن الافتراضات الدينية المانعة تسرى تحت العيد، كما أنها تسرى تحت الوطن، كما تدفعنا إلى أن نكون واعين لمضامين تلك الافتراضات. وعندما يتم شكر «الرب» بشكل روتينى لأنه «يبارك» أمريكا - لأنه جعل أمريكا ذات خصوصية، أى لأنه «اختارنا» - فهل نستطيع فى الوقت نفسه أن نؤكد على أن أعظم هبة تتمثل فيما نشارك فيه الأسرة الإنسانية، وليس ما يفصلنا عنها؟ هل يمكن أن نشعر بالامتنان دون أن نشعر بأننا ظافرون؟ أو بعبارة دينية، هل يمكننا أن نشكر الرب دون أن نزعم زعمًا امتلاكيا للرب، كما لو أن حظنا الطيب يتحدد بالمصائب التى تتنزل على غير المختارين؟

ربما ما قصدت أن أقوله لطلاب جامعة بوسطون طوال تلك السنوات الماضية هو أننا يجب أن نفعل شيئين، بدلاً من شيء واحد. نعم نحن لدينا الكثير مما يستوجب أن نكون شاكرين. حياتنا، عالمنا، كل منا، اليوم نفسه. إن عيد الشكر هو العيد الذى نفرح فيه كثيراً. ولماذا لا يجب أن تكون قلوبنا عامرة؟

ونعترف بهذا، نعم، إن قلوبنا، بنفس القدر، مضغوطة بالقلق الشديد. إن إدارة بوش تريدنا أن نتجاهل الثمن الإنسانى للحرب. إن الحكومة لا تكاد تعترف بالقتلى من جنودنا وتمضى كما لو أن القتلى العراقيين والأفغان أقل قيمة. والواقع أن البنتاجون فى غروره لا يحتفظ بأعدادهم. بيد أن الأمريكيين يعرفون أن هناك أماكن خالية على موائد عيد الشكر هذا الأسبوع، وأن نهاية رمضان للعائلات المسلمة التى لا يتناولها الإعلام فى بلدين هى بنفس القدر وقت للحزن. ومن أجل ماذا؟ فى الأسبوع الماضى قدم چورچ دبليو بوش وتونى بلير مسوّغات لحربهما - الديمقراطية - لا علاقة لها بالمسوغات التى قدمت فى مارس الماضى - «الحرب الوقائية». أليس من المفترض أن نلاحظ ذلك؟ وماذا بعد عدة شهور من الآن، عندما يكون غرض الديمقراطية أيضا قد فشل وخبا؟ هل نخوض الحرب من أجل متعتها؟

وسواء جاءت الديمقراطية إلى العراق وأفغانستان أم لا، فإن هذا يحدد ما تدين له أمريكا بالعرفان أكثر من غيره فى عيد الشكر. ولكن الديمقراطية تعنى أن المواطنين مسئولون عن تصرفات الحكومة وأفعالها. إن حرب بوش تنتمى إلينا جميعًا. هناك

رحلات ذنب، بعبارة أخرى، ولكن هناك أيضا فحوصات لا بد منها للضمير. إن الأفكار الأخلاقية المتأنية تطرح نفسها بقوة علينا. إذا كنا محبوبين من الرب، فكذلك عدونا الذى نكرهه. وكون أننا نحن بنى آدم، كلنا باسم الفضيلة، قد انحدرنا إلى أن نقتل بعضنا بعضًا. مرة أخرى يظهر أن صلوات الشكر يجب أن تكون بنفس القدر صلوات الرحمة. ودائمًا صلوات التوبة.

***

لماذا لا يأتى السلام؟

٨ ديسمبر ٢٠٠٣م

لماذا يصعب صنع السلام على هذا النحو؟ فى أيرلندا الشمالية، عادت دعوة «إيان بيسلى» للموت الصعب، وحاز السلطة مرة أخرى لكى يلقى بالعقبات أمام حل الصراع البروتستانتى الكاثوليكى الذى طال الشوق إلى حله. وعلى الرغم من الاستعداد الأيرلندى المهيمن للصلح، فإن التطرف المرير ما يزال قادرًا على تسميم المستقبل. وعندما يظهر المواطنون العاديون فى فلسطين وإسرائيل إمكانية الاتفاق باللجوء إلى ما يسمى اتفاقيات چنيف، فإنهم يعاملون بوصفهم مصدر أذى من كلا الجانبين. وعندما يصم مائة من الشخصيات العسكرية الإسرائيلية ـ رئيس جيش، وثلاثة رؤساء سابقون فى خدمة الأمن، وضباط من القوات الجوية ـ سياسة آرييل شارون بأنها تؤدى إلى هزيمة الذات، يتم استبعادهم بوصفهم «ناعمين» بل إنهم قد يدانون بحسبانهم خونة، كما لو أن الولاء لإسرائيل يتطلب الإخلاص للحال الراهنة التى لا تحتمل. وفى الوقت نفسه، فإن الفلسطينيين الذين يسعون للتوافق مع إسرائيل يخافون على حياتهم بسبب بعض بنى جلدتهم.

وفى أمريكا، توجد صعوبة صنع السلام فى سياق مختلف. فعند نهاية الحرب الباردة، عندما اختفى العدو الذى حددت الولايات المتحدة نفسها ضده، فإن المؤسسة العسكرية لهذه الأمة برهنت على عدم استعدادها أو عدم قدرتها على التغيير. ولأن البنتاجون استمر يتصور عالمًا من التهديدات المميتة، فقد بقيت مستويات من الاستثمار فى نظم الأسلحة ـ بما فيها الأسلحة النووية ـ عالية بدرجة غير عادية وما نتج

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

عن ذلك من أن القدرة العسكرية الأمريكية قد أصبحت لا تبارى بالمعنى الحرفى للكلمة. ومجرد امتلاك مثل هذه القوة، حينما لا تجاريها قوة أخرى، يحمل معه دافعًا لا يقاوم تجاه استخدامها، وهو ما يفسر إلى حد كبير السبب فى أن الولايات المتحدة الآن تذهب إلى الحرب حتى عندما لا تكون هناك ضرورة لذلك.

والعراق، بطبيعة الحال، يوضح أمرين خاطئين فى هذا الموقف. أولهما أن تصور التهديدات التى تسوغ مثل هذه الافتراضات العسكرية لا يضرب بجذوره فى أرض التهديدات الفعلية (ليست هناك أسلحة عراقية للدمار الشامل) وإنما فى أرض الحاجة المسبقة إلى تسويغ هذه الافتراضات، طالما أنها تستهلك مثل هذه الأموال الطائلة وطالما أنها مصدر لمثل هذا القدر الكبير من المعنى الوطنى. وثانيهما، فإنه حتى التفوق العسكرى الذى لا يبارى، لا علاقة له بكسب القلوب والعقول ـ الذى هو دائما الهدف النهائى للحرب. وكلما زاد سحقنا لأولئك الذين يكرهوننا، زادت كراهيتهم لنا، وزاد عدد الكارهين. ويوضح العراق أن قوة النيران الأمريكية هى بالضبط التى تخلق أعداء أمريكا.

وفى الأسبوع الماضى تم رفع الستار عن السبب الأساسى لهذا الموقف المدمر. فقد انكشف بوضوح، وإن كان باختصار، السبب الحقيقى فى أن البنتاجون استمر متعلقا بفكر الحرب الباردة حتى بعد ذهاب الاتحاد السوفييتى، تمامًا مثل المصدر الجذرى لسياسة الحرب التى اتبعها جورج دبليو بوش. فقد مضى أمس أسبوع على الاستقالة المخجلة لفيليب. م. كونديت من شركة بوينج العملاقة لصناعة الطائرات. وفى الأيام السابقة على هذا العار، كانت بوينج قد اعترفت بأن عددًا آخر من كبار موظفيها قد ارتكبوا انتهاكات أخلاقية ـ إذا لم تكن انتهاكات قانونية ـ فى عقد قيمته عشرون بليون دولار مع القوات الجوية الأمريكية لبناء أسطول جديد من الطائرات ناقلة الوقود. وتم فصل المدير المالى الرئيسى وأحد نواب رئيس الشركة، مما تسبب فى أن يبدأ وزير الدفاع دونالد رامسفيلد تحقيقاته الخاصة.

ولكن الفضيحة لم تكن قاصرة على بوينج. إذ إن مشروع ناقلات الوقود الهائل النفقات كان تحت رعاية ريتشارد پيرل مع آخرين، وهو أحد المقربين من رامسفيلد والرئيس بوش. كما أنه استفاد فى العام الماضى، حسبما أوردت صحيفة نيويورك

تايمز، من استثمار قدره عشرون مليون دولار استثمرتها بوينج فى الشركة المالية التى يرأسها. وفضلاً عن ذلك مضى مشروع الطائرات قدمًا بدعم من كاپيتول هيل، أمنه أعضاء اللوبى المؤيد لبوينج والمساهمون فى الحملات الانتخابية. وفى سنة ٢٠٠٢م تلقت بوينج عقودًا بما يقرب من عشرين مليونًا، على حين أنفقت أربعة ملايين على أعضاء اللوبى وحوالى مليونين لمساعدة المشرعين الأصدقاء على الفوز فى الانتخابات.

وقد جادل المتقدون من أمثال چون ما كاى (عن أريزونا) بأن القوات الجوية لا تحتاج إلى طائرات جديدة على الإطلاق، ولكن بوينج التى تتعرض لضغوط صعبة كانت بحاجة إلى الأعمال، وأن القوات الجوية تعتمد على مثل هذه الدورات التى لا نهاية لها من الإنفاق الضخم. وإذا كان هناك أسطول جديد من طائرات نقل الوقود، فهل يمكن أن يكون هناك أسطول جديد من قاذفات القنابل التى تخدمها آت بعد فترة طويلة؟ وليست المسألة ببساطة هى ما إذا كانت هناك حاجة فعلية حقيقية عالمية لأى من هذا. ولا يتحدد وضع أمريكا العسكرى العالمى بالمتطلبات الحقيقية للأمن القومى، ولكن بمدى الربح الذى يحققه المقاولون وموظفو البنتاجون، والسياسيون والجماعات المؤيدة لوزارة الدفاع. والإهدار الواضح فى هذا الفساد الكامن إهدار هائل، ولكن المشكلة الأخطر تتمثل فيما يؤدى إليه فى العالم. ما أدت إليه فى مدن العراق المكسورة.

لم يصعب إرساء السلام إلى هذا الحد؟ فى أماكن مثل أيرلندا الشمالية والشرق الأوسط، تدور الإجابة حول مشاعر الحزن والجراح التى لا تغتفر والمخاوف التى لن تنتهى. ولكن فى الولايات المتحدة، فإن الإجابة أكثر خشونة بكثير. ليس الحزن، أو الأذى، أو الخوف. واأسفاه، إن الإجابة هى المال. إذ تبقى الحرب هى القاطرة التى تقود اقتصاد أمريكا ـ ومن ثم تقود سياساتها وكبرياءها الشاحب.

***

الأسرى: صدام حسين وهيروشيما

١٦ ديسمبر ٢٠٠٣م

توقفت أمريكا بسبب الخبر: تم القبض على صدام حسين ـ ليس فى نوع ما من

http://www.al-maktabeh.com

مخابئ القيادة، حيث يدير حرب العصابات، وإنما فى «حفرة عنكبوت» مع الفئران والجرذان. وعلى مدى اليومين الأخيرين، كان الاعتراض هو النغمة السائدة، على حين أنهى هذا الخبر التخمينات والافتراضات الدائرة حول الحرب فى العراق، والصراع الإسرائيلى الفلسطينى، والانتخابات الرئاسية فى الولايات المتحدة، والأسواق المالية، بل وموسم التسوق. انتشر النبأ الطيب فى كل مكان، إذا كان بوسعك أن تصدق ردود الفعل الأولى. لقد تم وصف يوم ١٣ ديسمبر ٢٠٠٣م بأنه يوم تاريخى بسبب الرجل الذى تمت جرجرته فى الوحل عندما وجد مختبئًا رعديدًا فى الظلام.

وهناك طائفة من الناس الذين فكروا فى صدام حسين بصورة خاصة فى تاريخه بوصفه قاتلاً على مدى فترة طويلة للأكراد والشيعة ولذلك عدوا ذلك يومًا للاحتفال ـ من العابرين ببغداد إلى جنود الولايات المتحدة، إلى هوارد دين إلى مراسلى التليفزيون وكُتَّاب الافتتاحيات. وربما كنت سأقول ذلك أنا أيضا، فيما عدا الاجتماع الذى كنت آتيًا منه عندما وصلنى الخبر.

كنت قد أمضيت يوم ١٣ ديسمبر فى واشنطن فى مؤتمر تم تنظيمه للاحتجاج على معرض متحف سميشون الجديد للطيران والفضاء الذى تم افتتاحه أمس. فقد كانت القطعة المركزية بالمتحف هى Enola Gay وهى الطائرة B-29 التى أسقطت القنبلة الذرية على هيروشيما. ففى سنة ١٩٥٥م، تسبب معرض سابق فى غضب المحاربين القدماء ورابطة القوات الجوية لأن أمناء المتحف قد قدموا «سياقًا» يوحى بأن قرار الرئيس ترومان باستخدام هذا السلاح لم يكن محل جدل، حتى فى وقته. (فقد كانت معارضة أيزنهاور واضحة). وتم إلغاء ذلك المعرض بشكل مفاجئ.

أما المعرض الذى افتتح أمس فلا يقدم سياقًا لعرض طائرة Enola Gay. ولا حتى الضحايا الذين أوقعتهم (أكثر من مائة وأربعين ألف قتيل). إن الطائرة معروضة، وقال المدير الحالى للمتحف: «بكل مجدها بوصفها إنجازًا تكنولوجيا عظيمًا». واحتجت مجموعة من المؤرخين على مثل هذا العرض الاحتفالى، ببيان اجتذب مئات من التوقيعات المؤيدة من العلماء. وفى يوم ١٣ ديسمبر اجتمع أكثر من عشرة منهم مع كثير

http://www.al-maktabeh.com

من اليـابانيين الذين نجوا من القصف الذرى. والمسألة هى بناء التاريخ وإعـادة بنائه، وهو سؤال لايتعلق بالماضى فقط، ولكنه يتعلق بالحاضر والمستقبل. وإذا كانت أمريكا تتذكر أول استخدام لها للأسلحة النووية بوصفه مسألة غير معقدة أخلاقيا ـ والأسوأ من هذا بوصفه حدثا يستحق الاحتفال ـ فإن التزامها الحالى بترسانة نووية ضخمة واستعدادها المستقبلى، فى ظل سياسات بوش، لبناء أسلحة نووية «يمكن استخدامها» سوف يبدو أمرًا مقبولاً.

وفى مسألة كيفية فهم القبض على صدام حسين أيضا، هناك عملية بناء التاريخ وإعادة بنائه. إذ لا يجب السماح لميلودراما القبض عليه أن تحجب حقيقة أن صدام حسين، فى هذه النقطة من الحرب، لم يعد هو الموضوع الحاسم منذ فترة طويلة. لقد كان صدام حسين طاغية دمويًا يجب إدانة جرائمه، ولكن أن نقيم حرب أمريكا فى العراق ومعناها، مع حسبان ذلك التسويغ الأساسى، لا بد وأن يبدو مثل تذكر يوم ٦ أغسطس ١٩٤٥م فقط بالإشارة إلى الفظائع التى ارتكبها الجيش الإمبراطورى اليابانى. إن الولايات المتحدة لم تهاجم العراق بسبب شرور صدام. (فالعالم يغص بالطغاة الأشرار). لقد فعلت ذلك لأن صدام حسين كان يشكل خطرًا وشيكا على جيرانه، وعلى أمريكا. ولم تكن هناك طريقة أخرى لوقف ذلك التهديد. وبالإضافة إلى ذلك، ربطت واشنطن صدام حسين بالحادى عشر من سبتمبر (واللقاء بين القاعدة والعراق فى براغ)، بحيث جعلت الحرب ضد العراق ضرورية للحرب على الإرهاب.

من الواضح بالفعل أن هذه المسوِّغات كانت زائفة. وحتى إذا كشف صدام حسين الآن عن كم من العملاء الكيميائيين أو البيولوچيين، فإن سؤال «الخطر الوشيك» سوف يبقى لأن التحقيقات التى أعقبت الغزو كشفت عن أنه لا وجود لعملاء مسلحين كانوا جاهزين للاستخدام. أما عن علاقة صدام حسين بالحادى عشر من سبتمبر (أى مقابلة فى براغ؟)، فقد انكشف أنها فانتازيا خيالية.

إن الحرب فى العراق نتيجة لأجندة أمريكا أكثر من كونها ناتجة عن أجندة صدام حسين. والعنف فى العراق (تفجيرات قنابل كثيرة منذ القبض على صدام) نتيجة لأخطاء واشنطن الرهيبة فى الحساب. والتهديد من الإرهاب (كاد زعيم باكستان أن

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

يلقى مصرعه) قد ازداد سوءاً بفعل سياسات بوش. وبناء تحالفات أمريكا تم تقويضه بلا ضرورة (مما أدى إلى بعثة چيمس بيكر إلى عواصم العالم). ونزعة أمريكا الحربية المتطرفة يتم تقليدها فى كل مكان آخر (إيمان رئيس وزراء إسرائيل آريل شارون «بالقوة الساحقة») مما جعل العالم أخطر كثيراً. هذه المسائل لا يجب أن يتم التواطؤ لاستبعادها فى وهج احتفال وسائل الإعلام بالقبض على صدام حسين. وحقيقة أنه تم القبض عليه فى حفرة، مما يكشف بوضوح عن أنه لا علاقة له بحرب العصابات والمقاومة، هى نقطة فاصلة فى أمور ليست مهمة الآن: لا تهم فى إعادة النظام إلى العراق، ولا تهم فى إعادة بناء هياكل القانون الدولى، ولا تهم فى ضرب الإرهاب، ولا تهم فى الحد من انتشار أسلحة الدمار الشامل، ولا تهم فى المصالحة بين الغرب والعالم الإسلامى.

هذا هو الدمار الناجم عن حرب بوش. فى سبيل ماذا؟ إن السؤال حول حرب بوش وقرار ترومان باستخدام القنبلة الذرية هو السؤال نفسه: هل كان ذلك ضروريا؟ وحتى إذا كان بوش يأمل فى أننا لن نسأل ذلك السؤال، فإن التاريخ سوف يسأل.

***

سنة فى أمريكا

٣٠ ديسمبر ٢٠٠٣م

كانت هذه هى سنة الديمقراطية الأمريكية. إن قيم هذه الأمة لم تعرض على هذا النحو الدرامى للعالم من قبل. فقد باتت «الحرية» كلمة السر من «عملية الحرية العراقية» إلى برج الحرية القادم من أرض الصفر فى نيويورك. وفى فترة الضغط الهائل، لملمت أمريكا نفسها، وحددت معتقداتها من جديد، وبدأت تضغط لفرضها على الآخرين. وتهدف واشنطن إلى نشر مفاهيمها عن النظام المدنى والعدالة الاجتماعية فى كل مكان، ولا أقل من هذا. ولماذا لا يكون المواطنون فخورين؟

بيد أن هذه الرؤية تلقى ظلالاً. إذ إن تناقضات المثالية الأمريكية قد تجلت أيضا بوضوح نادر هذه السنة ـ وليس فقط فى الحروب بالخارج. لقد وقع حادث مؤثر فى ماساتشوستس عندما كانت السنة تقترب من نهايتها. وهناك مجموعة محلفين مكونة

من الولايات القليلة نسبيًا التى لا تطبق عقوبة الإعدام بفرض هذه العقوبة مع ذلك فى جريمة القتل الفيدرالية ضد جارى لى سامبسون القاتل المتوحش لجوناثان ريزو وفيليب ماكلوسكى. وكما كان المحبذون لعقوبة الإعدام يأملون، فإن هذا القرار فى قلب جماعة ظلت فترة طويلة ترفض عقوبة الإعدام - كانت آخر حالة إعدام فى ماساتشوستس سنة ١٩٤٧ - سوف تسرع بعودة أمريكا إلى عدالة الحدود [يقصد تنفيذ أحكام القتل بدون قضاء عند توسع المهاجرين إلى الغرب].

وحتى فى فترة تجلت فيها عيوب عقوبة الإعدام مراراً وتكراراً، فإن اثنين من كل ثلاثة أمريكيين ما يزالون يؤيدونها. وألاحظ بشكل منتظم كيف أن چورج دبليو بوش، بوصفه حاكم تكساس، قد اهتم بإعدام ١٥٢ شخصًا - وهو فخور بهذا. وكون أن الدماء التى سالت من هذه المجزرة على يدى الرئيس رصيدًا سياسيًا يفضح كل شىء عن القيم الأمريكية السائدة. وعندما حدث ذات مرة أن عارض زعماء الديمقراطيين عقوبة الإعدام، فالآن، وحسبما يكتب بْريان مونى فى البوسطون جلوب، فإنهم (أى آل كلينتون، وجور، ودين، وكيرى وليبرمان وإدواردز، وجفهارد، وكلارك) يؤيدونها الآن. ومثلما تمضى ديمقراطيات العالم فى اتجاه واحد بشأن هذه المسألة، تمضى الولايات المتحدة فى اتجاه آخر.

هذا الاحتضان المروع للموت ليس إلا مجرد جزء من قصة العام عن الجريمة والعقاب، على الطراز الأمريكى. ففى أغسطس تم اغتيال مغتصب الأطفال چون جيوجان على يد سجين زميل له فى أحد سجون ماساتشوستس. وبينما كانت جرائم جيوجان قد أدت إلى الكشف عن إساءة استغلال أسرار الكنيسة الكاثوليكية، فإن العقاب الذى ناله أدى إلى الكشف عما يتضمنه «نظام القضاء الجنائى» فعلا فى أمريكا. إن المعاملة السادية من جانب الحراس يسمح فيها للسجناء بأن يفترسوا بعضهم بعضًا - هل هذه استثناءات أم أنها هى القاعدة؟ - فى أمريكا، ليس ثمة سؤال حول القبول المطلق بالتعذيب، وإشراف الولايات المتحدة على الديمقراطية فى الخارج يصرُّ على هذا (أو كان يصرُّ على هذا قبل الحرب على الإرهاب). إلا أن الولايات المتحدة، ونظام السجون بها، مع كثير من الحراس المسيئين والنزلاء الساديين الذين لا ضابط

http://www.al-maktabeh.com

لهم، يفترض فعلاً أن التعذيب جزء من العقوبة. وإذا لم يكن جيوجان مشهوراً بسوء السمعة، فربما كان قد لقى مصيره دونما ملاحظة من أحد.

ولكن السنة التى تنتهى الآن قد تركت علامات أخرى تجاه حسبان المعنى الحقيقى للديمقراطية الأمريكية. وفى أواخر أكتوبر، لاحظ المبجل روبرت موليجان، القاضى الإدارى الرئيسى فى ماساتشوستس، فى محاضرة له فى «فال ريفر»، خصائص القانون الجنائى الحالى فى الولايات المتحدة. فقد بلغ عدد نزلاء سجون أمريكا أخيرا مليونين للمرة الأولى، مما جعل الولايات المتحدة تسبق روسيا بوصفها عاصمة العالم فى الحبس.. وإذا أضفنا إلى ذلك العدد أولئك الذين تحت المراقبة، وإجمالى من هم تحت السيطرة «الإصلاحية» فإن العدد يصير سبعة ملايين. ومنذ ثلاثين سنة مضت، كان هناك واحد من كل ألف أمريكى فى السجن، أما اليوم، فحوالى خمسة من كل ألف مسجون. وفى ماساتشوستس الشهيرة بليبراليتها، زادت أعداد نزلاء السجون منذ سنة ١٩٨٠م من أقل من ستة آلاف إلى ما يقرب من ثلاثة وعشرين ألفا. وفى سنة ٢٠٠٣م، ولأول مرة، بلغت كمية النقود التى أنفقتها ماساتشوستس على السجون أكثر من إجمالى ما تم إنفاقه على التعليم العالى.

هذه الإحصائيات تراكم ثقلاً عقابيّا ينزل على الأمريكيين الإفريقيين الذكور أكثر من غيرهم، وحسبما قال القاضى موليجان، فإن واحداً من كل ثلاثة ذكور من الأمريكيين الإفريقيين ما بين سن العشرين وسن الثلاثين تحت «السيطرة الإصلاحية». وفى أماكن مثل بالتيمور وواشنطن، هناك أكثر من النصف يخضعون لهذا الإجراء. وعدد الرجال الأمريكيين الإفريقيين فى الكليات أقل من عدد أولئك الذين يخضعون لإشراف القضاء. ولماذا؟ إن مثل هذه الحقائق تكشف المزيد عن الطريقة التى تدار بها العدالة فى أمريكا بأكثر كثيراً مما تكشف عن الشخصية الأخلاقية لأى مجموعة. والقاضى موليجان، يشير إلى «الحرب على المخدرات» بحسبانها مفتاحًا، وهى حرب شاهدت معدل السجن لمن يتعاملون فى المخدرات يقفز بنسبة ٧٠٠ بالمائة منذ سنة ١٩٨٠م؛ فهى حرب تعتمد على فرض القانون من منظور ضيق وعلى أحكام السجن. وفى سنة ٢٠٠٢م كان ثمانون بالمائة من أولئك الذين يحكم عليهم بهذه الأحكام من أبناء

http://www.al-maktabeh.com

الأقليات. لقد صارت الحرب على المخدرات بشكل غير مناسب حربا على الشباب السود.

سنة ٢٠٠٣م: تم إطلاق عقوبة الإعدام. زادت أعداد نزلاء السجون. التعذيب الفعلي بوصفه جزءاً من العقوبة. نظام من القضاء العنصري الذي ينافس العبودية. القيم الأمريكية عبر العالم. من فضلكم.

* * *

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(١٦)

آلام الحرب

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

اليوم الذى فاز فيه چون كيرى بترشيح الديمقراطيين له للرئاسة، فى بواكير مارس، كان أشد الأيام عنفا فى العراق منذ نهاية الغزو، فقد تم قتل ١٨٥ مسلمًا شيعيًا على الأقل فى هجمات انتحارية بالقنابل فى بغداد وكربلاء بحيث وصلت بالعدد الإجمالى للمدنيين العراقيين الذين راحوا ضحية التفجيرات الإرهابية فى شهر واحد إلى أكثر من أربعمائة قتيل.

وقتل خمسة وأربعون آخرون من الشيعة على أيدى مسلحين مجهولين فى باكستان. وقد افترض أن الهجمات شنها السنة المتشددون، إلا أن زعماء الشيعة بادروا فى الحال إلى إلقاء جزء من اللوم بسبب العنف الجديد على الولايات المتحدة. وصرخ مشيعو الجنازات فى كربلاء «تسقط أمريكا».

وفى روسيا، كانت القوات العسكرية قد خرجت لتوها من أول مناورة واسعة النطاق على مدى سنوات، بما فى ذلك تمثيل هجوم نووى ضد عدو لم يحدد بالاسم لا يمكن أن يكون سوى الولايات المتحدة. وقد زادت نفقات الدفاع فى روسيا فى ظل حكم ڤلاديمير پوتين ثلاث مرات، حتى مع بقاء قواتها التقليدية فى حالة تقترب من الانهيار. فقد صارت القوة العسكرية الروسية محددة تمامًا بالأسلحة النووية، بيد أنه فى هذا المجال أيضا يبدو أن قدرة موسكو الاستراتيچية. غير مؤكدة. وفى التدريبات، وبينما ينظر پوتين ويشاهد، فشل إطلاق صاروخين من غواصات. فقبل ذلك كان الشىء الذى نخشاه هو التفوق السوڤييتى. أما الآن فإن التدهور الروسى الواضح بشكل مهين لا يبدو أقل خطورة.

فى الولايات المتحدة بدأت المناقشة السياسية فجأة وقد عادت إلى التركيز على الأمور الداخلية، من فقدان الوظائف إلى سياسة التجارة إلى مسألة حقوق الزواج للشواذ جنسيًا. وتحت حكم چورچ دبليو بوش، زاد الإنفاق على الدفاع بمقدار

خمسين بالمائة، وبينما عجز ميزانية بوش محل إدانة منتظمة من الديمقراطيين، فإن زيادة الإنفاق على الدفاع ـ الذى يعد أحد أسباب العجز الرئيسية ـ لم يكن محل مناقشة. لقد سقط الديمقراطيون فى روتين انتقادات سياسات بوش الحربية، ولكنهم لم يقدموا سوى القليل على طريق سياسات مختلفة خاصة بهم.

ومثلما قنع السناتور چون كيرى بالانتصارات الأولية التى كان لها أن تدعم ترشيحه فإنه وجد نفسه يتنافس مع فيلم ميل چيبسون «آلام السيد المسيح»، بوصفه مادة للحوار. ففى أسبوعه الأول شاهد الفيلم أكبر جمهور فى تاريخ السينما. فلماذا يحظى هذا الفيلم بكل هذا الصيت لدى الأمريكيين؟ فقد رأى كثير من المؤمنين هذا الفيلم بروح من الإخلاص، ولكن بدا أيضا أن هنا أوتاراً مخبأة قد تم مسها. فقد صار دور اليهود نقطة وميض، وبينما كان العراقيون يصرخون، بعد تفجير القنابل فى كربلاء «لا لا أمريكا، ولا إسرائيل» وجد الأمريكيون أنفسهم يواجهون من جديد أقدم سؤال عن معاداة السامية. أقدم سؤال، هو: كيف يمكن لمجتمع أن يعرف نفسه بشكل إيجابى، بتعريف «الآخر» سلبيًا؟

إن فيلم «آلام السيد المسيح» رسم صورة يسوع على أنه ضحية بشكل مؤكد. فهل تمت مواساة الأمريكيين بفيلم ربما لعب على بعض مشاعرهم غير المعلنة بأنهم ضحايا؟ هل كان العنف الزائد فى الفيلم مرتبطا بالاقتناع الكامن فى عصر الإرهاب بأن التطهر يأتى من خلال الإيذاء المتعمد؟ لقد كان من الصعب استبعاد الإحساس بالطفو الحر، كما تجلت مشاعر القلق غير المسماة وسط جمهرة عريضة من الناس على قصة ذات تأثيرات خاصة عن منتهى المعاناة والهلاك الذى حل بالمسيح ومنتهى الشر الذى مارسه الأشرار ذوو البشرة الداكنة. فى اليوم التالى لليوم الذى كسب فيه كيرى انتصاراته الكبرى فى يوم الثلاثاء، كشف چورچ دبليو بوش النقاب عن أولى حملات دعايته. فقد أظهرت كومة الأطلال الناجمة عن انهيار البرجين التوءمين، ورجال الإطفاء يحملون جثة ملفوفة بالعلم من خارج ركام الحجارة. ولم يكن لها عنوان، ولكن ربما كان يمكن أن نسميها «آلام الأمريكيين» أو حتى «آلام چورچ دبليو بوش».

***

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ولكن ماكجوڤرن كان على حق

٦ يناير ٢٠٠٤م

يرى الديمقراطيون عفريتا تحت السرير، واسمه چورج دبليو بوش. إذ إن رعبًا من درجة متدنية قد بدأ ينطلق على حين يتنبأ العارفون بتكرار لسنة ١٩٧٢م: «مثلما تذهب ماساتشوستس تذهب كولومبيا أيضًا». إن مشهد «ماكجوڤرن آخر» يثير شهية شركاء بوش، على حين يولد الخزى والكآبة بين الديمقراطيين. فقد هرب هوارد دين من الرابطة على حين قام مرشحون آخرون بتلطيخه بها.

وهنا تكمن المشكلة: ففى سنة ١٩٧٢م، كان چورج ماكجوڤرن على صواب. فإذا كان هناك خزى ارتبط بتلك الانتخابات، فهو خزى يلحق بأمريكا لأنها انتخبت الرجل الخطأ على هذا النحو الدرامى. وبعيدًا عن خيانة الأمانة فى نيكسون وإدارته (وهو نموذج من الكذب سرعان ما انكشف فى ووتر جيت) كان هناك موضوعان تاريخيان عالميان حددا الانتخابات، وفى كل منهما كان نيكسون على خطإ. كانت سنة ١٩٧٢ شوكة فى الطريق، ويوضح التاريخ أن الولايات المتحدة قد تحولت إلى متاهة أخلاقية ما يزال عليها أن تخرج منها.

ومن الواضح أن الموضوع الأول كان حرب ڤيتنام. وإذ تم انتخاب نيكسون سنة ١٩٦٨م بوعد «السلام المشرف»، فإنه لم يكن يسير على الطريق الذى يؤدى إلى السلام أو الشرف. فقد تمت ڤيتنمة القوات الأرضية (فقد تم سحب آخر وحدات الولايات المتحدة المحاربة بعد الانتخابات بأشهر قليلة) ولكن حربًا جوية وحشية كانت مشتعلة فى كل أرجاء ڤيتنام (وقد نشرها نيكسون فى كمبوديا أيضا مما جلب نتائج كارثية). وبعد مصائب ١٩٦٨م تقبل الأمريكيون بإرادتهم شعوذة نيكسون وخفة يده فى ڤيتنام. وتعاونت فى هذا وسائل الإعلام. وقد تذكر أحد منتجى تليفزيون NBC أن معدى نشرات الأخبار قرروا، بعد سنة ١٩٦٩م، أن تكون «القصة» هى مفاوضات السلام، وليس القتال.

وبحلول سنة ١٩٧٢م، لم يكن الأمريكيون يريدون أن يسمعوا عن ڤيتنام. وتظاهروا بأن نيكسون قد أنهى الحرب. وقال منتج NBC فى تلك السنة: «وقد أنهى

الحرب لأنك لا ترى الحرب على شاشة التليفزيون. ولذلك فإن الحرب قد انتهت، على الرغم من أننا نقصف هذا الشعب الفقير بجحيم من القنابل، أكثر من أى وقت مضى». وبعد خمسة أسابيع من الانتخابات كان على نيكسون أن يأمر بالقصف فى يوم الكريسماس على هانوى، والذى كان أقسى هجوم وحشى منذ الهجوم بالقنابل الذرية على اليابان. وبدلاً من السلام المشرِّف، كان لا بد أن تكون هناك هزيمة مع العار ـ بعد سنتين من المذبحة. لقد واجه چورج ماكجوڤرن الشعب الأمريكى بالحقيقة التى لا يريدها عما كانت حكومتهم تفعله. فهل هذا هو مصدر العار؟

ولكن كان هناك موضوع أكبر حتى من ذلك يفصل ما بين المرشحين الاثنين فى سنة ١٩٧٢م. فقد كان نيكسون هو التجسيد لغلطة أمريكا المأساوية فى الحرب الباردة. فقد كان مساره المهنى كله مبنيًا على معلومات مستمدة من التقدير البارانوى للخطر السوڤييتى. فقد قال پول نيتز عندما خدم فى إدارة نيكسون: «إنه عالم نحن/ هم. نحن ضد السوڤييت. إما أن ننال منهم أولاً، وإما أن ينالوا منا أولاً». هذه الطريقة التى تنذر بنهاية العالم فى فهم العدو كانت قد انقضى زمنها تمامًا فى السبعينيات، ولكن الأمر استغرق عقدين آخرين من الزمان لكى يفهم رجال الدولة فى أمريكا ذلك. إذ إن نيتز، وريتشارد پيرل، ودونالد رامسفيلد، وپول ولفوڤيتز وريتشارد تشينى ـ كل هؤلاء الحواريين المروجين لمبدإ «عالم نحن/ هم» قد اعتلوا مواقع السلطة سنة ١٩٧٢م، ولو لم يتم القضاء على رؤيتهم ثنائية القطبين (على يد ميخائيل جورباتشوف) لكانت الحرب الباردة ما تزال مستمرة. والواقع أن هؤلاء الرجال الذين جاءوا سنة ١٩٧٢م قد عادوا، بهدف خلق حرب باردة أخرى.

كان چورج ماكجوڤرن معارضًا لرؤية «نحن/ هم». كان نبيًا يدعو للانفراج فى العلاقات الدولية، وقد برأه التاريخ. فقد قدم لأمريكا طريقًا خارج المصيدة التى تعارض المفاهيم «الواقعية» و«المثالية». ولم يفهم ماكجوڤرن فقط أن حرب ڤيتنام كانت خطأ، ولكنه فهم أنه فى العصر النووى، يكون الواقعى شخصًا يرى أن بناءات الحرب نفسها ينبغى تقويضها بشكل نظامى. ويسمع المرء شكاوى الديمقراطيين اليوم من أن ماكجوڤرن، الذى كان طيارًا فى قاذفة قنابل فى الحرب العالمية الثانية وحصل على

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أوسمة وميداليات، لم يستفد من سجلّه البطولى، ولكنهم أخفقوا تمامًا فى الوصول لأهم نقطة لديه ـ وهى أن الخوف من الحرب وتمجيد الحرب لا يجب أن يستغلا ببساطة لأغراض سياسية، سواء على المستوى الشخصى أو القومى. وما رفض المرشح ماكجوڤرن فعله هو ما ينبغى على الرؤساء الأمريكيين أن يرفضوا فعله.

إن چورچ دبليو بوش يستغل الحرب بشكل قذر لأغراضه الخاصة. وهو يرعى تقديرا بارانويا لما يهدد أمريكا الآن، ويحصل على ميزة سياسية من الخوف الناجم عن هذا، كما أن وسائل الإعلام الإخبارية تغذى هذا الخوف. ويستمر العارفون فى المعارضة الزائفة بين «الواقعى» و«المثالى» فى الرؤية، ويهمشون أى شخص يجرؤ على التساؤل عن أمريكا ـ الحامية العسكرية. وفى الوقت نفسه، تشتعل حرب بوش غير الضرورية، وحتى معدل الوفيات الثابت لشباب الجنود الأمريكيين لم يعد يشكل أخبارًا جديدة. وإذا كان أحد الديمقراطيين يخوض انتخابات رئاسة الولايات المتحدة يجرؤ على قول الحقيقة بشأن هذه الأمور، فإن هذا ليس عارًا. وقبل الشعور بالكآبة إزاء نوڤمبر التالى، اسألوا ماذا يعنى إذا ما كان على الديمقراطى لكى يكسب أن يفعل ما فعله نيكسون.

***

حالة الاتحاد

٢٠ يناير ٢٠٠٤م

فى خطاب حالة الاتحاد الذى يلقيه الليلة، سوف يتحدث الرئيس بوش عن الكابوس الذى خلقه فى العراق كما لو كان حلمًا قد تحقق. بيد أن الحقائق المناقضة لمغامرة أمريكا الخرقاء بدأت تفصح عن نفسها. فعندما تكتب القصة المروعة عن حرب العراق، فإن الأسبوعين الذين انقضيا لتوهما يجب الاعتراف بأنهما الوقت الذى اتضحت فيه مخادعة وعدم أمانة سياسات بوش على نحو أبرز من أى وقت مضى. وهذه هى حوادث لن يشير الرئيس إليها الليلة، إلا أنها إذا أخذت سويا سوف تكشف عن الحالة الحقيقية لعدم اتحاده:

* في ٤ يناير ، تمت إذاعة الشريط الذى يحمل صوتًا محاربًا يزعم أنه أسامة بن لادن على قناة الجزيرة التليفزيونية . وفى اليوم التالى أكدت الـ CIA أن هذا هو أسامة بن لادن وأن هذا شريط حديث ، وأظهر الشريط أنه ما يزال حيًا .

* فى ٨ يناير ، قامت وقفية كارنيچى للسلام العالمى بتفنيد مزاعم بوش الأكبر بشأن العراق وخلصت إلى أن «موظفى الإدارة قاموا بشكل منتظم بإساءة تقديم الخطر الذى تمثله أسلحة الدمار الشامل العراقية وبرامج الصواريخ الباليستية» .

* فى ١١ يناير ، وعلى التليفزيون ، أكد وزير الخزانة السابق بول أونيل التقارير الواردة فى كتاب رون سسكنيد « The Price of Loyalty» من أن إدارة بوش خططت للحرب ضد العراق قبل الحادى عشر من سبتمبر «ومنذ البداية الأولى» .

* فى ١٢ يناير وصفت ورقة منشورة فى كلية الحرب Army War College الحرب ضد الإرهاب بأنها «تفتقر إلى التركيز الاستراتيچى» . إن التقدير من داخل المؤسسة العسكرية نفسها قد فجر الجهود التى يقودها بوش لأنها «تعد بأكثر مما يمكنها تقديمه ، وتهدد بأن تبدد موارد الولايات المتحدة العسكرية فى بحث بلا نهاية ولا أمل عن الأمن المطلق» .

* فى ١٣ يناير ، ناقضت إدارة بوش نفسها بالإعلان عن أن كندا يمكنها أن تشارك فى عقود إعادة إعمار العراق . إن رفض واشنطن العقابى للبلاد التى كانت قد عارضت الحرب لم يفلح .

* فى ١٤ يناير أصدرت منظمة هيومان رايتس ووتش (مراقبة حقوق الإنسان) تقديرًا أدان بعض تكتيكات الولايات المتحدة فى العراق بوصفها انتهاكا لمعاهدة چنيف ، بما فى ذلك هدم المنازل التى لم «تحدث للوفاء بضرورات عسكرية» . وقد اتهم التقرير الجيش بالقبض على المدنيين العراقيين واحتجازهم ببساطة لأنهم أقارب الهاربين .

* فى ١٤ يناير وردت تقارير بأن صدام حسين المقبوض عليه كان معه خطاب كتب فيه تعليمات بألا يتعاونوا مع المقاتلين الأجانب ، مما زاد من فضح أسطورة أن صدام حسين كان على تحالف نشط مع القاعدة .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

* في ١٤ يناير تم نشر دراسة سرية أجرتها قيادة جيش الولايات المتحدة في بغداد. أدانت تكتيكات الجيش في العراق بأنها خاطئة وبأنها تصادمية بلا ضرورة. وأكدت على - بعكس مزاعم إدارة بوش - «أن القبض على صدام سيكون له أثر بسيط، داخل الحدود العراقية.

* في ١٥ يناير، في استجابة للزعيم الشيعي آية الله السيستاني، خرج ثلاثون ألف عراقي إلى الشوارع احتجاجًا على خطط أمريكا لنقل الحكم إلى الشعب العراقي، مما جعل فانتازيا واشنطن، بأن العراق لن يلحق بإيران كدولة يحكمها الشيعة، أمرًا غير محتمل. فهل هذا سوف يضع العراق ضمن محور الشر مرة أخرى؟

* في ١٥ يناير وردت تقارير عن أن إدارة بوش تفكر في فتح عقود إعادة إعمار العراق أمام فرنسا وألمانيا وروسيا، كما حدث مع كندا. إن واشنطن تتعثر.

* وبحلول ١٩ يناير، أمس، كانت إدارة بوش قد ناقضت نفسها بأن تضغط في الأمم المتحدة طلبًا للمساعدة العاجلة في الانتقال إلى حكومة ذاتية عراقية، وهي أوضح إشارة حتى الآن على أن سياسة واشنطن المنفردة قد فشلت.

وفي اليوم السابق على حالة الاتحاد منذ سنة مضت، حطت الولايات المتحدة من شأن مفتش الأسلحة التابع للأمم المتحدة هانز بليكس، بحيث رفضت استراتيجية التفتيش والاحتواء التي كانت مفضلة في الأمم المتحدة. وسخر وزير الدفاع دونالد رامسفيلد مما أسماه «أوروبا العجوز». ووعد وزير الخارجية كولن پاول بأن يقدم دليلاً دافعًا على أن صدام حسين كان يمثل خطرًا حالاً. ونشرت وزارة الخارجية اتهامًا لصدام حسين بعنوان «جهاز للكذب».

وفي خطاب حالة الاتحاد نفسه، تباهى الرئيس بوش بأنه قد «حرر» أفغانستان - وهي بلاد تنتمي اليوم إلى لوردات الحرب القدامى، باستثناء منطقة صغيرة حول كابول. وتفاخر بأنه «واحدًا بعد الآخر يتعلم الإرهابيون معنى العدالة الأمريكية» وربما يكون تفكيره منصبًا على معسكر الاعتقال في جوانتامو، حيث يتم السخرية من العدالة الأمريكية والاستهزاء بها. وفصل بوش قائمة طويلة من أسلحة الدمار الشامل لدى

صدام حسين. وقال إن العراق قد حصلت على «اليورانيوم من إفريقيا»، وأشار إلى بعض أنابيب معدنية لكى يفترض أن هناك برنامج تسليح نووى. وقال إن صدام حسين «يساعد ويحمى» القاعدة، ودخل إلى المستقبل لبربط بين مختطفى الطائرات فى ١١ـ ٩ وصدام. ووعد بأن كولن پاول سوف يقدم الدليل على الرابطة بين صدام حسين والإرهابيين.

لقد أرسى الرئيس مقياسًا صارمًا العام الماضى، بحيث بنى جهازًا من الأكاذيب التى سيكون من الصعب أن يجاريها الليلة. وثم كذبة جريئة لن يقدر على مجرد تكرارها: «نحن نسعى إلى السلام، نحن نناضل من أجل السلام». هذا ما قاله بوش منذ سنة مضت.

***

الموت فى سبيل غلطة

٣ فبراير ٢٠٠٤م

منذ شهادة رئيس مفتشى الأسلحة ديفيد كاى أمام لجنة من مجلس الشيوخ الأسبوع الماضى، تركز الاهتمام العام على المخابرات المخطئة التى أدت إلى الغزو الأمريكى للعراق. إن الديمقراطيين يقرعون الموضوع، وهو ما قد يكون لصالح الرئيس بوش فعلاً. إن أحداث سنة ماضية ليست هى السؤال الملح. إذ يجب على الديمقراطيين أن يطرحوا السؤال: ماذا بشأن العراق الآن؟

لا أحد يفتقد صدام حسين، ولكن الأسلوب غير المبرر لإزاحته قد حرك قطارًا من العواقب المرعبة. فالسياسيون، بمن فيهم زعماء الديمقراطيين المرشحين للرئاسة يحبون أن يتحدثوا عن «الأخطاء» الأمريكية الماضية بدلاً من السياسات الحاضرة أو القرارات المستقبلية لسبب بسيط هو أن حاضر العراق ومستقبله ينطوى على مأساة معينة تتحمل الولايات المتحدة مسئوليتها. هذا هو المناخ الفوضوى الذى خلقه عدوان بوش بحيث لا يوجد طريق للتقدم إلى الأمام. وما تزال الأشياء السيئة مستمرة فى الحدوث بالعراق، ولا يهم ما تفعله الآن واشنطن، مثل هذه الأنباء غير السعيدة يمكن

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أن تغرق السياسى الذى يجرؤ على الاعتراف بها. من الأفضل أن نقدم الحكمة التقليدية القائلة بأنه مهما كانت أصول هذا الصراع مخطئة، فلا خيار الآن سوى «التمعن فيها» ـ حتى لو كان الغرض فقط هو «دعم القوات». ويقترح معارضو بوش ومنتقدوه أن قوات التحالف تحتاج إلى المزيد من الصفة الدولية، ولكن يبدو أن آخرين غيرهم يقبلون احتلالاً أمريكيا لأجل غير مسمى للعراق. نحن الذين كسرناه، وعلينا إصلاحه. من أجل «المصداقية» أو حتى «الشرف» يجب أن «نواصل المسار» ـ حتى لو كان الوجود الأمريكى بحد ذاته يسبب الفوضى.

وفى شهادة معارضة لشهادة ديفيد كاى منذ ثلاث وثلاثين سنة مضت طرح الشاب چون كيرى سؤالاً صعبًا شهيراً: «كيف تطلب من رجل أن يكون آخر من يموت فى سبيل غلطة؟». وبعد ما كشفه كيرى، فإنه حتى إدارة بوش تبدو مستعدة للاعتراف بأن التبريرات «الماضية» للحرب على العراق كانت «غلطة» (إذا كانت غلطة الـ CIA فقط) ولكن ما الذى يتطلبه الأمر من حكومة الولايات المتحدة لكى تعترف بأن المسار «الحالى» للسياسة خاطئ بنفس القدر؟ إذا كانت الحرب غلطة فى أصولها نفسها، فإنها غلطة فى استمرارها. وكما كان الشاب كيرى بالتأكيد مشمئزاً من تطبيق كلمة «غلطة» على صراع قتل وأصاب بالعجز بعضًا من أصدقائه، فيجب على أى زعيم أمريكى أن ينفر من الإدلاء بأى اعتراف لعائلات أكثر من خمسمائة جندى قتيل من جنود الولايات المتحدة. إلا أن ما ماتوا فى سبيله كان من الواضح أنه ليس السبب النبيل الذى حدده كولين پاول منذ سنة مضت، ولا «الحرية» التى يتحدث الرئيس بوش عنها بلا مبالاة. على أحد الزعماء الأمريكيين، فى توبة شاملة، أن يعترف بالحقيقة المروعة لهذه العائلات: «لقد مات أبناؤكم وبناتكم من أجل غلطة».

إن مثل هذا الإقرار بالحقيقة داخل الوطن هو فقط الذى سيجعل من الممكن ما يجب فعله فوراً فى العراق. إذا كان دخولنا فى الحرب غير الضرورية خطأ، فإن استمرارنا فيها خطأ. إن الوجود العسكرى للولايات المتحدة فى العراق، مهما كان القصد منه، قد صار هو الجبهة التى ينظم المقاتلون المعارضون أنفسهم ضدها. فالجنود الأمريكيون فى سيارات الهامفى المصفحة، وقوافل الولايات المتحدة التى ترفع البنادق، ونقاط

المراقبة جيدة التحصين التى تقيمها قوات التحالف، والمعسكرات شديدة التحصين التى ترفع العلم الأمريكى ـ كل هذه تغذى الاستياء بين السكان الذين يزداد عددهم باستمرار، بمن فيهم أعداء صدام حسين. وهو يبرر العدد المتزايد للمجاهدين الذين صار استعدادهم للقتل من خلال الأعمال الانتحارية هو المشكلة الحقيقية لتزايد أعمال العنف. إن الاحتلال مصدرها ويجب أن ينتهى. ينبغى على القائد الأمريكى الحقيقى أن يعلن «فى اليوم الذى أتولى فيه منصب رئيس الولايات المتحدة، سوف آمر بالانسحاب الفورى لكل القوة الأمريكية المقاتلة من العراق».

وكذلك الحال مع المصالح الأمريكية التجارية فى العراق. فمن المؤكد أن الولايات المتحدة عليها التزام بالمساعدة على الإصلاح الكافى للبناءات الاجتماعية والمدنية التى تم تدميرها فى الحرب، ولكن ليس على طريقة هاليبورتون. إن مثل هذا الفساد المستفز يغذى الحرب أيضًا. ومن ثم، فإنه حتى بينما تمول خزانة الولايات المتحدة جهدًا عالميًا لإعادة الإعمار من خلال الأمم المتحدة، فإن الشركات الأمريكية ـ لا سيما شركات البترول ـ يجب منعها من أن تجنى أرباحًا من هذه «الغلطة». ليس لدى أى رئيس السلطة لأن يمنع المبادرات التجارية للعمل التعاونى فى الخارج، ولكن المنع القوى يمكن تفعيله من خلال التنظيم والترخيص. يجب على أى زعيم أمريكى حقيقى أن يعلن «عندما أكون أنا الرئيس سوف أفعل كل ما أستطيع لمحاربة حقيقة ومفهوم أننا قد استفدنا بأى طريقة من غزونا للعراق».

إن إنهاء الاحتلال ومنع الاستغلال هما، بطبيعة الحال، النتيجة الطبيعية للاعتراف الأكثر صعوبة التى يجب على أى رئيس جديد أن يقوم به ـ للعائلات الأمريكية التى ضربها الحزن، وللشعب العراقى، وإلى العالم. «لقد كان ما فعلناه فى العراق غلطة. فقد مات أناس أبرياء. وقد تمزق نسيج النظام الدولى. نحن نرى ذلك وقد تحركنا لإبطاله. ولكننا لا نستطيع أن نبطل المعاناة غير الضرورية التى سببناها. ولهذا نحن آسفون».

* * *

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

آلام المسيح الحقيقية

١٠ فبراير ٢٠٠٤م

هل يمكن لمسيحى متدين أن يبالغ أكثر من اللازم فى آلام المسيح؟ هل يمكن تذكر معاناة يسوع بوصفها مسألة دموية بشكل لايطاق؟ أو أنها فريدة فى بابها، بالنسبة لهذه المسألة؟ هل يمكن جعل الصلب على هذه الدرجة البالغة من المركزية فى العقيدة المسيحية؟ فى الحقيقة هل يمكن لهذه العقيدة أن يتم تشويشها بالتأكيد المغالى على الدم والقسوة، فى انتهاك للرسالة التى بشَّر بها المسيح ـ أو حتى فى مجرى قسوة جديدة؟

هناك أسئلة تدور بذهنى وأنا جالس خارج الكنيسة الصغيرة فى بيت المقدس فى نفس المكان الذى مات فيه يسوع. إذ إن قصص الأخبار المثيرة وحملة دعاية ماهرة قادتنى إلى الربط بين جولجوثا [وهى مكان صلب المسيح بالعبرية، أو جمجمة بالعربية] وفيلم ميل چيبسون «آلام المسيح». إننى مدرك لخطر الحكم المسبق، لأننى لم أر الفيلم، بيد أن تعليقات چيبسون العديدة واللقطات المختارة للخبراء التى رأيتها، تكفينى للتفكير فيه هنا وإمكانية أن الفيلم يسوى تهمة «قاتل المسيح» القديمة ضد اليهود هى التى أثارت اهتمامى الأول.

ولكن جلسة تأمل بعد الظهر فى المكان الذى كان المسيحيون يتذكرون فيه موت يسوع على مدى ستة عشر قرنًا من الزمان، تثير السؤال حول ما إذا كنا قد أسأنا استخدام هذه الذكرى على نطاق واسع. فإن هذا النصب الذى يخلد الجولجوثا، هو فى الحقيقة، نوع من الكنائس الجانبية فى كنيسة أكير تعطى تأكيداً مهيمنًا على ذكرى المسيح وهو يقوم من بين الموتى. ويرى المرء هذا فى ضوء حقيقة أن الكنيسة تسمى الضريح المقدس من جانب المسيحيين اللاتين، بما يشير إلى المقبرة وليس المكان الذى تم فيه الإعدام، بل وأكثر من هذا فى حقيقة أن المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين يسمونها كنيسة القيامة. وثمة فرح بالقيامة يغطى على أحزان الصلب بكل طريقة هنا.

وفى القرون الأولى من عمر الكنيسة، كان لحادثة الصلب الدموية أثر قليل فى خيال المسيحيين الدينى. ويجد المرء على سبيل المثال رسومات على حوائط سراديب الموتى القديمة، لكأس العشاء الربانى، ورغيف الخبز، والسمك ـ ولكن نادراً ما يجد صورة

الصليب. وقد بجل المسيحيون الأوائل موت يسوع، بطبيعة الحال، ولكنهم كانوا يستدعونه بطريقة مجازية، لا حرفية وهو يذهب فى مياه التعميد أكثر من صورته مصلوبًا بالمسامير والدماء تسيل منه. ويأتى الصليب فى مركز الرمزية المسيحية فقط فى القرن الرابع، مع قسطنطين وأمه هيلينا، التى ترد ذكراها على اعتبار أنها اكتشفته هنا، على بعد ياردات فقط من مكان جلوسى. ولكن حتى فى تلك اللحظة، كان الصليب يؤخذ على أنه رمز للقيامة أكثر منه رمزًا للموت الوحشى.

ولم يحدث إلا فى فترة العصور الوسطى أن بدأت الكنيسة اللاتينية تضع الموت العنيف الذى لقيه يسوع فى مركز العقيدة، ولكن ذلك اللاهوت كان مرتبطًا باستحواذ ثقافى أوسع مع الموت، المتصل بالوباء وبالنزعة الألفية، ومذابح الحملات الصليبية. وجاء التمثيل الحرفى الزخرفى لحادثة الصلب فى الفن فقط باعتباره تعذيبا للذات وغيره من «الأعمال المميتة» التى دخلت فى الإيمان. وبدأ يوم الجمعة الحزينة يحل محل عيد الفصح باعتباره ذروة السنة الطقوسية. وتم فهم الرب على أنه قاس بما يكفى لترحيبه بالموت التعذيبى لابنه باعتبار هذا هو الطريق الوحيد لفداء خطايا البشرية الساقطة.

هذا هو نوع التدين الذى ولد فى رحابه الكثير من المسيحيين، بمن فيهم الكاثوليك من أبناء جيلى. ومن كل التقارير، يكون هذا هو التدين الذى عرضه فيلم ميل چيبسون. ولكن إصلاحات مجلس الفاتيكان الثانى لم تكن أكثر أهمية فى شىء منها فى رفض هذا التدين وإعادة القيامة (قيامة المسيح من بين الموتى) إلى مركز العقيدة. وهذا هو السبب، فى أنه بالكنيسة الكاثوليكية، حلت الملابس البيضاء محل الملابس السوداء فى الخدمات الجنائزية. وهذا هو السبب فى أن طقوس عيد الفصح قد تأكدت من جديد، وهذا هو السبب فى أن الصليب نفسه، فى البناء المعمارى للكنيسة، قد تم خفضه. ويعنى كل هذا أن الموت لم يكن غرض حياة يسوع، ولكنه كان جزءًا واحدًا فقط من قصة تمتد من التجسد فى بيت لحم، إلى الحياة كيهودى فى الناصرة، إلى الدعوة فى الجليل، إلى التحدى الشجاع للحكم الإمبراطورى الرومانى فى بيت المقدس، إلى الإيمان الثابت برب إسرائيل الذى تحقق وعده فى القيامة. فى هذ السياق الكامل يمكن أن نرى موت يسوع على أنه إشارة كاملة على إنسانيته ـ وأكثر من ذلك.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فبكونه قد صُلب، لم يكن المسيح قد تفرد بأقسى صنوف المعاناة التى وقعت ولكنه لحق به آلاف من اليهود الذين قالوا لا لروما - والذين عانوا بالمثل بسبب هذا.

وإذا ما نحينا جانبًا مسألة الذوق، أو حتى التلهف فى عروض العنف السينمائى، فإن أى تمثيل لموت المسيح يضفى معنى مقدسًا على المعاناة أو القسوة، وينسبهما إلى «إرادة الرب» ناهيك عن الذنب الخاص لليهود، هو خيانة لآلام المسيح الحقيقية - والتى كانت من أجل الحقيقة، ومن أجل الرب، ومن أجل الحياة. كما وضعها هو، كاملة.

* * *

حائط عبر العالم

١٧ فبراير ٢٠٠٤م

إن السور، تحديدًا يبدو مختلفًا على كلا جانبيه. فهنا فى إسرائيل تبنى حكومة شارون ما تسميه «السور المانع للإرهاب»، وهو حاجز لا يمكن عبوره سوف يمتد مئات الأميال على امتداد طريق دائرى يقسم ما بين المناطق الفلسطينية والمناطق الإسرائيلية. وفى الأماكن المسكونة، يكون عبارة عن حائط عال من الأسمنت. ومن جانب إسرائيل يظهر البناء الرمادى الكئيب فى معظم الأحيان على أنه خط جبهة تبدو من بعيد فى الأفق، وعلى أنه تذكرة غير سارة بخصائص الحامية العسكرية للدولة المحاصرة، ولكنه يُرى أيضًا على أنه علاج لعدم تحديد الحدود الإسرائيلية وعلى أنه عمل ضرورى ضد القتل الانتحارى. والمشكلة التى يهدف السور إلى حلها مشكلة حقيقية، ولكنها تسبب مشكلات جديدة. إذ إن المحكمة العليا فى إسرائيل سوف تستمع إلى مجادلات ضد السور، وهناك جدل عنيف حوله فى الصحافة الإسرائيلية. والحكومة تنظر الآن فى تعديل مساره. ولكن حتى كثير من الإسرائيليين الذين يأسفون لشلل عملية السلام يمكنهم أن يروا فى السور علامة على الأمن.

أما من الجانب الفلسطينى، فإن البناء حائط خالص وبسيط، وتم تسجيل الاعتراضات فى محكمة العدل الدولية. وهو يبدو عن قرب حاجزًا فى نظر القرويين الذين يقتحم أراضيهم، فهو وحشية كئيبة تعتدى عليهم بطرق عديدة. أولها، أنه أثر

جار على التدمير، بينما البلدوزرات تنتهك الممتلكات، ومزارع الزيتون، والمزارع، والآبار والملاعب. ويعترض الحائط الطرق ويخترق البلدات والمدن. ويتم فصل أبناء العائلات، ومنع العمال من الذهاب لأعمالهم، والنساء الحوامل وغيرهن من المرضى يجدون أنفسهم معزولين عن الأطباء والمستشفيات. وبسبب وجود السور والحائط على امتداد ممر ثعبانى صمم على حماية أكبر عدد ممكن من الإسرائيليين، فإنه يعزل عشرات القرى العربية ويخلق كثيراً من الملاجئ الفلسطينية، هى أقفاص حقيقية. وأشد ما يزعج أن العقبة تبتعد بعيداً عن حدود الخط الأخضر لحدود سنة ١٩٦٧م فى كثيراً من الأماكن، وبذلك يمثل حلاً إسرائيليّاً أحاديّا للأرض المتنازع عليها(*)، مما يقضى على الأمل فى حل تفاوضى للصراع على الأرض. إن الحاجز يمكن أن يقتل عملية السلام مرة وإلى الأبد.

إن مليون ونصف مليون فلسطينى يعيشون فى الضفة الغربية يتحملون بالفعل مستويات غير مسبوقة من الفقر والانهيار الاجتماعى مع بطالة متفشية بين البالغين وسوء تغذية صادم بين الأطفال. وينذر الحائط بأن يزيد من سوء هذا كله ـ وربما على نحو دائم. لقد تمت خيانة الشعب الفلسطينى بطريقة هزلية مضحكة من جانب القيادة الفاسدة(**). وفى غمرة اليأس تسامح الفلسطينيون إزاء العنف العدمى الذى تمارسه أكثر عناصرهم تشدداً. ولكن الشعب الفلسطينى لم يخلق الكارثة التى يعيش فى رحابها، وما السور إلا رمز آخر على قلة الحيلة التى يعانيها. إنهم لا يمكن أن يروا فيه سوى مصدر جديد للغضب واليأس، الذى هو السبب الجذرى للإرهاب نفسه الذى يهدف «السور الأمنى» إلى حماية إسرائيل منه.

هناك نوع معين من النرجسية الأمريكية التى ترى كل مشكلة عالمية بحسبانها قد نشأت فى واشنطن، ولكن الزائر هنا يرى الروابط. فقد شاد چورچ دبليو بوش حائطاً عبر العالم، بادئًا ثنائية قطبية «نحن ضد هم» تطبق على هذا المكان وغيره من الأماكن.

(*) للأسف الشديد، أصبح الإعلام الأمريكى يتحدث عن الأراضى المحتلة بوصفها «أراضى متنازعًا عليها» (المترجم).

(**) القيادة الفلسطينية تستحق اللوم فعلاً، ولكن بسبب انخداعها فى مفاوضات أوسلو، واللوم الحقيقى يقع على جانب من يرفعون شعارات حقوق الإنسان ثم يعملون ضدها فى فلسطين والعراق، والشرق الأوسط، بصفة عامة ـ (المترجم).

http://www.al-maktabeh.com

ويرعى بوش الوهم القائل بأن المصادر العميقة للإرهاب يمكن تجاهلها لحساب «صدام» حضارى يغذى هذه المصادر على نحو فعال. ويتجلى فشل هذا التناول على أوضح صورة فى العراق، الذى يصبح بسرعة نقطة التجمع لنزعة حربية جهادية جديدة تمامًا عندما يقبل المتطرفون الإسلاميون التحدى الذى يطرحه بوش.

أما بالنسبة للأزمة هنا فى إسرائيل، فإن هناك مغزى عميقا فى حقيقة أنها لم تستحق حتى مجرد الذكر فى خطاب حالة الاتحاد الذى ألقاه الرئيس أخيراً. فلم تفعل واشنطن شيئًا حقيقيّا لدعم ظهور قيادة فلسطينية معتدلة، كما أن المسلمين الفلسطينيين ككل يستوعبون مدّا متصاعداً من الكراهية للإسلام فى الغرب، ومن المفهوم أنهم يميلون إلى رؤية أمريكا هى العدو. وفى الوقت نفسه، فإن حكومة شارون، ترى نفسها تشن المعركة على خط الجبهة فى الحرب على الإرهاب، ولكن استراتيجيات هذه الحرب قد تم رسمها فى واشنطن. لقد أدى مثال بوش إلى تدعيم الدوافع التى تؤدى إلى هزيمة الذات فى الحكومة الإسرائيلية.

بيد أن هناك فرقًا كبيراً بين إسرائيل وأمريكا. فالإسرائيليون، بخلاف الأمريكيين، يواجهون خطراً مميتًا على أسس يومية، فى الأوتوبيسات والمقاهى بحسبانها مناسبات أو فرصًا للتهديد، والأطفال بحسبانهم أهدافا. ليس من حق أى أمريكى أن يحكم على الاستجابات الإسرائيلية بشكل عفوى. ولكن لا يجب على الأمريكيين أن يتجاهلوا كيف أن تخلى واشنطن عن دورها يجعل الأمور تسوء على كلا الجانبين هنا. فقد ابتعد بوش عن هذا الصراع، ليخون بذلك التزامًا أمريكيا طويل المدى بأن يساعد على تقدم السلام من خلال المفاوضات. فهو يترك كلا من الفلسطينيين والإسرائيليين فى غمرة يأسهم المتزايد، وهى لا مبالاة تخون مثال العدالة فى أمريكا وصداقتها المؤسسة مع إسرائيل. إن الحائط يرتفع فى المدن والقرى الفلسطينية لأن الإسرائيليين والفلسطينيين لا يستطيعون حل الصراع وحدهم. ولكن الإسرائيليين والفلسطينيين للأسف، سويا على الجانب الخطإ من السور الذى بناه چورچ دبليو بوش.

* * *

http://www.al-maktabeh.com

تصوير فاحش لآلام المسيح

٢٤ فبراير ٢٠٠٤م

إن فيلم آلام المسيح لميل چيبسون، فيلم فاحش. فإنه سوف يجلب الاحتقار على اليهود. إنه إهانة تجديفية لذكرى يسوع المسيح. إنه أيقونة للعنف الديني.

ومثل كثيرين غيرى، توقعت فيلم چيبسون بنوع من الاستعداد القتالى، لاسيما أن تمثيلاً غير نقدى لنصوص الإنجيل الإشكالية التى تلوم «اليهود» ظلما بسبب موت المسيح تهدد بإعادة بعث أسطورة «قتلة المسيح» القديمة. ولكن مشاهدة فيلم چيبسون تقنعنى بأنه يفعل ما هو أسوأ كثيراً من هذا. إذ إن تمثيله الحرفى الشديد لحكايات الآلام، وتقديمه المرئى لمادة هى فى التراث، كان القصد منها أن تُقرأ وتُسمع، مع اختياره المنحاز للتفاصيل واختراعه للحوار والحوادث تسبب مشكلة خطيرة، على حساب اليهود، ولكن تأثير خياله على قصة مقدسة، فى وقت يشحن فيه العالم من جديد بالعنف البدائى باسم الرب، يهدد بمشكلة أشد خطورة. إن موضوع هذا الفيلم، على الرغم من عنوانه، ليس هو آلام المسيح، ولكنه الحب المريض للإساءة الجسدية، الذى تم ارتكابه من أجل السلطة والقوة.

فاليهود حسبما يقدمهم هذا الفيلم سلبيون بدرجة كبيرة. والجنود الرومان يعدمون يسوع فى وحشية، ولكن پونطيوس پيلاطيس رجل صالح يقف فى تناقض درامى مع قيافا الكاهن اليهودى الأعلى. وإذ يتخطى چيبسون كل شىء فى الأناجيل، فإن فيلمه يؤكد الفضيلة الرومانية وفساد اليهود باختراعات مثل هذه:

* زوجة پيلاطيس، كلوديا، هى بطلة حقيقية تقف مع مريم. ومريم التى تخاف على طفلها تتوسل إلى الرومان ضد الجموع اليهودية المعادية.

* كلوديا هى المرأة وراء الرومان. ونظيرتها الدرامية، المرأة وراء اليهود، ليست سوى شيطانة.

* يقدم پيلاطيس برقة كأساً من الماء ليسوع. ويأمر پيلاطيس بضرب يسوع بالسياط، ولكن فقط لكى يرضى تعطش اليهود للدماء.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

* اليهود متهمون بشكل معبر من جانب اللص الصالح، الذى يقول وراء يسوع المصلوب «يا أبتاه سامحهم . . .» يخبر قيافا «أنه يصل من أجلك» واليهود متهمون من جانب يسوع الذى يواسى بيلاطيس بقوله «إنه هو الذى سلمنى لك أنت صاحب الخطيئة الأكبر».

والجزء المركزى فى الفيلم هو تتابع طويل تم بناؤه حول جلد المسيح بالسياط. إنه أشد الأفلام التى شهدتها فى حياتى قسوة. وبمجرد أن يفكر المشاهد فى تناثر جلد المسيح على أنه أقسى ما يمكن، فإن هذا يكون واقع الحال. الدم، اللحم، العظام، الأسنان، العينان، الحواجب، الأطراف - فالرجل يُسلخ حيا، ويؤخذ جلده جانبا. وفى هذه اللحظات التى لا تنتهى، مع تصاعد التعذيب فى الأدوات وفى العنف والشدة على السواء. يضع الفيلم خيال چيبسون المتدهور فى فيلم Brave Heart بصورة واضحة تمامًا. فعلى الشاشة وعلى المسرح، ليس هناك ما تفعله سوى أن تنظر بعيداً. وبعد أن اكتفى مشاهدو الفيلم بزمن طويل، حتى الرومان يتوقفون. وهنا يكون الاستخدام المعادى للسامية الذى يوضع فيه هذا المشهد المضحك: ثم يعود يسوع إلى الزحام «زحام اليهود»، ثم يطلب «اليهود» صلب المسيح وكأنهم لا يبالون بما أثار مشاهد الفيلم لتوه من أذى جسدى. حتى أقسى مذبحة ظهرت فى السينما لا تكفى لهؤلاء الوحوش. هذا المشهد، مع جمهور اليهود الذين يتغلبون على بيلاطيس الرقيق، هو المميت أكثر فى الكتاب المقدس، ولكن فى فيلم چيبسون، تم تصوير اليهود بصورة أكثر شراً عن ذى قبل.

وليست هناك قيامة للمسيح فى الفيلم. فثمة حجر يتدحرج، وتظهر صورة يسوع لثانية أو اثنتين من الجانب، وهذا كل ما فى الأمر. ولكن هناك سببا لذلك. ففى لاهوت چيبسون، عُدَّت قيامة المسيح غير ضرورية بسبب قدرة المسيح اللامتناهية على الصمود أمام الألم. ليس المسيح القائم من بين الموتى ولكن المسيح الذى نجا من الموت. وخيالات چيبسون العنيفة وهى غير أصلية، هى فى أصلها فانتازيا القوة الذكورية اللامتناهية. وإلحاق المعاناة هو فعل الفيلم، والسؤال الدرامى هو، كم قدر الألم الذى يمكن ليسوع أن يتحمله؟ إن القدرة المذهلة على المعاناة هى التى تحول الجنود الواقفين، وهى التى تنقذ العالم.

وفى فعل من التحرير الكتابى الضال، جعل چيبسون يسوع يقول: «إننى أجعل كل الأشياء جديدة» عندما يقترب تعذيبه من الذروة، كما لو أن التشويه القاسى يجلب التجديد. وعندما يصيح يسوع بصوت عال قرب النهاية: «يا إلهى، لماذا تركتنى؟» فإن الفيلم لا ينقل يأسه ولكن امتنانه ورضاه. وهناك قلب الفيلم للحقائق بغفلة، الصلب باعتباره انتصاراً للاستغلال السادى الماسوشى. ويبدو هذا الانتصار فى صورة ما يحييه يسوع چيبسون حين يقول أخيرا «لقد تم إنجاز الأمر».

إنه كذب. إنه مريض. ويحق لليهود تمامًا أن يشعروا بالإساءة من جراء فيلم آلام المسيح. بل إن المسيحيين، إذا أمكن، أن يشعروا بالإساءة أكثر.

بعد سنة

١٦ مارس ٢٠٠٤م

«يجب أن نضع فى حسباننا أنه لا يوجد شىء أصعب فى التنفيذ، ولا شىء مشكوكًا فى نجاحه أكثر، ولا أشد خطورة فى التعامل معه، أكثر من أن تبادر ببداية نظام جديد للأمور». هذا التحذير من نيكولو ماكياڤيلى، بيد أنه لم يكن له مثل هذا الصدى الحاد من قبل. فمنذ أكثر من عشر سنوات مضت، بعد غزو صدام حسين للكويت، سعى چورچ بوش الأب علنًا إلى المبادرة، حسبما قال للكونجرس «ببدء نظام عالمى جديد». وكما لاحظنا قبل ذلك، فإنه أعلن هذا الإعلان المدوى فى الحادى عشر من سبتمبر سنة ١٩٩٠م. وبعد إحدى عشرة سنة، حرك تاريخ ١١ ـ ٩ الذى تحول فجأة إلى تاريخ به مسحة صوفية، ابنه لكى ينهى ما بدأه الأب. ومنذ سنة مضت هذا الأسبوع، شن بوش الابن حربًا ضد الرجل الذى حاول أن يقتل والده، حيث بادر بمعارضة النظام.

ولا يكاد الموقف يحتاج إلى التكرار. ففى العراق مات آلاف كثيرة، ومنهم ٥٦٤ أمريكيا، وتطل الحرب الأهلية مهددة. وفى الوقت نفسه، فإن أفغانستان فى قبضة لوردات الحرب الذين يديرون تجارة المخدرات. وقد زادت قوة المجاهدين الإسلاميين. والتكسب النووى لپاكستان قد انكشف ولكنه لم يتوقف بالضرورة. وخداع القاعدة ومرواغتها قد عزز من حقدها الأسطورى. وحلف الأطلنطى قد ناله الدمار. ولم تكن الولايات المتحدة أبدًا معزولة بهذا الشكل. إذ إن نموذجًا من الخداع قد دمر مصداقيتها

http://www.al-maktabeh.com

فى الخارج وفى الوطن. وانتشرت الفوضى من واشنطن إلى إسرائيل إلى هاييتى إلى إسپانيا. وسواء كان الاهتمام بإخضاع مقاتلى المقاومة فى المناطق البعيدة أو جعل الأمريكيين يشعرون بمزيد من الأمان، فإن هيمنة الپنتاجون العسكرية غير المسبوقة، والتى تهز تكاليفها اقتصاد الولايات المتحدة، تبدو غير فعالة بشكل أساسى.

وفى أمريكا، يتحدد النظام الجديد للأشياء أساسًا بالطعم المرير للتخلف الأخلاقى، وكيف تحولت الكثافة العاطفية لكارثة الحادى عشر من سبتمبر إلى شعور بالوقوع فى مصيدة من صنعنا. وكما توضح مجزرة مدريد، فإن التهديدات فى العالم حقيقية وخطيرة، ولكن مبادرة بعد أخرى من الولايات المتحدة زادت من تصعيد مثل هذه التهديدات بدلاً من إنهائها. فبدلاً من إحلال نظام جديد محل الفوضى، تحدث استجابات دولتنا جراحًا جديدة تزيد من الفوضى. نحن نضرب ضد أولئك الذين نرى أنهم يهدفون إلى إلحاق الأذى بنا، ولكن دونما أن ندافع فعلاً عن أنفسنا. وما يسبب الاضطراب أكثر من غيره، وفى محاولتنا لوقف تهديد الأشرار لنا، هو أننا بدأنا نقلدهم.

إن أهم ما كشفت عنه حرب العراق كان فى احتقار إدارة بوش للحقيقة. وسواء تم تعريفها بأنها «كذب» أم لا، فإن تلفيق المخابرات قبل الغزو الذى حدث العام الماضى قد انكشف. فقد تم تحويل عبارة «أسلحة الدمار الشامل». فبينما كانت ذات مرة توحى بالخطر الجسيم لتكرار مأساة الحادى عشر من سپتمبر، فإنها توحى الآن بمخاوف أمريكية محسوبة بشكل واضح. لقد قدمت الحكومة دليلاً واضحًا يحدد الخطر وطلبت شن حرب وقائية، وطلبت وسائل الإعلام لهذا الدليل دونما تردد. وكانت النتيجة، طالما أنه لم تكن هناك أسلحة دمار شامل، على نحو ما كان لدى الحكومة والصحافة الأسباب الكافية لأن يعرفوا، هى خداع مؤسسى، ما يزال مستمرًا حتى اليوم. وفى الأمم المتحدة، ضللت أمريكا العالم. وفى خطبة بعد أخرى، ضلل الرئيس بوش الكونجرس والأمة. ولاحظ أن كلمة ضلل تعنى التزييف والفشل فى القيادة معًا. وأن يضلل معناها أن يضلل، حسبما قد يقول چورچ بوش المغرم بالحشو والتكرار.

وتكرار التزييف المرتبط بالحرب على الإرهاب والحرب ضد العراق قد جعلت القدرة الأمريكية تتآكل، إذا لم تكن تكشف عن الفرق بين ما هو حقيقى وما هو

http://www.almaktabeh.com

كذب، ثم نفكر فى أن الفارق يهم كثيراً. فقد شوهت الإدارة الحقائق قبل الغزو، عندما لم يكن الشعب الأمريكى قادراً على أن يدحض ما لم يحدث بعد. وتشوش الإدارة الحقيقة الآن، عندما لا يتذكر الشعب الأمريكى بوضوح ما تم إخباره به منذ سنة مضت. وكون أن الرئيس بوش يحتفظ بثقة نسبة معقولة من الناخبين يوحى بأن الأمريكيين لم يعودوا يأبهون للحقيقة بوصفها المبدأ المرشد للحكومة.

وفى ذلك تكمن السخرية. فقد بدأت أسرة بوش فى الحقيقة نظامًا جديداً للأشياء. وقد أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هى النقيض لذاتها، أمة الحرية المنتصرة التى تزعم لنفسها الحق هى كبت حرية الآخرين، أمة ذات توازن مبنى للقوة تدمر توازن القوى خارج حدودها، أمة ذات مشروع خلاق تصدر التفاهة الخانقة، وفوق هذا كله أمة ذات تعبير مباشر قوى ولا تحترم الحقيقة. ومهما يحدث منذ هذا الأسبوع فصاعداً بالعراق، فإن الحصاد الرئيسى للحرب، بالنسبة للولايات المتحدة، واضح. لقد هزمنا أنفسنا.

***

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وجهة نظر

وهذا هو رئيس دائرة الاستخبارات؟

بقلم فريد زكريا

ويليام بويكن هو الچنرال الذى تم تعيينه أخيراً فى منصب رفيع المستوى بوزارة الدفاع. وخلال السنتين الماضيتين، كان الچنرال قد ألقى العديد من الخطب أمام جماعات مسيحية إنجيلية قال فيها، واصفًا المعركة التى خاضها مع أمير حرب صومالى (مسلم): «كنت أدرك أن إلهى أكبر من إلهه. كنت أدرك أن إلهى هو إله حقيقى، وأن إلهه ليس سوى صنم». كما أن الچنرال أوضح لمستمعيه مراراً أن عدو أمريكا هو «عدو روحى.. هو الشيطان». وأضاف أن الطريقة الوحيدة لهزيمة هذا العدو تتمثل فى أن «نهبّ ضدهم باسم المسيح».

إن تصريحات إضافية مقتضبة من هذا النوع ستكون كافية للتوفير على أسامة بن لادن عناء إصدار شرائط الڤيديو. وما على بن لادن سوى أن يجمع معًا أكثر التصريحات شعبية من تلك التى صدرت عن بويكن وفرانكلين جراهام وبات روبرتسون وچيرى فالويل ليوصل وجهة نظره، بأن الأمريكيين ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.

بويكن أبلغ مستمعيه مراراً أن الرب هو الذى أوصل چورج دبليو بوش إلى البيت الأبيض. فقد كان يقول: «لماذا هذا الرجل موجود الآن فى البيت الأبيض؟ غالبية الأمريكيين لم تصوت له. أقول لكم هذا الصباح إنه موجود فى البيت الأبيض؛ لأن الرب وضعه هناك». ويشرح بويكن الآن أنه يعتقد أن الرب، وبصورة روتينية، يقرر نتائج الانتخابات الأمريكية، وأنه فعل الشىء نفسه لـ «بيل كلينتون وغيره من الرؤساء».

وحين سُئل عن هذه التصريحات، رفض وزير الدفاع دونالد رامسفيلد شجبها، قائلاً: «إننا شعب حر».

راسلو الكاتب على WWW.fareedzakaria.com
نيوزيك ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٣م

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الجزء الثالث	٩
(١١) أسئلة	١١
مفاجأة يوم كذبة أبريل	١٤
الإجابة لا	١٧
أمة ضائعة	١٩
الوعي الأخلاقي في كوريا	٢٢
السلاح المطلق	٢٥
(١٢) اعترافات	٢٩
طقس سيئ فوق أمريكا	٣٢
معاداة السامية وإسرائيل	٣٤
الألم والأمل الفلسطيني	٣٧
الحرب الألفية	٤٠
أن تحب أمريكا	٤٢
(١٣) حرب خاسرة	٤٥
تخليص العالم من الشر	٤٨
انعدام المخابرات	٥٠
هل كانت الحرب ضرورية؟	٥٣
عادة الانتقام	٥٦
الحرب خاسرة	٥٨

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(١٤) الحرب تنتشر ٦١
الحادى عشر من سبتمبر الآخر ٦٤
من التحركات السياسية إلى المقاومة ٦٦
عقيدة معاداة الإرهاب ٦٩
رب بويكن الأكبر ٧٢
السيادة الكاملة ٧٤
(١٥) كل احتلال ينتهى نهاية سيئة ٧٧
الحل هو المشكلة ٨١
يوم للتذكر ٨٣
نوفمبر كنيدى ٨٥
عن الشكر والرحمة ٨٧
لماذا لا يأتى السلام؟ ٩٠
الأسرى: صدام حسين وهيروشيما ٩٢
سنة فى أمريكا ٩٥
(١٦) آلام الحرب ٩٩
ولكن ماكجوفرن كان على حق ١٠٣
حالة الاتحاد ١٠٥
الموت فى سبيل غلطة ١٠٨
آلام المسيح الحقيقية ١١١
حائط عبر العالم ١١٣
تصوير فاحش لآلام المسيح ١١٦
بعد سنة ١١٨
مقال فريد زكريا بعنوان: وجهة نظر ١٢١

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

رقم الإيداع ٣٢٤٨/ ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N - 977-09-1208-5